محمد الطمار

تاريخ الأدب الجزائري

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
الجزائر

تاريخ الأدب الجزائري

العاصمي

تأليف
محمد بن عمرو الطمار

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر

تقـــديم

باسم الله الرحمن الرحيم

استعمل الاستعمار كل ما في وسعه لبث احتقار اللغة العربية في نفس المواطنين ، فأوحى اليهم بأن لغة أجدادهم قاصرة لا تؤهلهم للتقدم والرقي، بحيث ان كثيرا منهم أصبحوا يحتقرون بدورهم العربية ويزدرون علومها وكتبها ، بينما هم يعرفون ما دق وجل عن اللغة الفرنسية وعن آدابها . فنقول لهؤلاء الناس بأن العربية ليست كما يزعم أعداؤها . فالتاريخ أكبر شاهد على الدور الكبير الذي لعبته هذه اللغة في الفكر العالمي ، ونقول لهم بأن للجزائر أدبا لا يقل وفرة ولا جودة عن الآداب الاجنبية ، وأن لها أدباء كثيرين لهم صيتهم كغيرهم ، قديما وحديثا . هؤلاء الناس من أبناء الجزائر لغتهم اللغة العربية وأدبهم الادب العربي ، عليهم أن يعرفوا لغتهم وأدبهم ويعتزوا بهما . فان اللغة والادب من مقومات الشخصية الجزائرية التي مات من أجلها مليونان من المواطنين . ولا ينسوا أن وعيهم وشخصيتهم ووطنيتهم لا تكتمل الا اذا أخذوا بتلابيب لغتهم القومية ، لغة البـلاد التي طالما زخرت بالشعراء والكتاب والخطباء والعلماء والمفكرين .

والحق اننا عثرنا على طلبة ومثقفين كثيرين متشوقين الى تراثنـا الادبي . الا أنهم ، ويا للأسف ، لا يجدون كتبا تشفي غلتهم . فيسعدنا اذاً أن نقدم لهم كتابنا هذا الذي حاولنا أن نبرز فيه شخصية الجزائر المتميزة عبر القرون ، في الميدان الثقافي ، ونسجل وحدة خطوطها في الأدب القديم والحديث ونبين ما قد غذى هذا الادب من روافد مشرقية ونكشف ما قد خالطه من منابع أندلسية . وقد نهجنا فيه نهجا فنيا متأثرا بما يحيط به من ظروف سياسية واجتماعية وثقافية .

والنصوص التي اعتمدنا عليها في الفترات الاولى قليلة وذلك لكثرة

ما ضاع من تراثنا ، فقد بددت معظمه وأتلفته اليد الآثمة الاستعمارية ، ألم يكن الامير عبد القادر يستدل على معسكرات العدو بواسطة اوراق المجلدات العربية التي كان الجنود المعتدون على أرضنا يمزقونها في طريقهم ؟

غير أن قلة المصادر لا يمكنها أن تصدنا عن عمل تأريخي منهجي للادب الجزائري • فاننا اكتفينا بما وجدنا هذه المرة من النصوص وسنستدرك بما قد نقع عليه في الايام المقبلة من قطع جديدة في بطون المخطوطات وكتب التراجم ، ان شاء الله •

أما المنهج الذي سرنا عليه في التحدث عن الادباء فقد قسمنا البحث الى قسمين : يتناول الاول حياة الاديب ملما بنشأتهوثقافته وتيارات الادب التي سايرها أو أخذ عنها ، والثاني أثره من شعر أو نثر •

وقد أبينا أن نتحدث عن جميع أدباء الجزائر فعددهم لا يحصى ، وانما اقتصرنا علىذكر الفطاحل منهملكل عصر • وعصرنا عصر ثورة وبناء ، فنرجو انا قد ساهمنا بعملنا هذا ، وان كان حقيرا ، فيبناء الجزائر الجديدة الناهضة المتحفزة الى العلا والسعادة والكرامة •

ونسأل الادباء الكرام الذين أخذنا من مؤلفاتهم الجليلة ما احتجنا اليه من القطع ، ألا يواخذونا عليها ، وما فعلنا هذا الا خدمة للأدب العربي وافادة لاخواننا المتعطشين اليه • ونرجو ، في الختام ، أن يكون هذا المشروع نافعا للمواطنين والاجيال الصاعدة •

تمهيد

١ ـ الجزائر قبل الاسلام

٢ ـ الجزائر العربية

الجزائر قبل الاسلام

اصل السكان :

ورد على افريقية الشمالية جماعات وقبائل بشرية مختلفة منذ عهد سحيق ، وطاب لها المقام بها لاعتدال مناخها وخصب أراضيها • فكانت منها الامة الاولى لهذا الوطن (١) وفي القرن الثلاثين قبل الميلاد اكتسحته عن طريق مصر قبائل كثيرة موطنها الاصلي جزيرة العرب ، ما بين الخليج والبحر الاحمر • ويرى المؤرخون أن هذه القبائل من أبناء « مازيغ » بن كنعان ابن حام بن نوح ، وينقسمون الى فرعين : البرانس وهم أبناء برنس بن برين مازيغ ، والبتر وهم أبناء مادغيس الابتر بن بر بن مازيغ • وهاجر بعد ذلك أقوام متعددة في أوقات مختلفة منها قبائل فلسطينية فرت أمام يشوع بن نون ، ومنها عرب يمانيون جاءوا مع «أفريقش» أحد ملوك اليمن التبابعة في غزوة لليبية (٢) ، وأعجبتهم البلاد ، فاستوطنوها • فكان منهم قبيلتان : كتامة وصنهاجة على قول الطبري وغيره من النسابين ، ومنها الفرس والميد والارمن أتوا الى الاندلس في جملة جنود ملك اليونان ، ولما توفي ذلك الملك عبر هؤلاء الناس الى افريقية الشمالية واستقروا بها • وهذه العناصر كلها امتزجت بالسكان الاقدمين وتكون من هذا الخليط عبر القرون عنصر ممتاز عرف باسم البربر ، وهذا الاسم اطلقه عليهم اليونان ثم الرومان ، وذلك لانهم أجانب عنهم لا يتكلمون بلغتهم ولا يخضعون لسلطانهم • والغالب من القبائل البربرية التي عمرت الجزائر هو متفرع عن ثلاثة شعوب عظيمة : صنهاجة وكتامة وزناتة •

---

١ ـ لقد عثر بنواح كثيرة من القطر الجزائري على اثار من العصر الحجري بين منازل وقبور وادوات .

٢ ـ جاء في تاريخ زوادة لابي يعلى ان علماء الاثار اكتشفوا نقوشا بالخط الحميري في عدة قرى افريقية .

ومن غرائز البربري الثابتة أنه يضن بحريته ويعتز بأصله ويتعصب لقبيلته ولقومه ظالمين أو مظلومين ، يأبى الضيم ، ويسهر على عرضه وشرفه ، متشبث بلغته « تمازيغت » لا يبغي عنا بديلا • صوره لنا التاريخ محاربا شجاعا مقداما محبا للعمل • نجده بكثرة في الجبال ومناطق الصحراء •

المجتمع :

ان نظام القبيلة كان ديموقراطيا ، يرأسها « أقليدها » وهو رجل يقلده الحكم افرادها الذين يشترطون فيه الشجاعة والكرم والرأي السديد •وكانت المرأة محترمة مسموعة الكلمة ، ولا نشتم من أخبار البربر رائحة الصغار والاهانة للمرأة • أما معاملتهم لاولادهم فكانت معاملة من يربي الولد ليكون له درعا حصينة يتقي بها شر العدو • وكان البربر وثنيين في معظمهم ، يقدسون الكواكب ويعبدون الحيوانات ويعظمون الكهوف والمغارات ، وقد اتخذوا آلهة القرطاجيين أربابا لهم ، وكانوا يقربون لآلهتم القرابين عنهم فتقضي حوائجهم• وقد تسربت في وقت لاحق الديانتان اليهودية والنصرانية ، فاعتنق بعضهم هذه أو تلك •

الثقافة :

كانت لغة قدماء المغرب بسيطة ثم تطورت مع الايام وتأثرت بلغات الامم التي جاورت البربر او استوطنت بلادهم • وهي ذات لهجات كما يشاهد بين سكان القطر الجزائري ، فهناك لهجة خاصة بزاواوة تختلف في بعض مظاهرها عن لغة الشاوية وبني مزاب والتوارق • ويطلق على هذه اللغة اسم تمازيغت • وكان لها كتابة ، ومن واضح الادلة على وجودها حينئذ ذلك الخط الذي عثر عليه في مختلف الجهات الشديد الشبه بخط التوارق • وكانت حروف اللغة البربرية تمثل رسوما • وكان الخط البربري يتركب من عشرة حروف يسمونها « تيفناغ » أي الحروف المنزلة من عند الله • وأما الاشكال فهي خمسة ويسمونها « تيسد باكير » أي الدليل على العمل والتوسع ، وهي بخلاف تيفناغ ، من وضع البشر • وهذا

الخط على قول « فوكولد » يستحيل تدوين الكتب به ، ولم يبق له أي أثر في افريقية الشمالية سوى بالصحراء عند التوارق •

ويذهب بعض المؤرخين الى أن الخط البربري حديث العهد يرجع اختراعه الى « مصينيصا » في القرن الثالث قبل الميلاد وضعه على نمط الحروف الهجائيةالفينيقية • وما يدفعنا الى تأييد هذه النظريةأن مصينيصا كان يعمل ما في وسعه لئلا تكون دولته متخلفة بالنسبة الى قرطاجة وروما وغيرها من البلدان • يحدثنا عنه التاريخ أنه كان حريصا على تنمية شخصية رعيته وتدعيم استقلالها اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا •

لا شك ان قدماء البربر قد قالوا الاغاني ، وخطبوا في مختلف الظروف كالولائم والحروب ، ولكنهم لم يسجلوا شيئا من ذلك • فان قلة حظ الكتابة عندهم واختلاف اللهجات لم يعينا أدبهم على الانتشار والوصول الينا حتى نحكم له أو عليه • فالادب الذي لا يعتمد الا على الحفظ ولا تتسع دائرته ، حظه الزوال حتما •

وكانللبربر المام بالفن • وانالاواني والآلات المختلفة التي نشاهدها في المتاحف عندنا تدل على ذوق فني لابأس به • وتلك الزخارف المرسومة في المنسوجات البربرية وذلك الوشم على ظاهر اليد وفي الوجه والساق ، ما هي الا آثارات من الفن البربري القديم الذي يجانس في أشكاله الفن الايجي واليوناني والمصري •

وخلاصة القول ان الشعب البربري من السلالة البيضاء ذو لغة حامية سامية وحضارة أصيلة لايستهان بها ، منعها الاستعمار الروماني وغيره من أن يسطع نجمها في الآفاق •

عصر الفينيقيين :

الفينيقيون أمة سامية ينسبها المؤرخون الى الشعب الكنعاني ، وطنهم يقع بين جبل لبنان والبحر المتوسط • وكانوا قوما تجارا قد أسسوا عددا كبيرا من المراكز التجارية بسواحل افريقية • ومن هذه المراكز راحوا يمارسون نشاطهم التجاريبسواحل البحر المتوسط والمحيط الاطلنطيقي ،

ويتبادلون مع الاهالي مختلف السلع • لم يأتوا كمستعمرين بل نشاطهم اقتصر على شؤون التجارة التي تدر عليهم الارباح • فلم يتدخلوا في شؤون الاهالي ، لذا لم يكن لهذه المراكز تأثير سياسي داخل البلاد • وفي سنة ٨٠٣ ق•م أسس الفينيقيون قرطاجة الواقعة قرب تونس الحالية وأصبحت عاصمة القوة الفينيقية في البحر المتوسط • وما لبثت أن بسطت نفوذها في انحاء البلاد التونسية وأبرمت اتفاقات مع الممالك المجاورة لها ولمراكزها • وكل هذه الممالك تأثرت بالحضارة الفينيقية وبلغتها • أرسل « غولا » ولده « مصينيصا » الى قرطاجة • فتعلم هناك الفينيقية وتزود من علومها ما جعله يحبه وينشره في بلاده • فأسس مدارس عديدة تعلم بالفينيقية • ففشت هذه اللغة في جميع البلاد حتى صار أهل «قرطة» ، عاصمة نوميديا ، لا يتكلمون بغير الفينيقية ، واصبحت هي اللغة الرسمية بدواوين الحكومة ولغة الاكثرية البربرية ، لا يجهلها عظيم تخلق بالاخلاق الرومانية ولا أحد من البداة من البربر ، بحيث ان الرومان كانوا يلجأون الى مترجم عارف بالفينيقية عندما يضطرون الى مخاطبتهم ، والقديس « أوغسطين » كان هو الآخر يحتاج ، عندما كان على رأس أسقفية بونة ، الى أساقفة يحسنون هذه اللغة لبث التعاليم الدينية بها • وقد عثر على نقود ، ووجدت كتابات « بقالمة » و « قسنطينة » و « ميلة » على أضرحة بهذه اللغة • ويوجد بجهات « سطيف وجبل أوراس وسور الغزلان » كتابات بحروف الطينية لاعلام فينيقية • وعلى كل حال فان اللغة الفينيقية غزت الوسط الجزائري وتمركزت فيه وقدر لها ان تعيش بالجزائر بعد سقوط قرطاجة ما يزيد على ستة قرون ، فلم يذهب أثرها حتى جاءت العربية ، ولكنها لم تبق على ما كانت عليه في ايام قرطاجة ، ولا بد أن تكون قد تغيرت وامتزجت بتمازيغت • ويرجع للامة الفينيقية فضل على العالم المتمدن أجمع ، فانها ابتكرت طريقة رسم الحروف ، وألف مثقفوها في شتى العلوم والفنون • وعندما استولى الرومان على قرطاجة وجدوا مكتبات كثيرة ودفعوا ما تحويه من الكتب الى رؤساء النوميديين مكافأة

لهم على ما قدموه لهم من مساعدة في محاربتهم القرطاجيين • وأما الفنون الجميلة القرطاجية فلا يمكننا أن نبدي رأينا فيها ، لانه ادركها العفاء • وقد تأثر القرطاجيون بعقائد البربر واتخذوا الههم « عمون » ربا وسموه « بعلهمون » وعبدوه بحسب تقاليدهم وصنعوا له تماثيل اخرى• وقلدهم البربر في تلك التماثيل • وجاءت وثنية الرومان فتعايشت الوثنيات الثلاث •

لم ينفر البربر من القرطاجيين • فقد صاهروهم واستفادوا من أعمالهم العمرانية ومن نشاطهم التجاري ومن حرفهم وصنائعهم ، وأخذوا عنهم غراسة العود الرقيق وتربية الحيوانات ، وعرفوا المعادن فاستخرجوها • وما عثر عليه من الاطلال يدل على أنهم حكوا في بناءاتهم الفن الفينيقي • قضى الرومان على القرطاجيين ولكنهم لم يقضوا على حضارتهم بل نشروها « ومدوا في عمرها » لان طول مكث الفينيقيين بأفريقية وحسن تعاملهم مع الاهالي والنوميديين بالاخص غرسا حضارتهم في نفوس البربر غرسا لم يزل بزوال ملكهم • ورغم ما عرفت هذه الامة القرطاجية من السيادة فان ما عثر عليه الباحثون اليوم من آثارها لا يتجاوز بعض النقوش والرسوم •

عصر الرومان :

وجاء الرومان الى الجزائر وظلت روما تحكم حتى القرن الثالث الميلادي• وأساء الرومان السلوك مع الجزائريين وضغطوا على حرية الافكار • والبربري غيور على حريته فنهض الشعب بزعامة البطل « يوغرطة » ضد العدو سنة ١١٠ ق • م ودارت الدائرة في عدة وقائع على الرومان ، ولكن روما لجأت الى المخادعة ، فقضت على « يوغرطة » وكسرت شوكة المقاومة ، واستعملت جميع الوسائل لبسط نفوذها على الاهالي ، لكنها لم تفلح • فقد أعرضوا عنها ، ويحق لهم ان ينفروا منها ، فانها سلبتهم حقوقهم الطبيعية ، وأهانتهم ، وانتزعت منهم معظم اراضيهم الخصبة ، وأثقلت كاهلهم بالمغارم • وقد قال « غروت » « ان الرومان ألزموا البربر بالعمل في أراضي المعمرين تحت قوانين ثقيلة » •فقد بنت روما وشيدت ، ولكن ،

لم يستفد الشعب من ذلك • فكل ما انجزته من اسباب الحضارة كـان لابنائها وأذيالها • فلا نعجب حينئذ اذا رأينا الشعب تواقا الى الثورة ضد المستعمر • وفعلا قام وشمر عن ساعده وأعلن حربا في وجه العدو ونادى باستقلال البلاد • والرومان كان أدبهم اللاتيني يعد من أحسن آداب الامم الراقية لذلك الحين • ولما حلوا بالجزائر وجـدوا أمة لها مشخصاتها متشبثة بلغتها وأدبها اي تشبث ، فسعوا في نشر لغتهم وآدابهم حتـى يتعلمها البربر فيميلوا اليهم وتذهب هكذا شخصيتهـم ويثبت سلطان « روما » ، لكن لم يروا من البربر اقبالا • فالعامة بقيت بعيدة عـن اللاتينية • الا أن هناك فئة قد تعلمت لغتهم وآدابهم وعلومهم حتى بلـغ بعضهم درجة الكتابة والخطابة ، وبرزوا في الحكمة والفلسفة • فكـان « يوبا الثاني » ، ملك القيصرية « شرشال » ، الذي شغف بالعلم وألـف في التاريخ والجغرافية والفلسفة والتمثيل والموسيقى ، وكان اسقف بونة (عنابة) « القديس اوغسطين » الذي اصبح بتآليفه من اكبر آباء الكنيسة، وكان « ابطات » راهب مدينة « ميلة » الذي ترك لنا تاريـخ مذهب « دنتوس » ، وكان اسقف « قالمة » « بوسيديـوس » مؤرخ القديس أوغسطين • والذين تعلموا اللاتينية صبغوها بصبغة وطنهم وغيروها عن اصلها ، ذلك دأب البربر في كل ما اخذوا عن غيرهم ، وبذلك حافظوا على جنسيتهم وابتلعوا الامم التي احتلتهم وارادت أن تبتلعهم • وهي مزية لا تكاد تعرف لسواهم من الامم • وعلى كل حال فالرومان لم يؤثروا على البربر في اللغة والاد ، تأثير القرطاجيين مع أن الادب الروماني أرقى واللاتينيـة اوسع • والسر في ذلك ان البربر لم يروا في القرطاجيين مطامع استعمارية فأقبلو عليهم ، وأن الرومان احتلوا أرضهم ليستغلوها ويستعبدوهـم ، فأعرضوا عنهم • ولكن البربر فيما يرجع الى المعتقد لم يتخذوا موقفـا متطرفا بل عاشت الآلهة البربرية والفينيقية والرومانية بين ظهرانيهـم متآخية ، ولكن ، لا بد أن يكون طابع البربرية سيطر على الجميع • وبقيت الديانات هكذا ، حتى ظهرت المسيحية فتضادت معها •

وخلاصة القول ان الرومان لم يحتلوا البلاد ليمدنوا البربر ، وانما لتوسيع دائرة نفوذهم والاستيلاء على خيرات البلاد وثرواتها على حساب جهود الاهالي • ففهموا مقاصدهم الاستعمارية فلم يمتزجوا بهم ولم يندمجوا فيهم • فلم يبق من أثر الرومان ببلادنا الا الخرائب والاحجار المنقوشة •

عصر الوندال :

في سنة ٤٢٢ م سمي « بونيفاس » واليا على افريقية • وفي سنة ٤٢٧م أزمعت الامبراطورة « بلاسيدية » على عزله • فلم يمتثل لأمر العزل ، ولجأ الى الاستنجاد بالوندال المقيمين بالاندلس على ان يمنحهم غرب المملكة الرومانية بافريقية • فقبل الوندال • وفي سنة ٤٢٩ نزلوا الى أرض الوطن من جهة الغزوات • فأدركت حينئذ الامبراطورة غلطها ، فرضيت عن « بونيفاس » وأعادته الى منصبه • فندم « بونيفاس » على اتفاقه مع الوندال ، وطلب منهم أن يعودوا الى بلادهم • فأبوا ، وعدوا أمر « بونيفاس » ناقضا لاتفاقهم ، واكتسحوا الجزائر ، واتخذوا بونة عاصمة لهم • ولم يقفوا عند هذا الحد • فقد غزوا « روما » نفسها سنة ٤٥٥ م • لم يكن الوندال أهل حضارة ، فلم ينفعوا الوطن لا بعلم ولا بصناعة ، وحكموا البلاد بالاستبداد ، وأضروا بالاهالي ، وانتزعوا منهم أملاكهم ، وتعسفوا في جمع الضرائب ، واتبعوا سياسة دينية متطرفة لمصلحة احدى البدع النصرانية ، واضطهدوا رجال الدين ونتج عن تصرفاتهم الوحشية ثورات وطنية خطيرة •

عصر الروم :

رأى الامبراطور البيزنطي أن ينفذ موقف « روما » من خطر الوندال بالجزائر • فنشبت الحرب بين الفريقين ، حتى اودت ضربات البيزنطيين من جهة وثورات الاهالي من جهة اخرى بنهاية الحكم الوندالي بالجزائر • ولكن استتب الامر للبيزنطيين • فبسطوا نفوذهم على البلاد • ولما رسخت قدمهم أظهروا قوانين فاصلة بينهم وبين الاهالي • فوجد

هؤلاء هذا النظام لا ينسجم مع طبيعة البلاد • وموقف الاهالي هذا أغضب الحاكمين الجدد • فأخذوا يعاملونهم معاملة العبيد ، ويرغمونهم على الطاعة • فبدأ النزاع بين العنصرين • فأعلن الشعب كراهيته على الحكام باعلان الثورة في وجههم •

الجزائر العربية

في العهد الذي كان الروم بالجزائر وقع حادث كان له أثر خطير في مجرى التاريخ • ذلك هو مبعث محمد صلى الله عليه وسلم في الجزيرة العربية ، ونزول القرآن الكريم ، وانتشار الاسلام ، وقيام العرب بالفتوحات ، فأسسوا دولا واسعة الاطراف شرقا ، ثم فتحوا غربا مصر ، ثم بلاد الامازيغ فالاندلس ، ولكن فتحهم يخالف فتوحات غيرهم • فهو فتح ثقافي اذ جاءوا بكتاب ، وغايتهم تلقين ما في القرآن من دين واخلاق ، وتطبيق ما فيه من سياسة وثقافة • ولغة هذا الكتاب العربية التي انتشرت بسرعة مدهشة • ولا غرو في هذا الانتشار السريع ، فله أسبابه • فهي قبل كل شيء لغة راقية ، لغة دين وعلم وفن ، ثم ان شقيقتها الفينيقية التي سبقتها الى هذه الديار مهدت لها السبيل لذلك • ولا ننس أن الامازيغ من سلالة عربية ، لم ينفروا البتة من هذه اللغة الداخلية ، بل وجدوها أرفع من لغتهم تؤدي ما يطلب منها اكثر من لغتهم ، وهي ، علاوة على ذلك ، لغة دينهم الجديد الاسلام •

دخل العرب افريقية سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) في خلافة معاوية بن أبي سفيان بقيادة عقبة بن نافع الذي أسس مدينة القيروان سنة ٥١ هـ وانتشروا في البلاد ، فأسلم أهلها • وكانت لعقبة جولة ثانية في افريقية الشمالية أسر أثناءها الزعيم البربري « كسيلة » • وعندما كان راجعا الى القيروان أمر الجيش الاسلامي ان يسبقه وأبقى معه حوالى ٣٠٠ من أصحابه ، ولم يفطن عقبة لفرار « كسيلة » من معسكره ، وقد أساء معاملته ، فلم يتحمل « كسيلة » هذا الموقف ، وأخذ يجمع ما استطاع من الرجال والعتاد حتى كون قوة لا بأس بها واعترض بها « عقبة » • وجرت معركة أبلى

فيها عقبة واصحابه بلاء حسنا حتى استشهدوا جميعا سنة ٦٣ هـ (٦٨٢ م)• ولم يقنع كسيلة بالقضاء على « عقبة » • فتوجه الى القيروان واخرج منها زهير بن قيس البلوي الذي تراجع الى « برقة » حتى جاءه المدد من الخليفة عبد الملك بن مروان عام ٦٩ هـ (٦٨٨ م) وقصد القيروان• ففر منها «كسيلة» فتبعه زهير واشتبك معه في معركة انتهت بمقتله فقل الخطر حينئذ على الجيش العربي • وكانت ببلاد الاوراس امرأة تدعى « دهيا » من قبيلة جراوة تعرف « بالكاهنة » ، وكانت أميرة الاوراس ، وكانت تظن ان العرب يهدفون من وراء غزواتهم الى الحصول على الغنائم والاموال • فراحت تحرق وتخرب وتتلف المزارع ، فهكذا لا يسعى العرب مرة اخرى الى العودة الى افريقية • لما رأى الناس ما قامت به من التخريب والاتلاف سخطوا عليها مما كان من اسباب انهزامها امام جيش حسان بن النعمان ٨١ هـ (٧٠٠ م) • وتمكن بعد ذلك حسان من قتلها في معركة اخرى ٨٢ هـ (٧٠١ م) فأمن على أصحابها وأدخلهم في قوته العسكرية وعين أكبر ابنائها حاكما على قومها • وفي عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٥ هـ (٧٠٤ م) عهد بولاية افريقية الى موسى بن نصير • فكان على يده الفتح الحقيقي لبلاد « أمازيغ » ، ثم فتح الاندلس ، وكان ذلك سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) اذ عبر طارق بن زياد مع جنوده المضيق • فأخذ العرب يفدون الى المغرب الاقصى والاندلس ، فكثر مرورهم بالجزائر واختلاطهم بأهلها•

عروبة مازيغ

اعتنق الجزائريون الاسلام واندمجوا بالعنصر العربي • وكيف يصعب ذلك وفي عروق البربر يجري من الدم العربي ما يبث فيهم روح التآنس والتعايش مع العرب ويؤهلهم للتآخي والعمل المشترك لبناء الجزائر الجديدة العربية • أضف الى ذلك أن لغتهم حامية سامية والعربية سامية ، والبربر قبل هذه الفترة اعتنقوا المسيحية ، دين الرومان ، حتى يكونوا اخوتهم في العقيدة فيكفوا عن اضطهادهم ويعاملوهم معاملة حسنة ، لكن بدون جدوى • أما الاسلام فقد سوى بين العنصرين • فقال الله

تعالى : « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » . فهذا هو السر في ان العرب نجحوا في تعريبهم البربر ، وأن الرومان طالما حاولوا أن يرمنوهم فلم يفلحوا .

فمنذ وطأت رجل العرب بأرض الجزائر أخذ اهلها بتلابيب اللغة العربية ، فأصبحت الثقافة الجزائرية عربية ، ومستقبل هذه الثقافة لن يكون الا عربيا .

المجتمع الجزائري

أقبل البربر على الاسلام يعتنقونه ، وكانوا قد ذاقوا مرارة ظلم الفاتحين للبلاد قبل الاسلام . فالاسلام كان لهم فرصة للخلاص من الاهانة والاستعباد ، والاسلام يدعو الى المساواة والاخاء بين المسلمين والى الحرية والشرف . واسلام الجزائريين كان له اثر عظيم في المجتمع ، من حيث الدين من جهة ، ومن حيث اللغة من جهة اخرى .

فتوحدت صفوفهم فيما يخص العقيدة ، فلم يبق هذا وثنيا والآخر مسيحيا ، وأخذوا يسعون جميعا في توطيد الاسلام والذود عنه . وشاعت المذاهب فظهر في تونس المذهب المالكي وذلك على يد أسد بن الفرات وسحنون ، ومن ثم انتقل الى الجزائر . وكان بجانب هذا المذهب مذهب ابن حنيفة ، وكثر اتباعه في الوسط الجزائري . وحاول العبيديون أن يمحوا ذا وذاك . ولكن الصنهاجيين الجزائريين نصروا المذهب المالكي . كان باديس شيعيا ، ولكنه انتحل مذهب أهل السنة ، وحمل الناس على اتباع الامام مالك ، ومنعهم من تعدد المذاهب . هذا من ناحية الدين . وأما من ناحية اللغة فأخذ البربر يقرأون القرآن ويتعلمون العربية باحتكاكهم المستمر بالعرب والانصات الى الدروس الدينية التي كانت تلقى بالعربية . فأمكنهم مع توالي الايام ان يتحدثوا بهذه اللغة ويكتبوها ويخطبوا بها ؛ الا أن انتشار الاسلام كان اسرع من انتشارها ، فقد يصبح البربري مسلما ولكنه يستطيع مع ذلك ان يبقى محتفظا بلغته الاولى وتقاليده ، لان العرب لم يفرضوا عليهم فرضا تعلم العربية الا ما كان من قراءة

الفاتحة بها في الصلاة • ولم يقو تأثير اللغة العربية في الوسط الجزائري الا حيث استقر العرب في البلاد ، وزاد هذا التأثير قوة عندما حل بنو هلال وسليم ورباح وزغبة بالديار الجزائرية • فأصبحت في ذلك الحين حركة الاستعراب قوية • ومع توالي الايام نسيت قبائل بربرية شتى اصولها ووضعت لنفسها اصولا عربية ، وساعد على ذلك أسر عربية مهاجرة وأخرى موفدة لنشر الدين وتعليم العربية • ومما اعان ايضا على ذلك أن اللغة البربرية حامية سامية الكثير من ألفاظها عربية محضة ، فأمكن ذلك الاهالي على سرعة التفاهم والتمازج • وهناك ظاهرة اخرى هي أن الجزائريين اخذوا يذهبون الى المشرق ويكرعون من حياض العلم العربي الاسلامي • وما حل القرن الثاني للهجرةحتى كان من الجزائريين من يحسن العربية ويؤلف بها واصبح كثير منهم من اعلام الفكر والادب والفلسفة • كانت لهجات بربرية ولغة عربية عامية كوسيلة للحديث العادي كما نراه اليوم • ولكن اللغة الرسمية ، لغة الدواوين ، كانت هي اللغة العربية • ولا نريد ان تبقى هذه اللغة الفصحى اللغة الرسمية فحسب بل تصبح لغة التخاطب أيضا •

الشخصية الجزائرية

للجزائريين شخصية طبعها الاصل بطابعه وميزتها البيئة وأثر فيها الموقع • فهم مزيج عربي بربري ، سامي ، حامي ، له جميع مشخصاته ومميزاته الخاصة • وليس معنى هذا أن الشخصية لاتتغير مع مرور الايام وأنها لا تختلف من شخص الى شخص • والجزائر واسعة الاطراف تقع في شمال غربي افريقية وتتوسط المغرب العربي ، ويحدها من الشمال البحر الابيض المتوسط ، فتواجه أوروبا ، وقد كان للحدود الشرقية والغربية الاثر الاكبر في حياتها التاريخية ، ومن الجنوب بلدان « النيجار » و « المالي » و « موريطانية » • فالطقس حينئذ بري وبحري وصحراوي ، والمناخ معتدل وقاري • فمن البديهي ان يكون لذلك الاختلاف والتباين أثر في طبيعة السكان ، وفي ميولهم ورغباتهم •

فالبيئة الجبلية جعلت منهم رجالا محبين للعمل شجعانا ، والبيئة الصحراوية زودت اهلها بالصبر وخصوبة الخيال وارهاف الذهن • وأما السهول والشواطىء فقد اكسبت أصحابها رقة في الاحاسيس ، وجمالا في الطبائع • وللجزائريين من الناحية الخلقية الرأس المستطيل ، والقامة المعتدلة ، وبروز الخدين ، وسواد العينين والشعر ، والصدر والاكتاف العريضة ، وسمرة البشرة ، وقوة البنية • وهناك صنف آخر أشقر أزرق العينين ، رقيق الانف والشفتين ، مسطح الجبهة • ونلاحظ في الشعب الجزائري من الناحية الخلقية أنه قوي ، شجاع ، شديد الانفعال ، كثير التعصب ، يضن بحريته وشرفه •

وأما فيما يتعلق بالعادات فهو متعصب بالتقاليد ، لم يؤثر فيه الاستعمار من هذا القبيل قديما ولا حديثا •

والجزائريون أذكياء مفكرون محبون للعلم يقصدونه أينما كان ، رحلوا من أجله الى المشرق والمغرب والى الاندلس •

لم يخضعوا للرومان ولا للوندال ولا للبزنطيين ولا للخلافة العربية نفسها ، اذ سعوا كل السعي في انفصالهم عن العباسيين واستردوا شخصيتهم القومية • الا أن هذا الانفصال عن اخوانهم المشارقة كان تعبيرا عن شخصية الوطن ليس غير ، لانه قام به ذلك المزيج العربي البربري المعروف باسم العرب الافارقة • وكانت الجزائر غنية بالزراعة حتى سماها الرومان بخزينة حبوب « روما » • والصناعة هي الاخرى كانت مصدرا من مصادر الرخاء •

الحضارة الجزائرية

امتزج العنصر العربي والعنصر البربري وتمخض عن ذلك مدنية خاصة شرقية الاصل ، والفضل يرجع في ذلك للاسلام « بما ارتكز في طبيعته من مقومات انسانية » • وبقي مصير الجزائر مرتبطا بالشرق العربي منذ وطأت العرب ترابها • واذا استقرأنا تراثنا في جميع الميادين وجدناه لا يختلف ، مع فروق واهية ، عن التراث العربي الشرقي • فالحضارة الجزائرية شرقية كما سنوضح بعد •

مراكز الثقافـــــة

قامت حركات علمية في بلادنا كان لها مراكز يأوي اليها الطــلاب لكسب الشعر والادب والفن والفقه والحديث والفلسفة ، ونبغ في هذه الفنون ، كما سنرى بعد ، علماء كبار • وأهم هذه المراكز المسجد • وقد أسست مساجد في المغرب العربي منها مسجد القيروان ومسجد الزيتونة ومسجد تلمسان ومسجد القرويين • وكانت كلها زاخرة بالعلماء ، حافلة بالدروس المختلفة •

والكتّاب أسبق انواع المعاهد العلمية وجودا في العالم الاسلامي ، يتعلم فيه الصبيان القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابــة • وبدأ تأسيسه في النصف الاول من القرن الاول ، وكان عبارة عن خيمة تضرب مع خيام الجيش اذ كان الجند يصحب معه خطباءه وشعراءه ومعلميه • وكان الولاة يأتون من الجزيرة العربية مصحوبين بأدباء لانشاء الرسائل وتعليم الناس الدين والفقه والادب • فللولاة يرجع الفضل في نشر مبادىء الاسلام وتوطيد دعائم العروبة •

ونشأ بعد ذلك مركز آخر للتعليم عرف بالزاوية ، برامجه اعلى من برامج الكتاب • وتحتوي الزاوية على جامع ومكتبة وغرف لمبيت الطلبة • وصار خطرها يعظم حتى صارت تقام حولها سوق أسبوعية وربما قرية ، وتكون الاراضي التي حولها وقفا عليها • وتقام فيها الصلاة ، ويعقــد الزواج ويقع الختان •

والزاوية انواع : منها التي لم تبن على ضريح ولي ، والتي تبنى حول ضريح • والزوايا الطرقية كانت عديدة عندنا كالقادرية والرحمانيــة والدرقاوية والعيساوية والسنوسية والتيجانية والعروسية • وبها تعلــم الطريق الصوفية ، وتسمع ، فيها الاناشيد • والتعليم فيها ما بين التعليم الثانوي والتعليم الابتدائي • ورجال السياسة يعتمدون على شيخ الزاوية في تسيير الفكر العام لما كان له من نفوذ في المريدين • وكانت الزاويــــة العسكرية ، كالبشرية لابناء زواوة على عهد الفاطميين • وقد ظهر في القرن

الرابع مركز اكثر اهمية مما ذكرنا هو المدرسة • وظهرت اولا بخراسان• ثم أسس الوزير نظام الملك المدارس النظامية • ثم أسس « نور الدين زنكي » و « صلاح الدين » مدارس بالشام ومصر غايتهـا نشر المذهب السني ومقاومة المذاهب الاخرى • وفي القرن الخامس ظهرت المـدارس بالجزائر • والمدرسة عمل حكومي ، بواسطتها تجعل الحكومة يدها على التعليم ويخرج فيها الموظفون للحكومة يعملون على تنفيذ سياسة الدولة• فغايتها اذا تناقض غاية الزاوية التي ترمي الى تخريج علماء لا يخضعـون للدولة بل يقاومونها عند الاقتضاء • وبالمدارس كان يدرس الفقه اكثر من الحديث الذي هو من اختصاصات الزاوية • والمدرسة في بنائها وزخرفها مغايرة للزاوية التي هي شعبية ديمقراطية •

الهيكل

الفصل الأول

فترة الولاء

السياسة

فتح العرب افريقية الشمالية فأصبحت بعد حين ولاية واسعة الارجاء تعاقب عليها ولاة كثيرون بذلوا جهدهم في تدبير شؤون البلاد التي ظلت رغم ذلك على حالة سيئة من الوجهة السياسيــة ، يسودها الثورات والاضطرابات • فالعرب يتنازعون السلطان من ناحية والبربر ينازعونهم فيه من ناحية اخرى • فمــن العبث ان نبحث عن استقرار تام في هذه الفترة •

المجتمع

كان المجتمع مقسما : كان من جهة العرب الفاتحون الحاكمــون يحاولون التعرف بأهل البلاد والاتصال بهم ، ومن جهة اخرى البربر الذين يقبلون على الدين الجديد بكل ايمان وثيق ، ويتعلمون مبادئه ، ويساعدون العرب على نشره والذود عنه •

الثقافة

لما رسخت قدم العرب بافريقية ابتدأوا يفكرون في بث تعاليم دينهم القويم ، تلك التعاليم التي ما حاربوا الشعوب الا لاعلاء شأنها وما غزوا الا نشرا لها • فعرفت بلادنا في هذه الفترة نوعا من الثقافة • نشطها بنو أمية • فما من خليفة منهم الا وقد كانت عنايته متجهة الى ارسال فقهاء يعلمون الناس القرآن وامور الدين • فقد وجه عمر بن عبد العزيز عشرة من وجوه التابعين لتثقيف البربر وارشادهم الى شرائع الاسلام وتعاليمه• والولاة أنفسهم مهدوا السبيل لتقدم هذه الثقافة • قد جعل حسان الغساني اللغة العربية هي اللغة الرسمية للبلاد ، وأمر موسى بن نصير العرب أن يعلموا البربر القرآن والفقه ، وترك سبعة عشر رجلا من العرب للغرض نفسه •

فالبربر ، رغم تمسكهم بتمازيغت ، أكبوا على تعلم اللغة العربية ، لغة القرآن والدين الجديد ، واعانهم على ذلك الانصـــات الى دروس الدعاة والفقهاء والاحتكاك بالعنصر العربي •

وبمرور الزمان ظهر جيل جديد نشأ تحت حكم العرب ومازجهم في اوضاعهم وتعلم لسانهم وقلد اخلاقهم • واخذ الدعاة يسامرون هذا الجيل بأخبار الجاهلية والاسلام ، ويروون له ما يحفظون من الاشعار في ايـام العرب • فأصبح مواطنونا المستعربون على خبرة وبينة من حياة العرب وآدابهم في الجاهلية والاسلام •

الادب

البلاد حديثة الاستعـــراب ، والعصر يسوده الاضطراب وعدم الاستقرار • فمن البديهي ان لا نرى ادبا ولا أدباء الا ما كـــان من رجال الدين والفقه والدعاة الذين يفدون لتثقيف اهل البلاد • وان كان أدباء فهم من العرب الداخلين ، ولكن ، لا نجد لهم أثرا ، وان وجد يوما ما فليس له من الجزائرية شيء ، لان اصحابه مشارقة ، وهو ادب يتناول في الشعر ما عرفناه للمشارقة من أبوابـــه ، وفي النثر الرسائل والوعظ الديني والخطب الدينية والسياسية •

الفصل الثاني

فـــترة الرستميين

١٦٠ هـ — ٢٩٩ هـ

٧٧٦ م — ٩١١ م

السياسة

الخارجية حزب من الاحزاب التي دوخت بني امية ثم العباسيين • ومذهبها كان صارما يدعو الى العدل والاخاء والمساواة بين المرسلين ، لا فرق بين عربي واعجمي تحت راية الاسلام ، ويجعل حق الخلافة شائعا بين جميع المسلمين ان توفرت فيهم شروطها ، ويقول بشرعية الثورة اذا كان صاحب السلطة ظالما حائدا عن كتاب الله وسنة رسول الله • فظل الخوارج يعملون لانشاء دولة جمهورية عادلة تتقيد في سياستها بالدين • لكن الظروف لم تساعدهم على ذلك في الشرق • فقصد دعاتهم المغرب العربي ، وقاموا بنشر آرائهم في اوساطه • وكان البربر حينئذ ساخطين على السلطة المركزية متذمرين من حكمها • فوجدوا في المذهب الخارجي تلاؤما مع طبيعتهم • فاعتنقوه • والثورة وصلت الى اقصاها في عهد العباسيين • كانت وقائع بين الخوارج والولاة سالت فيها الدماء أنهارا ، وذهبت بأرواح عديدة من رجالات الطرفين ، والنصر كان حليف البربر ، أهل البلاد • فتكونت جمهورية اسلامية على رأسها ابن الخطاب المعافري • فخرج المغرب من يدالسلطة المركزية العباسية بالمشرق • وكان من الخارجية بالمغرب العربي الاباضية والصفرية • ولكن الصفرية ضعف شأنها ، وبقيت الاباضية في القبائل ذات الخطر والشأن مثل هوارة وزناتة • ولم يتحد الاباضيون من هذه القبائل تحت امارة واحدة ، بل كان منهم الخاضعون للاغالبة او للادارسة ومنهم المستقلون تحت امارات متعددة اشهرها امارة بني رستم • تنتسب الدولة الرستمية الى عبد الرحمان بن رستم الفارسي • الذي استخلفه ابو الخطاب المعافري على القيروان بعد ان قرر ان يذهب الى طرابلس ليقف في وجه الحملات التي اعتزم الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور ارسالها الى بلاد المغرب لاخماد الثورات الخارجية • فزحف ابن الاشعث والي مصر ، سنة ١٤٤ هـ (٧٦٣ م) بأمر الخليفة على المغرب الثائر ، والتقى بأبي الخطاب وجموعه ، وتمكن من قتله وتشتيت قواه ، واستعاد القيروان من الخوارج ، ولاحق صاحبها ، ابن رستم ، الى جهات

الاوراس وبدد شمله وارغمه على الفرار • فنزل ابن رستم بجبل على مقربة من « تيارت » الحالية • فلم يكد يسمع الاباضيون بهذا الخبر حتى أموا عبد الرحمان فشدوا أزره • فقوي حينئذ امره • وفكر في تأسيس مدينة تكون شارة استقلالهم ، فاختطوها وشيدوها سنة ١٤٨ ﻫ (٧٧٥م) ، وأصبحت قاعدة امارتهم بل دولتهم التي دان لسلطانها كل المدن والقرى الواقعة بين الزاب وفاس وسجلماسة على قول (الباروني) • وسميت هذه المدينة « بتيهرات » المعروفة « بتقادمت » فتربع عبد الرحمان بن رستم على عرش امارته سنة ١٦٠ ﻫ (٧٧٦ م)• فكان حينئذ اول مؤسس لدولة اسلامية جزائرية مستقلة •

المجتمع

كان للامويين والعباسيين اعداء سياسيون ، ما كان عليهم الا ان يفروا من اذى السلطات ويلتمسوا الامان في اوطان نائية • فكان المغرب العربي لهم مأمنا حصينا لاتساعه وكثرة قبائله • وكان معظم هذه القبائل البربرية تكن صدورها حقدا وسخطا على العمال لما يصيبها من الاذى على أيديهم • فكانت ترحب بالمضطهدين اللاجئين • وكيف لا ورأيهم واحد في السلطات الحاكمة •

فالنفوس كانت حينئذ مستعدة للثورة ، وما هي الا عشية أو ضحاها حتى ثارت ووقعت حروب دموية ضعفت اثرها شوكة الحاكمين ، ونشأت امارات من بينها امارة الرستميين •

رائد هذه الدولة كان الكتاب والسنة ، ونظامها الديمقراطية الحقة• فالامام يتعين في منصبه بالانتخاب ، ويشترط فيه النزاهة والكفاءة والمقدرة • يعينه على القيام بالشؤون الادارية مستشارون مخلصون ، وبالشؤون المالية أمناء محنكون • تحبه وتطيعه رعيته التي لا تتوصل الى الوظائف الا بالصلاح والورع والكفاءة •

ولغة الدولة الرسمية هي العربية ، الا أن اللهجة البربرية كان لهاخطر كبير وقتئذ ، فهي لغة التخاطب • فكثيرا ما كان يلجأ اليها العلماء لالقاء

دروسهم الفقهية والدينية . وعماد المجتمع الخلق الحسن والعادات الراقية والعلم الغزير . فبطبيعة الحال أن يكون راقيا . والتاريخ يشهد بأن الفتن كانت قليلة لا تأتي ا لامن دسائس الملوكيين المغرضين لأنهم يكرهون الامامة الاسلامية التي لا تخاف لومة لائم في نصرة الحق ولا تألو جهدا في نشر العدل والتي يتنافى مبدأها والمحاباة والظلم والطغيان . فالدولة كانت حسنة الجوار ، لا تعتدي على الغير ، ولا تريد اتساعا بالسيف والقوة ، تفضل أن تأخذ بيد الشعب للوصول به الى ذرى الرقي والازدهار المادي والادبي . فشيدت القصور والمساجد والمتنزهات ، وقصد العاصمة أهل العلم وأرباب الصناعات والحرف من شتى الاقطار الاسلامية ، وتحسنت شؤون البلاد الاقتصادية ، فازدهرت الفلاحة والصناعة والتجارة. فعم البلاد الاستقرار والامن والرخاء . وان ننس فلا ننس ذلك التسامح الذي امتازت به هذه الدولة ، اذ عاش في حضنها طوائف دينية اجنبية عن الاسلام والمذاهب الاسلامية الاخرى . فلم يظهر لها تعصب ولم تقيد حرية الناس .

هنا نسجل ملاحظة أن الخارجية بالجزائر لا يفهم منها ما كان معروفا عنها في الشرق ، فانها قد ألقت سلاحها الثوري واستقر بها الموطن ، فأسست ، كما ترى ، امارة منظمة ، واخذت لها أشكالا دولية دقيقة ، وربطت نفسها برباط الديبلوماسية مع غيرها من الدول .

الثقافة

ازدهرت هذه الدولة . وقد اصبحت « تيهرت » العاصمة العالمية للمذهب الخارجي ، يؤمها الخوارج من جميع الارجاء . فأضحت بذلك مركزا ثقافيا يضاهي بغداد وقرطبة . فعرف اذن الجزائريون الثقافة ونبغوا في مناحيها منذ عهد سحيق وخصوصا الثقافة الدينية لان الائمة الاباضيين كانوا علماء دين ورؤساء مذهب يتطلب من أصحابه أن يكون لهم ثقافة متينة وان يكونوا على اهبة للدفاع عن آرائهم بالحجة الدامغة . تراهم يعقدون مجالس للعلم والتعليم ، يعلمون الناس ويلقون عليهم بالمساجد

دروسا في التفسير والحديث والفقه والكلام والآداب والعلوم والرياضيات والتنجيم . فكان « عبد الرحمان » مفسرا ، وله في هذا الميدان تآليف . وابنه عبد الوهاب برز في العلوم الدينية ونبغ « أفلح » في الادب . يقال : ان عبد الوهاب أرسل الى اباضية البصرة ألف دينار ليشتروا له كتبا . فلما بلغتهم اشتروا بها ورقا استنسخوه كتبا . وتلك الكتب كانت وقر أربعين جملا ، كلها ارسلت اليه واتصل بها . وكان « بتيهرت » مكتبة تدعى المعصومة ، فيها الآلاف من المجلدات . ولما دخل الفاطميون الى « تيهرت » استولوا عليها سنة ٣٩٩ هـ (٩١١ م) وأحرقوا تلك المكتبة القيمة ، ولم تبق منها الا كتب الرياضيات والصنائع والفنون الدنيوية . وقد عرف رجال الخارجية الدولة بالتسامح، فأفسحوا الرجال للمذاهب الدينية الاخرى التي كانت لها مدارسها وعلماؤها . ونستنتج من هذا أن ثورتهم ضد السلطة الشرقية ليست دينية ، وانما كانت مذهبية ليس غير .

وخلاصة القول ان الحركة الثقافية نشطت نشاطا لم تعرفه الجزائر من قبل ، وقد شارك فيها أهل القيروان بعلومهم وآدابهم . ويحدثنا « ابن الصغير » و « الباروني » أن « تيهرت » كانت تسمى عراق المغرب أو بلخ المغرب .

الادب

نفق سوق العلوم والادب في ظل هذه الدولة ، وظهر أول جيل من الادباء الجزائريين الحقيقيين ، عالجوا الشعر وأحسنوا معالجته ، ولكن ، ظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية المحافظة . وأساليب هذا الشعر متينة بحيث لا نجد فيه اختلافا من حيث الصناعة عما يعرف من شعر المشارقة على ذلك العهد . وأما الانشاء فهو مرسل مطبوع لا يلتزم فيه سجع ولا يتكلف فيه تشويه . ونلمس فيما ظهر من البوادر الاولى للادب الجزائري شخصية تتمثل في رجال نقتصر على ذكر أشهرهم صيتا عند أهل العلم .

الامام افلــح

هو أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمان • ضرب في زحمة كل فن من فنون العلم ، ونبغ في الادب ، وقال الشعر • أنصت اليه يمدح العلم •

العلم أبقى لاهــل العلم آثـــارا يريك أشخاصهم روحا وابكــــارا
حتى وان مات ذو علــم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك اوطارا
وذو حياة على جهلها ومنقصـــــة كميت قد ثوى في الرمس أعصـــارا
لله عصبة أهـــــل العلم ان لهـــم فضلا على النـــاس غيابا وحضـــارا

وهي قصيدة طويلة تزيد على الاربعين بيتا تدل على أن صاحبهـــا قد خاض في عباب بحر القريض •

البـــزاز

وهو ابو الفضل احمد بن القاسم التميمي البزاز • أقبل من صغره على العلم فأتقن فنونه وتصدر للاقراء • روى عنه علماء كثيرون منهــم ابو عمر بن عبد البر •

ابو سهـــــل

كان يحسن ، زيادة على العربية ، اللهجةالبربرية • ألف فيها مصنفات احترقت في الفتن التي أصيبت بها تيهرت أواخر الحكومة الرستمية ٣٠٥ ھ (٩١٧ م) وناهيك برجل تولى خطة الترجمة للامامين أفلح ويوسف •

ابن الصغير

هو الصالح المؤرخ • خلف لنا كتابا قيما نجد فيه اخبار الائمــة الرستميين استعمل فيه أسلوبا بسيطا نجد فيه أحيانا تراكيب أقرب الى العامية منها الى الفصحى •

يهود ابن قريش التاهرتي

عاش في القرن الرابع الهجري ، وكان يحسن العربية والعبرانيـــة والبربرية والآرامية والفارسية • وقد اهتم بالبحث في اللغات ، وحاول المقارنة بين العبرانية والعربية والبربرية • فهو بذلك واضع أساس النحو التنظيري • وكتابه في ذلك باللغة العربية وجد بمكتبة « اكسفــورد » « بانكلترا » ويعد أنفس كتاب في الموضوع •

احمد بن فتح التاهرتي

كان اديبا شاعرا . انتقل الى المغرب الاقصى ، ومدح عم ابراهيم صاحب البصرةالمغربية ، أبا العيش عيسى بن ابراهيم بن القاسم بن ادريس، بقصيدة يقول منها في وصف نساء البصرة اللائي اختصصن « بالجمال الفائق والحسن الرائق » .

ما حاز كل الحسن الا قينة بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في وجناتها والكشح غير مفاض
في شكل مرجي ونسك مهاجر وعفاف سني وسمت اباض

بكر بن حماد

هو أبو عبد الرحمان بكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي . ولد بتيهرت حوالي سنة ٢٠٠ ه (٨١٦ م) ونشأ بها . انكب من صغره على الدرس . فتعلم على مشاهير علماء بلده . ولم يلبث ان فارق وطنه وهو في حداثة سنه عام ٢١٧ ه (٨٣٢ م) . فشخص الى القيروان في طلب العلم . فأخذ عن علماء تلك البلدة الفطاحل أمثال سحنون صاحب المدونة . ثم ارتحل الى الشرق ، فدخل بغداد وكانت يومئذ زاخرة بالعلماء . فاتصل بهم ، واخذ عن ابي مسدد وعمر بن مرزوق وبشر بن حجر . وفي أدباء لهم ذكر وصيت منهم أبو تمام ودعبل الخزاعي وعلي بن الجهم ومسلم بن الوليد ، صريع الغواني ، وابن الاعرابي والرياشي وابن حاتم السجستاني . فصاحبهم وكانت له معهم مساجلات أدبية أسفرت عن ثبوت قدمه في الاداب وفي صناعتي الشعر والنثر . واتصل بكر بخلفاء الدولة العباسية ، وقال فيهم الشعر الرائق ، فأصفوه ودهم ، وأغدقوا عليه احسانهم كغيره من ادباء بلاطهم ، وما عتم أن قفل راجعا الى مربع صباه . فدخل في طريقه الى القيروان سنة ٢٧٤ ه (٨٨٧م) فتصدر للاقراء هناك .

فانهال عليه الطلبة من كل فج وصوب ، فترامى صيته في الآفاق ، ووصل خبره الى الاندلس . فقصده الكثير من اهلها للاخذ عنه والتخرج

على يده • وكان منهم قاسم بن أصبغ البياني •

وقربه بنو الاغلب اليهم • فقال فيهم القصائد الرائعة ، ونال منهم الجوائز السنية •

ولم يدم مكوثه بتلك الربوع ، بل آب الى بلده ، تيهرت ، سنة ٢٩٥ هـ (٩٠٧ م) فأصبح بها حجة أدباء عصره • فقال شعرا ساحرا في أمراء بني رستم ، فحظي عندهم ونال منهم الصلات الجزيلة •

توفي بكر بقلعة ابن حمة ، شمال مدينة تيهرت ، وذلك في شوال سنة ٢٩٦ هـ (تموز ٩٠٩ م) في نفس السنة التي قضى العبيديون على بني رستم •

شهد ببراعة « بكر » العلمية في الادب وبشاعريته الكثير من الادباء فقال عنه البكري : « انه كان ثقة مأمونا حافظا للحديث » وقال ابن عذاري : « كان عاليا بالحديث وتمييز الرجال وشاعرا مفلقا » والتاريخ قد سجل له شعرا كثيرا في جميع الاغراض من غزل ومدح ورثاء وهجاء واعتذار وزهد ووعظ • كان يعرف بالشاعر لكثرة قصائده وحسن شعره• كان دعبل من متعصبة الشيعة فعارضه « بكر » كما عارض مدح عمران ابن حطان لابن ملجم على قتله عليا بالقصيدة التالية :

قل لابن ملجم ، والاقدار غالبة   هدمت ، ويلك ، للاسلام اركانا
قتلت افضل من يمشي على قدم   واول الناس اسلاما وايمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما   سن الرسول لناشر عاق تبيانا
صهر النبي ومولاه وناصره   أضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه ، على رغم الحسود له ،   مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا   ليثا اذا لقي الاقران اقرانا
ذكرت قاتله ، والدمع منحدر   فقلت سبحان رب الناس سبحانا !
اني لأحسبه ما كان من بشر   يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
اشقى مراد اذا عدت قبائلها   وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الاولى التي جلبت   على ثمود بأرض الحجر خسرانا
قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها   قبل المنية أزمانا فأزمانا

فلا عفا الله عنه ما تحمله ... ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله في شقي ظل محترما ... ونال ما ناله ظلما وعدوانا
« يا ضربة من لقي ما أراد بها ... الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا »
بل ضربة من ذوي أورثته لظى ... مخلدا قد أتى الرحمان غضبانا
كأنه لم يرد قصدا بضربته ... الا ليصلي عذاب الخلد نيرانا

فقال يحرض المعتصم على دعبل :

أيهجو امير المؤمنين ورهطه ... ويمشي على الارض العريضةدعبل ؟
اما والذي أرسى ثبيرا مكانه ... لقد كادت الدنيا لذاك تزلزل
ولكن أمير المؤمنين بفضله ... بهم فيعفو أو يقول فيفعل

فعاتبه حبيب فيه وقال له : قتلته ، والله ، يا بكرا .

فقال بكر :

وعاتبني فيه حبيب وقال لي ... لسانك محذور وسمك يقتل
واني ، وان صرفت في الشعر منطقي ... لانصف فيما قلت فيه وأعدل

ومن شعره ايضا قوله لما عاد من العراق معتذرا للامام « أبي حاتم » :

ومؤنسة لي بالعراق تركتها ... وغصن شبابي في الغصون نضير
فقالت كما قال النواسي قبلها ... « عزيز علينا ان نراك تسير »
فقلت « جفاني يوسف بن محمد ... فطال علي الليل وهو قصير
أبا حاتم ، ما كان ما كان بغضة ... ولكن أتت بعد أمور أمور
فأكرهني قوم خشيت عقابهم ... فداريتهم والدائرات تدور

وله يصف برد تيهرت :

ما احسن البرد وريعانه ... وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت ... كأنما تنشر من تحت
فنحن في بحر بلا لجة ... تجري بنا الريح على السمت
تفرح بالشمس ، اذا ما تبدت ... كفرحة الذمي بالسبت

وروى له التنسي التلمساني شعرا كثيرا منه قوله :

تبارك من ساس الامور بعلمه ... وذل له أهل السموات والارض
ومن قسم الارزاق بين عباده ... وفضل بعض الناس فيها على بعض
فما ظن أن الحرص فيها يزيده ... فقولوا له يزداد في الطول والعرض

مات ولده وكان لهذا الموت أثر عميق في نفسه وذرف عليه دمعة صادقة الا ان آخر المقطوعة يغلب عليها العقل اكثر من العاطفة فقال :

بكيت على الاحبة اذ تولوا ولو اني هلكت بكوا عليا
فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الاكباد كيا
كفى حزنا بأني منك خلو وأنك ميت وبقيت حيا
ولم أك آيسا فيئست لما رميت الترب فوقك من يديا
فليت الخلق اذ خلقوا بواق وليتك لم تكن يا بكر شيا
فلا تفرح بدنيا ليس تبقى ولا تأسف عليها يا بنيا
فقد قطع البقاء غروب شمس ومطلعها علي يا أخيا
وليس الهم يجلوه نهار تدور له الفراقد والثريا

ولبكر شعر رائق في الزهد فهاك مقطوعة تشهد له بالبراعة في هذا النوع :

لقد جمعت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي من جنح ليل يقودها وضوء نهار لا يزال يسوقها
الى مشهد لا بد لي من شهوده ومن جزع للموت سوف أذوقها
ستأكلها الديدان في باطن الثرى ويذهب عنها طيبها وخلوقها
سحاب المنايا كل يوم يظله فقد هطلت حولي ولاح بروقها
وللنفس حاجات نزوع وتغتذي ولكن حدثان الزمان يعوقها
تجهمت خمسا بعد عشرين حجة ودام غروب الشمس لي وشروقها
وأيدي المنايا كل يوم وليلة اذا فتقت لا يستطاع رتوقها
يصبح أقوام على حين غفلة ويأتيك في حين البيات طروقها

وكيف لا يبدع في هذا اللون من الشعر وهو يتزعم الحركة الزهدية في الادب المغربي يومئذ كما كان يتزعمها ابو العتاهية في الشرق .

كانت تلمسان وقتئذ تحت نفوذ الحسن بن أبي ادريس العلوي ، وكانت بينه وبين موسى بن أبي العافية صاحب امير المؤمنين عبد الرحمن الناصر حروب كان النصر فيها لموسى . فقال لبكر بن حماد في ذلك :

سائل زواغة عن طعان سيوفه ورماحه في العارض المتهلل
وديار نفزة كيف داس حريمها والخيل تمرغ في الوشيج الذبل
غشى مغيلة بالسيوف مذلة وسقى جرواة من نقيع الحنظل

هذه نماذج من شعره الكثير الذي شرق وغرب وأغرم به أهل الادب • ولعمري أنه يحق له أن يقال عنه : شاعر المغرب العربي وأنه فريد عصره في ميدان القريض •

حلت الهزيمة بالرستميين ، ولكنها لم تحل بالادب • لم تنطفىء شعلته فقد بقي عشاقه والتواقون اليه • وأضف الى ذلك ان الرستميين خلفهم امراء من عبيديين وصنهاجيين ، اتخذوا منه أداة ترويج ووسيلة دعاية ، وهم قبل ذلك عرب الامزجة كما ذكرنا من قبل يهشون للمدح فشجعوه وقربوا رجاله •

وفي الوقت الذي كان بنو رستم حاكمين في الجزائر استقلت افريقية عن الخلافة بالمشرق مع احتفاظ الاغالبة بذكر اسم الخليفة على المنابر وارسال جزية سنوية له • وقد امتد نفوذهم في المغرب الاوسط الى مدينة بجاية في الشمال ومدينة طبنة في الجنوب • وقد نفر الجزائريون من سوء معاملة السلطة الحاكمة المتمثل في ظلم بعض ولاة الاغالبة •

واشتهر في هذه الآونة كثير من الجزائريين في الادب وحازوا الرئاسة في العلم • منهم اسحاق بن عبدالله بن عبد الملك الملشوني نسبة الى ملشونة قرية من قرى بسكرة قرب تهودة وكانت وقتئذ حاضرة العلم• كان اسحاق عالما ، اقبل على التضلع من كل فن ونبغ في التاريخ والمحاضرات خاصة حتى اصبح شيخ امراء بني الاغلب ونديم بلاطهم • جالس الامام « سحنون » بالقيروان ، واخذ كل منهما عن صاحبه • قال ابو العرب(١) : (كان « ابو القاسم بن شبلون » الفقيه يروي فيما كان يرويه ان سحنون ابن سعد دخل على محمد بن الاغلب الامير اول يوم من شهر رمضان فألفى الامير خاليا • فقال له : أراك ، ايها الامير ، خاليا • فقال : « نعم ، انفردنا في هذا الشهر المعظم ، وخلونا فيه ، وتركنا ما كان لغير عز وجل)•

ـ فقال سحنون : « فأين أنت أيها الامير ، من اسحاق الملشوني ، يحدثك بأخبار الامم السالفة والاقوام الماضية » • فأمر محمد بن الاغلب

---

١ ـ ابو العرب صاحب طبقات علماء افريقية .

باحضاره . وشرع الملشوني يحدثه بذلك كل يوم حتى انقضى شهر رمضان .

ومنهم الفضل بن سلمة بن جرير الجهني البجائي . نشأ ببجاية وتعلم بها . ولم يكفه ما أخذ من العلم ، فأراد ان يتبحر فيه ، فأم بلاد افريقية ودخل القيروان . فلقي بها ابن مجلون والمغامي واحمد بن سليمان ويحيى ابن عمر وغيرهم . فتضلع من الفقه . وشاع خبره فقصده الناس ينهلون من علمه . فتخرج على يديه عدد كبير من ذوي المكانة العلمية والتحقيق العلمي منهم ولده أبو سلمة أحمد بن سعيد بن حزم وسعيد بن عثمان ومحمد بن عبد الملك والخولاني واحمد بن خالد وأبو العرب ومحمد ابن النجار ورجال من الاندلس والقيروان. وله من التآليف مختصر المدونة والواضحة والموازية . وله كتاب جمع فيه مسائل الموازية والمستخرجة .

توفي رحمه الله سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) .

ومنهم أيضا أبو عبدالله محمد بن حسين بن محمد الطبني نسبة الى طبنة ، عاصمة الزاب الجزائري . ولد بها سنة ٣٠٣ هـ . وكان أديبا بليغا وشاعرا مقدما . وصفه ابن بشكوال بسعة العلم والتبحر في الادب وقال : « انه لم يصل الى الاندلس أشعر منه » . وعلى الرغم من هذه التحلية فاننا لا نظفر لهذا الاديب الكبير الا على ابيات شعرية لا تكفي لتعطينا صورة كاملة عن أدبه وشعره . وكل ما نستفيد منها هو أن له قوة عارضة في الشعر . كان اتصاله بالاندلس سنة ٣٣٥ هـ وكانت وفاته منسلخ شهر ذي الحجة سنة ٣٩٤ (تشرين الاول ١٠٠٤ م) وشاهد جنازة المظفر بن عبد الملك بن ابي عامر في اهل دولته وصلى عليه العالم ابن الفطيس .

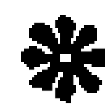
ومن شعره هذان البيتان :

قالوا التحى وانكسفت شمسه وما دروا عذر عذاريه
مرآة خديه جلاها الصبي فلاح فيها في صدغيه

ومنهم اخيرا المجتهد ابو جعفر احمد بن نصر الداودي التلمساني . أصله من مدينة المسيلة وسكن طرابلس انهى فيها دراسته . ثم قصد

تلمسان فأقام بها حتى مات ، وبها ألف كتابه وهو شرح صحيح البخاري سماه ــ النصيحة ــ وهو أول شرح وقع لهذا الكتاب القيم . وله تآليف أخرى في الحديث والفقه منها كتاب النامي شرح به الموطأ ، وكتاب ــ الواعي ــ في الفقه والايضاح في الرد على القدرية . قصده الطلاب ونالوا من علمه الغزير منهم ابو بكر بن محمد بن ابي زيد وعبد الملك البوني .

توفي رحمه الله ، بتلمسان القديمة سنة ٤٠٢ هـ (١٠١١ م) ودفن شرقي باب العقبة ، وضريحه مشهور بها . ويعد من الطبقة السابعة اذا سمعنا الى قول ابن فرحون .



الفصل الثالث

الفــــترة الصنهاجية

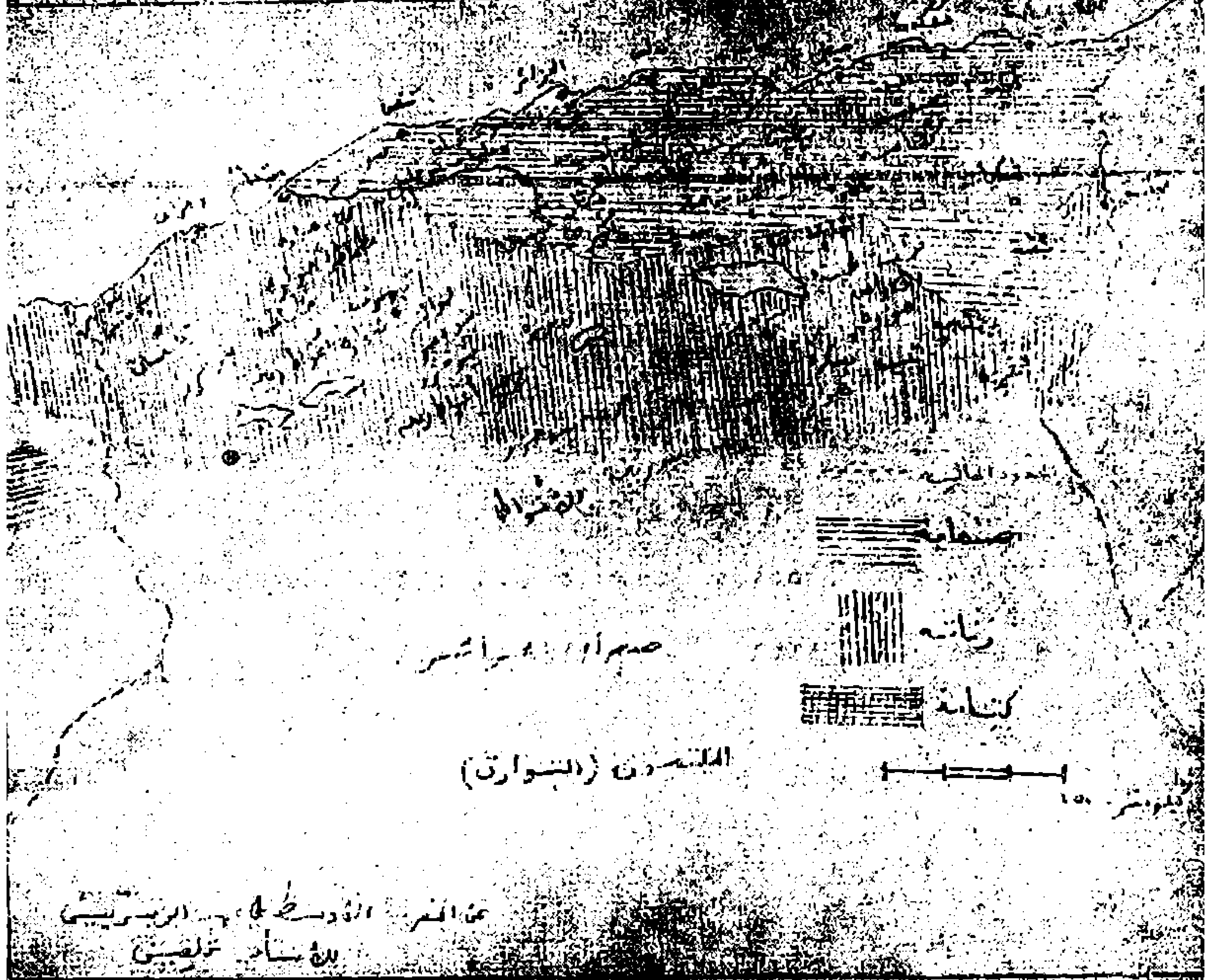
٤٠٥ — ٥٤٧ هـ

١٠١٤ — ١١٥٣ م

(المرابطون والموحدون)

٤٧٢ — ٥٣٩ هـ ٥٥١

١٠٧٩ — ١١٤٥ م ١١٥٦



صنهاجة
زناتة
كتامة

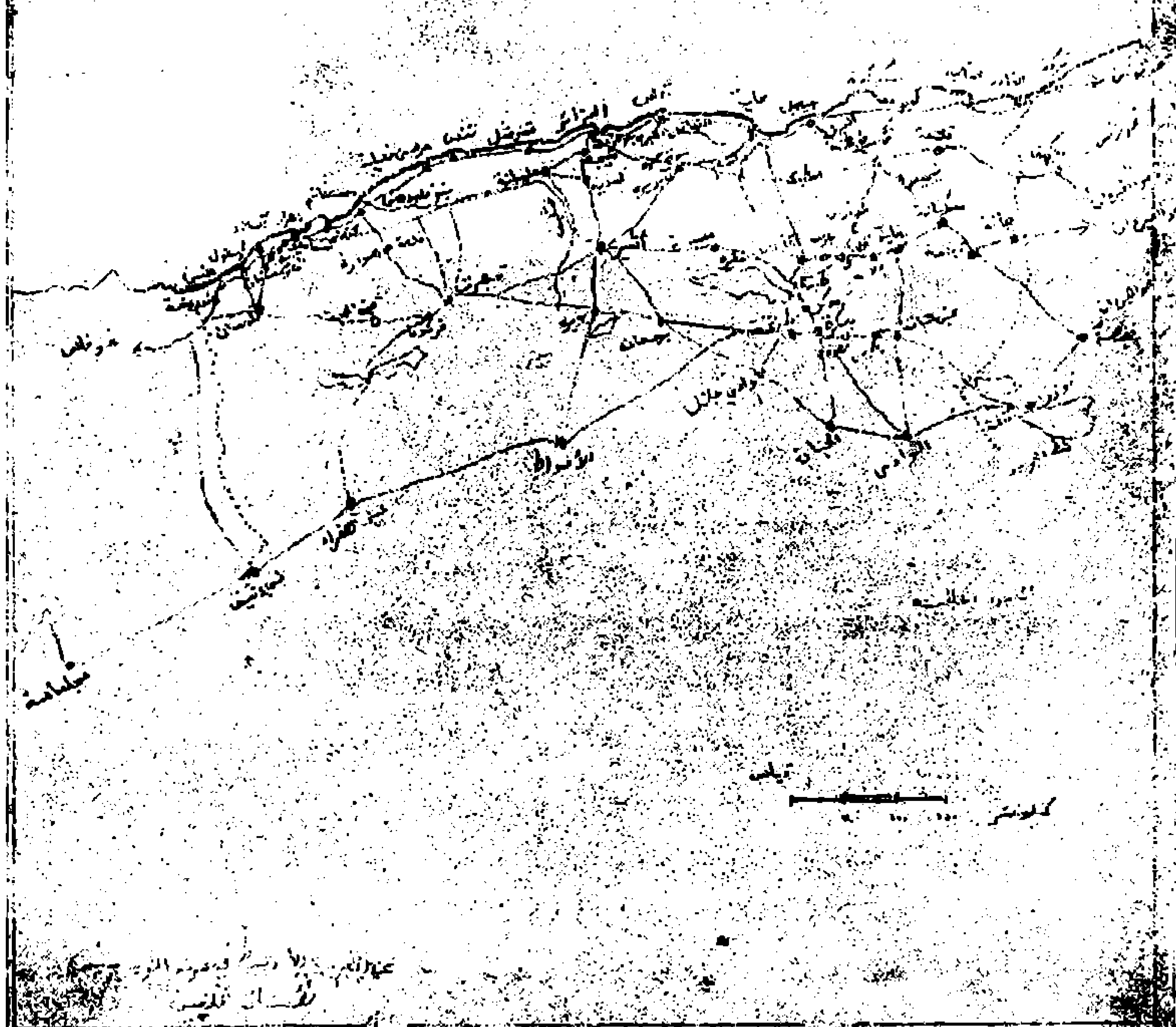
السياسة

قويت الدولة الفاطمية ، فاستولت على تيهرت والقيروان وأخـذ نفوذها يشتد شيئا فشيئا نحو الشرق حتى فتحت مصر وأسس قائدها ــ جوهر ــ القاهرة •

فأجمع المعز العبيدي رأيه على أن يجعلها قاعدة لملكه • فارتحل اليها وترك مكانه على المغرب ــ بلقين بن زيري بن مناد ــ الصنهاجي • فأخذ هذا زمام الامر يوم الاربعاء ٢٢ ذي الحجة ٣٦١ هـ (٤ تشرين الاول ٩٧٢ م) ، وكان في اول أمره واليا على مدينة الجزائر ايام امارة والده على صنهاجة ، ثم خلفه بلقين في امارته قبل ان يتولى امارة افريقية • ولقد استطاع ان يحقق وحدة المغرب العربي على نحو لم يوفق اليه حكام المغرب قبله • فضرب العملة باسمه وبجلوسه على عرش افريقية انتهى عهد العرب بالملك بالمغرب واستقل البربر ببلدهم تحت لواء الاسلام •

لما مات « بلقين » خلفه ولده المنصور ، وكان مقيما بولاية « أشير » وقد عهد اليه ابوه بالولاية • فبويع سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٤ م) • وبعده بويع ابنه « باديس » • كان اول ما قام به من الاعمال الادارية أن عقد لعمه ــ حماد بن بلقين ــ على جميع ولاية الجزائر الشرقية وأقطعه مقاطعة « أشير » وأمده بالخيل والسلاح حتى يكون دائما على اهبة للدفاع امام طوارىء القبيلة المعادية ــ زناتة ــ • فتمردت ــ زناتة ــ على السلطة الحاكمة • فأمر « باديس » عمه بالقضاء على حركة هؤلاء الثوار • فاشترط « حماد » على « باديس » أنه ، ان نجح في زحفه على زناتة ، أن يوليه المغرب الاوسط • فوافقه ــ باديس ــ على ذلك • فأعلن « حماد » الحرب على زناتة وظفر بهم • فأصبح حينئذ صاحب النفوذ المطلق بالجزائر ، وأعلن قطع الولاء للفاطميين في عام ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) • وصارت تمتد هذه المملكة غربا الى « فاس » وشرقا الى « تونس » وجنوبا الى « الزاب » و « ورقلة » • وتعتبر الدولة الحمادية اول دولة بربرية بالجزائر الاسلامية • واستقلالها كان تاما ورئيس الحكومة كان يلقب بالملك •

أهم الطرق بالجزائر
في أواخر القرن الرابع الهجري



فحدود هذه الدولة هي نفس الحدود الرستمية التي هي الاخرى حدود الجزائر اليوغورطية •

المجتمع

كان اول ما فكر فيه حماد أن يؤسس عاصمة جديدة لملكه • فاختار لها موقعا استراتيجيا هاما بجبل منيع يعرف بجبل كياته وعلى مقربة من ميناء (بجاية) ومن مسيلة التي كانت وقتئذ ملتقى طرقات القوافل الآتية من المالي والسودان والذاهبة الى « تيهرت » و « القيروان » منجهة والى « الجزائر » و « تونس » و « وهران » من جهة اخرى • وسمى عاصمته « بالقلعة » • ولم يأل جهدا لاعلاء شأنها • فأخذ في تعميرها • فشيدت المساجد والفنادق ، وقصدها التجار وأهل الصنائع من الداخل والخارج •

حاول الفاطميون نشر مذهب الشيعة الاسماعيلية بين الشعب الافريقي ومحو مذهب أهل السنة ومذهب الخوارج • فأخذت به قبائل « كتامة » و « صنهاجة » ورفضته « زناتة » وبقيت متمسكة بالخارجية • ولكن حمادا لم يلبث أن أعلن بالغاء مذهب الشيعة ، وفرض على الرعية مذهب أهل السنة • فانقطعت بذلك دعوة الشيعة بالجزائر الصنهاجية ، وفشى المذهب المالكي في جميع طبقات الشعب • فتأثر الخليفة الفاطمي لهذا الانقلاب الديني السياسي الذي وقع بافريقية والجزائر لان المعز بن باديس انتحل هو الآخر مذهب أهل السنة ، وحمل الناس على مذهب الامام مالك واعلن انفصاله عن الدولة الفاطمية •

فصمم المعز الفاطمي على الانتقام من صنهاجة • وبما أنه لم يقدر على محاربتهم بالسيف ارسل الى المغرب قبائل هلال وسليم وزغبة ورياح ومعقل التي انتقلت من الجزيرة العربية الى الصعيد المصري ، وعقد لرؤسائهم على أمصار البلاد وثغورها • فدخل اذن اولئك الاعراب الى افريقية والجزائر وأصبحوا عناصر فوضى واضطراب وتخريب كان لها الاثر السيء في الميدان الاقتصادي • فانقطعت المواصلات بين الحواضر والبوادي وذهب الامن الذي كان يتمتع به الفلاحون والتجار • فبطبيعة

النزوح الهلالي والمعقلي
على عهد بني حماد

بنو هلال الأثبج وزغبة ورياح
معقل

صحراء الجزائر

العرب
البربر

الملثمون (التوارق)

كيلومتر ١٠٠

عن المغرب الأوسط في عهد الزيريين
للأستاذ تقيبي

الحال تضعف الزراعة والتجارة وينقص بذلك الرخاء والضرائب التي لا بد منها للقيام بالمشاريع العامة • ومن حسن الحظ أن بقيت السواحل بعيدة عن هذه القلاقل ، فانحصر العمران فيها وراجت الاسواق ، وطابت الحياة• وكثيرا ما تدخل هؤلاء الاعراب في الحياة السياسية يعينون اميرا على آخر في تنازعهما • فأصبحوا اذ ذاك عنصرا هاما في تفكيك روابط السلطة المركزية • فصالح « حماد » العبيديين لتصبح دولته في مأمن من شر الهلاليين فيذهب ما اصاب البلاد من التدهور ويعود ما فقدته من الازدهار • وفعلا خفت وطأة عيث البدو وفسادهم • فنشطت الفلاحة من جديد ونفقت الاسواق التجارية • ورغم ذلك كان الناصر كثير الحذر شديد التخوف • ففكر في تأسيس مدينة حصينة يجعلها قاعدة ملكه • فاختار موقعها على مقربة من الميناء الفينيقي « صلداي » ، واختطها سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٧ م) ثم انتقل اليها ، وسماها الناصرية ، وأقام بها من اسباب الحضارة ما لم ير مثله شرقا ولا غربا • وأراد ان يكون له اسطول ، فأنشأ دارا لصناعة المراكب والسفن الحربية • ووضع ادارة خاصة لخزينة الدولة ، فأصبحت غنية بموارد الجباية والخراج • ويظهر أن النقود لم تكن مسكوكة باسم هذه الدولةالا في عصر المنصور بن الناصر بن علناس• وكان نظام القضاء يرجع الى مقتضى سير مذهب الامام مالك • والملك كان يصلي في مقصورة خاصة على سنة الملوك • ويمتاز عصر الحماديين بحرية الاديان واحترام العقائد بالجزائر اكثر من عهد الرستميين • في وقتهم تأسست اول كنيسة بالقلعة سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) يديرها اسقف•

الثقافة

رزق الله الجزائر في هذاا العهد ملوكا عنوا بالعلم وأهله • فنهضت الثقافة على يدهم نهضةكبيرة • أسسوا المساجد والمدارس والمعاهد العلمية ازدحم عليها الكثير من العلماء والحكماء والاطباء والادباء ، وأهل الفنون الرياضية والهندسية • وأغدقوا عليهم صلاتهم • وهذه الوفرة من اهل العلم لم تعرفها الجزائر من قبل وحتى في ايام بني رستم التي اتضحت معها

الشخصية العلمية الجزائرية . وشهرة الحماديين بتقريبهم للعلماء ورعايتهم العلم جلبت الكثير من عباقرة تونس والاندلس والشام والحجاز والعراق وصقلية والعجم . فتقاطروا على « القلعة » و « بجاية » والعواصم العلمية الاخرى . فاستفاد الشعب من علومهم وثقافتهم اللامعة « فبلغ من اقبال الناس على العلم أنه كان يجتمع مع الاستاذ الواحد ما يزيد على مائة طالب » ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره ولا بين الابيض والاسود . فنبغ في عهد بني حماد علماء مبرزون ، وظهر مؤلفون متعمقون في مختلف العلوم التي كانت تمثل الثقافة في ذلك الوقت .

والعربية هي اللسان الرسمي للدولة الحمادية مع أن رؤساءها برابرة لكونها لغة القرآن والدين . شرفوها واجتهدوا في نشرها . ثم جاء الهلاليون وسليم وزغبة ورياح بلغتهم القريبة جدا من الفصحى . فزادت بذلك لغة الضاد انتشارا حتى زاحمت البربرية التي تقلص ظلها على الجبال . فلا الدروس تلقى بالبربرية ولا التآليف تكتب بها كما كان الامر في عهد بني رستم .

والمعارضة المالكية قد نشطت هي الاخرى في هذا العهد وظفرت بالشيعة والخوارجية اللتين تركتا المجال واسعا للمذهب على الدوام .

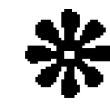
فقد اشتهرت « القلعة » و « بجاية » بالفن شهرتها بالعلوم . فقد تعاطى الناس فن التصوير والتزويق والنحت والنقش ، وصنعوا الاواني الرائعة المطعمة بالذهب والمزينة بالخط العربي ، وبرعوا في صنع الزليج المزين بالصور والفسيفساء .

ويتراءى لنا مما تقدم ان الوسط الجزائري في هذه الفترة كان يتمتع بمستوى رفيع في جميع مظاهر الحضارة ولا سيما الثقافة والادب ايضا كما سنتحدث عنه بعد .

فمن اشتهر من المثقفين الجزائريين في هذه الآونة : المحدث الكبير ابو بكر بن يحيى بن عبدالله بن محمد بن يحيى القرشي الجمحي الوهراني. روى عن أبي محمد بن عبدالله بن ابراهيم الاصيلي وابي عمر الاشبيلي

وعباس بن اصبغ وابن العطار وأبي النصر النحوي •

ومن تلاميذه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني وأبو محمد بن خزرج الذي قال في شيخه : « كان شيخنا هذا متصرفا في العلوم ، قوي الحفظ حسن الفهم • وكان علم الحديث اغلب عليه » • توفي ، رحمه الله ، سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) •



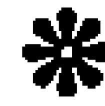
والعالم الشيخ ابوالقاسم يوسف بن علي جبارة بن محمد بن عقيل الهندلي البسكري • ولد سنة ثلاث واربعمائة للهجرة • أخذ عن علماء بلده ، ولم يكفه ما ناله من العلم • فغادر بسكرة واتجه الى المغرب ، ثم قصد المشرق سنة خمس وعشرين واربعمائة • فتتلمذ لعلماء «أصبهان» منهم نعيم أحمد بن عبدالله الاصبهاني • ومن ثم شخص الى بغداد • فأخذ عن القاضي ابي العلاء محمد بن علي بن يعقوب الواسطي • ودخل « نيسابور » سنة ثمان وخمسين • فحضر دروس أبي القاسم القشيري في الاصول وابن منصور • وأبى الا أن يتخصص في علوم اللغة والقراءات فكان له دخل • فقال عنه « أبو الجزري » : (لا أعلم احدا في هذه الامة رحل في القراءات رحلته ولا في من لقي من الشيوخ) • وقال الامير « ماكولا » : كان ابو القاسم البسكري يدرس علم النحو ، ويفهم الكلام • وكان مقدما في علم اللغة وعلل القراءات •

وكان الامام القشيري يراجعه في مسائل النحو والقراءات ويستفيد منه •

هذه التحليلات دليل قاطع على سمو مقامه في ميدان الثقافة وخاصة اللغة والقراءات • فطار صيته ، ووصل خبره الى الوزير نظام الملك سنة ٤٥٨ هـ • فاستدعاه الى الاقراء بمدرسة نيسابور وقرره استاذا فيها • فجلس للتدريس ولم يفارقها حتى توفي ، رحمه الله ، سنة ٤٦٥ هـ • وقد كف بصره في آخر ايامه مع الاسف •

وخلف الشيخ تآليف : منها كتاب الكامل في القراءات الذي جاء

فيه قوله : « فجملة من لقيت في هذا العلم ثلاثة وخمسة وستون شيخا من آخر المغرب الى باب « فرغانة » يمينا وشمالا جبلا وبحرا . ولو علمت أحدا تقدم علي في هذه الطريقة في جميع بلاد الاسلام لقصدته » . وعلق ابن الجزري على كلامه هذا بقوله « كذا ترى همم السادات في الطلب ».



والفقيه عبد الملك مروان بن علي الاسدي القطاني البوني نسبة الى « بونة » اي « عنابة » سكن حاضرة « قرطبة » وتعاطى الفنون الدينية ولا سيما الحديث منها . أخذ عن علماء كبار كأبي محمد الاصيلي والقاضي أبي المطرف عبدالرحمان بن محمد بن فطيس فأراد التزيد من العلم ، فارتحل الى المشرق . فأخذ هناك عن ابي الحسن القابسي ، ولازم مدة طويلة أبا جعفر أحمد بن نصر الدواوي ، واطلع على تآليفه واستفاد منها كثيرا .

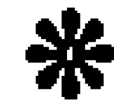
وتفرغ الى التدريس . فتتلمذ له ابو عمر بن الحذاء ، وقال عنه انه كان رجلا صالحا عفيفا عاقلا حسن اللسان والبيان لقيته « ببونة » سنة ٤٠٥ هـ وناولني كتابه في شرح الموطأ ، ثم خاطبته من طليطلة ، فوجه الي الديوان وأجازه لي ثانية وكان قد زاد بعد لقائي له .

وقال عنه ابو القاسم محمد : « لقيته بالقيروان ، وشهد معنا المجالس عند اهل العلم بها ، وكان رجلا حافظا ناقدا في الفقه والحديث . وقرأت بعض تفسيره الموطأ ، وأجاز لي سائره وسائر ما رواه . وذكر الحميدي فقال : « كان فقيها محدثا وله كتاب كبير شرح فيه الموطأ » .

توفي ، رحمه الله ، ببونة سنة ٤٣٩ هـ (١٠٤٧ م) .

والحكيم الرياضي الشهير ابو محمد عبدالله بن يونس بن طلحة ابن عمرون الوهراني . كلف من صباه بالعلوم . فأكب على تحصيلها اكباب ذي العزيمة الثابتة ، فأتقنها ، وتبحر في الرياضيات ، وتضلع في الطب . عالج المرضى من امراض عجز عنها الكثير من اطباء وقته . سافر الى الاندلس في تجارة له سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) وفتنته « اشبيليا » .

فسكنها عام السيل الكبير . حدث عنه ابن خزرج فقال : « قارب الثمانين في عمره » .



والحسن بن علي بن طريف التيهرتي . اولع من صغره بالعلم . فانكب على تحصيله . فاستبطن اسرار اللغة واصبح من أئمة عصره في النحو واللغة . تخرج على أئمة الاندلس وكبار علمائها في القرن الخامس الهجري . منهم الحجاج بن المأمون وابن سعدون ومروان بن عبد الملك والقاضي ابن سهل وابو محمد بن قحلفة وأبو تمام القطبي . ومن تلاميذه علامة المغرب ابو الفضل القاضي عياض وقد ذكره في فهرسته وأثنى عليه فقال : شيخ بلدنا في النحو ، مشهور بالصلاح درس عمره النحو ، وأخذ عنه جماعة اصحابنا وجماعة شيوخنا . توفي ، رحمه الله ، تاسع ذي الحجة سنة ٥٠١ هـ ٨ تموز (١١٠٨ م) .

عرفت الجزائر في هذه الفترة أدباء كثيرين ذوي عارضة في الادب . والادب تقدم تقدما محسوسا من حيث الكم . وأما من جهة الكيف فظل يتسم بسمات المدرسة الشرقية المحافظة في معالجة الشعر من حيث الموضوعات التقليدية . فهو يتناول المدح والهجاء والرثاء والوصف والغزل والزهد والوعظ . والتاريخ يثبت ان الجزائر كانت زاخرة بكتاب جادت أقلامهم بالمقالات العلمية والادبية والخطب الدينية والسياسية والرسائل الرسمية الديوانية . فكان الانشاء في صدر هذا العصر يسير على النظام المعهود من الكلام المرسل ، ولكن ، لم يلبث أن ارتقى . فتأنق الكتاب في انشائهم شأن المشارقة . فمالوا الى السجع والتزيين والتنميق وتقليب الجمل على المعنى الواحد ولكن على غير افساد في الذوق وبدون أن تتغلب الصناعة على الفن . وازدهار الكتابة يرجع الى عناية بني حماد بالادب والادباء . فكانت للكتابة عندهم منزلة ليس وراءها الا منزلة أمراء الجيش ، اذ كانوا هم العمدة يتناول انشاؤهم التهنيئات بالنصر وتقليد الوظائف ومكاتبات العمال والامراء والملوك .

ليس من شك في ان الشعراء قد مدحوا الحماديين في شتى المناسبات من أفراح وأعياد ومواسيم وانتصارات • ومع الاسف أنه ليس بأيدينا أشعارهم الان ، ونظن أننا لا نعثر عليها فيما بعد لان كل المعالم التي تتصل بالعصر الحمادي الاول ضاعت ، فلم يتيسر العثور على مدائح أولئك الشعراء كما ضاعت الرسائل الديوانية على عهد هؤلاء الملوك لكثرة الاضطرابات والفتن التي وقعت في آخر سلطانهم • الا أن هناك شخصية تتمثل في ابن رشيق المسيلي المشهور بالقيرواني لطول مكوثه بالقيروان وعلو كعبه في الادب وفنونه بين أقرانه •

ابن رشيـــق

هو أبو علي الحسن بن رشيق الشاعر الناقد • ولد سنـة ٣٩٠ هـ بالمسيلة حيث كان ابوه يحترف صياغة الذهب • وقد اشتغل الحسن في حرفة أبيه ، ولكنه نزع منذ صغره الى الادب • ولم يقنع بما قرأه في بلده • فنزح الى القيروان وعمره ست عشرة سنة • وكانت عاصمة الزيريين وقتئذ محط رجال العلم والادب ، تزخر بهم نواديها ومدارسها ومساجدها • تتلمذ الحسن هناك على الشيخ ابي عبدالله التميمي محمد ابن جعفر القزار الشاعر الاديب ، وعلى عبد الكريم النهشلي وابي اسحاق الحصري صاحب زهر الآداب ، وأبي عبدالله عبد العزيز بن سهل الخشني الضرير وكان مشهورا بالعلم والنحو واللغة ، وعلى غيرهم • وسنحت لأديبنا الظروف أن يلتقي بأدباء عصره ، ونقدهم وانتقدوه وساجلهم ، وساجلوه ، منهم خلف بن احمد القيرواني الشاعر وابو عبدالله الصفار الصقلي وابن شرف • وكان بينه وبين هذا الاخير مناقضات تدلنا على ذلك رسائله التي رد بها عليه : منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة نجح الطلب ورسالة قطع الانفاس ورسالة نقض الرسالة الشعوذية والرسالة المنقوضة ورسالة رفع الاشكال ودفع المحال • وهذا الاحتكاك بهؤلاء الادباء قد أفاده كثيرا ، فاشتهر ووصل خبره الى « المعز بن باديس » الذي كان لا يدخر وسعا في تجميل بلاطه بأوفر عدد من رجال الاقلام والنقاد وكبار

الشعراء بحيث انه كلما سمع بعالم او شاعر طار صيته استدعاه لقصره وأغدق عليه ألوان الحظوة والتشجيع حتى قيل : ان بلاط المعز جمع اكثر من مائة شاعر • قر ب المعز الحسن بن رشيق وادناه فكان هو وابن شرف متقدمين عنده على سائر من في حضرته من الادباء • ويلاحظ انه كان تنافس كبير بين الاديبين يشعله الرغبة في التفوق • كل منهما كان يغربل انتاجه ويعمل ما في وسعه للاتيان بكل نفيس رائع من شأنه ان يرضي العاهل الكريم الذي كان على درجة عالية من الثقافة الادبية والذوق الفني بما أهله لنقد آثار كبار الشعراء نقدا صائبا • صنع ابن رشيق رسالة ينتقد فيها الشعر والشعراء وسماها قراضة الذهب ونجد لابن شرف رسالة أيضا تشبهها •

وقد خلف ابن رشيق ما يربو على ثلاثين كتابا منها أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، والشذوذ في اللغة ، والرسائل الفائقة والنظم الجيدة ونسخ الملح وفسخ اللمح • ولم يبق من هذا التراث الضخم الا قراضة الذهب ، والعمدة التي خلدت ذكره •

وكان اهل العلم يرفعون كتبهم الى أمير او وزير او عظيم يرجون من وراء ذلك الشهرة وانتشار الكتاب والعطاء • وابن رشيق هو الآخر حذا حذوهم ، رفع عمدته الى « السيد الامجد والفذ الاوحد حسنة الدنيا وعلم العليا باني المكارم وآبي المظالم رجل الخطب وفارس الكتب ، أبي الحسن على بن أبي الرجال الكاتب زعيم الكرم وواحد الفهم الذي نال الرئاسة وحاز الكياسة » •

وهذا الكتاب يدل على بعد غوره في الادب والنقد يتضمن عددا كبيرا من الابواب معظمها في نقد الشعر وصناعته وتأريخه وما يتصل به من مباحث الوزن والقافية والصور الفنية في القول والشعر • ويضم الى هذا كله موضوعات اخرى لا علاقة لها بالادب ، يتحدث عن اصول النسب وبيوتات العرب ووقائع العرب وأيامهم وملوكهم والعتاق من الخيل وأشياء أخرى • وقد قال ابن خلدون في هذا الكتاب « ان كتاب العمدة هو الكتاب الذي انفرد بهذه الصنعة واعطاها حقها ولم يكتب فيها أحد

قبله ولا بعده مثله » •

ولا غرو ان الذي يتصدى لنقد الشعر والشعراء فلا بد من ان يكون له حظ وافر من الثقافة والشاعرية والذوق الفني • وفعلا قد قال الشعر وابدع فيه • كان موهوبا منذ صغره • فقد قرض الشعر قبل ان يغادر « المسيلة » • واتصاله ببلاط المعز العامر بالشعراء والادباء قد شحذ قريحته • فأتى بشعر يمتاز بالصورة الفنية والخيال البارع ، نال به الحظوة لدى الامير والهدايا السنية • كان الحسن مقتنعا بأنه خليق بأن يستشهد بشعره كما يستشهد بشعر المتنبي والبحتري وابن الرومي وابن المعتز ، وبأن يكون شهيرا مثلهم في ميدان الشعر • فقد اعجب بشعر المتنبي وحدثته نفسه ان يعارضه • يقول ابن بسام في ذخيرته : «وحدثت أن أبا علي بن رشيق ناجى نفسه بمعارضة ابي الطيب المتنبي في بعض أشعاره » • قد ذكر ابو الطيب الخيل في كثير من شعره فقال يذكر قدومه على مصر على خوف من سيف الدولة :

ويوم كليل العاشقين كمنته   أراقب فيه الشمس ايان تغرب
وعيني الى أذني أغر كأنه   من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في اهابه   تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء وأدني عنانه   فيطغى ، وأرخيه مرارا فيلعب
وأصرع أي الوحش قفيته به   وأنزل عنه مثله حين أركب
وما الخيل الا كالصديق قليلة   وان كثرت في عين من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها   وأعضائها فالحسن عنك مغيب

وها الحسن يقدم لنا مقطوعة في وصف الناقة ويقول : « وقد قلت أنا ، وان لم ادخل في جملة من تقدم ولا بلغت خطته ، من قصيدة اعتذرت بها الى مولانا خلد الله ايامه من طول غيبة غبتها عن الديوان » :

اليك يخاض البحر فعما كأنه   بأمواجه جيش الى البر زاحف
ويبعث خلف النجح كل منيفة   تريك يداها كيف تطوى التنائف
من الموجفات اللاء يقذفن بالحصى   ويرمى بهن المهمه المتقاذف
يطير اللغام الجعد عنها كأنه   من القطن او ثلج الشتاء ندائف
وقد زاغت فضل الزمام ابن نكبة   هو السيف لا ماأخلصته المشارف

فكيف تراني لو أعنت على الغنى بجد ، واني للغنى لمشارف
وقد قرب الله المسافة بيننا وأنجزني الوعد الزمان المساوف
ولولا شقائي لم أغب عنك ساعة ولا رام صرفي عن جنابك صارف
ولكنني أخطأت رشدي فلم أصب وقد يخطىء الرشد الفتى وهو عارف

وها هو يقدم لنا مقطوعة اخرى في وصف الفرس كأنه يريد ان يظهر لنا أنه قادر على وصف الفرس كالمتنبي ، فيقول : « ومن من قصيدة صنعتها بديهة « بالمهدية » ساعة وصولي اليه ، أدام الله عزه ، عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا :

وذيال له رجل طحون لما نزلت به ، ويد زجوج
يطير بأربع لا عيب فيها لظهران الصفا منها عجيج
خرجت به عن الاوهام سبقا وقل له عن الوهم الخروج
الى الملك المعز ابي تميم أمر بمن سواه فلا أعيج

وفي المقطوعتين من الصورة الفنية والخيال والجزالة والرصانة ما يذكرنا بشعر المتنبي .

وكما تحسس ابن رشيق من نفسه انه كالمتنبي فانه ليس دون البحتري أيضا فقد ذكر له قوله في العتاب :

يريبني الشيء تأتي به وأكبر قدرك أن استريبا
وأكره أن اتمادى على سبيل اغترار فألقى شعوبا
أكذب ظني بأن قد سخطت وما كنت أعهد ظني كذوبا
ولو لم تكن ساخطا لم أكن أذم الزمان واشكو الخطوبا
ولا بد من لومة أنتحي عليك بها مخطئا أو مصيبا
أيصبح وردي في ساحتيك طرقا ومراعاي محلا جديبا ؟
أبيع الاحبة بيع السوام وآسي عليهم حبيبا حبيبا
ففي كل يوم لنا موقف يشقق فيه الوداع الجيوبا
وما كان سخطك الا الفراق أفاض الدموع وأشجى القلوبا
ولو كنت اعلم دنيا لما تخالجني الشك في أن أتوبا
سأصبر حتى ألاقي رضا ك اما بعيدا واما قريبا
أراقب رأيك حتى يصح وأنظر عطفك حتى يؤوبا

ثم أتبع هذه الابيات بقوله : « وقد نحوت أنا هذا النحو في كلمة عاتبت بها القاضي جعفر بن عبدالله الكوفي قلت فيها :

وقد كنت لا آتي اليك مخاتـلا لديك ، ولا اثني عليك تصنعـا
ولكن رأيت المـدح فيك فريضة علي اذا كـان المديـح تطوعا
فقمت بما لم يخف عنـك مكانه من القـول حتى ضاق مما توسعا
ولو غيرك الموسوم عنـي بريبـة لاعطيت منها مدعى القول ما ادعى
فلا تتخالجـك الظنون فانهـا مآثم ، واترك في للصنع موضعـا
فوالله ما طولت باللوم فيكـم لسانا ، ولا عرضت للذم مسمعـا
ولا ملت عنكم بالوداد ، ولا انطوت حبالي ، ولا ولى ثنائي ، مودعـا
بلى ربما أكرمت نفسي فلم تهن وأجللتها عن أن تذل وتخضعـا
ولم أرض بالحظ الزهيد ، ولم اكن ثقيلا على الاخـوان كلا مدفعا
فباينـت لا ان العداوة باينـت وقاطعت ، لا ان الوفاء تقطعـا
ألوذ بأكناف الرجاء ، وأتقـي شمات العدا ، ان لم أجد فيك مطمعا

واذا قابلنا هذه القطعة بالاخرى وجدنا وجوه الشبه بينهما من حيث النهج والمعاني وتناسق الفقرات والعبارات • فنرى حينئذ أن ابن رشيق ليس بالمغالي اذا أحس بنفسه خليقا بأن يكون في مصاف الفطاحل من شعراء العرب •

ترك لنا ابن رشيق شعرا كثيرا في الوصف • وصف الطبيعـة في الشتاء • اليك مقطوعة يتحدث فيها عن تجهم السماء وانتشار السحاب ووميض البرق ونزول المطر :

خليلي هل للمزن مقلة عاشـق أم النار في احشائها وهي لاتدري
سحاب حكت ثكلى اصيب وحيدها فعاجت له نحو الرياض على قبـر
ترقرق دمعها في خدود توشحـت مطارفها بالبرق طرزا من التبـر
فوشي بلا رقم ونسج بلا يـد ودمع بلا عين وضحك بلا ثغـر

فالمقطوعة كما ترى مفعمة بالخيال والتشابيه الطريفة •

ووصف الطبيعة عند مطلع الفجر فأقرأ معنا هذه الابيات تقف على حقيقة قدرته في ابراز الصورة الفنية :

كأنما الصبح الذي تفــرى
ضم الى الشرق النجوم الزهــرا
فاختلطـــت فيــه فصارت فجرا

والصورة نعثر عليها في شتى اشعاره ، نلمسها في هذين البيتيــن حيث يصف البحر الهائج المائج في الليل :

ولقد ذكرتــك في السفينة والردى متوقع بتلاطـــم الامـــــواج
والجو يهطل والرياح عواصـــف والليــــل مسود الذوائـــب داج

ووصف شاعرنا السفر في المفاوز فقال :

وماء بعيد العور كالنجم في الدجى وردت طروقا او وردت مهجــرا
علم قدم اخت الجنـــاح واخمص يخال حصا المعزاء جمرا مسعــرا
فريدا من الاصحاب صلتا من الكسا كما أسلم الغمد الحسام المذكــرا

نحس ، ونحن نقرأ هذه الابيات ، بوعورة الصحراء وصلابة صخرها وحر رمضائها . وانظر الى تشبيهه تفرده بالحسام اسلمه غمده :

وقد تعرض ابن رشيق لوصف الحيوان فوصف زرافـــة جاءت « للمعز بن باديس » هدية من مصر فقال :

وأتتك من كسب الملوك زرافـــة شتى الصفات لكونها أثنـــــاء
جمعت محاسن ما حكت فتناسبت في خلقهـــا وتناقت الاعضـــاء
تحتثها بين الخوافق مشيــــــة باد عليهـــا الكبـــر والخيلاء
وتمد جيدا في الهـــواء يزينهـــا فكأنه تحت اللـــــواء لـــواء
حطت مآخرها ، وأشرف صدرهـــا حتـــى كأن وقوفها اقعـــاء
وكأن فهر الطيب ما رجمت بـــه وجه الثرى لو لمـــت الاجـزاء
وتحيرت دون الملابس حاـــــة عيت لصنعـــة مثلهـــا صنعـــاء
لونا كلون الزبـــل الا انــــه حلـــي وجزع بعضـــه الجلاء
أو كالسحاب المكفهـرة خيطـت فيه البروق ، وميضها ايمـــاء
أو مثل ما صدئت صفائح جوشـن وجـــرى على حافاتهن جـــلاء
نعم التجافيف التي ادرعت بـــه من جلدها لو كان فيـــه وقـــاء

وقال فيها ايضا :

ومجنونـــة ابدا لم تكـــن مذللـة الظهــــــر للراكـــب

قد اتصـــل الجيد من ظهرهـــا بمثل السنام بـــلا غـــارب
ملمعـــة مثـــل ما لمعـــــت بحناء وشي يـــد الكاعـــب
كأن الجـــواري كنفنهـــــا لخالـــج من كـــل جانـــب

وقد وصف الفواكه والزهور ، ولكنه لم يبلغ فيها شأو الاندلسيين. فابن رشيق يظهر فيما أتينا به من شعره في الوصف وصافا حاذقا وفنانا بارعا يعد من طراز الشعراء الممتازين بقوة الخيال ودقة الوصف والتصوير . وابن رشيق هو الشاعر الجزائري الوحيد الذي نظم في المجون والخمريات. فانه نحا في هذا الغرض نحو أبي نواس . كان يشرب الخمر ويشربهـا صرفـا .

قلـــت لمن ناولنـــي مـــــرة ما بي حـــب الغيد بل حبهـــا
لا تسقني راحـــك ممزوجـــة واشرب فمـــا يمكنني شربهـــا
ما راحتي في الـــراح ان غيـــرت دعها كمـــا جاء بها ربهـــا

واذا كانت ممزوجة فلا بد ان تكون فوق قدر الماء وتأثيرها يكون أشد اذا مزجت في الفم بالريق .

قدر المدامـــة فوق قدر المـــاء فارغب بكأســك عن سوى الاكفاء
ما لي ومزج الراح الا في فمـــي بالريـــق من فـــم غادة حسناء
ذاك المزاج وان تعداني الـــذي في المـــزن من ذي رقـــة وصفاء
أشهى وابلـــغ في الفـــؤاد مسرة من غيـــره وأدب في الاعضـــاء
لي الصرف ان فرح النديم ولم اكن مستأثرا فيها عـــن الندمـــاء

ونجتزيء بهذه الابيات فانها على قلتها تطلعنا على استهتاره وتعاطيه الخمرة واعظامه لها . ومن الاغراض التي أجاد فيها ايضا الرثاء فقد بكى خلانه وشيوخه واولياء نعمته . يموت المعز بن باديس ويرثيه بقوله :

ولى المعز على أعقابـــه فرمـــى أو كاد ينهد من أركانه الفلـــك
مضى فقيرا وابقى في خزائنـــه هام الملوك وما ادراك ما ملكـــوا
ما كان الا حساما سلـــه قـــدر على الذين بغوا في الارض وانهمكوا
كأنه لم يخض للموت بحـــر وغى خضر البحار اذا قيست به بـــرك
ولم يجـــد بقناطير مقنطـــرة قد ارعيت باسمه بريزها السكـــك
راح المعز وروح الشمس قد قبضا فانظر بأي ضياء يصعـــد الفلـــك

ويموت ابو اسحاق ابراهيم بن حسن المعافري ، وكان عالما جليلا • مشى في جنازته المعز بن باديس في جمع عظيم • فيرثيه ابن رشيق :

يا للرزيـــة في ابي اسحـــاق ذهب الحمام بأنفس الاعـــلاق
ذهب الحمـــام بخاشع متبتـــل تبكي العيون عليه باستحقـــاق
ذهب الحمـــام بيدر ثم لـم يدع منه الـــردى الا هلال محـــاق
وحوت جنوب اللحد بحرا زاخـــرا ترك البحار الخضر وهي ســواق
فاليوم اغلـــق كل فهم بابــــه لما فقدنـــا فاتـــح الاغـــلاق
ما القيـــروان أذقت ثكلك وحدهـــــا قد ذاق ثكلك سائر الآفاق

والمرثيتان تطلعاننا على مهارته في هذا اللون من الشعر • فذكر كلا من الرجلين بما كان له من الصفات التي تلائم منزلته ومكانته وحياته •

تفاقم الامر بين المعز بن باديس وبين هلال وسليم فأشعـل هؤلاء الاعراب نار الحرب وحاصروا القيروان وخربوها وألجأوا صاحبها الـى هجرها الى المهدية • فتشتتت مجامع العلم والادب ، وتفرق العلماء والادباء أيدي سبأ وقد حفرت النكبة في قلوبهم آثارا لا تمحى • فراحوا يندبـون عاصمتهم في قصائد خلدها التاريخ •

ها هو ابن رشيق يصف ما كانت عليه القيروان في ايام عزها مـن اطمئنان وأمان ومن رغد العيش ثم ما صارت اليه من خوف وذعر وهوان ، ويذكر كيف ألم لهذه النكبة جميع الاقطار الاسلامية من الخليج الـى الاندلس فيقول الشاعر :

كم كان فيها مـــن كرام ســـادة بيض الوجوه شوامـــخ الايمـــان
متعاونين على الديانة والتقـــى للـــه في الاسرار والاعـــلان
ومهــــذب جم الفضائل بـــاذل لنوالـــــه ولعرضه صـــوان
وأئمة جمعوا العلـــــوم وهذبوا سنن الحديث ومشكل القـــرآن
علماء ان ساءلتهم كشفوا العمـــى بفقاهـــة وفصاحة وبيـــــان
كانـــت تعد القيـــروان بهم اذا عد المنابر زهـــــرة البلـــدان
وزهت على مصر وحق لهـــا كمـــا تزهو بهم ، وغدت على بغـــدان
حسنت فلما اذ تكامـــــل حسنها وسما اليهـــا كل طـــرف ران
وتجمعت فيها الفضائل كلهـــــا وغدت محـــل الامن والايمـــان

نظرت لها الايـــام نظرة كاشـــح ترنو بنظرة كاشـــح معيـــان
حتى اذا الاقدار حـــم وقوعهـا ودنـــا القضـــاء لمدة وأوان
أهـــدت لها فتنا كليل مظلـــم وأرادها كالناطـــح العيـــدان
بمصائـــب من دفاع وأشالـــب ممن تجمع من بنـــي دهمـــان
فتكوا بأمة أحمـــد أتراهـــم أمنوا عقاب الله في رمضـــان
نقضوا العهود والمبرمات واخفروا ذمم الاله ولـــم يفوا بضمـــان
فاستحسنوا غدر الجوار وآثـروا سبي الحريم وكشفـــة النسوان
ساموهم سوء العـــذاب واظهروا متعسفين كوامـــن الاضغـــان
والمسلمـــون مقسمون تنالهـــم أيدي العصاة بذلـــة وهـــوان
ما بيـــن مضطر وبين معـــذب ومقتل ظلمـــا وآخر عـــان
يستصرخون فلا يغاث صريخهـــم حتى اذا سئموا مـــن الارنـــان
خرجوا حفـاة عائذين بربهـــم من خوفهم ومصائـــب الالـــوان
هربـــوا بكل فطيمة ووليـــدة وبكل أرملة وكـــل حصـــان
والمسجد المعمـــور جامع عقبـــة خرب المعاطـــن مظلم الاركـــان
قفر فما تغشاه بعـــد جماعـــة لصـــلاة خمـــس لا ولا لأذان
اعظم بتلـــك مصيبة ما تنجلـــي حسراتها أو ينقضي الملـــوان
حزنت لهـــا كور العراق بأسرهـــا وقرى الشام ومصر والخرســـان
وتزعزعـــت لمصابها وتنكـــدت أسفا بلاد الهنـــد والسنـــدان
وعفا من الاقطـــار بعد خلائها ما بين اندلس الـــى حلـــوان
وأرى النجوم طلعن غير زواهـــر في افقهن وأظلـــم القمـــران
وأرى الجبال الشم أمست خشعـا لمصابهـــا وتزعزع الثقـــلان
والارض من وله بها قد اصبحـت بعد القرار شديـــدة الميـــلان
أترى الليالي بعدما صنعت بنـــا تقضي لنـــا بتواصل وتـــدان
وتعيد ارض القيروان كعهدهـــا فيما مضى من سالـــف الازمـــان
امست وقد لعب الزمـــان بأهلها وتقطعت بهم عـــرى الاقـــران
فتفرقوا أيدي سبا وتشتتـــوا بعد اجتماعهـــم على الاوطـــان

قصيدة رائعة تدل على طول نفس الشاعر وقدرته على تصويـــر احساساته لهذه النكبة وحسراته على هذه العاصمة التي كانت تنافس بغداد وقرطبة عزة وازدهارا • فأصبحت عرضة للظلم والفساد والهوان • وقد

أزعجت هذه النكبة اصحابه ابن شرف والحصري وعبد الكريم بن فضال. فبكوا قيروانهم بشعر رقيق . وقد تبع ابن رشيق في قصيدته شعراء بعده قد ألم ببلادهم مثل نكبة القيروان ، وان كانوا فيما نرى لم يبلغوا من قصائدهم شأوه في قصيدته . ولعل ابا البقاء الرندي قد عارض نونية ابن رشيق بنونيته في رثاء الاندلس حيث يقول في مطلع قصيدته :

لكل شيء اذا ما تم نقصان   فلا يغر بطيب العيش انسان

واما الهجاء ، فان ابن رشيق ليس له يد طولى فيه . فهذا النوع لم يكن من مذهبه . وذلك لانه كان سمح النفس حسن المعاشرة ، لا يدخل في عداوات الناس . ومما وصل الينا من هجائه قوله :

يا موجعي شتما على أنه   لو فرك البرغوث ما أوجعا
كل له من نفسه آفة   وآفة النحلة أن تلسعا

فشتان ما بين هذا الهجاء وهجاء جرير وبشار وابن الرومي الفاحش المقذع . يرى ابن رشيق ان « العفو من القادر أحسن » .

وشاءت الاقدار ان يغادر ابن رشيق المهدية وينتقل الى صقلية ، الا أنه التزم الصمت في تلك الديار الا ما كان حين استنهضه ابن شرف في أن يجوزا معا الى الاندلس . فرفض ابن رشيق ويعلل لرفضه بقوله :

مما يبغضني في ارض اندلس   سماع مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

فأنشد ابن شرف :

ان ترمك الغربة في معشر   قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم   وأرضهم ما دمت في ارضهم

وبيتا ابن رشيق يدلان على تشاؤمه لتقلبات الامور في البلاد الاسلامية . فانه مات « بمازر » احدى مدن جزيرة صقلية سنة ٤٥٦ هـ (١) على حسب صاحب معجم الادباء والسيوطي وصاحب شذرات الذهب .

---

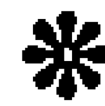
١ ـ وقد قال ابن خليكان ان وفاته كانت في سنة ٤٦٣ هـ .

ضعف الدولة الحمادية

المرابطون والنورماند

تمتعت الدولة الحمادية باستقرار واقعي في ريعان شبابها • ومع الاسف ان هذا الاستقرار اخذ مع توالي الايام يضعف قليلا قليلا الى أن تضعضع هيكلها ، وذلك بالاضطرابات الداخلية والهجومات الاجنبية التي استهدفت لها برا وبحرا • اجتهدت الحكومة في الداخل في كسر شوكة تلك العناصر المتنازعة من ناحية والثائرة من ناحية اخرى • وكانت القوات الصنهاجية تحت قيادة « بلكين بن زيري » حملت على الثغور المغربية التي لجأت اليها زناتة سنة ٤٥٤ هـ • فلم يتدخل في ذلك يوسف بن تاشفين بل ترك بلكين يتنكر بتلك العناصر المعادية • وهنا نسجل ملاحظة وهي اتحاد صنهاجة الجزائر مع صنهاجة المغرب الاقصى ضد عدوهم اللدود زناتة • وفي وقت المنصور الحمادي الصنهاجي طغت زناتة • فارسل يوسف اليهم قائده اللمتوني مزدلي بن بكلان على رأس عشرين الف مقاتل • فزحف على المغرب الاوسط فبلغ تلمسان ، وعاث في نواحيها ، ثم عاد الى مركزه بالمغرب الاقصى • ولم تمض سنة حتى أعاد المغاربة كرتهم على تلمسان فأخرجوا منها أمراء بني خزر الزناتيين واستولوا عليها • وفي سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨١ م) زحف يوسف بن تاشفين نفسه نحو الجزائر • فاستولى على تلمسان ووهران وتنس متتبعا مواطن زناتة حيثما كانوا • ولما وصل مدينة الجزائر قفل راجعا الى حضرته مراكش ، فدخلها سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) فيظهر من جولته الخاطفة في غرب الجزائر انه لم ينو محاربة بني عمه صنهاجة وألا يستعمر الجزائر وانما أراد ان ينتقم من قبيلة زناتة ويشتت شملهم ليس غير • لكن المنصور اعتبر دخول المرابطين الى ارض الجزائر تعديا على مملكته فجيش الجيوش وخرج لقتالهم في شوال ٤٩٦ هـ (تموز ١١٠٣ م) وحمل عليهم بتلمسان فانكسرت شوكة المرابطين وتم السلم بين المملكتين ، وبقيت حدود الجزائر كما كانت عليه من قبل • وكانت جيوش الحماديين اعانت الزيريين على « النورماند »

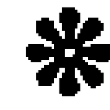
بالمهدية وتونس فأحفظ النورماند ذلك الهجوم المنكر من دولة بني حماد فانتقموا منهم سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) بغزو مدينة « جبيجل » فانتهبوها وبالغوا في خرابها واحرقوا دورها . وكان من بين ما أفسدوه بها قصر النزهة الذي أشاده الملك « يحيى بن عزيز » فوق جبل عيوف مشرفا على المدينة تجاه البحر . وأعاد « النورماند » غزو الساحل الجزائري سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٣ م) . فاحتلوا في هذه المرة « جيجل » و « برشك » و « شرشال » و « تنس » . فهذه الاضطرابات وهذه الهجومات كان لها أثرها في جميع مرافق الحياة الدولية ولا سيما الاجتماعية والثقافية منها . ضعف الاستقرار وقل معه الرخاء . فأين مجالس المناظرات التي كانت تقع بين العلماء أمام الملوك ، وأين تلك المشجعات للعلماء والادباء ؟ ورغم ذلك فان سوق العلم والادب بقيت نافقة ولو ظهر فيها شيء من الفتور ، لان امراء هذه الدولة ، ولا سيما العزيز ، نهضوا بالثقافة نهضة واسعة ودفعوا بها الى الامام دفعة قوية ، فأمكنها ان تثبت هذا الثبات لهذه الاضطرابات المتوالية الخطرة . وأضف الى ذلك ان الجزائر كانت على صلة بالاندلس. كان الاندلسيون في رحلاتهم الى الشرق يمرون بالجزائر ويمكثون بها ردحا من الزمان . فينتفع الجزائريون من علمهم وأدبهم ، وربما استقروا في عودتهم ، بالجزائر نهائيا . وكان الجزائريون يقصدون الاندلس يستكملون فيها دراستهم ويرجعون متبحرين في مختلف الفنون . واحتكاك أدبائنا بأدباء الاندلس عندنا او عندهم كان له أثره في الحقل الادبي الجزائري . والجدير بالذكر أن الآداب الجزائرية لم تكن صورة للآداب الاندلسية ، بل كانت قائمة بنفسها ، لها كيانها وشخصيتها .



ونبغ في هذه الآونة الامام الفقيه الاديب ابو محمد عبدالله محمد الاشيدي . كان لا يشق له غبار في الفقه والحديث والادب تلقى علما وافرا في الجزائر . فأراد التزيد منه وملاقاة أهله . فرحل الى المشرق . فدخل الشام واستوطن حلب. ويحدثنا « ياقوت » عنه فقال : « امام اهل الحديث

والفقه والادب بحلب خاصة وبالشام عامة • يتسابق الناس الى الاخذ عنه ، ويتفاخر الوزراء والملوك بمجالسته والاسترشاد بعلمه وآرائه الصائبة » • استقدمه الوزير ابو المظفر عون الدين يحيى بن هبيرة وزير المقتفي الى بغداد وطلبه من الملك نور الدين محمد بن محمد بن رتكي لالقاء دروس الحديث ببغداد • فسيره الملك اليه مكرما • فدرس هناك كتاب الافصاح عن شرح معاني الصحاح بمحضر الوزير واضع الكتاب نفسه ، وهو شرح يحتوي على تسعة عشر كتابا شرح بها الوزير احاديث الصحيحين • الا انه لم يدم مكوثه ببغداد ، فانتقل الى مكة •

ومن ثم عاد الى الشام فمات ، رحمه الله ، ببعلبك سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) •

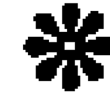


وهذا الحكيم الفيلسوف ابو عبدالله محمد بن علي المشهور بابن الرمامة • ولد بالقلعة في رجب سنة ٤٧٨ هـ (١٠١٥ م) واخذ في اول أمره عن أبي الفضل بن النحوي ببلده وعن ابي محمد المقري ببجاية وأبي اسحاق ابراهيم بن حماد وعن خاله ابي الحسن علي بن طاهر بن محشوة بمدينة الجزائر • انتقل الى الديار الاندلسية يتجر ويطلب العلم • فلقي بقرطبة الفيلسوف الشهير القاضي أبا الوليد بن رشد وأبا محمد بن عتاب وأبا بحر الاسدي وأبا الوليد بن طريف ، كلهم ارباب العلم • فأخذ عنهم ثم انتقل الى المغرب ، فنزل مدينة « فاس » وتولى بها خطة القضاء سنة ٥٣٦ هـ (١٥٧٣ م) ، واشتغل هنالك بالدرس والنظر في الاحكام ، فأصبح فيها اماما • وكان يميل الى مذهب الشافعية •

من تآليف الشيخ كتاب « تسهيل المطلب في تحصيل المذهب » • وكتاب « التنفصي عن فوائد التقصي » ، وكتاب « التبيين في شرح التلقين » • وبذل ما في وسعه في تحقيق كتاب البسيط للغزالي وتحرير نكته ومباحثه •

أخذ عنه كثير من الفضلاء وانتفعوا من علمه كالحافظ ابي ذر

الحسني وابن الحسن بن المفضل وابن القاسم بن بقي • وكانت وفاته رحمه الله ، بمدينة فاس يوم الاثنين ١١ رجب سنة ٥٦٧ ﻫ (١٠ آذار ١١٧٢ م) •



وهذا العالم « ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلاني » • ولد بمدينة ورجلان (وارقلة) بالجنوب الجزائري حوالي ٥٠٠ ﻫ (١١٠٦ م)• أخذ العلم ببلده • وأراد ان يتبحر فيه • فأبحر ، ونزل بالاندلس ودخل قرطبة وكانت زاخرة بالعلماء يومئذ • فانكب على تحصيل العلم ونبغ حتى صار الاندلسيون ، مع حداثة سنه ، يشبهونه بالجاحظ ، وذلك لما شاهدوا فيه من النبوغ والاطلاع والادب • فرجع الى وطنه شخصية علمية • ولم يلبث أن جدد الرحلة الى المشرق ، فدخل عواصمه العلمية ، واتصل بفطاحل علمائها وأدبائها ، وتضلع من العلوم العقلية والنقلية ، وواصل رحلته طالبا الاستزادة • فقصد افريقية وتوغل في اوساطها حتى وصل الى قريب من خط الاستواء ، ولقد تحدث عن ذلك في كتابه « الدليل لأهل العقول » الذي طبع بمصر سنة ١٣٠٦ ﻫ (١٨٨٨ م) •

عاد يوسف الى وطنه وقد نال من العلم ما كان يتمنى أن ينال ، الا أنه لازم داره (بوارقلة) وانقطع الى الدرس والتأليف • ومن تآليفه تفسير القرآن يقع في سبعين جزءا • وصف البرادي جزءا منه ، فقال : « رأيت منه في بلاد ريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا فيه تفسير فاتحة الكتاب والبقرة وآل عمران • فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر في لغة أو اعراب او حكم مبين او قراءة ظاهرة أو شاذة او ناسخ أو منسوخ أو جميع العلوم فيه » • يقال انه يوجد من هذا التفسير اليوم جزء باحدى خزائن رومة • وله كتاب يسمى « فتوح المغرب » يوجد بخزائن المانيا • وله كتاب « العدل والانصاف في اصول الفقه » يقع في ثلاثة اجزاء • والقصيدة الجزائرية نظم فيها رحلته العلمية الى تلك الديار تقع في ٣٥٠ بيتا جمع فيها كثيرا من فنون العلم ، وكتاب « مروج

الذهب في الفلسفة ترجم الى لغات اوروبية عديدة . وهذا مما يدل على اهميته . وهذه المصنفات برهان قاطع على سعة معارفه وغزارة فضله » .

توفي ، رحمه الله ، بمسقط رأسه ، وارقلة ، سنة٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) .

انهيار الدولة الحمادية

حملة الموحدين

ولد عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي الندرومي الجزائري بتاجرة بنواحي ندرومة على نحو ثلاثة اميال من مرسى (هنين) وذلك سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) نشأ وتعلم بها ، وأراد الاستزادة من العلم . فنزح عن بلده وراح يبحث عن اهله وهو مع ذلك يحترف تعليم الصبيان حتى دخل « ملالة » من ضواحي بجاية . فهناك اجتمع بمحمد بن تومرت حين رجوعه من المشرق . فاقترح عليه ابن تومرت ان يصحبه الى المغرب الاقصى . ففعل . وهناك اتفقا على القضاء على دولة المرابطين التي كانت داخلها التدهور واقامة دولة الموحدين .

توفي ابن تومرت . فبويع عبد المؤمن الخلافة في منتصف رمضان سنة ٥٢٤ هـ (آب ١١٣٠ م) . فاستولى عبد المؤمن على المغرب الاقصى. ومن الخطط التي رسمها عبد المؤمن لتوطيد دعائم ملكه أن بادر الى انتزاع الامر من يد المصامدة قوم ابن تومرت وجعله في يد قومه الجزائريين فاستقدمهم اليه واجتهد في تهذيبهم وتنشئتهم نشأة رياضية صناعية حربية . وبعد ان تمكنت قدم عبد المؤمن في الملك ورسخت قواعده بالاطلس ومراكش أخذ يوسع رقعة ملكه . فدخل فاس وبسط نفوذه على انحاء المغرب الاوسط . فاستولى على تلمسان ، ثم على الجزائر وبجاية وقسنطينة . ولا تسل عن المقاومة التي شنها الصنهاجيون ضد جيوش عبد المؤمن التي ظفرت بفضل عددها ونظامها . فقوض عبدالمؤمن من عرش المملكة الصنهاجية وبدد شمل الاسرة المالكة . وبعد فتح الجزائر بقليل ، تابع عبد المؤمن زحفه نحو الديار التونسية وامتلكها وأنقذها من الفوضى والاضطرابات التي استهدفت اليها من طرف البدو من جهة

ومن النورماند من جهة اخرى فاطرد النورماند واخذ زعماء البدو وذهب بهم الى المغرب الاقصى وفرقهم فيه واقتطعهم الاراضي ليشغلهم بها عن الفوضى والتخريب • فعم تونس الدعة والامن والهدوء ولا سيما في عصر الحفصيين •

وباستيلاء عبد المؤمن على الجزائر انقطعت عنها آمال النورماند الذين طالما أرادوا أن يضموها الى ملكهم •

كان عقد المرابطون وقت عزهم لمحمد بن غانية على « مايورقة » و « مينورقة » و « يابسة » سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وبقي هناك حتى هلك • فخلفه ابنه اسحاق • و في ايامه كان سقوط دولة المرابطين • فوجه اليه الموحدون من يأخذ لهم البيعة عنه • فأبى • وبعد موته خلفه ولده « علي » وهو صاحب الثورة الكبرى • وأضف الى ذلك ان جماعة الناقمين من أعيان بجاية راسلوا ابن غانية يحثونه الاستيلاء على الجزائر واقامة دعوة المرابطين بني عمهم الصنهاجيين • وما هي الا عشية أو ضحاها حتى فاجأ اسطول المرابطين بجاية تحت امارة علي بن غانية ثم استولى على « الجزائر والمدية وأشر ومليانة ومازونة وتلمسان ووهران وقلعة بني حماد » وولى على جميعها أقاربه وبني عمه فشمر حينئذ المنصور الموحدي وشن عليهم حملة عنيفة أخذ من يدهم الجزائر وأطردهم •فتصور ما شئت أن تتصور فيما دهى الجزائر من جراء هذه الفتن والحروب الدامية • ولا شك أن عبد المؤمن كان يرد عليه أثناء فتحه الجزائر وفود المهنئين ، وكان في طليعتهم الشعراء • وهؤلاء الشعراء لم يعدوه فاتحا معاديا بل أخاً لهم لانه جزائري دما ولحما كرؤساء جيشه • والادباء الذين كانوا مدحوا بني غانية كفروا عن ذنبهم ، ان عد ذلك ذنبا ، فقالوا الشعر في الموحدين • والولاة كانوا يحتاجون الى دعاية لاستجلاب قلوب صنهاجة وأتباعهم الذين لم يكونوا يرون بعين الرضى الجيش الموحدي المتعدي على ارضهم • وهذه الدعاية لم يقم بها الا الشعراء • فشحذ ذلك قرائحهم •

وها هي مدن الاندلس تتساقط الواحدة تلو الاخرى في يد الاسبان تنذر المسلمين بالتأهب الى مغادرة ديارهم فأخذوا يتسللون افواجا نحو المغرب ، وكان حظ الجزائر منهم كبيرا فاستقبلتهم بلادنا بصدر رحب • فأفادوا بمواهبهم وثقافتهم اللامعة اسواق العلم والادب ، فراجت رواجا لم ير من قبل •

فهذه الظواهر كلها كان لها الفضل الكبير على الادب الجزائري • فاتسع نطاقه : فأحرز الشعر تقدما من حيث الكيف اذ تنوع في اغراضه واسلوبه • فظهرت في هذه الفترة الرحلة والموشحات التي سنبحث فيها بعد • وتقدم ايضا من حيث الكم ، اذ نبغ عدد لا بأس به من الشعراء ، ونظموا في نصرة المذاهب السياسية كمذهب الموحدين وفي المدائح النبوية وفي الابتهالات الالهية كالمنفرجة للتوزري القلعي ، ونظموا في اغراض شخصية كما سترى بعد •••

المذاهب والعقائد

كان الناس على عهد المرابطين لا يعرفون في عقائدهم سوى عقيدة السلف وفي عبادتهم مقلدين لمذهب مالك • ولما عاد ابن تومرت من المشرق جاء بأفكار وعقائد جديدة في اصول الدين والتشريع كما جاء بفكرة المهدي • فحمل الناس على مذهب الاشاعرة ونشر بينهم مباحث علم الكلام التي كانت محرمة عليهم •

وانتشرت بين الناس فكرة القول بالامام المهدي • فاتخذوا ذلك عقيدة متبعة بقيت آثارها عند العامة الى اليوم • ويحدثنا « المراكشي » في المعجب أن ابن تومرت كان يقول لاتباعه ما على وجه الارض من يؤمن ايمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله• وانتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ، ومنكم الامير الذي يصلي بعيسى بن مريم ، ولايزال الامر فيكم الى قيام الساعة ••• لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة ، خليفة » • فزادت فتنة القوم به ، وأظهروا

له شدة الطاعة . وقد نظم هذا الذي وصفناه من قول ابن تومرت في تخليد هذا الامر رجل من اهل الجزائر وفد على امير المؤمنين أبي يعقوب وهو « بتينملل » فقام على قبر ابن تومرت بمحضر من الموحدين وأنشد قصيدة : (١)

سلام على قبر الامام المجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه في خلقه ثم في اسمه ... وفي اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحي علوم الدين بعد مماتها ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتت به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل في الانام مخلد
ويفتتح الامصار شرقا ومغربا ... ويملك عربا من مغير ومنجد
فمن وصفه أقنى وأجلى وأنه ... علامته خمس تبين لمهتدي
زمان واسم والمكان ونسبة ... وفعل له في عصمة وتأيد
ويلبث سبعا أو فتسعا يعيشها ... كذا جاء في نص من النقل مسند
فقد عاش تسعا مثل قول نبينا ... فذلكم المهدي بالله يهتدي
وتتبعه للنصر طائفة الهدى ... فأكرم بهم اخوان ذي الصدق أحمد
هي الثلة المذكور في الذكر امرها ... وطائفة المهدي بالحق تهتدي
ويقدمها المنصور والناصر الذي ... له النصر حزب اذ يروح ويغتدي
هو المنتقى من قيس عيلان مفخرا ... ومن مرة أهل الجلال الموطد
خليفة مهدي الاله وسيفه ... ومن قد غدا بالعلم والحلم مرتدي
بهم يقمع الله الجبابرة الألى ... يصدون عن حكم من الحق مرشد
ويقطع أيام الجبابرة التي ... أبادت من الاسلام كل مشيد
فيغزون أعراب الجزيرة عنوة ... ويعرون منها فارسا وكأن قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمة ... ويقتسمون المال بالترس عن يد
ويغدون للدجال ويغزونه ضحى ... يذيقونه حد الحسام المهند
ويقتله في باب لد وتنجلي ... شكوك أمالت قلب من لم يوحد
وينزل عيسى فيهم وأميرهم ... امام فيدعوهم لمحراب مسجد
يصلي بهم ذاك الامير صلاتهم ... بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
فيمسح بالكفين من وجوههم ... ويخبرهم حقا بعز مجدد
وما ان يزال الامر فيه وفيهم ... الى آخر الدهر الطويل المسرمد

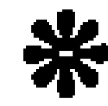
١ ـ المعجب للمراكشي ص ١١٧ ـ ١١٨

فأبلغ أميــــر المؤمنين تحيـــــــة على النأي مني والوداد المؤكـــــد
عليــــــه سلام الله ما در شــــارق وما صدر الوارد عن ورد مــورد

وحافظ الموحدون على جوهر الدين بنشر اصوله العقلية والنقلية ، وأعطوا للفكر حريته • فتآخت في عصرهم الفلسفة والشريعة فقد حلــوا بلاطهم بالحفيد بن رشد أعظم فلاسفة الاسلام وهو أيضا من اعاظم حفظة الشريعة • ومن تلاميذه « ابو عبدالله محمد بن سحنون » الكرمـــــي الندرومي من قرية ندرومة • وقد اتصل به « ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الفهري » الشيخ المتكلم • سكن أسلافه بجاية • فنشأ وقرأ ونبغ بهـــا وتولى قضاءها مرتين . ثم صرف عن القضاء للمرة الثالثة سنــــــة ٦٠٨ ه (١٣١١ م) • فتولى مكانه أبو محمد بن الحجاج • فغادر حينذاك بلـــده موليا وجهه شطر الشرق ودخل مصر • فطاف معالمها واتصل بأكبر علمائها ومحدثيها • ثم شخص الى الاندلس مرارا وتولى قضاء مرسية واستخلف على قضاء مراكش •

وكان فريد عصره في مختلف العلوم ولا سيما الفلسفة ، الا أنــه أوذي في سبيلها من طرف الخليفة الموحدي يعقوب المنصور • فكان ممن اضطهدوا في جماعة « ابن رشد » زعيم فلاسفة الاندلس واستاذ حكماء زمانه الذين اشتغلوا بها من نبغاء تلك الربوع سنة ٥٩٣ ه (١١٩٦ م) وظهر مترجمنا جلدا صلبا قوي الجأش بين زملائه على ما نكب به في سبيل حريته الفكرية • الا أن المنصور حينما اخذ يرغب في الاشتغال بالحكمــة والوقوف على مقالات الفلاسفة عاد الى نفسه ورضي عن تلك الجماعــة المضطهدة واستدعى ابن رشد الى مراكش ورد له سابق مقامه وحظوته • فتمكن هكذا محمد بن ابراهيم من ان يستخلف على قضاء مراكش وأن يحضر مجالس أمير المؤمنين ، وكان اذا حضر ووقعت المذاكرة بين يدي الخليفة سامحه الحاضرون في المذاكرة • أما ابن ابراهيم فكان لا يسامحه في شيء في حقه • وكيف لا وهو عمدة أهل عصره علما وحكمة وفلسفة• كان ابن ابراهيم يرغب في التأليف • فلم يثبت له الا تقييد على المستصفى

لأبي حامد الغزالي أزال ما به من التصحيف والتحريف . كان رحمه الله يميل الى الدعابة والفكاهة ولا يخل ذلك برتبته ولا يحط من قدره . فكان شديدا على كل من سولت له نفسه البغي والظلم . فلا يسامحه البتة ، بل يجاهده بما يكره في حق الله وفي حق المسلمين ولو كان من ولاة الامر . وبعد تجوله الطويل في الشرق والاندلس والمغرب الاقصى تشوق الى مربع صباه فقفل راجعا اليه . فقضى ما بقي له من الايام في بجاية ، وتوفي بها ، ودفن في ارضها سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) بين عيد الفطر وعيد الاضحى على قول الغبريني .

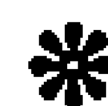


ومن اشتهر في الفقه ابو عبدالله عبدالله محمد بن يخلف بن يوسف بن حسون الجزائري .

نشأ بمدينة الجزائر . فلم يقنع بما اخذه من العلم في بلده ، فراح يبحث عن مناهل اخرى ، ففارق وطنه ونزل بالاندلس ، وطفق يتقلب في عواصمها العلمية . فدخل اولا اشبيلية وانسلك بها في سلك طلبة معهد مسجد بني جران ، وكان من اساتذتها فيها الامام ابو عبدالله محمد بن عبد الحق الاشبيلي نزيل بجاية ودفينها ، وابو زكريا يحيى بن ياسين المعروف « بابن اللولو » وابو اسحاق بن ملكون وابو بكر بن عيسى البطليوسي وابو محمد بن موجوال . ومن ثم انتقل الى « مالقة » فلم يزل مقبلا بها على التضلع من كل العلوم . فاتصل بفطاحل علماء تلك الديار كابن زيد السهيلي .

ولما أحس بنفسه انه رزق حظا وافرا من العلوم ونبغ في الفقه خاصة أجمع على العودة الى اوطانه . فنزل بالجزائر ، واستقر بها . واشتغاله هناك بالتدريس ونشر الثقافة لم يمكنه من أن يخلف لنا مصنفات .

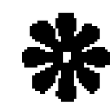
وأدركته منيته ، رحمه الله ، ببلده في شهر صفر سنة ٦٠٦ هـ .



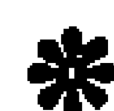
ومن اشتهر بالاصول والتفسير الامام الحافظ موسى بن الجحاج

ابن بكر الاشيري نسبة الى آشير ، حاضرة صنهاجة بالجزائر . سكن مدينة تدلس (دليس) من عمالة « تيزي وزو » ، ومنها شخص الى الديار الاندلسية في طلب العلم والمعرفة . فدخل « اشبيلية » سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) فاتصل بها بالامام ابن العربي وأبي الحسن شريح بن محمد وأبي بكر بن ابي طاهر . وارتحل الى قرطبة عاصمة العلم وقتذاك . فأخذ بها عن عبدالله بن أصبغ وابي مروان بن مسيرة وغيرهما . وسمع مشكل ابن قتيبة عن ابي عبدالله بن وضاح « بالمرية » سنة ٥٢٧ هـ (١١٤٢ م) . وتتلمذ لابيمحمد بن عبدالحق بن عطية ولازم ابن أبي الخصال وأبا محمد النقري المرسي وأبا الحجاج بن رشد القيسي وأبا الوليد بن الدباغ وأبا الحجاج بن يسعون .

وبعد أن تثقف ثقافة متينة على يد هؤلاء العلماء الفطاحل ، وتضلع من الاصول والتفسير وسائر الفنون الدينية واللسانية قفل راجعا الى وطنه . فنزل بمدينة الجزائر وانتفع منه أهلها ، الا أن مكوثه بها لم يدم. فانتقل الى بلده دليس وأقام بها الى ان وافاه اجله . فمات بها سنة ٥٨٩ هـ (شباط ١١٩٣ م) . ومما يؤسف له اننا لم نقف على تأليف له .

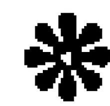


وممن اشتهر في الفقه والحديث الفقيه الامام ابو الوليد يزيد بن أبي الحسن عبدالرحمان ، من سلالة بني امية القرطبيين من آل بقي بن محمد بن يزيد . وكان ابوه عالما فقيها . فأخذ عنه ابو الوليد . ولم يزل مقبلا على التضلع في الفقه والحديث . فأخذ عن ابن العربي وشريح بن محمد وأبي القاسم بن رضا وغيرهم . فحصل على شهرة واسعة ، واصبح قاضي « بسكرة » ، وتصدر للاقراء . فحدث عنه ابو القاسم احمد قاضي قضاة المغرب وابو سليمان بن حوط الله وابو زيد الفزازي . توفي ، رحمه الله ، ببسكرة عاصمة الزاب سنة ٥٨١ هـ (١١٩٤ م) وبموته ماتت علومه اذ لم يخلف لنا تآليف .



وممن اشتهر ايضا في الفقه والحديث العلامة ابو عبدالله محمد بن علي بن مروان بن جبل الهمداني الوهراني • نشأ بتلمسان ، واخذ عن علمائها واقتبس من انوارهم ، ونبغ في الاصول والفقه والحديث فأصبح قاضيا ببلده • فاشتهر امره واتصل ذكره بالموحدين • فعين قاضي الجماعة بعاصمة مملكة مراكش في مكان ابن جعفر بن مضاء ، فتولاها سنة ٥٨٤ ﻫ (١١٨٨ م) انصرف عن القضاء ، فترة من الزمان ، ثم عاد اليه بعد انصراف ابن القاسم بن بقي • وكان مترجمنا عالما مهابا وفقيها محنكا محمود السيرة ضابطا الاحكام متضلعا منها سريع الفصل فيما يعرض عليه من القضايا ، الا أنه كان متربصا فيما يخص الحدود ، فلم يؤثر عنه أنه أقام حد الجلد على احد •

وكانت وفاته ليلة الاحد جمادي الاولى سنة ٦٠١ﻫ (٢ كانون الثاني ١٢٠٥ م) •



وبجانب هؤلاء العلماء كانت شخصيات أدبية منها :

ابو علي عمر بن الأشيري

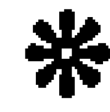
هو ابو علي عمر بن عبدالله بن الحسن الكاتب ، يعرف بابن الاشيري • نشأ بتلمسان وأخذ عن علمائها • وكان من أهل العلم بالقراءات واللغة والغريب • يغلب عليه الادب • وكان ناظما ناثرا ، وله مجموع في غريب الموطأ ومختصر في التأريخ سماه نظر اللآليء • اتصل بأمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف • فكان الخليفة جالسا يوما بالقبة المباركة اذ سيق اليه طائر تكلم بكلام علمه • واتفق مع ذلك أن شبل أسد دخل القبة فقال ابو علي في ذلك :

أنس الشبل ابتهاجا بالاسد ورأى شبه ابيه فقصد
ودعا الطائر بالنصر لكم وبتأييد فكل قد شهد

فنلاحظ في هذين البيتين الحذاقة والبداهة وحضور الذهن فبمثل هذه الصفات يجب أن يتصف شعراء الملوك •

ولأبي علي قصيدة رائعة في غزوة السبطاط التي وقعت سنة ٥٦٩ هـ اليك منها هذه الابيات :

دارت رحا الهلكـــات بالسبطاط وسطا بها ريب الزمان الساطـــي
وأهين فيها الشرك اي اهانــــة شفعـت كرية هياطهـــا بميـاط
ان لم تقم فيها قيامـــة ملكهــم فلقد رأوا جمـــلا من الاشراط
وأصارها وطء الجيـــاد هشيمـة سوداء معتبرا بعيـــن الواطـــي
لولا خروج الفصل عن معتـــاده لم يهملوا مقـــدار سم خيـــاط
ولعاينوا من اخذهم بذنوبهـــم ما عاين النعمـــان في سابـــاط
جيش من العرب الذيـن اذا غزوا كووا الاعاجـــم في الطلا بعلاط
قوم اذا شمخ العنـــاد بأنفـــه وضعوا السيوف مواضع الاسواط
من كل ذمر ينثني في درعـــه فكأنه في السرب من دميـــاط



ابو عبدالله محمد بن يحيى بن عبد السلام

هو الفقيه الاديب البارع التدلسي أصلا • سكن بجاية وأخذ عـن شيوخها • فأصبح ذا المكانة الرفيعة في الفقه والتاريخ والطب والشهـرة الواسعة في ميدان الادب ولي القضاء في نواحي بجاية في السنة السابعة•

قد سجلت له كتب الادب شعرا صافي الديباجة جامعا بين السلاسة والمتانة والسهولة والرصانة • واليك نماذج منه :

ولو لم ينبنـــي غير أني أحبـــه سعدت بذاك القدر عمري ولا أشقى
كفى بي عزا أنـــه لي سيــــد واني عبـــد لا أريد له عتقـــا
وما لي والعتق المكـــرر عيشتـــي رضيت بأن أبقى لمن شفني رقـــا
فلم يبق مني غير نفس رقيقـــة تميل لأن اهوى من الحسن ما رقـا
وبي رشأيحـــوي الملاحـة حسنه يريك خفي السر جهرا وان رقـــا
يخالط منـــي الروح حتى كأننـــي أرى مخ عظمي في الهوى يرى قد دقا
بحسبي التذاذا بالذي هو صانـع وما من عناء في محبته ألقـــى
وصبري على ذل الغـــرام وهونه وما زاد من حمل علـــي وما ألقى
واني لراض أخـــذه من حشاشتي دما رمق بعض الحياة بـــه أبقـى
وان يبق لي مما استبـــاح بقيـة فرق له تلـــك البقية ما أبقـــى

ألا بأبي من لا أرى في الهوى سوى | محياه شمس أو سنا ثغره برقـا
ولا خمر الا من لمـاه ولحظـه | ولا غصن الا القد لا ما ارتقت ورقا
ولا زهر الا من ريـاض بخـده | بماء النعيم اعتاد ناظره يسقـى
تخال به الخيلان حسا حوارسـا | كمائم ورد صدر مئزرهـا شقـا
هناك يهون الصعب في بذل مهجـة | يميل لما اهواه حتما وان شقـا
ويجتمع الضـدان نار وأدمـع | فلا كبد تـروى ولا عبرة ترقـى
لئن لدغت قلبي عقارب صدغـه | فريقته الترياق لي وبها أوقـى
تهوم هواه البحر والبحر زاخـر | ترى مهج العشاق في لجج غرقـى
ولي مذهب في عشقه وطريقـة | مسالكها في الحب لا تشبـه الطرقا
حلوم ذوي الأحلام تسبي لانهـا | يلاحظ منه السر لا الخلق والخلقـا
تعلمت من عينيه عشقـي لحسنه | فلله ألحـاظ تعلمني العشقـا
فلو أن هاروتا رأى سحر ظرفـه | أقر بأن السحر من لحظه اشتقـا
ولو أن عشـاق الجمال كما أرى | رأوه لهاموا عند رؤيته شوقـا
وكل محب في الجمال يـرى به | الى العالم العلوي همته ترقـى
عسى الرفق بي يوما يمر ببالـه | قصارى مرام العبد من ملك رفقـا
فيا طامعا في الوصـل منه تسلّ هل | سمعت بأشراك تصاد بها العنقـا ؟

اشعار تصف لوعة النفس العاشقـة واشتياقها لقرب الحبيـب والاستمتاع بجماله ، وموسيقى عذبة تتناغم وحلاوة المعنى وعذوبـة الالفاظ .

ولشاعرنا قصيدة مطولة منها هذه الابيات تنم عـن يد طولى في المـدح :

شمس السعادة لا سنى النبـراس | حلت بأفق على بن سيد النـاس
وبطائر اليمن ارتقت لسمائـه | تختال بيـن كواكب أفـراس
من معشر بذل النـوال شعارهـم | وهم الاسود لـدى احتدام الناس
يذكون نيران الوغـى بأسنـة | ولدى القرى يذكون بالاقبـاس
حب القلوب نثـاره وكبـاؤه | نسمات جودك لا نسيـم الآس
وشماعه شهب الكواكب زينـت | أفق العلى وحمته مـن أرجاس
وهو الربيـع وزهر سعدك أقبـلا | يتصافحـان بروضة مقيـاس
فاهنأ بشمس الدجن يا قمر الدجـى | وانعـم بطيب العيش والايناس

والبس رداء الفخر جرر ذيلـــه أنت المحلـــى بالعلى والكـــاس
واشرب صبوحك وسعودك واغتبق خمر المسرة روقت فـــي الكاس
فلك الفخار على الانـــام بسؤدد أورثتـــه فبنيت فـــوق أساس

وظهر الخروج على نظام الشعر عند المشارقة في صدر الدولـــة العباسية • فسرت هذه الحركة الى المغرب • فشرع الجزائريون يخمسون ويسدسون • وابن عبد السلام هو الآخر طرق هذا النوع الجديد فقال :

اعاذلتـي فيـم الملام ترفقـي أما هـذه آثار سر التشـوق
تلوح فتغنى عـن عبارة منطـق حنانيك قد حنت الى البان أينقـي
ومن أين لي أن يرجع الركب نلتقي

تقولين تبكي ان نأيت عن اللـوى ولم لا وثم القلب رهنا لدى الهوى
ومن شفني ما رام عـذرا ولا نوى وقد كنت ابكي قبل أن يبرق النوى
وبي فرق من اجـل يوم التفرق

ولما شجانـي فاستزدت علاقـة حمامة ايك تجلب الشـوق طاقـة
بنوح أراق الدمع مني اراقـة سبكت لها حـب الفؤاد حداقـة
فأصبح طوقا فـوق جيد مطوق

لقاضي الهوى حكم لظلمي تعرضا أسال دموعي مذهبا ومفضضـا
رضيت بما يقضي وان جار في القضا وسائلة ما بال دمعـك أبيضـا
فقلت لها يا عار هذا الذي بقي

عهود الصبا ولت وأدبـر عصره وليل شبابي قد تبلـج فجـره
فلا تنكري حالا تحـول أمـره ألم تعلمي أن البكا طـال عمـره
فشابت دموعي عندما شاب مفرقي

ديار لسلمى جادك القطر فاسلمـي فكم ظل دمعـي في ربوعك ينهمي
هواك برى جسمي وأنحل أعظمـي وعما قليل لا دموعي ولا دمـي
ولم يبـق الا زفرتي وتحرفـي

أبو عبدالله محمد بن حماد

اليك الآن شخصية أدبية جزائرية أخرى • وهذه الشخصية تتمثل في أبي عبدالله محمد بن علي بن حماد بن عيسى بن ابي بكر الصنهاجي• فانه يمثل الادب الجزائري في اواسط القرن السابع الهجري •

نشأ ببرج حمزة من حوز قلعة بني حماد قرب « البويرة » ــ دائرة البيان ــ من عمالة « تيزي وزو » • قرأ بالقلعة وكانت يومذاك حاضرة علم • ثم انتقل الى بجاية واخذ عن شيوخها كالقاضي المحدث عبد الحق الازدي الاشبيلي وأبي مدين دفين تلسمان والقاضي أبي علــي المسيلي والقاضي أبي تميم ميمون بن جبارة وأبي العباس بن المبشر •

قضى محمد بن حماد دهرا طويلا في التجول • فدخل الجزائــــر وتلمسان • ولم يكتف بما كرع من العلم في بلده • فانتقل الى عواصم المغرب • ذكر في برنامجه شيوخه ومقروءاته من الكتب التي بلغت ٢٢٢ مؤلفا أخذها كلها بالسند الصحيح والتلقي مباشرة عن المشيخة • واشتهر بالتضلع من اللغة والاجادة في الشعر كما اشتهر في الفقــه والحديث والتأريخ •

اتصل بالموحدين • فعينوه قاضيا بالمغرب والاندلس في عدة أماكن• قضى بالجزيرة الخضراء الى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ثم بسلا الى وفاته ٦٢٨ هـ (١٣٣٠ م) وقد نيف الثمانين • وله تآليف كثيرة منها شرح كتاب الاعلام بفوائد الاحكام لعبد الحق الاشيلي وشرح مقصورة ابن دريد والنبذ المحتاجة في اخبار صنهاجة بافريقية وبجاية كان مستندا وثيقا لابن خلدون في تدوين تاريخ هذا القبيل وانتفع به كثير من المستشرقين • فنشر منه نبذة « ليفي بروفنسال » في كتابه ضد تأريخية في أخبار البربر المطبوع بالرباط ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) و « شربنوا » في المجلة الاسيوية ١٨٥٢ ــ ١٨٥٥ ، وكتاب اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم قــام بترجمته « فوندر هيدن » سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) وكتاب لخص به تأريخ ابن جرير الطبري وشرح الاربعين حديثا وكتاب « عجالة المودع وعلالة المشيع

في الادب والشعر » • قضى الموحدون على بلده سنة ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م). فتأثر لزوال ملك بني حماد الزاهر ، وراح يتحدث عن قصور أسلافه الدارسة ويندب معالمها ورسومها • فلا أراك الا منجذبا مع هذا الشاعر في خياله الفسيح حيث يقول :

اين العروسان لا رسم ولا طلل فانظر ترى ليس الا السهل والجبل
وقصر « بلارة » أودى الزمان به فأين من شاد منه السادة الأول
قصر الخلافة اين القصر من خرب غير اللجين وفي أرحابها زحل
وليس يبهجني شيء أسر به من بعد أن نهجت بالمنهج السبل
وما ورا الكوكب العلوي معتصم رقد عرا الكوكب التغير والندل
وقد عفا قصر حماد فليس له رسم ولا أثر باق ولا طلل
ومجلس القوم قد هب الزمان به بحادث قل فيه الحادث الجلل
وان في القصر قصر الملك معتبرا لمن تغرره الايام والدول
وما رسوم « المنار » الآن ماثلة لكنها نبذ يجري بها المثل
حتى المصلى بلت آياتها وعفت الا جدارا وما طلت بها الطلل
كرجعك الطرف كانت كل آبرة فما تراه كذاك العمر والاجل

و « المنار » الذي يصفه في المقطوعة التالية كان آية من الآيات في الجمال تحف به المناظر الطبيعية الفتانة • فقال :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي الجوى ما بين تلك الجداول؟
وهل اسمعن تلك الطيور عشية تجاوب في تلك الغصون البلابل ؟
وهل أردن عين السلام على الصدى فأبرد من حر الضلوع النواهل ؟
وانظر طيقان المنار مطلة على الواجنات الزاهرات الخمائل
كأن القباب المشرقات بأفقه نجوم تبدت في سعود المنازل
فان ثنت الايام عنها اعنتني وانزلتني في غير تلك المنازل
فصبر جميل غير أن صبابتي ستبقى بقاء الطالعات الاوافل

وعبقرية الشاعر تتجلى في المقطوعةالتالية تجليها فيما سبق من شعره• أخذت بمجامع قلبه تلك الطبيعة التي قام على ذراها المنار الذي يفضله على ايوان كسرى والخورنق والسدير • أنصت اليه :

على عين السلام سلام صب غذاه ماؤها العذب النمير

تأود ايكها وجرت صباها … وشم لها كما فتق العبير
وأبرد ما يكون الجو فيها … وأندى حين يحتدم الهجير
وما أدري أيجري فوق درّ … أم ابتسم بمنبعها الثغور
وقد قام المنار على ذراها … كما قام العروس او الامير
بناء يزدري ايوان كسرى … لديه والخورنق والسدير

فشعره كما ترى جيد السبك جمع بين جزالة الالفاظ وعذوبتها ويدل على ملكة قوية في الوصف ، ونلمس فيه حبا جما لاوطانه .

ابو علي حسن بن الفكون

كانت هناك شخصية تعاصر محمد بن حماد وكان خطرها في الشعر عظيما . تلك الشخصية تتمثل في أبو علي حسن بن الفكون الاديب القسطنطيني . انكب من صغره على الدرس وانقطع الى الاطلاع على اسرار اللغة وكشف مكنونات البلاغة وكان يحب التجول . فرحل الى مراكش واتصل بخليفة بني عبد المؤمن وامتدحه . فكانت جائزته عنده من احسن الجوائز ، ووافق في مقامه بمراكش طلوع الخليفة لزيارة قبر المهدي بن تومرت : فنظم ابو علي في ذلك .

كان ابو علي من بيت كريم لا يحترف بأدبه لاقامة أود ، بل كان له من باب الزينة والكمال . تواشيحه ظريفة مستحسنة ، وشعره صورة الموصوفات الساحرة التي تصدى لتمثيلها بكلامه . فأنصت اليه يصف الناصرية :

دع العراق وبغداد وشامها … فالناصرية ما ان مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به … مسارح بان عنها الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع … حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
والنهر كالصل والجنات مشرفة … والنهر والبحر كالمرآة وهو يد
فحيثما نظرت راقت وكل نوا … حي الدار للفكر للابصار تتقد
ان تنظر البر فالازهار يانعة … او تنظر البحر فالامواج تطرد
يا طالبا وصفها ان كنت ذا نصف … قل جنة الخلد فيها الاهل والولد

مقطوعة تباري النسيم لطفا والماء انسجاما والنور المتفتق عن اكمامه بهجة ووشيا • ومن نظمه القصيدة التالية تكاد العين ترى ما وصف فيها مجسما لديها منبسطا امامها •

اسمع :

عشونا الى نار الربيع وانما عشونا الى نار الندى والمحلق
ركبنا بواديه جياد زوارق نزلنا اليها عن ضوامر سبق
وخضنا حشاه والاصيل كأنه بصفحته تبدي مروق زنبق
وسيدنا قد سار فيه لانه بزورقه انسان مقلته أزرق
فقلت وطرفي يجتلي كل عبرة وزورقه يهوي به ثم يرتقي
أيا عجبا للبحر عب عبابه تجمع حتى صار في بطن زورق
ولما نزلنا ساحة القصر راعنا بكل جمال مبهج الطرف مرتق
فما شئت من ظل وريف وجدول وروض متى تلمم به الريح يعبق
وتنادي مغاني الحسن في نغماته يطارحه هدر الحمام المطوق
فيا حسن ذاك القصر ما زال آهلا ويا طيب ريا نشره المتنشق
رتعنا به في روضة الانس بعدما هصرنا به غصن المسرة مورق
ويضحكنا طول الوصال وربما يمر على الاوهام ذكر التفرق
فتضحى موصونات الدموع هدالة ونحن على طرف من الدهر أبلق
لمثلهما من منزه ونزاهة يجرر ذيل الذيل كل موفق
فلله ساعات مضين صوالح عليهن من زي الصبا أي رونق
خلعنا عليها النسك الا أقله وان عاودت نخلع عليها الذي بقي

وأتبع شاعرنا هذه القصيدة بنثر ينم عن مقدرة وبراعة في الاسلوب الجاحظي • فقال : « ولما نضب ماء الاصيل ، ورق نسيمه العليل ، وهم العشي بانصرام ، وودع النهار بسلام ، وأرخى الليل فوقنا سدوله ، وجرر على الافق ذيوله ، عدنا الى زورقنا ذلك ومحيا الجو غير محتجب ، ووجه الافق غير ملتفع بثوب الغمام ولا منتقب • وقد تشكلت الكواكب في الماء فكأنما يجري بنا زورقنا في السماء • فأمروا أعزهم الله ، بوصف تلك الحالة • فبادرتهم بهذه العجالة » •

يتجلى لنا أن نثره لا يختلف في سلاسته وخفة روحه عن شعره ويلتزم فيه السجع ولا يطيل الفقرات •

اقترح عليه من معه ان يشنف أسماعهم بمعسول شعره ، فارتجل قائلا :

وليل مسرة ما زلـــت منهـــا ... أمر علـــى صراط مستقيـــم
لبســت ثيابـــه عزا الـــى أن ... تحـــدرت الرجـــوم من النجوم
فنهر كالسحلجل قـــد تـــراءت ... على شطيه جنـــات النعيـــم
يسر النفس في نظـــره وشيبم ... من المرأى الوسيـــم او النسيم
تشكلت الكواكب فيـــه حتـــى ... جرت في قعـــره شهب الرجـــوم
وأشكـــل منظرا اعلوا وأسفـــلا ... من الفلك الاثير الى التخـــوم
فمـــا تمتاز أرض مـــن سمـــاء ... وحوت الماء من حـــو تالنجوم

ولشاعرنا الحسن قصيدة رائعة مشهورة عند العلماء بالمغرب قـد ضمنها ذكر البلاد التي رآها في ارتحاله من قسنطينة الى مراكش ذكرها المقري في نفحه • والعبدري في رحلته •

اليكها :

ألا قـــل للسري ابـــن السري ... أبي البدر الجـــواد الاريحـــي
أيا معنـــى السيادة والمعالـــي ... ويا بحر الندى بـــدر الندي
أما وبحقـك المبـدي جـــلالا ... وما قد حزت من حسب علـــي
وما بيني وبينـــك من ذمـــام ... وما أتيت من خلـــق رضـــي
لقد رمـــت العيون سهـــام غنج ... وليس سوى فؤادي مـــن رمـــي
فحسبك نار قلبـــي من سعيـــر ... وحسبـــك دمـــع عيني من أتـــي
وكنت أظـــن أن الناس طـــرا ... سوى زيـــد وعمرو غيـــر شي
فلما جئت « ميلـــة » خيـــر دار ... أمالتنـــي بكـــل رشى أبـــي
وكـــم أورت ظباء بنـــي أوار ... أوار الشـــوق بالريف الشهـــي
وجئت « بجايـــة » فجلت بدورا ... يضيق بوصفها حـــرف الروي

وفي ارض « الجزائر » هام قلبـــي بمعســـول المراشف كوثـــري
وفي « مليانة » قـد ذبـت شوقا بلين العطف والقلـــب القسي
وفي « تنس » نسيت جميـل صبري وهمت بكل ذي وجه وصـــي
وفي « مازونة » ما زلـــت صبـا بوسنـــان المحاجر لوذعـــي
وفي « وهران » قد أمسيت رهنـــا بنظامـــي الخصر ذي ردف روي
وأبدت لي « تلمسان » بـــدورا جلبـــن الشوق للقلـب الخلـي
ولما جئت « وجـدة » همت وجـدا بمنخنث المعاطـــف معنـــوي
وحـــل رشا الرباط رشى رباطي وتيمنـــي بطـــرف بابلـــي
وأطلع قطر « فاس » لي شموســا مغاربهـــن في قلـــب الشجي
وما « مكناســـة » الاكنـــاس لأحـــوى الطرف ذي حسن سني
وان تسأل على ارض « سلا » ففيها ظبـــاء كاسرات للكمـــي
وفي « مراكش » يا ويـــح قلبي أتى الوادي فطـم علـــى القري
بدور بـــل شموس بل صباح بهـي في بهـــي في بهـــي
أنحن مصـــارع العشاق لمـــا سعين به فكـــم ميت وحـــي
بقامـــة كل أسمر سمهـــري ومقـــلة كل أبيض مشرفـــي
اذا أنسيتنـــي حسنا فانـــي أنسيهم هـــوى غيـــلان مني
فها أنا قد اتخـــذت الغرب دارا وأدعـــى اليوم بالمراكشـــي
على أن اشتياقي نحـــو زيـــد كشوقي نحو عمرو بالســـوي
يقاسمني الهـــوى شرقا وغربا فيهـــا للمشرقـــي المغربـــي
فلي قلـــب بأرض الشرق عـــان وجسم حل بالمغـــرب القصـــي
فهذا بالغـــدو يهيـــم غربـــا وذاك يهيـــم شرقا بالعشـــي
ولولا الله مت هـــوى ووجدا وكم لله من لطـــف خفـــي

فيظهر لنا « حسن بن الفكون » من خلال هذه الاشعار كلها شاعرا مقدما وصاحب مكانة ادبية رفيعة • وله ديوان شعر غزير كان على قول الغبريني موجودا بين ايدي الناس ومحبوبا عندهم •

محمد الأريسي الجزائري

كانت ثم شخصية ثالثة عاصرت ابن الفكون هي شخصية ابي عبدالله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الأريسي الجزائري •

أقبل على العلوم فأتقنها حتى أصبح بارعا في كل فن من فنون الأدب وترامى صيته • فاستقدمه السلطان الى « بجاية » وقلده ديوان الرسائل• وقد رزق في النظم قريحة عجيبة وسجل له التاريخ كثيرا منه في موضوعات شتى • أتقن الأريسي اساليب البلاغة ، فجاء شعره رائقا ، سلك فيه سلوك المتنبي • كان يخلو الى نفسه وينظم لها الأشعار التي تعبر عن خوالجها •

اسمعه ينشد هذه القصيدة الرائعة :

لغلك بعد الهجر تسمح ، يا بدر ، ... بوصل فقد أودى بمهجتي الهجر
أبيت كما ترضى الكآبة والاسى ... وأضحى كما تهوى الصبابة والفكر
اذا قنطت نفسي ينادي بها الرجا ... رويدك كم عسر على اثره يسر
وان ذكرت يوم الفراق تقطعت ... علائق آمال يرحمها الذكر
ولا أنس يوما للسرور وبيننا ... عتاب كبرد الماء لكنه الجمر
ولا كأس الا ما سقاني به اللمى ... ولا نقل الا ما حباني به الصدر
تقول وقد مالت بمعطفها الطلا ... وخفت لأن تخطو فأثقلها السكر
وقد جاذبت ريح الصبا فضل مرطها ... فأومض لي برق تضمنه الثغر
أمن يومنا بالجزع أنت موله ... تفيض من الآماق أدمعك الحمر
دع العتب فالعتبى أحق بيومنا ... وعد عن الشكوى فقد قضي الامر
علمنا وان لم يعلم الحب أنه ... ذلول الهوى صعب وحلو النوى مر
وليل اللقا صبح وصبح النوى دجى ... وشهر الرضى يوم ويوم النوى شهر
فوالله ما أدري لطيب حديثها ... أضمن سحرا لفظها أم هو السحر
فيا حبذا يوم فقدت به الحجى ... وودعني اذ ودعت شمه الصبر
خليلي قولا ان بدا لكما الحمى ... أهيل الحمى مشعوفكم مسه الضر
علام تناسيتم حديث عهودكم ... وليس له ذنب وليس له عذر
أهيل الحمى منوا بطيف خيالكم ... عسى نلتقي أو يلتقي النوم والشفر

بما بيننـــا لا تقبلوا من وشاتنـــا   فما ضاع لي ود ومـــا ذاع لي سر
فكم رمت أن أقضي فريضة حقكم   فلما أردت السعي أثقلني الـــوزر

أشعار شيقة ما أحلى معناها وما أعذب ألفاظها وما ألذ موسيقاها !

والقصيدة التالية لا تقل حسنا :

أهل الحمى ، هل لكم عن قصتي خبر   وأن ليلــي بليلى كله سهـــر
وفي ضلوعـــي نيران يضرمهـــا   دمع على صفحات الخد ينهمـــر
لما رأيت بـــدور الحي سافـــرة   عن النقـــاب بدا لي أنه السفـر
ولا عوامل الا من قدودهـــــم   ولا صوارم الا من انتضى الحـور
سألتك الله يا حادي المطي بهـــم   رفقا علي لعل الصدع ينجبـــر
كرر علي فلـــي قلب يميل الـــى   حديث من قتلوا منـــا ومن أسروا
وأنت ، يا سعد ، ان غنت ظباؤهـم   فقف تعاين فؤادي كيف ينفطـــر
ورب ليـل بليلى بت أسهـــره   وحسدي نوم والليـل معتكـــر
تبدو كشمس الضحى تعلو قضيب نقا   وتنثني مثل غصـن فوقه قمـــر
تقول والحسن يطغيها فتظلمنـــي   ولا مـــوازر الا صارم ذكـــر
دع الحسام وضع حمل السلاح فما   في كل وقت يفيد الحزم والحـــذر
ما للمهند حكـــم في محلتنـــا   بل للمهند فيها الحكـــم والنظـر
وللظبا فتكـــات بين أرجلنـــا   ترنو وتعنو الظبي المضروبة التبـر
فان طمعت بلين في لواحظنـــا   فنحن أهل قلـــوب مثلها الحجـر
وان حلت لك ألفاظ نرددهـــا   ما بيننا فهناك الصـــاب والصبر
انا لنجرح من ألحـــاظ مبصرنـا   لكننا من سواد القلـــب ننتصر
فارحم شبابك وارحل دون مغلبـة   واقبل من الحسن ما أعطاكه النظـر
فعندها أيقنت نفسي لغيبتهـــا   وأقسمت مهجتي أن لست أصطبـر
وقمت ألقط مـن ألفاظهـــا دررا   وأنظم السحر حتى أقبل السحـــر

ومن شعره هذه المقطوعة يتحنن فيها الى أرض الحجاز :

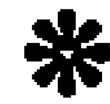
أدرها فقد هبـت نسيمة داريـــن   ونم بسر الروض نشرا الرياحيـن
وقام خطيب الورق يدعو هزيلـــه   وغنى فأغنى عن ضروب التلاحيـن
وذكـــر ايام الصبابة والصبـــا   ولذة عيش كان لي غيـر ممنـون
فثار كمين الوجد من مستقـــره   وبحت بسر بين جنبي مخـــزون
فيا ساكني نجد أأطرق حيكـــم   وأرجع مغلوبا بصفقـة مغبـــون

ويا ساكني الجرعاء ان كـان عندكم نصيب من الصبر الجميل فواسوني
تركت فؤادي عند خيمة زينـب وما سحر عينهـا علي بمأمـون
أغارت عليه حيـن لم يلف ناصرا وأغرته به حتـى تعلم يجفونـي
فكم خلت ان الحـب لا يستفزني وأن التصابي خلقة لا تواتينـي
وكم صنت عن نظم القريض وصنته الى أن رأت عيني علي بن ياسينـي

ويظهر لنا أن الاريسي شديد الاتكال على عفو الله وقد أذنب ، ولكن رحمة الله واسعة . فقال :

يا من على جوده المعهود أتكـل ويا ملاذي اذا ضاقت بـه الحيل
غرقت في بحر آثامي فخـذ بيدي وامنن بعفو فاني خائف وجـل

وللأريسي كأهل عصره موشحات لا بأس بها . وكان يتراسل مع صديقه القلعي « بجيد المنثور وبديع المنظوم » يا حبذا لو حصلنا على ذلك ! فيعد شاعرنا من كبار ادباء الجزائر في أواسط القرن السابع الهجري .



ابراهيم بن ابي بكر بن عبدالله بن موسى الانصاري

ولد بتلمسان سنة ٦٠٩ هـ وانتقل به ابوه الى الاندلس وهو ابن تسع سنين . فاستوطن به « غرناطة » ثلاث سنوات . ثم رحل الى « مالقه » ، فسكن بها مدة طويلة . وبهذه البلدة قرأ ابراهيم معظم قراءاته . ثم انتقل الى « سبتة » ، وتزوج بها اخت الشيخ « أبي الحكيم مالك بن المدحل » . وهذا الشيخ جد أبي الحسين التلمساني لابيه ، وهو كما قال « لسان الدين بن الخطيب » ممن يطربه التأليف ويشار اليه في فنونه لشهرته . تلمذ بمالقة لأبي بكر بن دسمان وأبي صالح محمد بن محمد الزاهد وأبي عبدالله بن حفيـد وأبي الحسـن مسهـل بن مالك . ولقـي بها أبا بكر بن محرز وأجاز له : وكتب له مجيزا ابو الحسن بن طار الرباح وابو علي الشلوبين . ولقي بسبتة الحسن بن عصفور الهـواري وأبا المطرف احمد بن عبدالله بن عفيرة ، فأجازا له . وأخذ عن يعقوب يوسف بن موسى الحساني الغماري . فأصبح حينئذ فقيها عارفا بعقد الشروط مبرزا في العدد والفرائض متضلعا في الادب . نظم في الفرائض وهو ابن

ثمانية وعشرين عاما أرجوزة محكمة بعلمها ضابطة عجيبة الوضع ، على قول لسان الدين • وقال فيه ابن عبد الملك : « خبرت منه في تكراري عليه تيقظا وحضور ذهن وتواضعا وحسن اقبال وبر وجميل لقاء ومعاشرة وتوسطا صالحا فيما يناظر فيه من التآليف واشتغالا بما يعنيه من أمر معاشه وتخاملا في هيئته ولباسه يكاد ينحط عن الاقتصاد بحسب المألوف بسبتة » وقال ابن الزبير : « كان اديبا لغويا فاضلا اماما في الفرائض» •

وروى عن أديبنا هذا الكثير من معاصريه كأبي عبدالله بن عبدالملك وغيره •

وخلف لنا الارجوزة الشهيرة في الفرائض لم يصنف في فنها احسن منها ، ومنظوماته في السيرة وقصيدة في المولد النبوي ، وله مقالة في علم العروض الدوبيتي •

قال لسان الدين في شعره (١) : « انه كثير مبرز الطبقة بين العالي والوسط منحاز اكثر الى الاجادة الجمة ، وتقع له الامور العجيبة كقوله :

الغدر في الناس شيمة سلفت   قد طال بين الورى تصرفها
ما كل من سرت له نعم   منك يرى قدرها ويعرفها
بل ربما أعقب الجزاء بها   مضرة عنك عز مصرفها
أما ترى الشمس تعطف بالنور على البدر وهو يكسفها !

وله مطولات مجيدة وأماديح رائعة شيقة منها هذا النموذج في أبي القاسم العزفي امير سبتة :

أرأيت من رحلوا وزموا العيسا   ألا يزول على الطلول حبيسا
أحسبت سوف يعود نسف ترابها   بما يشفي لديك نسيسا
هل من مؤنس نارا بجانب طورها   لأنيسها أم هل تحس حسيسا

توفي ابراهيم الانصاري سنة ٦٩٠ هـ بسبتة « على سن عالية فسحت مدى الانتفاع به » •



١ ـ الاحاطة .

عمارة بن يحيى بن عمـارة

هو ابو الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف الحسني العالم الاديب ، قضى في بعض النواحي من بجاية • وله تأليف في علم الفرائض منظوم وتواشيح في نهاية الحسن (١) •

لما تملك اسحاق بن غانية بجاية طلب أهلها بالبيعة • فبايعوه • وكان الشريف ابو الطاهر عمارة ممن امتدحهم وأنشد بين ايديهم ، وربما تعرض في بعض مقاله جريا على عادة الشعراء أمثاله فتجهز الموحدون برا وبحرا واسترجعوا بجاية ، وتبعوا الناس بما ظهر من مقال او فعال • واشتـدت وطأتهم على أهل العلم ، واعتقلوا اناسا منهم ، وكان من جملة من اعتقل الشريف ابو الطاهر عمارة ، وكان قد خرج الى الجهة التي كان بها قاضيا لينجو بنفسه ، لكن وجه اليه ، وجيء به مصفدا في الحديد ، وبقي معتقلا مع اصحابه مدة الى ان كتب بالقصيدة التي منها هذه القطعـة للوالي ، وشفع فيه وفي اصحابه جده النبي • فتلقاها الوالي بالقبول :

سلام كعرف المندل الرطبة في الجمر والا كما هب النسيم على الزهـــر
فلله در المقلتيـــن بعبــــرة تعبر فوق الخد عن كامـــن السر
وقد راعني ايماض برق بذي الغضا كما ابتسم الزنجي عن بهج الثغـر
بدا لي أن الليـــل أورى زنـاده ولا نار الا نور برق لــه يسري
ونار بأكبـادي اكابد حرهـــا وقلب سليم قلب في لظى جمــر
وما طائر فـــوق الغصون مسرح كمن بات مقصوص الجناحين في وكر
فلم انس توديع البنين مصفـــدا وأصغرهم يجري وأدمعه تجــري
أبا زيد اني بالحسين وسيلتـــي وجدي شفيع الناس فيموقف الحشر

فهذه القطعة تتميز بأسلوب لين ومعان بديعة وصور بارعة ، صفات الشعر الاستعطافي كما نعرفه عند المشارقة والاندلسيين • فقــد أثرت القصيدة في الوالي فرضي عنه • فان أبا الطاهر يظهر من خلال هذه المقطوعة شاعرا ذا باع طويل في ميدان القريض يهتم بالبديع من البلاغة •

وهذه القطعة صورة مختصرة لشعر ابي الطاهر الكثير وقد

---

١ ــ عنوان الدراية للغبريني

تذكر الغبريني ان لهذا الشاعر ديوانا ، لكنه لم يطلع عليه .

وكانت لأبي الطاهر بنت تسمى « عائشة » كانت اديبة فصيحة ، ومن شعرها :

أخـــذوا قلبي وســـاروا واشتياقـــي أودعونـــي
لا عـــدا ان لـــم يعودوا فاعذرونـــي أو دعونـــي

ويقال انها بعثت بهذين البيتين الى ابن الفكون وقالت : « عارضهما أو رد عليهما » فكتب معتذرا عن الجواب .

ولعائشة ايضا :

صدني عن حـــلاوة التشييـــع اجتنابـــي مرارة التوديـــع
لم يقـــم خير ذا بوحشة هـــذا فرأيت الصـــواب تـــرك الجميع

وقد خطبها رجل من الاشراف ، ولكنه كان أصلع . فلم تجبـه الى طلبه ، وقالت هذه الابيات تداعب احدى صواحبها :

عذيري من عاشـــق أصلـــع قبيـــح الاشارة والمنـــزع
يروم الزواج بما لو أتـــى يروم به الصفـــع لم يصفـــع
برأس حويـــج الـــى كيـــة ووجه فقير الـــى برقـــع

ولم يأت الغبريني الا بهذه الاشعار من شعرها الكثير .

ويحدثنا هذا الاديب عنها انها تجيد الخط . ولا شك أن وسطا تنبغ فيه فتاة في ذلك العصر يكون من أرقى الاوساط الادبية .

الفصل الرّابع

الفــترة الحفصية

٦٢٧ هـ ــ ٩٤٣ هـ

١٢٢٩ م ــ ١٥٢٦ م

تجزئة الامبراطورية الموحدية

سقطت الدولة الموحدية وقام مكانها ثلاث دول : الحفصية والزيانية والمرينية . كل منها كانت تريد ان تبسط نفوذها على المغرب العربي ، لكنه لم يخلص بتمامه الى أي دولة من هذه الدول . فتوزعته فيما بينها . فكان للحفصيين شرقيه وللمرينيين غربيه ولبني عبد الواد قلبه .

النفوذ الحفصي في الجزائر

السياسة :

اتخذ الملوك الحفصيون تونس قاعدة لمملكتهم . وكانت حكومتهم مستقلة تماما تحت رعاية سلطانهم . وبسطت نفوذها على مقاطعتي قسنطينة وبجاية مع جزء من مقاطعة وهران . وكانت العاصمة الحفصية بالجزائر بجاية الى أن اكثرت زناتة الغارات على بجاية ، فصارت الاهمية الى قسنطينة .

وكان التنافس بين امراء البيت الحفصي وتطلعهم الى الخلافة من ناحية والخلافات القائمة بين القبائل من ناحية اخرى باعثا للكثير من الفتن . فتضعضع لها هيكل الدولة حتى طمع فيها المرينيون وتمكن ابو الحسن علي المريني من الاستيلاء على المملكة الحفصية وضم اجزاء المغرب العربي لكن تحالف ضده رؤساء العشائر من البدو والقبائل الرحل ، وتمكنوا من هزمه قرب القيروان ، فأصبح بسط سلطانه على المغرب العربي حلما اذ اضطر الى العودة الى المغرب الاقصى في سنة ٧٥٠ هـ (كانون الاول ١٣٤٩ م ــ كانون الثاني ١٣٥٠ م) وحاول بعده ولده ، « ابو عنان » ، أن يسترجع ما ضاع لأبيه ، ولكنه وقع له ما وقع لأبيه . فبقيت بعد ذلك الدولة الحفصية في تدهور الى ان انهارت واصبحت عبارة عن حكم صوري قضى عليه التسرب العثماني في آخر الامر .

المجتمع :

كانت القبائل العربية تتنقل بين جهات متعددة ، ووقع احتكاك وتلاقح بين المغرب والبربر . فتلاشت الحدود بين المناطق العربية والمناطق البربرية

حتى اضحى التميز بينها محالا ، فانتشرت حينئذ اللغة العربيـة انتشارا كبيرا .

ووقع في هذه الآونة تغيرات اجتماعية اخرى ، تحركات الاعـراب والقبائل الرحل كان لها أثرها من الناحية الاقتصادية . فنزح العمران الى السواحل البحرية بعيدا عن اولئك العناصر ، وهذا ما يفسر ضعف النشاط الاقتصادي في مدن كثيرة من مدن الداخل لفائدةالموانىء التي اخذتتولي وجهها شطر البلاد الاوروبية في علاقاتها الاقتصادية والسياسية ، وذلك على حساب العلاقات التي كانت دائما متينة بين الجزائر وما وراء الصحراء والمشرق الاسلامي .

الثقافة :

كان الحفصيون يقلدون نظام الموحدين ، ولا شك أن نظاما يستمد اصوله من النظام الموحدي لا يستغرب فيه انه يولي اهتماما عظيما الـى الثقافة .

يلاحظ ان التعليم كان يومئذ منتشرا بالكتاتيب والمساجد التي هي معاهد الاسلام العلمية ، وأن الامراء والعمال في قسنطينة وعنابة وبجاية ومدينة الجزائر كانوا يحبون العلم ويقربون اهله ويشجعونهم . فزخرت المساجد بالعلماء ، ونبغوا في شتى الفنون . قال ابو عليالمسيلي : «أدركت بجاية ما ينيف على تسعين مفتيا .. فما ظنك بالادباء والنحاة والمحدثين وغيرهم » . واذا أردت ان تلم بشيء من التفصيل عن كتب الدراسـة والفنون التي كانت تدرس يومئذ بالجزائر الحفصية فعليك بعنوانالدراية للغبريني المتوفي في ١٢ ذي القعدة سنة ٧١٤ هـ . ويلاحظ أن الفلسفـة والعلوم العقلية كانت قليلة . فلا نجدها الا عند أمثال القاضي محمد بن ابراهيم الاصولي وأضرابه ، ذلك لان اهلها مع قلتهم كانوا مضطهديـن من طرف علماء النقل الجامدين المتزمتين . وحركة التأليف كانت قويـة بالجزائر كما تشهد بذلك كتب التراجم والفهارس . فان المقدمة وضعها صاحبها الفيلسوف المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون بالجزائر بقلعـة بني

سلامة بالجنوب الغربي قرب مدينة « فرندة » عام ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) .

*

ممن اشتهر في النحو أبو الحسين زين الدين ابو زكريا يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي . ينتمي الى قبيلة آفراوسن بزواوة . فقال فيه ابن خلكان في وفيات الاعيان : « كان أحد أئمة عصره مبرزا في علوم العربية ، شاعرا محسنا ، كثير الحفظ . وكان من جملة محفوظاته كتاب الصحاح للجوهري . ولد ابن المعطي بالجزائر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩م) واخذ العلم من مشايخ بلده وتفقه بالمذهب المالكي على الشيخ ابي موسى الجزولي .

ثم انتقل الى المشرق ، فتشفع ثم تحنف . دخل الشام ، واستقر بدمشق . فسمع بها لابن العساكر . ولم يلبث ان اصبح استاذا يقرىء النحو . فسمع منه خلق كثير . وولاه الملك مصالح المسجد الجامع .

ترامى حينئذ صيته في الآفاق وعظم قدره في الناس ، فاستقدمه الملك الكامل الى القاهرة . ففعل . وتصدر لتدريس الادب العربي بجامع القاهرة العتيق فأقبل عليه جمهور المتأدبين يأخذون عنه ويستفيدون منه . وأجرى له الملك على ذلك جراية . فتمادى في التدريس ، وأكب على التأليف . فأتحف معاصريه بالألفية في النحو المشهورة باسم « الدرة الالفية في علم العربية » وهي التي أشار اليها ابن مالك في « ديباجة خلاصته وأثنى عليه فيها » وهي منظومة من بحرين بعضها من السريع والبعض الآخر من الرجز . وهذا طالعها :

يقول راجي ربه الغفور يحيى بن معطي بن عبد النور

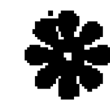
وهي مطبوعة بأرض الكنانة ، وللنحاة عليها شروح كثيرة أشهرها شرح الشريشي . وجادت علينا قريحته بكتب اخرى لا تقل فائدة ، منها كتاب الفصول ، وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وحواش على أصول السراج في النحو ، وشرح على كتاب الجمل للزجاجي في النحو ، وشرح لأبيات « سيبويه » نظما . كما نظم الجمهرة لابن دريد في اللغة ، ونظم

كتابا في العروض وقصيدة في القراءات السبع وكتاب المثلث • وعني اخيرا بنظم كتاب الصحاح للجوهري لكن لم تمكنه المنون من أن يكمله • فله ، كما ترى ، الباع الطويل في العلوم العربية يدل على ذلك ما ذكرنا من مصنفاته القيمة •

يروى للشيخ قوله عن نفسه متواضعا :

قالوا الى زين دين فهو لـــه   نعت جميل به قد زيـــن الأمنــا
فقلت لا تعذلـوه ان ذا لقلب   وقف على كل بخس والدليل أنــا !

وبقي الشيخ مشهورا بكمال العقل وحسن السيرة معظما الــى أن وافاه اجله • فمات ، رحمه الله ، بالقاهرة سلخ ذي القعدة سنة ٦٢٨ هـ (٢٩ ايلول سنة ١٢٣١ م) ولم يتأت له ان يعود الى الجزائر ويفيد بعمله أهل وطنه •



وممن اشتهر في التوثيق ابو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن السطاح • اصله من مدينة الجزائر واستوطن بجاية ثم انتقل في طلب العلم الى الاندلس • فدخل اشبيلية ، ولقي بها الأئمة الفضلاء وجهابذة العلوم الدينية والادبية ، كأبي الحسن بن زرقون وأبي بكر بن طلحة النحوي وأبي عبد الرحمن بن علي بن طرفة فسمع منهم ونال من علمهم حظا وافرا • ومن اشبيلية شخص الى مرسية • فاتصل بها بأبي القاسم الطرسوني ، فأخذ عنه مقامات الحريري ، وكتبا اخرى في الادب والعلوم الدينية والفقهية • فشهد له مشايخه بعلو الكعب ورسوخ القدم في أنواع العلوم ، وشجعوه على الاقراء ، فتصدر لذلك سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) ونجح في أمره • واشتغل في تلك البلدة زيادة على التدريس بعقد الشروط وتحرير الصكوك ، وقد تقدم في ذلك تقدما باهرا وفاق أرباب هذا الشأن في الاندلس • ولم يستوطن هذه الديار على الابد بل عاد الى وطنه ودخل بجاية سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) فانقطع بها للتدريس محترفا مهنة التوثيق • فأخذ عنه جماعة منهم ابو عبدالله الصدفي وابو عبدالله بن الطراز •

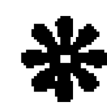
وبقي مهابا موفور الكرامة ببجاية الى ان توفي ، رحمه الله ، سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) .



وممن اشتهر في الفقه الامام الفقيه ابو عبدالله بن حجاج بن عبدالله بن يوسف بن السكات من بيت جزائري عتيق في المجد شهير بالرئاسة في العلم .

ولد ابو عبدالله بالجزائر في شهر صفر سنة ٥٦٣ هـ كانون الأول (١١٦٦ م) ونشأ بها وتعلم . وكان والده قاضيا رفيع الشأن جليل القدر ، فتفقه عليه ، وعلى الشيخ ابي عبدالله بن الحسين الجزائري . ولم يكتف بما نال في بلده من المعارف ، بل أحب ان يتسنم ذروة العلم . ففارق وطنه وأبحر الى الاندلس . فدخل « مالقة » ولقي بها أبا الحجاج ابن الشيخ ، فسمع منه كتاب الاحكام لعبد الحق الاشبيلي وغيره من مصنفات الاندلسيين الفقهية والادبية . وتتلمذ ايضا للامام ابن العربي ، وله رواية عن ابي موسى الجزولي . وبعد تجوله بالاندلس وتضلعه من انواع العلوم قفل راجعا الى بجاية . فتولى قضاءها بعد تأخير ابي عبدالله محمد بن ابراهيم الاصولي ، وطالت مدته في القضاء ، وعلى طول هذه المدة فانه لم يتناول من مرتبه شيئا لطعامه ، وانما كان ينفقه في المصالح الخيرية ، وما كان يعيش الا مما كان يتناوله من عقار له بالجزائر ورثه عن أبيه .

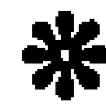
كان مترجمامشهورا بالفضل وسعةالعلم والعفاف ، عادلا في أحكامه . وقد اشتغل كذلك بالتدريس ، واخذ عنه خلق كثير . وتوفي يوم التاسع والعشرين من شهر جمادي الاولى سنة ٦٤١ هـ (١٥ تشرين الثاني ١٢٤٣ م) .



وممن اشتهر في الحديث الشيخ ابوعبدالله محمد بن قاسم بن منداس الأشيري أصلا . ولد بمدينة الجزائر فاتح جمادي الاولى سنة ٥٥٧ هـ

(١٨ نيسان ١١٦٢ م) • وبها نشأ وتأدب • أخذ عن علمائها كابن محمد ابن عبدالله وعلي بن عتيق •

وشخص الشيخ ابو موسى الجزولي الى الجزائر سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) فقصده ابن منداس ولازمه ملازمة ظله ، وأخذ عنه علوم اللغة والادب • وتاقت نفسه الى السفر • فقصد بلاد تونس ووصل الى قابس ، فلقي بها الشيخ أبا القاسم بن مجكان آخر من روى عن ابي‌عبدالله المازري • فتزود من علمه • ولما عاد الى بلده الجزائر آنس من نفسه التضلع من العلم ، فاندفع الى نشر الثقافة واشتغل خاصة بعلوم الحديث• فأخذ عنه كثير من الفضلاء منهم ابو عبدالله بن الأبار • وكانت وفاته ، رحمه الله ، فاتح شهر المحرم سنة ٦٤٣ هـ (٢٩ ايار ١٢٤٥ م) •



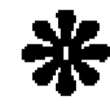
وممن اشتهر في التاريخ العالم المؤرخ الفقيه أبو زيان ناصر بن احمد ابن يوسف بن منصور بن فضل بن علي بن احمد بن حسن بن عبد المعطي ابن الحسين بن مزني الفزازي البسكري • ولد ببسكرة في محرم سنة ٧٨١ هـ (١٠ نيسان ١٣٧٩ م) من أسرة كريمة بيدها امارة بسكرة •

أولع بالعلم من صغره فأخذ القراءات عن ابي الحسن علي بن عبد الرحمن التوذري واخذ الفقه عن‌الامام ابن عرفة وأبي فارس‌عبدالعزيز ابن يحيى الغساني البرجي ومحمد بن علي ابراهيم الخطيب وعيسى بن أحمد الغبريني ، وانتفع كثيرا منهم • وانتقل أبو زيان الى‌مصر سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) • فحج ، ولسوء الحظ نكب في ماله وكتبه في جملة ما اصاب ركب المغاربة من النهب • ومما يؤسف له أن أسرته هي الاخرى نكبت في نفس السنة في بسكرة • فعزل والده عن الامارة ، ونزل السلطان الحفصي البلد ، فحطم بيت ابن مزني • فأثر ذلك في نفس ابي زيان ، وأجمع على الاستقرار بالقاهرة ، وكان بها يومئذ صديق آبائه العلامة عبدالرحمن بن خلدون • فعطف عليه وسعى له لدى من بيده الامر حتى نزل بالمدرسة الشيخونية وبها سمع البخاري على التقي الدجوي ، ولازم

الشيخ ابن حجر طويلا ، فاستفاد كل منهما من علم صاحبه • فنبغ بتضلعه من التاريخ واخبار الرواة • فشرع في جمع تاريخ كبير للرواة لم يجمعه أحد مثله ، ولكن ، لم يتأت له تبييضه • فقد اصيب في بصره سنة ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) وفارق الشيخونية وحل بالبرقوقية ، ولكن ، لم تفارقه علته ، وفاجأته المنية ولم يكمل كتابه الذي ــ على قول ابن حجر ــ لو أتمه لكان مائة مجلد • فانه جمع في مسوداته ما لا يحصى • ومات يوم ٢٠ شعبان ٨٢٣هـ (٣٠ آب ١٤٢٠ م) • فتفرقت المسودات • وذكر المقريزي في عقوده فقال : « ان صاحب الترجمة كان يتردد اليه وقال ماذا فقدنا من فوائده عوضه الله الجنة » !

الادب

بقي الادب الجزائري على العهد الحفصي الاول كما كان في عهد الموحدين مزدهرا يجري على ما كان عليه من الاتجاهات • لكن وحدة الامارة لم تلبث ان تفككت • فحكم بعض امرائها بتونس ، واستبد بعضهم ببجاية والآخرون بقسنطينة • والكل يريد أن يفاخر الآخر في أبهة السلطان فيقرب الادباء ويحسن اليهم • فيأخذ الشعراء في مدحهم والاشادة بفضلهم ، ورغم ذلك لم يزدهر الشعر في هذه الآونة ازدهاره في ريعان شباب الدولة •



محمد بن الحسن القلعي

ومن الشخصيات البارزة في هذه الآونة شخصية أبي عبدالله محمد ابن الحسن بن علي بن ميمون التميمي القلعي نسبة الى قلعة بني حماد التي كان جده ميمون قاضيا بها •

نشأ بالجزائر ، وتتلمذ بها على شيوخها منهم علي ابو عبدالله بن منداس • وانتقل الى بجاية ، واتصل بأساتذتها منهم ابو الحسن الحرالي وأبو الحسن بن أبي نصر وابو بكر بن محرز وابو المطرف بن عميرة وأبو زيد بن السطاح • واقتبس منهم شيئا كثيرا ، واصبح راسخ القدم

في العلوم العربية محكما لفنونها ولا سيما الادب منها . وكان قويا في علم التصريف ومحبا في التعليل جاريا فيه على سنن ابن جني . وتصدر للاقراء . فانثال عليه طلبة كثيرون يقرأون عليه جميع الكتب النحوية واللغوية والادبية . والغبريني صاحب كتاب عنوان الدراية نفسه أخذ عنه فقال : « لزمته ما ينيف على عشرة اعوام واستمعت اليه كثيرا واستفدت كبيرا . قرأت عليه الايضاح من فاتحته الى خاتمته ، وقرأت عليه قانون أبي موسى الجزولي وجملة من الإمالي ومن زهر الادب ومن المقامات وقصائد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبي ، وحضرت قراءة المفصل » .

وكان القلعي سخيا ذا مروءة ، وكانت يده ويد الطلبة في كتبه سواء ، وكان سخي الدمع سريع العبرة .

ومصنفات القلعي العديدة تدل على سعة معارفه وغزارة فضله : له كتاب سماه بالموضح في علم النحو ، وله صدق العيون في تنقيح القانون وله نشر الخفي في مشكلات أبي علي وكان يؤثره على غيره من الكتب .

كان فحلا من فحول شعراء عصره مطبوعا دقيق المعاني متين البيت جزيل اللفظ ينحو في شعره منحى حبيب بن أوس . وكان صديقه أبو عبدالله الأريسي الجزائري يسلك في شعره على طريق المتنبي وقد أشرنا الى ذلك سابقا . وكان الشاعران يتراسلان الاشعار يجاوب كل واحد منهما الآخر على طريقته . وشاعرنا مشهور بالاديب سماه بذلك أستاذه أبو الحسن الحرالي . ومن شعره هذه القصيدة التي يذكر فيها شوقه للنبي صلعم) وشفاعته .

أمن أجل ان بانوا فؤادك مغرم — وقلبك خفاق ودمعك يسجم
وما ذاك الا أن جسمك منجد — وقلبك مع من سار في الركب متهم
ومن قائل في نظمه متعجبا — وجسم بلا قلب فكيف رأيتم
ولا عجب ان فارق الجسم قلبه — فحيث ثوى المحبوب يثوي المتيم
وما ضرهم لو ودعوا يوم اودعوا — فؤادي بتذكار الصبابة يضرم
عساهم كما أبدوا صدودا وجفوة — يعودون للوصول الذي كنت أعلم

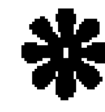
واني لادعـــو الله دعوة مذنـب عسى أنظر البيت العتيق وألثـــم
فيا طول شوقي للنبي وصحبـــه ويا شد ما يلقى الفؤاد ويكتـــم
توهمت من طول الحساب وهولـه وكثرة ذنبي كيـــف لا أتوهـــم
وقد قلت حقا فاستمع لمقالتـــي فهل تائب مثلـــي يصيح ويفهـــم
وذلك في القرآن أوضح حجـــة وما ثـــم الا جنة أو جهنـــم
اليك رســول الله أرفع حاجتـــي فأنت شفيع الخلق والخلق هيّـــم
فقد سارت الركبان واغتنموا المنـى وانـــي من دون الخلائـــق محرم
فيا سامع الشكوى أقلني عثرتـــي فانك يا مولاي تعفـــو وترحـم
وسامعين استوهبوا لـــي دعـوة عسى عطفة من فضلـــه تتنســـم
وهبني عصيت الله جهلا وصبـوة فمن يقبل الشكوى ومن يترحـم ؟
وقد أثقلت ظهري ذنوب عظيمـــة ولكن عفـــو الله أعلى وأعظـــم
وأختم نظمـــي بالصلاة مـرددا على خير خلق الله ثم أسلـــم

ومن شعره أيضا في الزهد قوله :

الخبر أصدق في المرأى من الخبـر فمهد العذر ليس العين كالأثـــر
واعمل لأخرى ولا تبخل بمكرمـة فكل شيء على حد الى قـــدر
وخل عن زمن تخشى عواقبـــه ان الزمان اذا فكرت ذو غيـــر
وكل حي وان طالت سلامتـــه يعتاله الموت بين الورد والصـــدر
هو الحمـــام فلا تبعد زيارتـــه ولا تقل ليتني منه على حـــذر
يا ويح من غره دهر فسر بـــه لم يخلص الصفو الا شيب بالكدر
أنظر لمن باد تنظـر آية عجبـــا وعبرة لأولي الالباب والعبـــر
اين الألى جنبـــوا خيلا مسومـة وشيدوا ارما خوفا مـــن القدر
لم تغنهم خيلهم يوما وان كثـــرت ولم تفد ارم للحـــادث النكـــر
بادوا فعادوا حديثا ان ذا عجـــب ما اوضح الرشد لولا سيىء النظر
تنافس الناس في الدنيا وقد علمـوا أن المقـــام بها كاللمـــح بالبصر
أودى بدار أو أودى بابن ذي يزن وفل غـــرب هرقل انه لحـــر
ولم يفـــد سبأ مال ولا ولـــد ومزقته يد التشتيت في الأثـــر
ولتفتكر في ملوك العرب من يمـن ولتعتبر بملـوك الصيـن من مضر
أفناهم الدهر أولادهم وآخرهـم لم يبق منهم سوى الاسماء والسير

والقلعي اكثر اهل عصره شعرا ، وقد شرع في تدوين أدبه في عام ثلاثين وستمائة (٦٣٠ هـ) ، وهو في كل عام يقول منه ما يكتب في ديوان. وعاش بعد شروعه في تدوين أدبه ثلاثة واربعين سنة ولو تم له تدوينه لكان في مجلدات كثيرة . وله موشحات استحسنها جدا الادباء .

توفي ، رحمه الله ، ببجاية عام ٦٧٣ هـ . وكان يعد من كبار أدباء الجزائر في القرن السابع الهجري .



احمد بن أبي القاسم الخلوف

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الخلوف . انتقلت أسرته من فاس الى القطر الجزائري . فاستوطنت قسنطينة . وبهذه المدينة ولد احمد في ثالث المحرم سنة ٨٢٩ هـ (تشرين الثاني سنة ١٤٦٥ م) . فتوجه والده الى مكة مصحوبا به . فحج ومكث هناك مجاورا أربع سنين ، ثم دخل بيت المقدس ، وبه حفظ مترجمنا القرآن وقرأ كتبا شتى في مختلف الفنون . واتصل بعلماء الشرق ومنهم أبو القاسم النويري . فأخذ عنه الفقه واللغة والاصول ، ومنهم الشهاب بن رسلان والعز القدسي ، فأخذ عنهم روايته في القراءات وعلوم القرآن . وفي سنة ٨٥٩ هـ (١٤٥٥ م) توفي أبوه ، فانتقل الى القاهرة ، وبها اجتمع بالعز عبد السلام البغدادي ، فتتلمذ له ، ونال منه النحو والصرف والمنطق . وقفل الى البلاد المغربية وقد بلغ الغاية في براعة الانشاء ، ونظم الشعر . فأخذ عنه هناك احمد السلاوي ويقول عنه : انه أحفظ من لقيه بها فانقطع الى قرض الشعر ، فشاع خبره ، واتصل ذكره بالمولى المسعود بن عثمان حفيد أبي فارس الحفصي ، فاستكتبه .

انتقل غير مرة الى القاهرة ، ومنها دخل الى مكة ، وحج سنة ٨٧٧ هـ ١٤٧٢ م) . فاجتمع بها بالامام السخاوي ، وجرت بينهما محاورات أدبية ، على قول السخاوي في ضوئه . وقد وصفه لنا في نفس الكتاب بقوله : « لقيته مودعا له وهو حسن الشكالة والابهة ، ظاهر النعمة ، طلق العبارة ، بليغ بارع الادب ومتعلق به » .

واشتهر ابن الخلوف بجودة الشعر والكتابة • فكان يعرف بين أدباء عصره بذي الصناعتين • فهو حقا من فحول الشعراء وأمراء الكلام ، ويقر له بذلك ما تركه للخلف الصالح : له ديوان شعر خاص بمـدح الحضرة النبوية وفاق غيره من أئمة هذا الشأن • فان قصائده كلها رائعة الاسلوب صافية الديباجة ، جامعة بين السلاسة والمتانة • وديوانه في هذا الغرض يقع في ١٤٦ صفحة توجد نسخة منه بمكتبة الاخ الاستاذ عبدالرحمـن الجلالي • واكثر أشعاره في مدح السلطان أبي عمرو عثمان بن ابي عبدالله الحفصي • فله القصائد الرائعة •

وخلف لنا تآليف كثيرة • فله « تحرير الميزان لتصحيح الاوزان » في العروض و « مواهب البديع في علم البديع » و « جامع الاقوال في صيغ الافعال » وهو رجز في تصريف الافعال و « عمـدة الفائض في علـم الفرائض » • وله بمكتبة باريس وبرلين ولندن وبيترسبورغ ديـوان مخطوط مرتب على حروف الهجاء ، وله موشح مستقل في مكتبة برلين •

وكانت وفاته ، رحمه الله ، بتونس سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٤ م) ودفن هناك بتربة سيدي محرز بن خلف •

الموشحـات

الموشح فن جديد من فنون الشعر العربي • نشـأ بالاندلس • والشعب الاندلسي كلف بالغناء • فان جمال البلاد وخصبها وغنى سكانها من دواعي اللهو ، ولا شيء أدعى الى اللهو من الغناء والطرب • ودخول « زرياب » الى تلك الديار رفع من شأن الغناء لما أدخل عليهمن التحسين • فأصبحت مجالس الطرب في الاندلس على انتشار عظيم وانعقاد مستمر • فقال ابن خلدون : « أورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه الـى أزمان الطوائف وطما منها باشبيلية بحر زاخر » • ولم يطم سيله باشبيلية فحسب بل بمدن اخرى ايضا • فقال التجيبي : « كنت بمدينة مالقة ولزمت المنزل لمرضي ••• وكنت اذا جن الليل اشتد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية واختلطت الاصوات بالغناء •

فكان ذلك شديدا علي ••• وأود لو أجد مسكنا لا أسمع فيه شيئا من ذلك ويتعذر علي وجوده لغلبة ذلك الشأن على اهل تلك الناحية وكثرته عندهم » •

وجد أهل الاندلس القصيدة العربية ذات الوزن الوحيد لا تصلح للالحان المنوعة « فأصبحت في حاجة ماسة الى لون جديد من الشعر يواكب الغناء والموسيقى في تنوعها واختلاف ألحانها » فاخترعوا الموشح فقا لابن خلدون :

« وأما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناسموه بالموشح ينظمونه أسماطا أسماطا وأغصانا أغصانا يكثرون منها ومن أعاريضها » •

نلمس في هذا اللون من الشعر ثورة على الاساليب المرعية في النظم ، استخدم في بعض فقراته اللغة العامية مما جعله يتلقى مقاومة وانكارا من طرف المحافظين على القديم الا أن سيله طما واجترف مقاوميه لانه نشأ في أوساط الشعب لارضاء الشعب الذي هو مزيج من العرب والبربر والاسبان يعتلج في عروقه حينئذ الدم الشرقي والغربي ، فانحرف عما تقتضيه الاوضاع العربية حتى اذا تكلم احدهم بالاعراب وجرى على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه • فكما أثر ذلك الامتزاج القوي في الغناء أثر في الشعر الذي يتغنى به •

ذكر ابن سينا الملك في كتابه ــ دار الطراز ــ مناهج فنية كثيرة في نظم الموشحات وترتيب أبياتها • يتألف الموشح من أقفال وأبيات • فالاقفال هي ما اتفقت وزنا وأجزاء وقافية • والابيات هي ما اتفقت وزنا وأجزاء واختلفت قافية • والاندلسيون لم يلتزموا في الموشح قافية واحدة أو وزنا واحدا • فالموشح عندهم تابع لما تقتضيه الانغام ، فتارة يوافق اوزان الشعر العربية وتارة يخالفها • والموشح كان ينظم اولا للغناء والمعاني الوجدانية المتصلة بالتلحين كالغزل والوصف • ولما انتشر بين الادباء شاع نظمه في الاغراض الاخرى من الفخر والمدح والرثاء والهجاء والتهنئة والوعظ وغير ذلك •

وكان المخترع للموشيح بالاندلس « مقدم بن معافر الفريري » من شعراء الامير عبدالله بن محمد المرواني في القرن الثالث الهجري (العاشر الميلادي) . وأخذ ذلك عنه « ابن عبد ربه » . ولكن ، كسدت موشحاتهما حتى كان القزاز ، شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية المتوفي سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣٠ م) . فأعطى لهذا النوع ما يستحقه من اللطافة والطلاوة . ويقول ابو بكر بن زهر : « كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز (١) . فشاع شرقا وغربا ووصل الى الجزائر في القرن الخامس ونظم كثير من الادباء الموشحات اللطيفة ولا يزال بعض الشعراء الى اليوم ينظمون الموشح ومنهم الاديب المعاصر « مفدي زكريا » .

وقد برع في هذا اللون من الشعر الاريسي والحسن بن الفكون ومحمد الحسن القلعي كما أشرنا الى ذلك من قبل وأحمد الخلوف وبر بن خلف التلمساني وابن خرز البجائي والمقري وغيرهم .

واليك نموذجا منه لشمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني (٢) من أهل القرن السابع فقال :

قمر يجلو دجى الغلس   بهر الابصار مذ ظهرا
آمن من شينة الكلف
ذبت من حبه بالكلف
ولم يزل يسعى الى تلفي
بركاب الدل والصلف (٣)

آه لولا أعين الحرس   نلت منه الوصل مقتدرا
يا اميرا جار مذ وليا
كيف لا ترثي لمن بليا ؟
فبثغر منك قد جليا

١ ــ قول البطليوسي ــ ٢ ــ يعرف بالشاب الظريف من شعراء الجزائر وكتابها المجيدين . توفي سنة ١٣٨٩ م وعمره سبع وعشرون سنة . وله ديوان شعر . ــ ٣ ــ الصلف : الشبه والادعاء مع العجب والكبر .

قد حلا طعما وقد حلي(۱)

وبمـــا أوتيـت مـن كيس جد ، فمـــا أبقيت مصطبـــرا

بدرتم في الجمال سني

ولهذا لقبــوه سني

قد سباني لذة الوسن

بمحيا باهــر حسن

هو خشفي (۲) وهو مفترســي فأرو عن أعجوبتـــــي خبـــرا

لك خد يا أبا الفرج

زين بالتوريد والضرج (۳)

وحديث عاطر الأرج

كم سبى قلبا بلا حرج

لو رآك الغصــن لـــم ييبس أو رآك البـــدر لاستتـــــرا

يا مذيبا مهجتي كمدا

فقت في الحسن البدور مدى

يا كحيلا كحله اعتمدا

عجبا أن تبرىء الرمدا

وبسقم الناظريـــــن كسـي جفنـــك السحـــار وانكسرا !

وقد عارضه أبو حيان الجياني الاندلسي (٤) بما نصه :

عاذلـــي في الأهيف الآنـــس لـــو رآه الآن قد عـــذرا

رشأ قد زانه الحـور

غصن من فوقـه قمر

قمر من سحبه الشعر

ثغر من فيه أم درر ؟

---

١ ـ حليتي : تزين بالحلي والمراد بها الاسنان

٢ ـ الخشف : ولد الغزال والظبي

٣ ـ الضرج : الصبغ بالحمرة .

٤ ـ ولد بغرناطة سنة ٦٥٤ هـ وتوفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ (١٣٤٤ م) .

جـــال بين الـــدر واللعس خمرة من ذاقهـــــا سكـــرا

رجة بالردف أم كسل ؟

ريقة بالثغر أم عسل ؟

وردة بالخد أم خجل ؟

كحل بالعين أم كحل

يا لهــا مـــن أعيـــن نعس جلبـــت للناظر السهـــــرا

مذ نأى عن مقلتي سني

ما أذيقا لـــذة الوسن

طال ما ألقاه من شجن

عجبا ضدان في بدن

بفؤادي جـــذوة القبـــس وبعينـــي المـــاء منفجـــرا

قد أتاني الله بالفـــرج

اذ دنا مني ابو الفـــرج

قمر قد حل في المهج

كيفلا يخشى من الوهج ؟

غيـــره لو صابـــه نفســـي ظنـــه مـــن حـــره شررا

نصب العينين لي شركا

فانثنى والقلب قد ملكا

قمر اضحى له فلكـــا

قال لي يوما وقد ضحكا :

أتجي مـــن أرض اندلـــس نحـــو مصر تعشـــق القمـــرا ؟

الفصل الخامس

الفترة العبدالوادية

٦٣٣ هـ — ٩٦٢ هـ

١٢٣٥ م — ١٥٥٤ م

السياسة :

بينما اعلن الوالي الحفصي استقلاله بتونس استقل بنو عبد الواد بقيادة يغمراسن بتلمسان وضواحيها .

كان بنو عبد الواد من القبائل الزناتية الرحل ومن حلفاء الموحدين . ورأى يغمراسن تدهور الموحدين فخاف أن يؤدي به هذا التدهور الى ضياع السلطة المحلية فأعلن استقلاله ، ولكنه عرف كيف يختار الوقت المناسب لذلك الاعلان . فاستمرت هذه المملكة من سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) الى سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٤ م) . الا أنها كانت واقعة بين « شقي رحا » المملكة الحفصية شرقا والمملكة المرينية غربا .

وقد تعددت الحروب بينها وبين جيرانها . فكم من مرة تحالفوا ضدها ! وكم من مرة تحالفت مرين مع القبائل العربية والزناتية لتقضي عليها ، ولكنها عرفت كيف تواجه هذه الاحلاف وهذه المكايد . فقد تمكن الزيانيون من ان يقاوموا الهجومات الآتية شرقا وغربا وأن يصدوا جيوش « أبي يعقوب » و « أبي الحسن » و « أبي عنان » . فالحدود لم تتغير . فبقيت « تاوريت » فاصلة بين المغرب الاقصى ومملكة تلمسان. ولكن هذه الدولة كغيرها خضعت لحكم الزمان . فدخلت في التدهور الى أن أجهز عليها الاحتلال الاسباني الذي طلبه بعض سلاطينها مما دفع الشعب الى السخط عليهم وفتح طريق الحكم للاتراك الذين كانوا في نظرهم احسن مدافع عن التضحية الاسلامية .

المجتمع :

سبق بني زيان دول ذات حضارات قيمة كما ذكرنا . فهضموها وأخرجوا حضارة ذات طابع خاص فمملكتهم فلاحية قبل كل شيء بطبيعة أرضها ، تنتج اكثر مما تحتاجه حتى أمكنها ان تمد أهل غرناطة كل سنة بالزرع والخيل .

أما التجارة فكانت بها رائجة ولا سيما بالعاصمة تلمسان ، لأهمية موقعها الجغرافي ، وعلاقاتها التجارية كانت قوية مع المغرب والبلاد

الاستوائية والاندلس • تستورد وتصدر السلع المختلفة • وكان التجار مولعين بحرفتهم لا يشغلهم عنها ما قد يقع حولهم من اضطرابات وحركات سياسية • وما اكثر ما كانت في ذلك الوقت ! وكانوا مشهورين بالصدق في معاملتهم كما شهد بذلك حسن الوزان الزياتي (لاون الافريقي) • والصناعة الوطنية كان مستواها مرتفعا ، ومن تجول في اسواقها اليوم ظهر له جليا أثرها •

وكان أولو الامر يقدرون الاشراف والفقهاء ويدارون الاعيان من رؤساء العشائر ويضربون القبيلة بالاخرى حتى يكونوا جميعا في حبائلهم، فتقل المعارضة ويكثر الاطمئنان والاستقرار • والخزينة كانت تزخر بالاموال التي تجمع من الضرائب المفروضة على الجميع ومن الغنائم الحربية • وهذه الاموال توزع في مصالح الحكومة وجوائز الاعيان والادباء وعطاء الموظفين والجند والبناء والتشييد في العاصمة والمدن الاخرى •

الثقافة :

تنافس الحفصيون والزيانيون والمرينيون في تقريب العلماء والادباء من مجالسهم • فتعددت المناظرات العلمية وازدهرت الفنون في المغرب العربي •

ضمت الجزائر من قبل مفكرين وادباء لامعين وسمعتها العلمية والادبية تجاوزت حدود المغرب والاندلس والمشرق •

والجزائر كانت قبل هذه الفترة تابعة للشرق الاسلامي في حضارتها وثقافتها وفنونها • أينما وليت نظرك في قصور القلعة وبجاية وأثاثها وجدت ما ينطق بأثر الفن الشرقي • فقد شاع وأخذ بتلابيب أولي الامر والاعيان ، وحتى الامكنة التي وطأتها صنهاجة فشا فيها ذلك الاثر • فانظر الى «بلقين بن زيري» عندما دخل الى فاس • فان اول ما قام به هو اتحاف مسجد عدوة الاندلس بمنبر على طراز شرقي • ولكن في هذه الفترة ، أصبحت الصلة بالاندلس اقوى وأوثق من ذي قبل • وقد استولى

الاسبان على غرناطة سنة ١٤٩٢ م • فما كان على المسلمين الا أن يهجروا الاندلس العزيزة • فنزحوا الى الجزائر وانتشروا في حواضرها ومن اهمها تلمسان التي كانت على صلة وثيقة بالاندلس • وحملوا بالطبع معهم علومهم وآدابهم وفنونهم • فقد نظموا حلقات تعليم بالمدارس والمساجد وخاصة بالمسجد الجامع • وكان هذا المسجد قبل هذه الآونة مركزا من مراكز الثقافة العربية الاسلامية منذ عهد سحيق كمسجد كل من طبنة وتيهرت وقسنطينة وعنابة وبجاية ووهران ومدينة الجزائر ، ولكن اثر نزوح الاندلسيين الى تلمسان ، اصبح معهدا للتدريس لا يقل اهمية عن جامع الزيتونة او القرويين • ولأول مرة وقعت حركة التعريب في الربوع الجزائرية • وهذه الحركة التي قام بها أولئك النازحون تلاحق حركة التعريب في عهد المأمون ببغداد وزيادة الله بالقيروان وعبد الرحمن الناصر والحكم بقرطبة •

فان تلمسان اصبحت على عهد بني زيان حاضرة من اعظم حواضر العلم والسياسة بالعالم الاسلامي ، ونبغ فيها عدد كبير من الادباء والشعراء والعلماء الذين استقلوا بملكة التعليم • ولقد استحسن ابن خلدون التعليم الذي كان قائما بتلمسان وبجاية • فقصد عاصمة بني زيان طلاب العلم من كل جهات العالم العربي • والفنون عرفت كذلك تقدما كبيرا ووصلت الى الذروة • ومن دلائل تقدمها ايام « أبي حمو » صناعة الساعة المشهورة بالمنجانة وقد وصفها لنا يحيى بن خلدون في بغية الرواد والتنسي في دره كما سنوضح ذلك بعد •



ومن اشتهر في العلوم الفقهية والدينية ابنا الامام وهما أبو زيد عبد الرحمن وابو موسى عيسى • نشأا بمدينة برشك الواقعة بين شرشال وتنس حيث كان والدهما محمد بن عبدالله التلمساني ، اماما بأحد مساجد هذه المدينة • أطبق علماء التاريخ بالمغرب بأنه لم يكن ، في عهدهما ، أعلم منهما •

لما استولى زيري بن حماد المكلاتي المعروف « بزيرم » على برشك سنة ٦٨٣ هـ (١٢٤٤ م) اتهم امام المدينة ابن عبدالله ، والد الاخوين ، باحتوائه على وديعة مالية لبعض اعداء « زيرم » وطالبه بها • فامتنع الامام • فقتله « زيرم » غيلة • فحزن ولداه ، وأجمعا على مغادرة البلد ما دام بها عدوهم « زيرم » ، وارتحلا الى تونس آخر المائة السابعة • فأخذا العلم بها ولقيا علماءها كابن القطان وابن جماعة والمرجاني والبطروني • ثم ذهبا الى المغرب الاقصى واجتمعا بشيوخ فاس : السطي والطنجي واليفرني وتلامذة ابن زيتون ، وتفقها على اصحاب ابي عبدالله بن شعيب الدكالي • وبعد تنقلهما بين عواصم العلم في المغرب العربي رجعا بحظ وافر من العلم الى برشك ، لكنهما وجدا بها عدوهما زيرما فعرجا عنها الى الجزائر • فأقاما هناك يبثان العلم • وكان السلطان « أبو يعقوب يوسف المريني » يومئذ محاصرا تلمسان وقد استحوذت جيوشه على اكثر عواصم البلاد الجزائرية • فارتحل الاخوان من الجزائر الى مليانة ، عاصمة مغراوة ، وكان بها منديل بن محمد الكناني ، صاحب الجباية من قبل بني مرين • فوصله خبرهما ، وعرف مكانتهما من العلم • فقربهما منه واتخذهما لتعليم ولده محمد ، ثم استعملهما على خطة القضاء بمليانة •

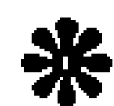
وفي سنة ٧٠٥ هـ هلك يوسف ابو يعقوب وولي الامر بعده حفيده أبو ثابت ، واصطلح مع بني عبد الواد وعاد الى المغرب ومعه الكناني وقد انتقل الاخوان صحبة الكناني الى تلمسان ، وحلا بها • فاتصلا بسلطانها أبي حمو • فاصطفاهما واختط لهما المدرسة المسماة بهما داخل باب كشوط على قول ابن ابي مريم ، صاحب البستان ، او بناحية المطهر على قول ابن خلدون ، وبنى لهما بجانب المدرسة دارين للسكنى • وأقاما عنده مختصين بالفتوى • وضمهما الى خاصته وأعيان مجلسه • ولما بسط أبو حمو نفوذه وحكمه على بلاد مغراوة توجس منه خيفة «زيرم المكلاتي» ونزل له عن ولايته • والسفير بينه وبين السلطان كان أبا زيد عبد الرحمن ابن الامام • وهذا السفير كان حاقدا على زيرم قاتل ابيه • فعزم على اخذ

ثأره منه • فاستأذن السلطان في ذلك ، فأذن له وثأر منه • وكان ذلك سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٨ م) فدخلت برشك في حوزة بني زيان • بقي الاخوان في كفالة أبي حمو بتلمسان الى أن توفي • فقربهما اليه ولده السلطان أبو تاشفين الاول • فلازماه مدة سنتين • ثم غادراه وقصدا المشرق سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) فلقيا هناك أكابر العلماء : علاء الدين القوني والجلالي القزويني صاحب التلخيص في البلاغة ، واجتمعا بشيخ الاسلام تقي الدين بن تيمية • فناظراه وظهرا عليه •

عاد الاخوان من المشرق وقد اشتهرا بالتبحر في العلم حتى صارا يعرفان بالامامة والاجتهاد • فقصدهما الطلاب من كل فج وصوب • فتخرج عليهما أعلام منهم الشريف التلمساني والخطيب بن مرزوق والامام المقري جد صاحب النفع وأبو عثمان العقباني وأبو عبدالله اليحصوبي في جماعة آخرين من الاعلام •

لما ملك ابو الحسن علي المريني تلمسان سنة ٧٣٧ هـ استدعاهما وادنى مجلسهما ، ورفع محلهما عن أهل طبقتهما وأجمل مجلسه بهما • ثم حضرا معه واقعة طريف آخر سنة ٧٤٠ (١٣٤٠ م) وعادا لبلدهما • فتوفي أبو زيد في شهر رمضان سنة ٧٤١ هـ (آذار ١٣٤٠ م) ودفن ببلدته برشك • وبقي أبو موسى عزيز الجانب قريب المجلس مكرما لدى السلطان ابي الحسن الى ان استولى على تونس • فسأله عيسى العودة الى بلده فسرحه • فأقام بها عالمنا الجليل يسيرا وهلك بالطاعون سنة ٧٤٩ هـ •

ومما يؤسف له أنه لم يبلغنا شيء عن مؤلفات الاخوين الا ما أشار اليه صاحب البستان من شرح ابي زيد على ابن الحاجب الفرعي • ويقول « ابن فرحون » « ان لهما التصانيف المفيدة » • ولعلها ضاعت وسط تلك الاضطرابات التي عاشت فيها بلاد المغرب العربي وقتئذ • •



ومن اشتهر في المعقولات ابو عبدالله محمد بن ابراهيم بن احمد العبدري الآبلي • أصله من أهل آبلة من عمالة مجريط ومنها انتقل ابوه

وعمه الى تلمسان فاستخدمهما يغمراسن • وأصهر أبوه الى القاضي محمد ابن غليون المرسي في ابنته • فولدت له محمدا سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) • ونشأ مترجمنا بتلمسان في كفالة جده القاضي • فحبب له العلم ، فرغب فيه محمد معرضا عن الجندية مهنة ابيه •

أخذ عن فقهاء تلمسان : أبي الحسن التنس وابني الامام • ومال الى فنون الحكمة والتعاليم ، فبرع فيها • واشتغل بالمعقولات ، فاصبح فيها واحد عصره وعكف الناس عليه في تعلمها • ولما استولى «يوسف ابو يعقوب المريني » على تلمسان استخدمه •فكره ذلك ، وغادر بلدته قاصدا البقع المقدسة آخر القرن السابع الهجري • فدخل مصر ولقي فيها ابن دقيق العيد وابن الرفعة والتبريزي وغيرهم من أهل المعقول • ووصل الى الشام والعراق • ثم رجع بعد قضاء فريضة الحج الى مسقط رأسه • وكان السلطان ابو حمو الاول قد اتسعت رقعة مملكته وقد علم أن للآبلي درايه بعلم الحساب فطلب منه ان يشتغل بأمر الحساب وضبط اموال الدولة فتفادى الشيخ من هذا الوظيف • ولكن السلطان ألح عليه ثم أكرهه • فلقي أبا العباس احمد بن ابراهيم الخياط • فشكا له ما يتوقعه من شر أبي حمو • فقال له « عليك بالجبل » • فلم يدر ما قال ، حتى تعرض له رجل من غمارة ، فعرض عليه الهروب به • قال الآبلي : « خفت أن يكون أبو حمو قد دسه علي فتنكرت له » • فقال لي : « انما أسير بك على الجبل » • فتذكرت قول أبي اسحاق • فواطأته ، وكان خلاصي على يده• ولقد وجدت العطش في بعض مسيري به حتى غلظ لساني واضطربت ركبتاي •

فقال لي : « ان جلست قتلتك لئلا أفتضح بك » فكنت أقوي نفسي، فمر على بالي في تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس وتوسله به • فوالله ما قلت شيئا حتى رفع لي غدير ماء فأريته اياه • فشربنا ونهضنا » •

فهكذا فر الى فاس ونجا من أبي حمو وذلك في حدود سنة ٧١٠ هـ• واختفى هناك عند شيخ التعاليم خلوف المغيلي اليهودي • فأخذ عنه فنون

التعاليم ومهر فيها • ثم دخل مراكش وكان بها الامام ابن البناء • فلازمه وتضلع عليه في علم المعقول والتعاليم والحكمة • ثم قصد شيخ الهساكرة علي بن محمد بن ترميت • فقرأ عليه مدة • وكثر خوله الطلبة • وكان علي بن محمد يحبه كثيرا • الا أنه عاد الى فاس ، فانثال عليه طلبة العلم • وبهذه العاصمة انتشر ذكره وذاع صيته وصار يدعى بعالم الدنيا •

لما فتح السلطان ابو الحسن المريني تلمسان لقي بها ابا موسى بن الامام ، فذكره له بأطيب الذكر ووصفه بالتقدم والبراعة في العلوم • وكان السلطان ابو الحسن يعتني بجمع العلماء ، فاستدعاه من فاس ، واجمل مجلسه به ، ونظمه في طبقة العلماء • فعكف على التدريس والتعليم ، ولازمه ، وحضر معه وقعتي طريف والقيروان وفي هذه المدة اتصل اهل تونس بالشيخ وانتفعوا به •

وبعد مهلك ابي الحسن طلبه ابو عنان من صاحب تونس ، فأسلمه• وقدم الشيخ الى بجاية وأقام بها شهرا • قرأ عليه طلبتها مختصر ابن الحاجب في الاصول ثم انتقل الى تلمسان • فدخل على ابي عنان • فنظمه في طبقة أشياخه من العلماء • وكان يقرأ عليه الى أن توفي بفاس سنة ٧٥٧هـ •

حلاه ابو عنان في مروياته بأحسن الاوصاف • فكان يقول : « أخبرني شيخنا الامام العالم العلامة وحيد زمانه عبدالله بن ابراهيم الآبلي رحمه الله تعالى » • قال يحيى بن خلدون : « اني لا اعرف بالمغرب وافريقية فقيها كبيرا الا وعليه مشيخة » ومن أشهر تلامذته أبي عنان والمؤرخ الكبير عبد الرحمن بن خلدون وأخوه يحيى وابن الصباغ المكناسي والشريف التلمساني والشريف الرهوني وابن مرزوق الجد وأبو عثمان العقباني وابن عرفة والولي بن عباد •

وأما تآليفه فلم يرو لنا التاريخ شيئا عنها • فكيف يخلف تآليف وهو القائل : « انما أفسد العلم كثرة التآليف واذهبه بنيان المدارس » • فالتآليف في نظره تجعل العلوم سهلة التناول فتضعف الرغبة فيها ويقل التحصيل •

ومن كلامه المأثور قوله : « لولا انقطاع الوحي لنزل فينا اكثر مما نزل في بني اسرائيل لاننا اكثر مما أتوا » فانه يشير بقوله هذا الى افتراق الامة العربية على اكثر مما افترقت عليه بنو اسرائيل والى استهتارهم بدينهم حتى ضعفوا بذلك عن عدوهم ٠



ومن اشتهر في المعقول والمنقول ابو عبدالله محمد بن احمد بن علي الشريف التلمساني ٠ يعرف بالعلوي نسبة الى قرية من اعمال تلمسان ٠ ولد بها سنة ٧١٠ وترعرع بها واخذ العلم من علمائها ٠ اختص بابني الامام وتفقه عليهما في الاصول والكلام ٠ ثم لزم الآبلي وتضلع من معارفه فاستبحر وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه ٠ واخذ عن جماعة اخرى من شيوخ بلدته كالفقيه الامام ابي محمد عبدالله المجاصي والقاضي ابي عبدالله محمد بن عمر بن الرماح وابن النجار المنجم ٠ وكلهم يعظمه ويثني عليه ، فاتسع بالعلم باعه وعظم قدره ٠ فأقرأ العلوم في زمن شيوخه ٠ وكان مائلا للنظر والحجة أصوليا متكلما جامعا لكثير من العلوم العقلية ٠

جال الشريف في أنحاء المغرب العربي : ارتحل في اول الامر الى تونس سنة ٦٤٠ هـ فأخذ عن علمائها ، ولقي بها أبا عبدالله بن عبد السلام ٠ وكان هذا العالم يقدره ويصغي اليه حتى زعموا ان ابن عبد السلام كان يخلو بالشريف في بيته ويقرأ عليه فصل النصوف من كتاب الشفاء لابن سيناء ومن تلخيص كتاب أرسطو لابن رشد ٠

وما لبث أن رجع الشريف الى تلمسان وانتصب هناك للتدريس وبث العلوم من فقه وعربية وشريعة وحساب وهندسة وهيئة ٠

وكان السلطان ابو سعيد العبد الوادي يحبه ويعظمه ولا يخاطبه الا بسيدي ٠ ولما انحل نظام ملكه عرض عليه وديعة لولده ٠ فامتنع ٠ فأودعها غيره وأشهده عليها ٠ وفي سنة ٧٥٣ ملك ابو عنان تلمسان ٠ فاستخلص الشريف واختاره لمجلسه العلمي ورحل به الى فاس ٠ لكن الشريف تبرم من الاغتراب وردد الشكوى ٠ فأحفظ السلطان بذلك ٠ وبلغ

أبا عنان أمر الوديعة المذكورة فانتزعها . وسخط على الشريف حيث لم يرفع الامر اليه . فأجابه الشريف بقوله : « انما عندي شهادة فلا يجب علي رفعها بل سترها .

وأما تقريبك اياي فقد ضرني أكثر مما نفعني ونقص بي ديني وعلمي » . وشدد القول على الملك . فغضب لذلك وأمر بسجنه . اتفق ان ورد اثر ذلك على أبي عنان شيخ غريب من افريقية يسمى يعقوب بن علي. فسأله عما يقال عنه بافريقية فقال : « خير غير انهم سمعوا بسجنك عالما شريفا فلامك الخاصة والعامة » . فأمر حينئذ باطلاق الشريف اول سنة ٧٥٦ هـ وهي اعظم محنة عرفها الشريف . ولكن ، بعد فتح قسنطينة اعاد أبو عنان الشيخ الى مجلسه العلمي الى أن هلك آخر سنة ٧٥٩ هـ . لما ملك ابو حمو يوسف بن عبد الرحمن تلمسان استدعى الشريف من فاس فسرحه القائم بالامر وقتئذ الوزير عمر بن عبدالله . فانطلق الشريف الى تلمسان . وتلقاه ابو حمو براحتيه ، وأصهر له في بنته فزوجها اياه . وبنى له مدرسة . فأقام الشيخ يدرس فيها العلم الى أن هلك .

اخذ عنه العلم أئمة كولده محمد والشاطبي وابن زمرك وابراهيم الثغري وابن خلدون وابن عتاب وابن السكاك ومحمد بن علي المديوني وابراهيم المصمودي وغيرهم .

كان الشريف مديما لطلب العلم في صغره وكبره ، لا يزداد منه الا تعطشا . حكى عنه ولده أبو محمد عبدالله قال : « انه بقي أشهرا لم ير فيها اهله اشتغالا بالدرس والبحث وهو مقيم عندهم . ذلك انه عندما كان يستيقظ بكرة يغدو في حينه الى المدرسة وهم نائمون ولا يعود اليهم الا ليلا وهم نائمون . ثم انه كان لا ينام من الليل الا قليلا . واذا غلبه النوم نام نومة خفيفة ، ثم اذا استيقظ لا يعود ويقول : أخذت النفس حقها . فيتوضأ ثم يرجع للنظر ، وربما وضع له الطعام في رمضان فيشغله النظر ويؤتى بسحوره فيتركهما معا كذلك حتى يصبح ويواصل الصوم .

ويشهد له كل من عرفه بوفور العقل والنجابة والتحصيل . فكان الامام ابن عبدالسلام يقول : « ما أظن أن في المغرب مثل هذا » . وكان الشيخ الآبلي يقول : هو اوفر من قرأ علي عقلا واكثرهم تحصيلا . وقال أيضا : « قرأ علي كثير في المشرق والمغرب فما رأيت منهم أنجب من أربعة : ابو عبدالله أنجبهم عقلا واكثرهم تحصيلا » . وكان الطلبة اذا قرأوا على الشيخ الآبلي وأشكلت مسألة أو ظهر بحث دقيق يقول : « انتظروا به ابا عبدالله الشريف » . وقال له الشيخ ابن عرفة : « غايتك في العلم لا تدرك » ولما ذكروا له موته قال : رحمه الله : « لقد ماتت بموته العلوم العقلية » . وذكره ابن خلدون فقال : « صاحبنا الامام العالم الفذ ، فارس المعقول والمنقول وصاحب الفروع والاصول » . وذكره الونشريسي فقال : « انه كان اماما في العلوم العقلية كلها منطقا وحسابا ، وفرائض وتنجيما وهندسة وموسيقى وتشريحا وفلاحة » . وأخبرنا السراج في فهرسته بأنه بلغ رتبة الاجتهاد وقال ابن مرزوق الحفيد : « هو شيخ شيوخنا اعلم اهل عصره باجماع . وذكر الشيخ المطغري ابو يحيى فقال : « لما اجتمع العلماء عند السلطان ابي عنان أمر الفقيه العالم الحافظ القاضي أبا عبدالله المقري باقراء التفسير ، فامتنع وقال : « ابو عبدالله الشريف اولى مني بذلك » فقال له السلطان : « انك عالم بعلوم القرآن وأهل التفسير فاقرأه » . فقال له : « ان أبا عبدالله اعلم بذلك مني فلا يسعني أن أقرأ بحضرته » . فأمر حينئذ السلطان الشريف أن يقرأ . ففعل وفسر بحضرة كافة علماء المغرب ونزل السلطان عن سرير ملكه وجلس معهم على الحصير فنبع من ابي عبدالله ينابيع الحكمة ما أدهش الحاضرين وأتى بما لم يحيطوا به حتى قال السلطان عند فراغ الشيخ : « اني لأرى العلم يخرج من منابت شعره ! » وجاء اليه القاضي القشتالي بعد خروج الناس فطلب منه تقييد ما صدر منه في ذلك اليوم .

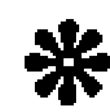
ان الشيخ موسى العبدوسي ، كبير فقهاء فاس ، كان يبحث عما يصدر عن ابي عبدالله من تقييد او فتوى فيقيده وكان آسن من أبي عبدالله .

وكان علماء الاندلس أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيما له حتى ان العالم الشهير لسان الدين بن الخطيب كلما ألف تأليفا بعثه اليه وعرضه عليه وطلب منه ان يكتب عليه بخطه • وكان الامام المفتي ابو سعيد بن لب شيخ علماء الاندلس وآخرهم كلما أشكلت عليه مسألة كاتبه بها وطلب منه بيان ما أشكل مقرا له بالفضل •

وكان الشيخ الشريف كثير العناية بالاقراء والدرس ، ولهذا لم يسعه الوقت للتأليف • فلم يخلف بالنسبة الى غزارة علمه الا القليل من التآليف منها : مفتاح الوصول في بناء الفروع على الاصول طبق فيه مسائل الفقه مع الاصول طبع بتونس سنة ١٣٤٦ هـ وقد كتب عليه الشيخ عبدالحميد بن باديس شرحا مختصرا • وللشريف شرح على جمل الخونجي في المنطق وكتاب في القضاء والقدر أجاد فيه وكتاب في المعارضات (أو المعاطاة) ، وله أيضا فتاوي ورسائل وأجوبة من العلم •

وفي ليلة الاحد رابع ذي الحجة عام ٧٧١ هـ (١٣٧٠ م) مات ذلك العلامة الذي كان يجلس عند الملوك في ارفع المجالس ينصتون اليه ولا يخدمهم بشيء من دينه ولا يخاطبهم الا بما يسوغ شرعا • فحضر جنازته الملك أبوحمو الثاني ووزراؤه ، وبكاه القريب والبعيد ، ورثاه الفقيه ابو علي حسن بن ابراهيم بن سبع بقصيدة طويلة •

وتأسف الملك عليه اكثر من سواه • فبعث بعد دفن الفقيد ، رحمه الله ، الى ولده عبدالله ، واكرمه ، وقال له : « ما مات من خلفك وانما مات ابوك لي لاني أباهي به الملوك ، وولاه مدرسة والده ورتب له جميع مرتباته » •



ومن اشتهر في الاصول والفقه والتفسير ابو عبدالله محمد بن احمد بن مرزوق الحفيد • وهو من ذلك البيت الكريم ، بيت العلم والفضل ، بيت ابن مرزوق المشهور بتلمسان • ولد ليلة الاثنين ١٤ ربيع الاول سنة ٧٦٦ هـ (١٠ كانون الاول ١٣٦٤ م) ونشأ مكبا على قراءة العلوم العقلية

والنقلية • فبلغ منها مبلغا بعيدا • ولم يزل مقبلا على التضلع من كل فن وعلم حتى اصبح امام عصره في الاصول والفقه والتفسير ، متبحرا في سائر الفنون الدينية واللسانية على الاطلاق • واخذ عن والده وعمه ابني مرزوق الخطيب وعن كبار علماء عصره كسعيد العقباني وأبي اسحاق المصمودي وأبي حسن الاشهب الغماري وعن الشريف التلمساني •

وارتحل ابو عبدالله الى تونس ، فأخذ عن ابن عرفة وعن ابي العباس القصار • ثم قصد المغرب الاقصى ودخل فاس فتتلمذ فيه لابي المكودي وابن حيان ومحمد بن مسعود الصنهاجي الفيلالي • وسافر بعد ذلك الى المشرق فلقي بمصر سراج الدين البلقيني وابا الفضل العراقي وابن الملقن والفيروزبادي صاحب المحيط ومحب الدين بن هشام صاحب المغني ونور الدين النويري وابن خلدون وناصر الدين التنسي ، ثم عاد الى بلده • حج ابو عبدالله سنة ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) برفقة ابن عرفة • فلقي بمكة المكرمة البهاء الدماميني والنور الغفيلي • فأخذ عنهما وروى صحيح البخاري عن ابن الصديق ثم آب الى موطنه •

وحج ثانيا سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) • فلقيه في تلك الربوع المقدسة الامام ابن حجر والزيني رضوان •

وأجازه من الاندلسيين محمد بن جزي وابن الخشاب ، وابو عبدالله القيجاطي والحفار وابن علاف •

فلعمري أن من قال في حق هذا الذي اخذ عن هؤلاء العلماء الاعلام أنه فارس الكراسي ، امام الأئمة ، لم يبالغ البتة • وزاده اعزازا في عيون الناس اتصافه بمكارم الاخلاق وكونه سيفا مسلولا على البدع والاهواء الزائغة • تصدر للاقراء • فأخذ عنه جماعة ابن العباس ونصر الزواوي والحسن ابركان وابي البركات الغماري وابي الفضل المشدالي والشريف قاضي الجماعة بغرناطة وابراهيم بن فائد الزواوي وأبي العباس بن عبدالرحمن الندرومي وابن مرزوق الكفيف والشهاب بن كحيل التيجاني واحمد بن يونس القسنطيني ويحيى بن يدير وابي الحسن القلصادي وابن

سلامة البسكري والتنسي التلمساني وابن زكري وغيرهم •

قال المقري في حقه « اما الفقه فهو فيه مالك ، فلو رآه الامام لقال له تقدم ، فلك العهد والولاية ، فتكلم ، لمنك يسمع فقهي وفروعي ، او ابن القاسم لقر به عينا وقال له : طالما دفعت عن المذهب عيبا وشينا ، او المزاري لعلم انه بمناظرته حري ، او الحافظ ابن رشد لقال : هلم ، يا حافظ الرشد، أو اللغمي لابصر منه محاسن التبصرة ، او القرطبي لنال منه التذكرة ، او القرافي لاستفاد منه قواعده المقررة ، او ابن الحاجب لاستند الى بابه في كشف الاشكالات المحررة ، لو رآه مجاهد لعلم انه في التحقيق خير جاهد ، أو مقاتل لقال : مثلك طبق من المفهوم الكلي ، وأصاب المقاتل او الزمخشري لعلم أنه كشاف الخفيات على الحقيقة ، او ابن عطية لركب في الرحلة الى الاستفادة منه المطبقة ، أو ابو حيان لغرق في نهره ولم تسل له نقطة من بحره الى الاحاطة بالحديث وفنونه » • وأثنى عليه ابو الفرج بن ابي يحيى الشريف فقال فيه هو جامع أشتات العلوم الشرعية والعقلية•

واعترف تلميذه الثعالبي بفضله فقال : « امام عصره وورع زمانه ، أجمع الناس على فضله من المغرب الى الديار المصرية •

وذكر ابو الحسن القلصادي في رحلته فقال : « أدركت بتلمسان كثيرا من العلماء والعباد والزهاد والصلحاء أولاهم في الذكر والتقديم الشيخ الفقيه الامام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا ابو عبدالله بن مرزوق » وقال فيه يحيى بن ادريس المازوني في نوازله : شيخنا الامام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ذو التآليف العجيبة والفوائد الغريبة » •

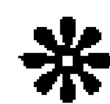
وفعلا ، قد سجلت له كتب الادب تآليف عديدة مفيدة ، ولكن ، لم يصلنا منها الا القليل • اليك أسماءها : شروحه الثلاثة على البردة ، وقد سمى الاكبر « اظهار صدق المودة في شرح البردة » واستوفى فيه غاية الاستيفاء وضمنه سبعة فنون في كل بيت ، والاوسط ، والاصغر المسمى « بالاستيجاب لما فيها من البيان والاعراب » و « المفاتيح القراطيشية في شرح الشقراطيسية » والمفاتيح المرزوقية في استخراج رجز الخزرجية ،

ورجز في علوم الحديث سماه « الروضة » ، ومختصره في رجز سماه « الحديقة » ورجز في الميقات سماه « المقنع الشافي » مشتمل على ألف وسبعمائة بيت « ونهاية الامل » في شرح الجمل اي جمل الخنجي ، واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة وهو أجوبة عن مسائل في فنون العلم وردت عليه من علامة قفصة أبي يحيى بن عقبة • فأجابه عنها : « والمعراج الى استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج » اجاب ابا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية ، و « انوار اليقين في شرح حديث اولياء الله المتقين » و « الدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي » و « النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص » رد به على ابن عصره وبلده الامام ابي الفضل قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصوفية ، و « المختصر الحاوي في الفتاوي » لعبد النور ، و « الروض البهيج في مسائل الخليج » وأنوار الدراري في مكررات البخاري ، ورجز تلخيص ابن البناء ، ورجز تلخيص المفتاح ، ورجز تلخيص الاماني ، ورجز جمل الخونجي ، ورجز اختصار الفية ابن مالك وتأليفه في مناقب شيخه المصمودي وتفسير سورة الاخلاص على طريق الحكماء •

وله تآليف اخرى غير تامة • وأما اجوبته وفتاويه على المسائل المتنوعة فقد سارت بها الركبان شرقا وغربا بدواً وحضراً ، كما قال المقري وقد اخذ المازوني والونشريسي منها جملة وافرة •

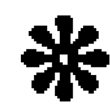
وهذه التآليف الغزيرة تشهد لمترجمنا ببعد غوره وتبسطه في الاصول والفروع والعلوم الدينية واللسانية •

توفي ، رحمه الله ، يوم الخميس ١٤ شعبان سنة ٨٤٣ هـ (٣٠ كانون الثاني ١٤٣٩ م) وصلى عليه بجامع تلمسان الاعظم ، وحضر جنازته السلطان والاعيان وعدد لا يحصى من العامة •



ومن اشتهر أيضا في الفقه الشيخ ابو اسحاق ابراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد بن علال بن سعيد النبرولي الزواوي •

ولد بجبل الجرجرة سنة ٧٦٦ هـ (١٣٩٤ م) وانتقل الى بجاية وبها قرأ القرآن وأخذ الفقه عن أبي الحسن علي بن عثمان المنجلاتي فقيه بجاية يومذاك وكانت له نفس تواقة الى العلم • فنزح الى تونس حيث التقى بعلماء لهم ذكر وصيت • فأخذ الفقه ايضا عن القاضي القلشاني ، والاصول عن عبد الواحد الغرياني فتضلع هكذا من العلوم على اختلاف انواعها ، وقفل راجعا الى بلده • فلم ينفك عن مزاولة العلم فأخذ علوم اللغة عن عبدالله العالي بن فرج • ثم دخل قسنطينة • فسكن بها • وفيها اخذ الاصلين ، والمنطق عن حافظ المذهب أبي زيد عبد الرحمن الباز ، وعلم المعاني والبيان عن أبي عبدالله محمد القيسي الحكيم الاندلسي الوارد عليهم حاجا ، والاصلين والمنطق والبيان كذلك والفقه وغالب العلوم المتداولة حينئذ بين علماء الاسلام عن ابي عبدالله بن مرزوق الذي دخل تلك المدينة ومكث بها اشهرا • لما برع في جميع الفنون اخذ في تدريس بعضها ، فانتفع به طلبة كثيرون • وألف كتبا تدل على سعة معارفه وغزارة فضله • وله تفسير للقرآن الحكيم وشرح لمختصر خليل في مجلدات عدة سماه « تسهيل السبيل لمقتطف ازهار روض خليل » وشرح آخر في جزئين سماه « فيض النيل » وله شرح على ألفية ابن مالك في مجلد واحد ، وشرح على تلخيص المفتاح سماه تلخيص التلخيص في مجلد • وحج أبو اسحاق مرارا ، وجاور ، ولقي البقاعي هناك سنة ٨٥٣ • وتوفي سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) •



ومن اشتهر في الفقه ايضا شهاب الدين احمد بن محمد بن عبدالله المغراوي نسبة الى مغراوة موطن اسرته • حفظ القرآن وتعلم مبادىء العلوم • وارتحل الى المشرق في طلب العلم • فسمع به وروى عن عدد كبير من علماء تلك الديار • فبرز في علوم كثيرة منها الفقه والنحو • فاشتهر ذكره واصبح مقدرا عند الناس • فقال فيه التقي بن قاضي شهبة : « ما تركت بمصر والشام في المالكية مثله » • وناهيك برجل يناظر عبد الرحمن

بن خلدون ويفتي عليه . وكان العز بن جماعة يحبه ويعظمه . وكان المغراوي يعتز بنفسه وعلمه فيقول : « من كان العز ؟ انما اشتغل على كبر وكان جنديا وأنا اشتغلت قبله بزمان » . وروي عن عيسى المالكي القاضي فقال : « ان المغراوي بحث مع البساطي يوما في مسألة فقال له : « أعرفها وأنت في مغراوة خلف البقر » . فأجابه المغراوي قائلا : « يا جاهل ، مغراوة ما فيها بقر قط ، أولئك عرب أصحاب ابل ترحل وتنزل . وأما أنا فأعرفها وأنت في بساط ترعى البقر ! »

ويحدثنا السخاوي عن المغراوي فيقول : « كان حاملا جد الامور منها أنه كان ممن صحب السالمي وتمكن منه وعادى بسببه أكابر الدولة. فلما ذهب السالمي آذوه سيما مع عدم تردده للاكابر وتحامقه عليهم . فاضطر الى الدخول الى دمشق سنة ٨١٤ هـ (١٤١١ م) ونزل بالمدرسة الزنجية وبها اخذ عنه عدد من الطلبة . وعين مدة للقضاء . ثم آثر بلاده فقصدها ، الا أنه ترك الاشتغال بها لانه طعن في السن وقل استحضاره . فتوفي ، رحمه الله ، في شوال سنة ٨٦٠ (تشرين الثاني ١٤١٧ م) .

وممن اشتهر في الطب الشيخ محمد بن علي بن فشوش والاسرائيلي موشي بن الاشقر والتلاليسي الذي سنحدثك عنه بعد .

ان عبد الباسط بن خليل المصري من علماء القرن التاسع الهجري غادر بلاده وارتحل الى الجزائر ليستكمل بها معلوماته في الطب . فنزل تلمسان واخذ بها عن أطبائها . فقال في استاذه موشى : لا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم . وقصده كثير من الفضلاء للاخذ عنه . لازمته مدة واخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره .

واما الفلسفة فكانت قليلة ، لان المذهب قوي ولم يترك لها المجال لتعيش وتترعرع وتنتشر .

الادب :

عرف الادب الجزائري في هذه الفترة ازدهارا كبيرا . فتطور تطورا محسوسا من حيث الكم ومن حيث الكيف . ولقد تهيأت لذلك عدة

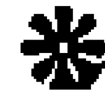
عوامل من شأنها ان تدفع به • فقد قيض الله للبلاد أن قامت فيها دولة كان ملوكها من العلماء والادباء والشعراء • فمن البديهي ان يسعوا في تنشيط الحركة العلمية والادبية • فقربوا اليهم اهل العلم والادب وأغدقوا عليهم وحاطوهم برعايتهم وعنايتهم • فأصبح البلاط الزياني زاخرا بالادباء ، وسنحدثك عن أكثرهم نبوغا واوفرهم صيتا • فكانوا الكتاب الخبراء والشعراء السياسيين للدولة ، ينطقون بمجدها ويمدحون ملوكها • وقد وجد الشعراء الارض خصبة لمواهبهم • فطبيعة تلمسان وضواحيها فتانة من شأنها أن تؤثر في احساسهم • أضاف الى ذلك تلك الاحداث التي ألمت بهذه الفترة • فما أشد ما كانت وطأتها على قلوب الناس ! وما أقوى ما كان تأثيرها في نفوس الشعراء ! فهذه العوامل كلها شحذت قرائح أهل القريض • فجاءوا بشعر كثير جيد في معظمه نلمس فيه حبا للوطن وافتتانا بطبيعته الساحرة • وأما الكتاب فقد نهضوا بالنثر نهضة فنية • حلوه بخيال فسيح يلائم ذلك الجمال الاقليمي البديع وزينوه بالتشبيهات والاستعارات والعبارة الانيقة وافرغوه ، كالمشارقة والاندلسيين ، في سجع يتضمن أحيانا الآيات القرآنية والاحاديث والاشعار والامثال ، واشتمل على كل مظاهر الحياة السياسية والعلمية والاجتماعية • وبجانب هذا النثر الفني كان نثر مرسل نلمسه في الاسلوب العلمي والكتابة التاريخية •

وقد اعجب الجزائريون بالموشحات الاندلسية منذ اواخر عهد الحماديين ونسجوا على منوالها ولكنها لم تنضج الا في هذا العصر الذي تسرب فيه التصوف الى الادب الجزائري ونشأت المدائح ثم الميلايات •

فحقل الادب بمملكة تلمسان كان خصبا وسوقه رائجة عندما حل بها المهاجرون الاندلسيون • ونزولهم بها زاد هذا الحقل خصبا وهذه السوق رواجا • فكان منهم الشعراء والكتاب ، وقد سجل التاريخ قصائد قالوها في مناسبات عديدة ورسائل انشأوها للملوك بني زيان •

والجدير بالذكر أن الادب تأثر في هذه الفترة بأدب المشرق وأدب

الاندلس دون ان يفقد شخصيته الجزائرية وما لها من مميزات .



ابن خميس

هناك شخصية فذة في أواخر القرن السابع الهجري . تلك الشخصية تتمثل في ابي عبدالله محمد بن عمرو بن خميس الحجري نسبة الى حجر ذي رعين ابي قبيلة يمنية . ولد بتلمسان سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) . كان أديبا فاضلا حافظا لاشعار العرب وعارفا بأخبارهم واقوالهم ، « وله مشاركة في العقليات واستشراف على الطب » وقال في حقه ابن خلدون : « كان لا يجارى في البلاغة والشعر » . وجاء في عائد الصلة لابن الخطيب ما نصه : « كان نسيج وحده زهدا ا وانقباضا وأدبا وهمة ، حسن الشيبة جميل الهيئة سليم الصدر قليل التصنع بعيدا عن الريا عاملا على السياحة والعزلة ، عارفا بالمعارف القديمة مضطلعا بتفاريق النحل قائما على العربية والاصلين طبقة الوقت في الشعر ، وفحل الاوزان من المطول ، أقدر الناس على اجتلاب الغريب » وقد وصفه ابن خاتمة بالشاعر المجيد ، وقال في كتابه « مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية » : « انه نظم في الوزير ابن الحكيم القصائد التي حليت بها لبات الآفاق وتنفست عنها صدور الرفاق ، وكان من فحول الشعراء واعلام البلغاء ، يرتكب مستصعبات القوافي ، ويطير في القريض مطار ذي القوادم الباسقة والخوافي ، حافظا لأشعار العرب . ومكانة ابن خميس في ميدان الادب يثبتها ابن خطاب في هذه الابيات :

رقت حواشي طبعك ابن خميس ... فهفا قريضك لي وهاج رسيسي
ولمثله يصبو الحليم ويمتري ... ماء الشؤون به وسير العيس
لك في البلاغة ، والبلاغة بعض ما ... تحويه من أثر ، محل رئيسي
نظم ونثر لا تبارى فيهما ... عزت ذاك وذاً بعلم الطوسي (١)

وكان ابن خميس صنع اليدين . فقد صنع قدحا من الشمع على أبدع

---

١ ــ الطوسي : ابو حامد الغزالي

ما يكون في شكلة « ولطافة جوهره واتقان صنعه » وكتب بدائرة شفته :

وما كنت الا زهرة في حديقة تبسم عني ضاحكات الكمائم

فقلبت من طور لطور فها أنا أقبل افواه الملوك الأعاظم

وأهدى ذلك القدح للوزير ابي عبدالله بن الحكيم .

ولابن خميس شعر كثير كله حسنات ولطائف ، وبراعات وطرائف . قد جمعه ودونه القاضي ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الحضرمي في جزء سماه « الدر النفيس من شعر ابن خميس » . وكان نائرا على انه بشعره كان اشهر منه بنظمه . قد استكتبه عثمان الاول بن يغمراسن سنة ٦٨١ ﻫ (١٢٨٢ م) . ولكنه رغب عن الوظيف وأراد ان يسافر لانه « كالدم بطبعة يتحرك في كل ربيع » . فغادر بلدته تلمسان سنة ٦٩٣ ﻫ (١٢٩٤ م) وأم المغرب الاقصى وزار عواصمه العلمية ومدح رؤساء سبتة من بني العزفي، ومن ثم ابحر قاصدا الديار الاندلسية . فدخل المرية سنة ٧٠٢ ﻫ(١٣٠٣م) . فنزل فيها في كنف القائد ابي الحسن بن كماشة من خدام الوزير بن الحكيم . فأكرم وفادته وآثره . وبها قال في مدح الوزير المذكور قصيدته التي مطلعها :

العشي تعيا والنوابغ عن شكر أنعمك السوابغ

ووجه بها اليه من المرية .

وجال شاعرنا في الاندلس ، ومال الى التصوف ، وقعد لاقراء العربية بحضرة غرناطة اواخر سنة ٧٠٣ ﻫ (١٣٠٤ م) فطار بها صيته . وضمه الوزير ابن الحكيم الى مجلسه واغدق عليه من نعمه . فخلع عليه ابن خميس بدوره أثواب نثره ونظمه كما فعل مع بني زيان بتلمسان . فأنصت اليه وهو ينشد قصيدته في أبي زيان بن عثمان الاول :

أرق عيني بارق من أثال كأنه في جنح ليلي ذبال

أثار شوقا في صميم الحشى وعبرتي في صحن خدي أسال

حكى فؤادي قلقا واشتغال وجفن عيني أرقا وانهمال

جوانح تلفح نيرانها وأدمع تنهل مثل العزال (١)

---

١ ــ العزال جمع عزلان وهو مصب الماء من الزاوية ونحوها .

قولوا وشـــاة الحب ما شئتـم ... ما لذة الحب ســـوى ان يقال

أعذر لوامي ولا عــذر لـــي ... فزلة العالــم ما ان تقـــال

قم نطرد الهــم بمشمولـــة ... تقصر الليل اذا الليل طـــال

وعاطهـــا صفراء ذميـــة ... تمنعها الذمـــة من ان تنـــال

كالمسك ريحا واللمى مطعمـــا ... والتبر لونا والهوا في اعتـــدال

عتقها في الـــدن خمارهـــا ... والبكر لا تعـرف غيـــر الحجال

لا تثقب المصباح لا واسقنـــي ... على سنى البرق وضوء الهـــلال

فالعيش نوم والردى يقظـــة ... والمـــرء ما بينهما كالخيـــال

خذهـــا على تنغيـــم مسطارها ... بين خوابيها وبيـــن الـــدوال

في روضة باكـــر وسميهـــا ... أحمل دارين (١) وأنسى أوال (٢)

كأن فـــار المسك مفتوقـــة ... فيها اذا هبت صبـــا أو شمـــال

من كف ساجي الطرف ألحاظـــه ... مفوقـــات أبـــدا للنضـــال

من عاذري والكل لي عـــاذر ... من حسن الوجه قبيح الفعـــال

من خلبي الوعـــد كذابـــه ... ليان لا يعـــرف غير المطـــال

كأنه الدهـــر وأي امــــرىء ... يبقى على الدهر اذا الدهـــر حـــال

أما ترانـــي آخذا ناقصـــا ... عليـــه ما سوغني من محـــال

ولم أكـــن قـــط له عائبـــا ... كمثل ما عابته قبلـــي رجـــال

يأبى ثراء المـــال علمي وهـــل ... يجتمع الضدان علـــم ومـــال

وتأنـــف الارض مقامي بهـــا ... حتى تهاداني ظهـــور الرحـــال

لولا بنو زيـــان ما لذ لي العيـــ ... ـــش ولا هانت علي الليـــال

هم خوفوا الدهر وهم خففـــوا ... على بني الدنيا خطـــاه الثقـــال

ألفيت مـــن عامرهم سيـــدا ... غمر رداء الحمد جم النـــوال

وكعبـــة للجـــود منصوبـــة ... يسعى اليها الناس في كل حـــال

خذهـــا أبا زيان من شاعـــر ... مستعذب النزعة عـــذب المقال

يلتفظ الالفاظ لفظـــة النـــوى ... وينظـــم الآلاءنظـــم اللآل

مجاريا مهيـــار في قولـــه ... « ما كنت لولا طمعي في الخيـــال »

ومطلع قصيدة مهيار التي عارضها ابن خميس هو قوله :

---

١ ــ دارين ــ فرضة بالبحرين كان بها سوق للملك

٢ ــ أوال ــ جزيرة كبيرة بالبحرين عندها مغاص اللؤلؤ .

ونلاحظ ان القصيدة جميلة معنى ومبنى وتغلب عليها المسحة الصوفية • واليك الآن قصيدته البديعة التي يمدح بها صديقه ابن الحكيم ويذكر فيها اشتياقه الى بلدته تلمسان ويشير الى حصارها من طرف بني مرين :

ما كنت لولا طمعي في الخيال ... أنشد ليلى بين طول الليال
سل الريح ان لم تبعد السفن أنواء ... فعند صباها من تلمسان أنباء
وفي خفقان البرق منها اشارة ... اليك بما تنمي اليك وايماء
تمر الليالي ليلة بعد ليلة ... وللاذن اصغاء وللعين اكلاء
واني لأصبو للصبا كلما سرت ... وللنجم مهما كان للنجم اصباء
وأهدي اليها كل يوم تحية ... وفي رد اهداء التحية اهداء
وأستجلب النوم الغرار ومضجعي ... قتاد كما شاءت نواها وسلاء
لعل خيالا من لدنها يمر بي ... ففي مره بي من جوى الشوق ابراء
وكيف خلوص الطيف منها ودونها ... عيون لها في كل طالعة راء
واني لمشتاق اليها ومنبيء ... ببعض اشتياقي لو تمكن انباء
وكم قائل تغنى غراما بحبها ... وقد أخلفت منها ملاء وأملاء (١)
لعشرة اعوام عليها تجرمت ... اذا ما مضى قيظ بها جاء اهراء (٢)
بطنب فيها عائثون وخرب ... ويرحل عنها قاطنون وأحياء
كأن رماح الناهين لملكها ... قداح وأموال المنازل أبداء (٣)
فلا تبغين فيها مناخا لراكب ... فقد قلصت منها ظلال وأفياء
ومن عجب أن طال سقمي ونزعها ... وقسم أضناء علينا وأطناء (٤)
وكم أرجفوا غيظا بها ثم أرجأوا ... فيكذب ارجاف ويصدق ارجاء
يرددها عيابها الدهر مثلما ... يردد حرف الفاء في النطق فأفاء
فيا منزلا نال الردى منه ما اشتهى ... ترى هل لعمر الانس بعدك انساء
وهل للظى الحرب التي فيك تلتظي ... اذا ما انقضت ايام بؤسك اطفاء
وهل لي زمان أرتجي فيه عودة ... اليك ووجوه البشر أزهر وضاء

---

١ ـ أخلفت ـ تغيرت ، ملاء جمع مليء ـ الاملاء جمع ملاء وهم اشرف الناس . ـ ٢ ـ اهراء : هراه ، البرد واهراه : اشتد عليه حتى كاد يقتله . ـ ٣ ـ أبداء جمع بدء وهو النصيب من الجزور . ـ ٤ ـ اضناء : جمع ضنى وهو المرض والاطناء جمع طن ، وهو الداء .

فيا هي ما لي ان هلكت ولم أقل ... لصحبي بها الغر الكرام ألا هاؤا
ولم أطرق الدرب الذي كنت طارقا ... لعاد وبدر الافق أسلع مشناء (١)
اطيف به حتى تهر كلابه ... وقد نام عساس وهوم سباء
ولا صاحب الا حسام ولهذم ... وطرف لخد الليل مذ كان وطاء
وأسحم قاري كشعري حلكة ... تلألأ فيه من سنى الصبح أضواء
فما لشرابي في سواك مزازة ... ولا لطعامي دون مائك امراء
ويا ذارتي الاولى بدرب مغيلة ... وقد جد غيث في بلاها وارداء
أما آن ان يحمي حماك كعهده ... ويجتال احماس عليه واحماء (٢)
أما آن أن يعشو لنارك طارق ... جنيب له رفع اليك ودئداء (٣)
يرجى نوالا أو يؤمل دعوة ... فما زال قار في ذراك وقراء
أحن لها ما أطت النيب حولها ... وما عاقها عن مورد الماء أظماء
فما فاتها مني نزاع على النوى ... ولا فاتني منها على القرب اجتناء
كذلك جدي في صحابي وأسرتي ... ومن لي به أهل وذي ارفاء
ولولا جوار ابن الحكيم محمد ... لما فات نفسي من بني الدهر اقماء (٤)
حماني فلم تنتب محلي نوائب ... بسوء ولم ترزأ فؤادي ارزاء
وأكفأ بيتي في كفالة جاهه ... فصاروا عبيدا لي وهم لي اكفاء (٥)
يؤمون قصدي طاعة ومحبة ... فما عفته عافوا وما شئته شاءوا
دعاني الى المجد الذي كنت آملا ... فلم يك لي عن دعوة المجد ابطاء
وبوأني من هضبة العز تلعة ... يناجي السها منها صعود وطأطاء (٦)
يشيعني منها اذا سرت حافظ ... ويكلؤني منها اذا نمت كلاء
ولا مثل نومي في كفالة غيره ... وللذئب المام وللصل الماء
بعيضة ليث أو بمرقب خارب ... بز كسا فيه وتقطع اكساء
اذا كان لي من نائب الملك كافل ... ففي حيثما هومت كن وادفاء
واخوان صدق من صنائع جاهه ... يبادرني منهم قيام وايلاء
سراع لما يرجى من الخير عندهم ... ومن كل ما يخشى من الشر ابراء

---

١ ـ الاسلع ـ الذي به البرص والمشناء الذي يبغضه الناس ـ ٢ ـ الاحماس جمع حمس وهو الشجاع والاحماء جمع حم وهو الاقارب والاصهار.
٣ ـ الرفع المبالغة في السير . والدئداء : أشد العدو ـ ٤ ـ الاقماء ـ التصغير والاذلال ـ ٥ ـ يريد ان نعم ابن الحكيم شملت اهل بيته.
٦ ـ الطأطاء : المنهبط من الارض والصعود ضده .

اليك ابا عبد الاله صنعتهـــــا لزوميــة فيهـا لوجـدي افشاء
مبـــرأة مما يعيب لزومهـــا اذا عاب اكفاء سواها وايطـــاء
أذعت بها السر الذي كان قبلهـــا عليه لاحناء الجوانـــح اضنـاء
وان لم يكن كل الذي كنـت آملا وأعوز اكــلاء فما عاز اكمــاء
ومن يتكلف مفعما شكر منـــة فما لي الى ذاك التكلــف الجاء
اذا منشد لم يكن عنـك ومنشىء فلا كان انشاد ولا كان انشـــاء

وكلما رمى ابو عبدالله عصا التسيار رأيته كالبلبل الصداح يتغنى بشعره الحلو السلس الذي ينم عن شاعرية فياضة • فقال في بني العزفي، أمراء سبتة ، قصيدة غراء بدأها بذكر شوقه الى تلمسان وعهده بها :

تلمسان ، لو أن الزمان بها يسخـو منى النفس لادار السلام ولا الكرخ(١)
وداري بها الاولى التي حل دونهـا مثار الاسى لو امكن الحنق اللبخ (٢)
وعهدي بها ، والعمر في عنفوانـــه وماء شبابي لا أجين (٣) ولا مطخ(٤)
فمزارة تهيام ومغنى صبابـــة ومعهـــد انس لا يلذ بـــه لطخ
اذ الدهر مثني العنـــان منهنـه ولا ردع يثني من عناني ولا ردخ(٥)
ليالي لا أصغي الى عذل عـــاذل كأن وقوع العذل في آذني صمخ(٦)
معاهـــد أنس عطلت فكأنهـــا ظواهر ألفـاظ تعمدها النســـخ
وأربع ألاف عفا بعض آيهـــا كما كان يعرو بعض الواحنا اللطخ(٧)
فمن يك سكرانا من الوجد مـــرة فاني منه طول دهري لملتـــخ (٨)
ومن يقتدح زندا لموقد جـــذوة فزند اشتياقي لاعفار (١٠) ولا مرخ(٩)
أأنسى وقوفي لاهيا في عراصهـــا ولا شاغل الا التودع والسبخ (١١)
والا اختيالي ماشيا في سماطهـــا رخيا كما يمشي بطرته الرخ (١٢)
والا فعدوي مثل ما ينفرد الطـــلا وليدا وحجلي مثل ما ينهض الفرخ
كأني فيها أرد شير بن بابـــك ولا ملك الا الشبيبـــة والشرخ

١ ــ الكرخ : محلة ببغداد ــ ٢ ــ اللبخ : الاحتيال ــ ٣ ــ الاجين : المتغير طعمه ــ ٤ ــ المطخ : الغرين يبقى في الحوض ولا يقدر على شربه .
٥ ــ الردخ : الردع ــ ٦ــ الصمخ : الضرب في صماخ الاذن ــ ٧ ــ اللطخ : التلويث ــ ٨ ــ ملتخ : لا يفهم شيئا لاختلاط عقله ــ ٩ ، ١٠ ــ العفار والمرخ : نوعان من الشجر يسرع اشتعالهما .
١١ ــ السبخ : الفراغ ــ ١٢ ــ الرخ : طائر كبير .

واخوان صدق من لداتي كأنهم ... جآذر رمل لا عجاف ولا بزخ (١)
وعاة لما يلقى اليهم من الهدى ... وعن كل فحشاء ومنكرة صلخ (٢)
هم القوم كل القوم سيان في العلا ... شبابهم الفرعان والشيخة السلخ (٣)
مضوا ومضى ذاك الزمان وأنسه ... ومر الصبا والمال والاهل والبذخ
كأن لم يكن يوما لاقلامهم بها ... صرير ولم يسمع لأكعبهم جبخ (٤)
ولم يك في ارواحها من ثنائهم ... شميم ولا في القضب من لينهم ملخ (٥)
ولا في محيا الشمس من هديهم سنى ... ولا في جبين البدر من طيبهم ضمخ (٦)
سعيتم بني عمور في شت شملنا ... فما تجركم ريح ولا عيشنا ربخ (٧)
دعيتم الى ما يرتجى من صلاحكم ... فردكم عنه التعجرف والجمخ
تعاليتم عجبا فطم عليكم ... عباب له في رأس عليائكم جلخ
واوغلتمو في العجب حتى هلكتم ... جماح غواة ما ينهنههم قفخ
كفاكم بها سجنا طويلا وان يكن ... هلاك لكم فيها فهي لكم فخ
فكم فئة منا ظفرتم بنيلها ، ... بأبشارها من حجن أظفاركم برخ
كأنكمو من خلفها وأمامها ... أسود غياض وهي بينكم أرخ
فللسوق منها القيد ان هي أغربت ... وللهام ان لم تعط ما رعت النقخ
كأن تحتها من شدة القلق القطا ... ومن فوقها من شدة الحذر الفتخ
وأقرب ما تهذي به الهلك والتوى ... وأيسر ما تشكو به الذل والفنخ
فماذا عسى نرجوه من لم شعثها ... وقد حز منها الفرع واقتلع الشلخ
وما يطمع الراجون من حفظ آيها ... وقد عصفت فيها رياحهم الثبخ
زعانف أنكاد لئام عناكل ... متى قبضوا كفا على اثره طخوا
ولما استقلوا من مهاوي ضلالهم ... وأوموا الى أعلام رشدهم زخوا
دعاهم أبو يعقوب للشرف الذي ... يذل له رضوى ويعنو له دمخ
فلم يستجيبوه فذاقوا وبالهم ... وما لامرىء عن أمر خالقه نخ
وما زلت أدعو للخروج عليهم ... وقد يسمع الصم الدعاء اذا أصخوا
وأبذل في استئصالهم جهد طاقتي ... وما لظنابيب ابن سابحة قفخ

---

١ ـ البزخ : خروج الصدر ودخول الظهر ـ ٢ صلخ جمع اصلخ وهو الاصم جدا ، لا يسمع البتة ـ ٣ ـ السلخ جمع اسلخ وهو الاصلع الشديد الحمرة ـ ٤ ـ الجبخ : اجالة الكعاب في الميسر ـ ٥ ـ الملخ : التثني والتكسر ـ ٨ ـ الضمخ : لطخ الجسد بالطيب ـ ٩ ـ ربخ ـ وقع في الشدائد .

تركت لمينا سبتة كل نجعـــــة كما تركت للعز أهضابها الشـــمخ
وآليت ألا ارتـــوي غير مائهــا ولو حل لي في غيره المن والمذخ (١)
وألا أحط الدهر الا بعقرهـــا ولو بوأتني دار امرتها بلـــخ
فكم نقعت من غلـــة تلكـــم الاضا وكم أبرأت من علة تلكم اللبخ (٢)
وحسبي منها عدلها واعتدالهــا وأبحرها العظمى وأريافها النفخ (٣)
وأملاكها الصيد المقاولة الألـــى لعزهم تعنو الطراخمة البلـــخ (٤)
كواكب هدي في سماء رياســـة تضيء فما يدجو ضلال ولا يطخو (٥)
ثواقب أنـــوار تري كل غامـض اذا الناس في طخياء غيهم التخوا (٦)
وروضات آداب اذا ما تأرجحـــت تضاءل في أفياء أفنائها الرمـخ (٧)
مجامـــر ند في حدائق نرجـــس تنم ولا لفح يصيـــب ولا دخ (٨)
وأبحر علـــم لا حياض روايـــة فيكبر منها النضح او يعظم النضخ
بنو العزفيين الألى من صدورهـم وأيديهم تملا القراطيس والطرخ (٩)
اذا ما فتى منهم تصدى لغايـــة تأخر من ينحو وأقصر من ينخو (١٠)
رياسة اخيـــار وملك أفاضـــل كرام لهم في كل صالحة رضخ (١١)
اذا ما بدا منا جفاء تعطفـــوا علينا وان حلت بنا شدة رخوا (١٢)
نزورهم حـــذا نحافا فننثنـــي وأجمالنا دلح وأبداننا دلـــخ (١٣)
يربوننا بالعلم والحلم والنهـــى فما خرجنا بز ولا حدنا برخ (١٤)
وما الزهد في املاك لخم ولا التقى بيدع ، وللدنيا لزوق بمن يرخو (١٥)

---

١ ــ المذخ : نوع من العسل يظهر في جلنار الرمان البري ــ ٢ ــ اللبخ : اسم جنس لشجر ٣ ــ النفخ : جمع نفخاء وهي الارض المرتفعة ليس فيها رمل ولا حجارة ــ ٤ ــ الطراخمة جمع طرخم وهو المتكبر والبلخ جمع ابلخ وهو المتكبر ايضا ٥ ــ يطخو : تشتد ظلمته ٦ ــ طخياء : الظلمة الشديدة ــ والتخوا : حاروا ٧ ــ الرمخ : الشجر المجتمع ٨ ــ الدخ : الدخان .

٩ ــ الطرخ : الواحدة طرخة وهي حوض يجعل عند مخرج القناة ليجتمع فيه الماء وينصب منه الى المزرعة ، ١٠ ــ ينخو : يفتخـر ، ١١ ــ الرضخ: العطاء،١٢ ــ رخوا : لانوا ، ١٣ ــ حذا جمع حذوهو الضامر. الدلح جمع الدلوح وهو الذي يمشي بحمله منقبض الخطو لثقله ــ دلخ جمع دلوخ اي سمين ، ١٤ ــ البز : اخذ الشيء بجفاء وقهر ــ البرخ : القهر ، ١٥ ــ املاك لخم : المراد هنا بنو العزفي لانهم لخميون ، يرخو : يلين

والا ففي رب الخورنق غنيـــة فما يومه سر ولا صيته رضخ (١)
تطلع يومـــا والسدير امامـــه وقد نال منه العجب ما شاء والجفخ (٢)
وعن له من شيعة الحق قائـــم بحجة صدق لا عبام ولا وشخ (٣)
فأصبح يجتاب المسوح زهـــادة وقد كان يؤذي بطن اخمصه النخ (٤)
وفي واحد الدنيا أبي حاتـــم لنا دواء ولكن لأدوائنـا تتـــخ (٥)
تخلى عن الدنيـــا تخلي عـارف يرى انها في ثوب نخوته لتخ (٦)
وأعرض عنها مستهينا بقدرهـــا فلم يثنه منها اجتذاب ولا مصخ (٧)
فكان له من قلبها الحب والهـــوى وكان لها من كفه الطرح والطـخ (٨)
وما معرض عنها وهي في طلابـــه كمن في يديه من معاناتها نبخ (٩)
ولا مدرك ما شاء من شهواتهـــا كمن حظه منها التمجع والنجخ (١٠)
ولكننا نعمى مرارا عن الهـــدى ونصلج حتى ما لآذاننا صمخ (١٨)
وما لامرىء عما قضى الله مزحـل ولا لقضاء الله نقض ولا نســـخ
أبا طالب لم تبـق شيمـــة سؤدد يساد بها الا وانت لها سنـــخ
لسوغت أبناء الزمـــان أياديـــا ولدرتها في كل سامعة شـخ (١٢)
وأجريتها فيهـم عوائـــد سؤدد فمالهم كسب سواها ولا نـخ (١٣)
غذتهم غواديها فهي في عروقهـــم دماء وفي أعماق أعظمهـــم مـخ
وعمتهم حزنا وسهلا فأصبحـــوا ومرعاهم وزخ ومرعيهم ولخ (١٤)

---

١ ــ الخورنق : قصر بالحيرة بناه النعمان بن امرىء القيس ــ الرضخ : خبر تسمعه ولا تستيقنه ، ٢ ــ السدير : نهر بناحية الحيرة ــ والجفخ : الفخر ، ٣ ــ العبام : العي ــ والوشخ : الرديء الضعيف ، ٤ ــ المسوح : جمع المسح : وهو ثوب من الشعر غليظ يلبسه الزهاد والمتقشفون ــ يجتاب المسوح : يتخذها ملبسا ، والنخ : ضرب من البسط ، ٥ ــ نتخ الشيء : انتزعه ، ٦ ــ لتخ الثوب : لطخه او شقه ، ٧ ــ المصخ : انتزاع الشيء وجذبه عن جوف شيء اخر ، ٨ ــ الطخ : رمي الشيء وابعاده ، ٩ ــ النبخ : قروح في اليد بسبب العمل تمتلىء بماء ، ١٠ ــ التمجع : الاكتفاء بالقليل من التمر اليابس واللبن ــ والنجخ : التخمة والسأم : يريد انه زاهد فيها ، ١١ ــ نصلج : نصم ــ والصمخ جمع صماخ .

١٢ ــ الشيخ : صوت الشخب اذا خرج من الضرع ، ١٣ ــ النخ : السير العنيف يريد ان الذين عودهم عادات كرمه لا يحتاجون الى الرحلة لانتجاع غيره ، ١٤ ــ الوزخ : شجر ــ والولخ من العشب : الطويل ،

بني العزفيين ابلغوا ما أردتـــــم فما دون ما تبغون وحل ولا زلخ (١)
ولا تقعدوا عمن أراد سجالكـــم فما غربكم جف ولا غرفكم وضخ (٢)
وخلـــوا وراء كل طالب غايـــة وتيهوا على من رام شأوكم وانخوا (٣)
ولا تذروا الجوزاء تعلو عليكـــم ففي نفسها من مدح أملاكها مدخ (٤)
لأفواه أعدائي وأعين حســـدي اذا جليت خائيتي الغص والفضـــخ
دعوها تهادى في ملاءة حسنهــــا ففي نفسها من مدح أملاكها مـــدخ
يمانية زارت يمانيـــن فانثنـــت وقد جد فيها الزهو واستحكم الزمخ

فان ابن خميس كما ترى لا يغفل عن تلمسان يعطيها حقها في كثير من القصائد • ومن البديهي أن لا ينساها • فهي مسقط رأسه ومربـــع صباه من جهة ، ومن جهة اخرى فانه يعيش بالاندلس الساحرة بسمائهـــا وهوائها ومياهها وبساتينها فأينما اتجه رأى ما يذكره ببلدته فتجيش عيناه وتهيج أجشانه فينفجر خاطره كالبركان حنينا وأشواقا • فمن ذا الـــذي يقرأ القصيدة التالية ولا يتأثر ؟

تلمسان جادتك السحاب الروائـــح وأرست بواديك الرياح اللواقح (٥)
وسح على ساحات باب جبادهـــا ملث يصافـــي تربها ويصافـــح
يطيـــر فؤادي كلما لاح لامـــع وينهل دمعي كلما ناح صادح (٦)
ففي كل شفر من جفوني مائـــح وفي كل شطر من فؤادي قـــادح
فما لمـــاء الا ما تسح مدامعـــي ولا النار الا ما تجن الجوانح (٧)
خليلـــي لا طيف لعلوة طـــارق بليل ولا وجه لصحبي لائـــح
نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهـــر لعيني ولا نجم الى الغرب جانح (٨)
بحقكما كفا الملام وسامحــــا فما الخل كل الخل الا المسامـــح
ولا تعذلاني واعذراني فقلمـــا يرد عناني عن عليـــة ناصـــح
كتمت هواها ثم بـــرح بي الأسى وكيف أطيق الكتم والدمع فاضـــح

١ ـ الزلخ : المزلقة تزل منها الاقدام لتداوتها لانها صفاة ملساءة ـ ٢ الغرب : الدلو ـ العظيمة : الجف والغرف : اخذ الماء من بئر او نحوها ـ الوضخ : الماء القليل ، ٣ ـ انخو : من النخوة وهي الافتخار والتعظيم ، ٤ ـ المدخ : العظمـة ، ٥ ـ لواقح جمع لاقحة والمراد انها تحمل لقاح النبات .
٦ ـ الصادح : المغني واراد الطهر ، ٧ ـ تجن الجوانح : تخفى وتكتم ، ٨ ـ جانح : جنح للغروب : مال .

ألساقية الرومي عندي مزية وان رغمت تلك الرواسي الرواشح
فكم لي عليها من غدو وروحة تساعدني فيها المنى والمنائح
فطرف على تلك البساتين سارح وطرف الى تلك الميادين جامح
تحاربها الاذهان وهي ثواقب وتهفو بها الاحلام وهي بوارح
ظباء مغانيها عواط عواطف وطير مجانيها شواد صوادح
تقتلهم فيها عيون نواظر وتبكيهم منهم عيون نواضح
على قرية العباد مني تحية كما فاح من مسك اللطيمة فائح
وجاد ثرى تاج المعارف ديمة تغص بها تلك الربا والاباطح
اليك شعيب بن الحسين قلوبنا نوازع ، لكن الجسوم نوازح
سعيت فما قصرت عن نيل غاية فسعيك مشكور وتجرك رابح
نسيت وما أنسى الوريط ووقفة أنافح فيها روضه وأفاوح
مطلا على ذاك الغدير وقد بدت لانسان عيني من صفاه صفائح
أماؤك أم دمعي عشية صدقت علية فينا ما يقول المكاشح
لئن كنت ملآنا بدمعي طافحا فاني سكران بحبك طافح
وان كان مهري في تلاعك سائحا فذاك غزالي في عبابك سابح
فراح أتى ينصب من رأس شاهق بمثل حلاه تستحث القرائح
أرق من الشوق الذي أنا كاتم وأصفى من الدمع الذي أنا سافح
أم لحظة من لا أسميه انني لعرضي كما قال النصيح لناصح
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي يقال فلان ضيق الصدر نائح
لبعت رشادي فيه بآلغي ضلة وكم صالح مثلي غدا وهو طالح
وأي مقام ليس لي فيه حاسد وأي مقال ليس فيه مادح
ألا قل لفرسان البلاغة أسرجوا فقد جاءكم مني المكافي المكافح
أيخمل ذكري عندهم وهو نابه ويغمط شجوي عندهم وهو شائح؟
بدور اذا جن الظلام كوامل وأسد اذا لاح الصباح كوالح
تركتك سوق البز لا عن تهاون وكيف وظبي سائح فيك بارح ؟
واني وقلبي في ولائك طامع وناظر وهمي في سماطك طافح
أيا أهل ودي والعشير مؤمن أتقضى ديوني أم غريمي فالح ؟
وهل ذلك الظبي النصاحي للذي يقطع من قلبي بعينيه ناصح ؟
كنيت بها عنه حياء وحشمة ووجه اعتذاري في القضية واضح .

ومن شعر ابن خميس الذي شرق وغرب قصيدته التي مدح بها أبا الفضل ابن يحيى ، واثر التصوف فيها جلي • فقال :

عجبا لها ! أيذوق طعـم وصالهـا   من ليس يأمل ان يمر ببالهـا ؟
وأنا الفقيـر الى تعلة ساعـة   منها وتمنعني زكـاة جمالهـا
كم ذاد عن عيني الكرى متألـق   يبدو ويخفى في خفي مطالهـا
يسمو له بدر الدجى متضائـلا   كتضاؤل الحسناء في أسمالهـا
وابن السبيل يجيء يقبس نارهـا   ليلا فتمنعـه عقيلة مالهـا
يعتادني في النـوم طيف خيالها   فتصيبنـي ألحاظها بنبالهـا
كم ليلة جـاءت به فكأنمـا   زفت عليّ ذكاء وقت زوالهـا
أسرى فعطلها وعطـل شهبهـا   يأبى شذا المعطـار من معطالها
وسواد طرتـه كجنح ظلامهـا   وبياض غرته كضـوء هلالهـا
دعني أشـم بالوهم أدنى لمعـة   من ثغرها وأشم مسكة خالهـا
ما راد طرفي في حقيقة خدهـا   الا لفتنتـه بحسن دلالهـا
أنسيب شعري رق مثل نسيمهـا   فشمول راحك مثل ريـح شمالها
وانقل أحاديث الهوى واشرح غـريب لغاتها واذكر ثقات رجالهـا
واذا مررت برامة فتوق مـن   أطلائهـا وتمش في أطلالهـا
وانصـب لغزلها حبالة قانـص   ودع الكرى شركا لصيد غزالهـا
وأسل جداولها بفيض دموعهـا   وانضح جوانحها بفضل سجالهـا
أنا من بقيـة معشر عركتهـم   هذي النوى عرك الرحى بثفالهـا
أكـرم بها فئة أريق نجيعهـا   بغيا فراق العين حسن مآلهـا
حلت مدامة وصلها وحلت لهـم   فان انتشوا فبحلوها وحلالهـا
بلغت بهرمس غاية ما نالهـا   أحد ونـاء لها لبعد منالهـا
وعدت على سقراط سؤرة كأسهـا   فهريق ما في الدن من جريالهـا
وسرت على فاراب منهـا نفحـة   قدسية جاءت بنخبـة آلهـا
ليصوغ من ألحانه في حانهـا   ما سوغ القسيس من أرمالهـا
وتغلغلت في سهر ورد فأسهـرت   عينا يؤرقها طروق خيالهـا
فخبا شهاب الدين لما أشرقـت   وخوى فلم يثبت لنور جلالهـا
ما جن مثل جنونـه أحـد ولا   سمحت يد بيضاء بمثـل نوالها
وبدت على الشـوذي منها نشوة   ما لاح منهـا غير لمعة آلهـا

بطلت حقيقته وحالت حاله — فيما يعبر عن حقيقة حالها
هذي صبابتهم ترف صبابة — فيروق شاربها صفاء زلالها
اعلم أبا الفضل بن يحيى ، أنني — من بعدها أحرى على آمالها
فاذا رأيت مدلها مثلي فخذ — في عذله ان كنت من عذالها
لا تعجبن لما ترى من شأنها — في حلها ان كان أو ترحالها
فصلاحها بفسادها ونعيمها — بعذابها ورشادها بضلالها
ومن العجائب أن أقيم ببلدة — يوما وأسلم من أذى جهالها
شغلوا بدنياهم أما شغلتهم — عني فكم ضيعت من أشغالها
حجبوا بجهلهم فان لاحت لهم — شمس الهدى عبثوا بضوء ذبالها
وان انتسبت فانني من دوحة — يتفيأ الانسان برد ظلالها
من حمير من ذي وعين من ذوي — حجر من العظماء من أقيالها
اذا رجعت لطينتي معنى فما — سلساله بأرق من صلصالها
لله درك أي نجل كريمة — ولدته فاس منك بعد حيالها
ولأنت لاعدمتك والد فخرها — وسماك سؤددها وبدر كمالها
أغلظ على من عاث من أندالها — واخشع لمن تلقاه من أبدالها
والبس بما أوليتها من نعمة — حلل الثناء وجر من أذيالها
خذها ، أبا الفضل بن يحيى ، تحفة — جاءتك لم ينسج على منوالها
ما جاء في مضمارها شعر ولا — سمحت قريحة شاعر بمثالها
وأنل ابا البركات من بركاتها — وادفع محال شكوكه من آلها

جسر على هذه القافية الهائية ولم يجسر عليها المتنبي ولا أبو تمام ولا البحتري . فالشرق يفتخر بهؤلاء والجزائر تفتخر بهذا الشاعر . فلا تنزل مرتبته عن مرتبة هؤلاء الفحول . انه تحلى بمحاسن جميعهم .

اجتمع في شعره صوت المتنبي وقوة ألفاظه وألوان البحتري وأصباغه وجناس أبي تمام وطباقه . وقد أخبر ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الآبلي السلطان أبا عنان بأن أبا اسحاق التنسي لما توجه الى المشرق اجتمع هناك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد . فقال القاضي : « كيف حال الشيخ العالم أبي عبدالله بن خميس ؟ » وجعل يحليه بأحسن الاوصاف ويطنب في ذكر فضله . فبقي الشيخ ابو اسحاق

متعجبا وقال : « من يكون هذا الذي حليتموه بهذا الحلي ولا أعرفه بلدي ؟ » فقال له : هذا القائل :

« عجبا لها أيذوق طعم وصالها ؟ » •

فقال أبو اسحاق : « ان هذا الرجل ليس هو عندنا بهذه الحالة التي وصفتم انما هو عندنا شاعر فقط » • فقال القاضي : « انكم لم تنصفوه وانه لحقيق بما وصفناه » • وأخبر الآبلي أبا عنان بأن ابن دقيق كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة تعلو موضع جلوسه للمطالعة ، وكان يخرجها من تلك الخزانة ويكثر تأملها والنظر فيها » •

وقال الآبلي ايضا : « لقد تعرفت أنه لما وصلت هذه القصيدة الى قاضي القضاة تقي الدين لم يقرأها حتى قام اجلالا لها » •

وكان ابو عنان كثير العناية بشعر ابن خميس • فقال : أنشدنا القاضي خطيب حضرتنا العلية ابو عبدالله محمد بن أبي الحسن بن عبد الرزاق ، وذلك بقصر المصارة ، يمنه الله ، في يوم الاثنين خامس عشر من شهر المحرم عام خمسة وخمسين وسبع مائة قال : أنشدنا بلفظه شيخ الادباء وفحل الشعراء ابو عبدالله بن خميس لنفسه ، رحمه الله •

أنبت ولكن بعد طول عتاب ... وفرط لجاج ضاع فيه شبابي
وما زلت والعليا تعني غريمها ... اعلل نفسي دائما بمتاب
وهيهات من بعد الشباب وشرخه ... يلذ طعامي أو يسوغ شرابي
خدعت بهذا العيش قبل بلائه ... كما يخدع الصادي بلمع سراب
تقول هو الشهد المشور جهالة ... وما هو الا السم شيب بصاب
وما صحب الدنيا كبكر وتغلب ... ولا ككليب رىء فحل ضراب
اذا كعت الابطال عنها تقدموا ... أعاريب غرا في متون عراب (١)
وان ناب خطب أو تفاقم معضل ... تلقاه منهم كل أصيد ناب (٢)
تراءت لجساس مخيلة فرصة ... تأتت له في جيئة وذهاب
فجاء بها شهواء تنذر قومها ... بتشييد أرجام وهدم قباب

١ ــ كع فلان : احجم ونكص عن لقاء قرنه ــ أعاريب : جمع اعراب الذي هو جمع عرب ــ العراب : الخيل الاصيلة ، ٢ ــ الاصيد : الوصف من الصيد وهو ميل العنق زهوا وكبرا .

وكان رغاء السقب في قوم صالح حديثا فأنساه رغاء سراب
فما تسمع الآذان في عرصاتهم سوى نوح ثكلى او نعيب غراب
وسل عروة الرحال عن صدق بأسه وعن بيته في جعفر بن كلاب
وكانت على الاملاك منه وفادة اذا آب منها آب خير مآب
يجير على الحيين قيس وخندق بفضل يسار أو بفضل خطاب
زعامة مرجو النوال مؤمل وعزمة مسموع الدعاء مجاب
فمر يزجيها حواسر ظلعا بما حملوها من منى ورغاب
الى فدك والموت اقرب غاية وهذا المنى يأتي بكل عجاب
تبرض صفو العيش حتى استشفه فداف له البراض قشب حباب
فأصبح في تلك المعاطف نهزة لنهب ضباع او لنهش ذئاب
وما سهمه عند النضال بأهزع ولا سيفه عند المصاع بنابي (١)
ولكنها الدنيا تكر على الفتى وان كان منها في أعز نصاب
وعادتها ألا توسط عندها فاما سماء أو تحوم تراب
فلا ترج من دنياك ودا وان يكن فما هو الا مثل ظل سحاب (٢)
وما الحزم كل الحزم الا اجتنابها فأشقى الورى من تصطفي وتحابي
أبيت لها ما دام شخصي أن ترى تمر ببابي أو تطور جنابي (٣)
فكم عطلت من أربع وملاعب وكم فرقت من أسرة وصحاب
وكم عفرت من حاسر ومدجج وكم أثكلت من معصر وكعاب (٤)
اليكم بني الدنيا نصيحة مشفق عليكم بصير بالأمور نقاب (٥)
طويل مراس الدهر جزل مماحك عريض مجال الهم حلس ركاب
تأتت له الاهوال أدهم سابقا وغصت به الايام أشهب كابي
ولا تحسبوا أني على الدهر عاتب فأعظم ما بي منه أيسر ما بي
وما أسفي الا شباب خلعته وشيب أبى الا نصول خصاب
وعمر مضى لم أحل منه بطائل سوى ما حلا من لوعة وتصابي
ليالي شيطاني على الغي قادر وأعذب ما عندي أليم عذاب
عكسنا قضايانا على حكم عادنا وما عكسها عند النهى بصواب

---

١ ــ المصاع : المجالدة بالسيوف ، ٢ ــ شبه بظل السحاب في سرعة الزوال والانتقال ، ٣ ــ تطور جنابي : تحول حولي وتدنو مني ، ٤ ــ معصر : الفتاة اذا بلغت وقت شبابها ، ٥ ــ النقاب : الرجل العلامة .

على المصطفى المختار أزكى تحيتـــي فتلك التي أعتد يوم حسابـــي
فتلك عتادي أو ثناء أصوغـــه كدر سحاب أو كدر سخـــاب

أنشد ابن خميس العبدري البلنسي هذه القصيدة فقال العبدري :
« هذه القصيدة مهذبة الالفاظ والمعاني وألذ من نغمات المثالث والمثاني(١)» .

اليك الآن هذه القصيدة فقد أتى ابو عبدالله فيها بشعر كله رقة :

نظرت اليك بمثل عيني جؤذر (٢) وتبسمت عن مثل سمطي (٣) جوهر
عن ناصع كالـــدر او كالبـرق أو كالطلع او كالاقحـــوان مؤشر
تجري عليـــه من لماها نطفـــة بل خمـــرة لكنهـــا لـم تعصر
لو لم يكن خمرا سلافا ريقهـــا تزري وتلعب بالنهى لـــم تحظـر
وكذاك ساجي جفنها لو لـــم يكن فيه مهند لحظهـا لم يحـــذر
لو عجت طرفك في حديقة خدهـــا وأمنت سطوة صدغها المتنمـــر
لرتعت من ذاك الحمى في جنـــة وكرعت من ذاك اللمى في كوثـــر
طرقتك وهنا والنجـــوم كأنهـــا حصباء در فـي بســـاط أخضر
والركب بين مصعد ومصـــوب والنوم بين مسكـــن ومنفـــر
بيضا اذا اعتكرت ذوائب شعرهـــا سفرت فأزرت بالصباح المسفـــر
سرحت غلائلها (٤) فقلت سبيكـــة من فضـــة أو دمية من مرمـــر
منحتك ما منعتك يقظانا فلـــم تخلف مواعدها ولـــم تتغيـــر
وكأنها خافـــت بعاة وشاتهـــا فأتتـــك من أردافها في عسكـــر
وبجزع ذاك المنحنـــى أدمانـــة تعطو فتسطو بالهزبر القســـور
وتحية جـــاءتك في طي الصبـــا أزكى وأعطر من شميم العنبـــر
جرت على واديك فضل ردائهـــا فعرفت فيها عرف ذاك الادخـــر
هاجت بلابـــل نازح عن الفـــه متشوق ذاكي الحشى متسعـــر
واذا نسيت ليالي العهد التـــي سلفت لنا فتذكريهـــا تذكـــري
رحنا تغنينا ونرشف ثغرهـــا والشمس تنظر مثل عيـــن الأخزر
والروض بين مفضض ومعسجـــد والجو بين ممسك ومعصفـــر .

ومن شعر ابن خميس البديع قوله :

---

١ ــ الرحلة المغربية ، ٢ ــ الجؤذر : ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان في سعة العيون ، ٣ ــ السمط : العقد شبه اسنانها بعقد الجوهر ، ٤ ــ سرحت غلائلها : خرجت منها .

تراجع من دنياك ما أنت تـــــارك ... وتسألها العتبى وها هي فـــارك
تؤمل بعد الترك رجع ودادهـــــا ... وشر وداد مـــا تود الترائـــك
حلالك منها ما حلا لك في الصبــا ... فأنت علـــى حلوائه متهالـــك
تظاهر بالسلـوان عنها تجمـــلا ... فقلبك محزون وثغرك ضاحـــك
تنزهت عنها نخوة لا زهـــادة ... وشعر عذاري أسود اللون حالـك
فلا تدعون غيري لدفع ملمـــة ... اذ ما دهمن حادث الدهـــر داهك
فما ان لذاك الصوت غيري سامـع ... وما ان لبيت المجد بعدي سامـــك
يغص ويشجى نهشل ومشاجـــع ... بما أورثتني حمير والسكاسـك
تفـارقني الروح التي لست غيرها ... وطيب ثنائي لاصـــق بي صائك
وماذا عسى ترجو لذاتي وأرتجـي ... وقد شمطت مني اللصى والأفانك(١)
يعود لنا شرخ الشباب الذي مضى ... اذا عاد للدنيـا عقيل ومالـــك

وهذه القصيدة التي تشعر عند قراءتها بموسيقى حلوة تتناغــم ورقة المعنى وجمال اللفظ طنانة على حسب المقري ولطولها لم يأت منها الا بما ذكرناه • ومن غرر قصائده تلك التي يمدح بها أبا سعيد بن عامر ويذكر الوحشة الواقعة بينه وبين أبي بكر بن خطاب وهي طويلة كذلك ولم يأت صاحب زهر الرياض منها الا بهذين البيتين :

مشــــوق ذاد ربعك يا أمامـــا ... محـــا آثار دمنتها الشآمـــا
تتبع ريقـــه الطـــل ارتشافـا ... فلا نفعت ولا نقعـــت أوامـــا

وجاء منها في الرحلة المغربية للعبدري البلنسي ما يلي :

ومـــا برقا أضــــاء علـــى أوال ... يمانيا متـــى جئت الشآمـــا
أثغـــر أمامة أنت ابتسامــــا ... أم الــدر اللآلـــي انتظامـــا
أمشبه قلبي المضنـــى احتدامـــا ... على ما ذدت عن جفنـــي المنامـــا
خفقت ببعض واديهـــا لـــواء ... ولحـــت ثنيتهـــا حسامـــا
لم أصهرتنـــي وصددت عنـــي ... خيــــالا كان يأتيني لمامـــا
وأبلغ منـــك تأريقا لجفنـــي ... كلام أثخن الاحشــــاء كلامـــا
تعرض لي فأيقظت القوافـــي ... ولو تـــرك القطا ليلا لنامـــا
أضـــام وفي يدي قلمي لمـــاذا ... أضـــام بغير جرم او علـــى م

١ ـ الافانك : جمع افنيك وهو مجمع اللصيص او طرفهما عند العنفقة .

به وبمـــا أذلق من لسانـــــي أفل الصـــارم الغضب الهدامـــا
خليلي ، ان قدرت فلا تكلنــــي لدهـــر علـــم الشـــح الغمامـــا
وردت فلـــم أرد الا سرابـــــا وشمت فلـــم أشم الا جهامــــا

فقد افتخر ابن خميس بشاعريته في شتى القصائد السابقة فأنصت اليه الآن مفتخرا بعروبته واسلاميته :

انا ، بني قحطان ، لم نخلق لغيـــــر غياث ملهوف ومنعـــة لاجـي
نفري طلا الاعراب في الهيجـا وفي اللاواء نقريهـــم علـــى منهـاج
بسيوفنا البيض اليمانيــــة التـــي طبعت لحـــز غلاصـــم ووداج
تأبى لنا الاحجــــام من أعدائنا يوم اللقـــاء طهـارة الأمشـاج
أنصار ديـــن الهاشمي وحزبــــه وحماتــه في الجحفل الرجــراج
وحماته بنفوسهـــم ونفيسهـــم من غـــدر مغتـال وسورة هاج
هم صفوة الخلق التي اختيـرت له وسواهم همـج من الاهمـــاج
وكفى بحكمتنا اقامـــة حجـــة وبركننـــا من كعبة الحجـــاج
منا التبابعة الذيـــن ببابهـــم كانت تنيـــخ جباة كـــل خراج
ولأمرهم كانت تدين ممالك الدنيــــا بلا جبـــر ولا احـــراج
من يقتـــدح زندا فان زنادهـــم في الجـــود وارية بـــلا اخراج
أبوابهم مفتوحـــة لضيوفهـــم أبـــدا بلا قفـــل ولا مزلاج

واليك الآن بعض الابيات من شعره ذهبت مذهب الامثال فقال :

تحفظ مـــن لسانك ليس شـــيء أحق بطول سجن من لســـان
وكن للصمت ملتزمـــا اذا مـــا أردت سلامــــة ذا الزمـــان

وقال :

كن حلس بيتك (١) مهما فتنة ظهرت تخلص بدينـك وافعل دائما حسنا
وان ظلمت فلا تحقد على أحـــد انالضغائن فاعلم تنشىء الفتنـــا

وقال :

بدا لك أن خير النـــاس عيشـــا مؤمنـــه الاله من الأنـــام
فليـــس لخائف عيش لذيـــذ ولو ملك العـــراق مع الشآم

---

١ ـ حلس بيتك : ملازما له .

وقال :

ان السلامة في مجانبة الورى   جانب جميع الناس تسلم منهم
لا تجزه أبدا بما منه ترى   واذا رأيت من امرىء يوما أذى

وقال :

قرت به عينه كبيرا   من أدب ابنا له صغيرا
يحسد نعماءه كثيرا   وأرغم الانف من عدو

وترك لنا ابن خميس نثرا ولكن شعره أحسن من نثره وأوفر . وقد قال قاضي القضاة ابن دقيق العيد لما وصلت اليه قصيدته : «عجبا لها أيذوق طعم وصالها ؟» المشفوعة بنثر طويل : «ان هذا الرجل معري النزعة» أي ان شعره أحسن من نثره . وبالفعل اذا تدبرنا في شعر ابن خميس وجدناه ينم عن ذكاء وقاد وعاطفة صافية وبراعة في التعبير وانه يجمع بين الجودة والفخامة والسهولة والمتانة ، ومسحة التصوف التي تكسو غالب شعره تحليه وتحببه . فكان ابن خميس رافع راية الشعر في عصره ذا النفس الطويل والقدرة على النظم .

ويقال ان الوزير ابن الحكم اقترح عليه ان ينظم له قصيدة هائية . فابتدأ منها مطلعها وهو قوله :

لمن المنازل لا تجيب هواها   محيت معالمها وصم صداها

وذلك في أواخر شهر رمضان من سنة ثان وسبعمائة . ثم لم يزد على هذا البيت الى أن توفي وقد أشار معناه الى معناه على تعبير المقري .

فكانت وفاته بحضرة غرناطة قتيلا ضحوة يوم عيد الفطر مستهل شوال سنة ثمان وسبعمائة (١٤ آذار ١٣٠٩ م) اثر الانقلاب الحكومي الذي أودى بصديقه الوزير ابي عبدالله بن الحكيم رحمهما الله . واصبح مرميا بباب الفخارين . لكن قاتله هلك قبل أن يكمل سنة من حين قتله ، من فالج شديد أصابه . فكان يصيح ويستغيث : ابن خميس يطلبني ، ابن خميس يعذبني ، ابن خميس يقتلني . وما زال الامر يشتد به حتى قضى نحبه على تلك الحال . وهذا جزاء الظالمين المعتدين .

التصـــوف

أشرنا في كلامنا على ابن خميس الى نزعته الصوفية التي نلمسهـا في شعره . فلا بأس اذا أعطيناك نظرة اجمالية عن التصوف وأثره في الادب الجزائري . ظهرت فرقة الصوفية في البلاد الاسلامية حوالي القرن الثاني للهجرة في عهد العباسيين . واختلف الباحثون في اشتقاق كلمة تصوف ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى . فالكلمة لا أصل لها في العربية ولم يحدثنا التاريخ عن طائفة من العباد تسمت بهذا الاسم في الجاهليـــة ولا زمن الصحابة . جاء في القرآن الكريم : « اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما » . « انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعـــام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » .

وجاء في الحديث الشريف : ما لي وللدنيا انما مثلي ومثل الدنيـــا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها .

كل هذا يدفع الناس الى الورع والتقوى والتقرب الى الله .

كان النبي (صلعم) مجتهدا في العبادة حتى ورمت قدماه ، لكـن مع ذلك نهى من أراد من أصحابه الانقطاع للتحنث . وقد جاء في الاثر أيضا : « أعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . فالاسلام اذا لا يريد منا أن نعيش في المحارب منعزلين عن ركب الحيـاة غير متدخلين في تنظيمها ولا توجيهها فهو دين روحي ـ اجتماعي . فهو ان أمر الانسان بالعبادات فانما يريد منها أن تكون وسيلة لاصلاح خلقه حتى يعيش سعيدا مع من حوله والله لا يرضى منا بالبطالة والكسل ، ودعوى الفضل والقربى الى الله ورسوله بدون عمل . فالانسان يستفيد مـن عمل غيره فلا بد أن يستفيد غيره من عمله . ومع الاسف ، ان هناك أناسا بالغوا في الورع ورأوا أن يتقربوا الى الله عن طريق الزهد والتقشـف

وسموا انفسهم بالمتصوفين • والتصوف مذهب عرفه الهند واليونان • فتسرب الى البلاد الاسلامية وتأثر به بعض المسلمين ولا سيما في الفرس عندما ترجمت الكتب اليونانية الى العربية ووقفوا على حقيقة هذا المذهب•

واوضح عبد الرحمن جامي الشاعر الفارسي أن اول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الذي ولد بالكوفة وقضى معظم حياته في الشام وتوفي سنة ١٦٠ هـ (٧٧٧ ــ ٧٧٨ م) ، وأن اول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري (سنة ٢٤٦ هـ ــ ٨٦٠ م) تلميذ مالك ، وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجندي البغدادي المتوفي سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م) ، ودعا اليها فوق المنابر الشبلي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٥ م)• والغاية من التصوف هو حب الحقيقة والفناء في طاعة الله • وقد تطور مذهب التصوف عند المسلمين وخاصة عند الفرس ، وأصبحت فلسفة التصوف قائمة على الافلاطونية الحديثة وعلى عناصر فارسية واخرى هندية • وهناك جماعة من المتصوفين غلوا في تصوفهم وقالوا : « انه لا موجود في كل شيء الا الله » • ومن هذا نشأ مذهب وحدة الوجود الذي خالف مذهب جمهور المسلمين • وكان من شأنه ان جعل العالم خيالا لا حقيقة كما وحد بين ذات الانسان وذات الله • وبعد ان كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الالهية ، قال الصوفية بوحدة شاملة بكل شيء ، وبعد ان كان الاولون يقولون بفعل الله في كل شيء قال الآخرون بوجوده في كل شيء (١) • ومن غلاة المتصوفين الحلاج الذي ادعى الالوهية في عهد المقتدر العباسي وألف كتبا ذكر فيها مبادىء تخالف المبادىء الاسلامية • أخذ بتلابيب التصوف أهل الشيعة واستعمله غلاتهم في مقاصد سياسية ، واخوان الصفا منهم ، كتبوا رسائل غايتها الكفر والاستخفاف بالشريعة الاسلامية • وقد عرفت الجزائر التصوف زمن هؤلاء الشيعة العبيديين ، لكن العلماء انكروا عليهم تعاليمهم وكفروهم ، وحرم الصنهاجيون مذهبهم وأمروا الناس بمذهب السنة والتشبث به • وبقي

---

١ ــ تاريخ الاسلام السياسي لحسن ابراهيم حسن

شأن التصوف ضعيفا الى ان جاءت الدولة الموحدية ونشرت المعارف ونصرت الفلسفة . « فظهر من الصوفية رجال ذوو علم لم يمكنهم ان يتغلبوا على العامة حتى ضعفت شوكة الدولة وظهرت دول تنازع امراؤها أمرهم بينهم ،فضعف سلطانهم وعلت كلمة الصوفية » (٢) . فكان نفوذهم قويا على العامة مما ادى بالبلاد الى طريق الانحطاط دينيا وسياسيا .

ومن مشاهير الصوفية الذين عرفتهم الجزائر ابو مدين شعيب بن الحسن الاشبيلي . قرأ بالاندلس وبفاس ، واخذ التصوف عن ابن يعزى وتعرف في عرفة بالشيخ عبد القادر الجلاني الفارسي وأخذ عنه .واستوطن بجاية يقرىء رسالة القشيري وغيرها ، وكثر أتباعه . فسعي به عند يعقوب المنصور الموحدي . فاستقدمه الى مراكش . فقصد ابو مدين هذه العاصمة . ولما بلغ تلمسان توفي فيها سنة ٩٥٤ هـ (١١٩٨ م) ودفن برابطة العباد .

وضريحه مشهور يتبرك به . سئل عما خصه الله به فقال : « مقامي العبودية وعلومي الالوهية وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية . ملأت علومه سري وجهري . وأضاء بنوره بري وبحري » ومن كلامه : « بفساد العامة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصة يظهر دجاجلة الدين الفتانون » وقال : « احذر محبة المبتدعين فهو أبقى على دينك ، واحذر محبة النساء فهو أبقى على قلبك » .

ومنهم عبد الحق بن سبعين المتوفي سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) . سكن بجاية مدة ، وقرأ فيها . ثم لحق بالمشرق ، وجاور بمكة . وقال قطب الدين القسطلاني ــ « انه ظهر في المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث ــ مذهب ابن سبعين وتملك التتر للعراق واستعمال الحشيشة » .

ومنهم ابن الحاج احمد المناوفي أصلا الورنيدي مولدا ودارا . قرأ على ابن زكري التلمساني ، أخذ عنه الاصول والمنطق والمعاني والبيان والعربية ، وكان ماهرا فيها وفي الحساب. وكان شاعرا معاصرا للامام

---

٢ ــ تاريخ الجزائر للميلي ج ٢ ص (٢٧٦ ــ ٢٧٧) .

محمد بن غازي ، وكان يلغز كل واحد لصاحبه بالمسائل نظما .

بعث له ابن غازي فقال :

وميت قبر طعمه عند رأسه — اذا ذاق من ذاك الطعام تكلما
يقوم فيمشي صامتا متكلما — ويأوي الى القبر الذي منه قد نما
فلا هو حي يستحق زيارة — ولا هو ميت يستحق ترحما

فأجابه احمد بن الحاج قائلا :

بحمد الحي أبتدي ثم بعده — أصلي على خير الانام مسلما
هو القلم ، القبر ، الدواة ، وطعمه — مداد ، كلامه الكتابة فأفهما
وكاتب هذا احمد بن محمد — عفا الله عنه كل ما كان أجرما

ومنهم محمد الهواري . كان كثير السياحة شرقا وغربا . أخذ بفاس عن العبدوسي والقباب وببجاية عن احمد بن ادريس والوغليسي . حج وجاور مدة بالحرم الشريف . ثم سافر الى القدس ، وجال في البلاد الاسلامية . واخيرا استقر بوهران مثابرا على العلم والعمل . واخذ عنه ابراهيم التازي وتوفي بوهران سنة ٨٤٣ ه (١٤٣٩ م) بعد ان وصل الى القطبية في رتبة الولاية .

ومنهم الحسن بن مخلوف المزيلي الراشدي الشهير « بأبو كان » . كان شيخا عالما وصل الى القطبية والغوثية . أخذ عن المصمودي وابن مرزوق الحفيد . واخذ عنه الحافظ التنسي والشيخ السنوسي . وارتحل الشيخ الى المشرق . ومعظم قراءته كانت ببجاية على الوغليسي . وقرأ بقسنطينة على أبي عبدالله المراكشي . وتوفي آخر شوال سنة ٨٥٧ ه (١٤٥٢ م) .

وعدد الصوفية عديد نجتزىء بما ذكرنا . قال الميلي في تأريخه . « وقد استمال الصوفية العامة بظواهرهم . فمالت اليهم لتقريبهم لها طريق السعادة بالرياضة التي هي على العامة أيسر من العلم ، وباعتقاد ان شيوخهم يحملون عنهم تقصيرهم في الدين . فكان للصوفية فيهم نفوذ » فلم يرض الصوفية السنيون والعلماء اعمال عامة الصوفية وقاوموهم .

فقال الاخضري الجزائري يصف صوفية زمانه :

وظهـــــرت في هـــذه البـــلاد طائفـــــة البلـــــع والازدراد والتصوف ظهر أثره قويا في الادب الجزائري مما ينسب الى شعيب أبي مدين قوله :

بكت السحاب فأضحكت لبكائهـا زهر الرياض وفاضـــت الانهـار
وقد اقبلت شمس النهـــار بحلـة خضرا وفـــي اسرارهـــا أسرار
وأتى الربيع بخيلـــه وجنـوده فتمتعت في حسنـه الابصـــار
والورد نادى بالورود الى الجنـى فتسابـــق الاطيار والاشجـار
والكأس ترقص والعقـار تشعشعت والجو يضحك والحبيب يـــزار
والعود للغيد الحسان مجـــاوب والطار أخفى صوتـه المزمـــار
لا تحسبوا الزمر الحـــرام مرادنا مزمارنا التسبيـــح والاذكـــار
وشرابنا من لطفـــــه وغناؤنـا نعم الحبيب الواحـــد القهـار
والعـــود عادات الجميل وكاسنـا كاس الكياسة والعقار وقـــار
فتألفـــــوا وتطيبوا واستغنمـوا قبـــل الممـــات فدهركم غدار
والله أرحــــم بالفقير اذا أتـــى مـــن والديـــه فانه غفـــار
ثم الصلاة على الشفيع المصطفـــى مـــا رنمت بلغاتهـــا الاطيـار

وينسب اليه غير هذه المقطوعة الرائعة معنى ومبنى.شعره كثير منه هذه الابيات وتخميسها لأحمد بن الحاج الورنيدي :

اذا أنا من زاد التقى كنـــت معسرا ومن موبقات الاثم اصبحت موقرا
دعوت الهـــي ضارعا متحقـــــرا أيا من تعالـــى مجده فتكبـــرا
وجل جلال قـــدره ان يقدرا
بعفوك يا ربـــــي عبيـــــدك لائذ من السخط ينجو بالرضى وهو عائذ
آمـــن بنـــواصي كلنـــا هو آخذ ومن حكمه ماض على الخلق نافـــذ
كما خط في أم الكتاب وسطرا
ما نزل علي من رضاك سكينـــــــة فنفسي من الاوزار عــــادت حزينة
أمن رفع السما طباقا مكينـــــــــة وسخرت فيها الشمس والبدر زينـة
لها نجوما طالعـــات زواهـــرا

ولابراهيم التازي المذكور قصيدة لامية لبعض الاكابـــــر بتلمسان عليها تخميس ذكرها المقري ضمن التخميس في الازهار :

بدت كغصن ناعم في اعتـــدال
وأبدلت وصلي بصـــاد ودال
قلت كصب عاشـــق حيث قال
ما حال من فارق ذاك الجمـــال وذاق طعـــم الهجر بعـــــد الوصال
صب صبا من وجد لحظ الرشا
من حبه عـــن لبـــــه ينتشى
وسره بدمعــــــه قد فشـــا
والعقل منــــــه ذاهب والحشى ملتهب والجســـم يحكي الخيـــــال
شأني بها ما دمت في رقهـــا
راق ولا رغبـــة في عتقهـــــا
دمت لها عبـــدا ومن حقهـــا
أبيت أرعى النجم في أفقهـــــــا وليل أهل الحب رحب طـــــــوال
جاء بها التنصيص في جملتي
أقضي بها فرضي وهـــي ملتي
نأت بصبري صحت واخجلتي
والدمع كالمدرار من مقلتــــــي يجري على الوجنـــــــة يا للرجـــــال
ما عمرت لي بالهـــوى راحـــة
من بعدها ولا خلت ساحـــــة
من حسنهـــــا اذ هي وضاحة
وليس لي عيش ولا راحـــــــة والحال يغني ذا الحجـــــا عن سؤال
الوصل قد أبدى لنا حسنـــه
والبعد قد أبـــدى لنا شينـــه
قولوا لمن ليل الهـــوى جنـــة
يا قبـــح الله النـــوى انــــــه قتل بلا سيـــــف وداء عضـــــــال
الفي مذ حـــــل بقلبي قضى
أعــــاده الله لنـــــا بالرضا
بطالع السعد ونـــــور أضا

ويا رعى الله زمانـــا مضــى بالأنس في وارف تلـــك الظـلال
لله أطـلال بهـــا خيمت
فكم بها من أمة أحرمـــت
ويا رعى الله بها ما حمـــت
ظـلال تيماء التـــي تيمـــت قلبي وخلــت مهجتي في نكـــال
نلت لذيذ الوصل في تربهـا
لو دام ما غيبت عن قربهـــا
فكيف لا أعلن عن حبهـــا
آها لها من لي بأنس بهـــا خوف الوجى ما بين تلك الجبـــال
تلك ربوع فاز من حلهـــا
وعقــدة الابعـــاد قد حلها
من لي بقرب أجتنـــي وصلها
ألزمهـــا ابث امـــري لهـــا أنعم الطرف بــذاك الجمـــال
ما فاز الا من غـــدا خلهـا
وما أتاها قاصــدا أهلهـــا
يا عاشقين استعطفوا دلهـــا
لله ما أحســـــن خالا لهـــا تقبيله المحظـــور عن الحـــلال
نفسي فدا من حـــل في ركبها
ومرغ الخدين في تربهـــا
ونال ظل الامن في حزبهـــا
وما ألـــذ العيش في قربهـــا في ريه بذل العطـــا والنـــوال
يا أهل ذاك المنصب المولوي
عن حبكم قلبي مايرعـــوي
لانني من مائكـــم أرتوي
يا سادتي يا صفوتـــي يا ذوي بري وشكري يا كـــرام الفعـــال
كم بت ليلي بكـــم ساهرا

سامرت فيه كوكبـــا زاهرا
وصرت من شوقي لكم ذاكرا
كـــان سروري بكم وافـــرا وبدر سعدي مشرقا في كمـــال
فهأنا اليـــوم أعاني العنـا
وظل أمني كان في المنحنـى
وبدر سعدي ناظـــم شملنا
فانخسف البـــدر وراح الهنا ما كـــان ذا يخطر مني ببـــال
يا من غدا قلبي بهم مغرمـــا
من أجل خود حسنها قد سما
من لي بها أرشف ذاك اللمى
يا جيرة الحي وأهـــل الحمـــى أنتم منى قلبي على كـــل حـــال
كانت بكم لي في الهوى نزهة
فصرت أبكي اذ بدت وحشة
وها أنا لم ترق لي دمعـــة
وليس بي صبر ولا سلـــــوة عنكم ولو شط المـــدى واستطـال
يا من بهم قلبي غدا مولعـــا
وحق من طاف ومن قد سعـــى
ما العبد. الا صادق ما ادعـــى
فارعوا ذمامي واجهدوا في الدعا للمدنف المضنى عسى ذو الجـــلال
متى أرى ركبي بهم قافـــلا
وربعكم أضحى بـــه آهلا
فالله أرجو داعيا سائـــلا
أن يجمع الشمل بكم عاجـــلا في ذلك المغنى العديـم المثـــال

ظهرت المدائح ثم الميلاديات التي سنها بنو زيان في تلمسان اقتداء ببني العزفي • فقيلت في هذه وتلك قصائد طوال •

في القرن السابع ظهر شاعر في الجزائر العاصمة يسمى أبو عبداللهمحمد

بن محمد بن عبدالله بن محمد بن محمد بن احمد بن ابي بكر العطار • برع في ميدان المدائح ، جمعها في كتابه « درر الدرر » ، اليك منها بعض النماذج :

أنوار أحمد حسنها يتلألأ　　المصطفى بحلى الكمال يملأ
الشمس تخجل وهو منها أضوأ　　النور منه مقسم ومجزأ
قد زان ذاك النور ابراهيما　　صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على المسك الفتيق الاطيب　　صلوا على الورد المعين الاعذب
صلوا على نور ثوى في يثرب　　صلوا عليه بمشرق وبمغرب
ما زال في الرسل الكرام كريما　　صلوا عليه وسلموا تسليما

وهذا التسديس يحتوي على سبعة وثمانين بيتا

واليك طالع تسديس آخر :

نور النبي المصطفى المختار　　أربت محاسنه على الانوار
مرآه يخجل بهجة الاقمار　　نور ينجي من عذاب النار
قد زان ذاك النور اسماعيلا　　صلوا عليه وسلموا تسليما

ومن قصائد الكتاب هذه :

أهدت لنا طيب الروائح يشرب　　فهبوبها عند التنسم يطرب
زفت ، فرق من الصبابة والاسى　　قلب بنيران البعاد يعذب
شوقا الى أسنى نبي ، حبه　　كنز النجاة فنعم هذا المطلب
المصطفى أعلى البرية منصبا　　قد حل في العلياء ذاك المنصب
فزنا به بين الانام بمدينة　　أبدا علينا بالاماني تسكب
حاز السيادة والكمال محمد　　فاليه أشتات المحامد تنسب
محبوبنا ونبينا وشفيعنا　　يدني الى روض الرضا ويقرب
بضيائه الملتاح أشرق مشرق　　وبنوره الوضاح أغرب مغرب
وبه وردنا الامن عذبا صافيا　　وبه ترقى في المعالي يشجب
صبح الهدى أنواره بنبينا　　صبحا تروق الناظرين وتعجب
ان طابت الانفاس من زهر الربا　　رياه أذكى في النفوس وأطيب
صيرت أمداح النبي المصطفى　　لي مذهبا يا حبذاك المذهب
فعلي من أمداح أحمد خلعة　　موشية ولها طراز مذهب
وبمدحه شمس الرضا طلعت على　　أفقي يضيء ونورها لا يغرب

أترى يبشرنـــي البشير بقربــه   وأبث اشــواق الفؤاد وأنــدب
ويقـــال لي بشراك قد نلت المنى   يا مغـــربي الى متى تتغـــرب
هذا مقر الوحي هــذا المصطفى   هذا الذي أنـــواره لا تحجـــب
زد ورد طيبة واشف من ألم النـوى   قلبا على جمـــر الأسى يتقلـــب
كم ذا التواني عن زيارة مـــورد   عذب المقـــام به ولـــذ المشرب
منا السلام على النبـــي محمـــد   ما أسفرت شمس وأشرق كوكـب

وقال في مطلع قصيدة اخرى :

أمنزلنا جادت ثراك السحائـــب   والا فجادته الدموع السواكـــب
ووشاك وسمي العمـــام بـــدره   وحلى محلا حـــل فيه الحبائب
وحيا نسيم الريح بالجزع آنســـا   فما عاب ذاك الانس بالجزع عائب
فيا عهدنا بالحيف هل أنت عائـــد   ويا أنسنا بالجزع هل أنت آئـــب
وهل راجع عصر الشباب الذي انقضى   وقد شيبت سود الشعور الشوائب

وقال في مطلع قصيدة اخرى :

شمس الهدى وضحت بأشرف مرسل   وزجت دجى ليل الضــلال المسبل
من وجه عبدالله كان ظهورهـــا   للخلـــق طرا في ربيـــع الاول
خلعت على الافاق أشرف ملبـــس   وبدت ، فأي دجنة لم تنجـــل

وقد أتحفنا بقصائد كثيرة على هذا الطراز وفي هذا المعنى .

ومن الميلاديات تلك القصيدة الطويلة التي قالها الفقيه الكاتـــب أبو زكريا يحيى بن خلدون في مولد عام ثمانية وسبعيـــن وسبعمائة ، واستطرد فيها لمدح السلطان ابي حمو صاحب تلمسان :

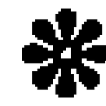
ما على الصب في الهوى من جنـاح   أن يرى حلف عبرة وافتضـــاح
واذا ما المحـــب عيل اصطبـــارا   كيف يصغي الى نصيحـــة لاحي
يا رعى الله بالمحـــب ربعـــا   آذنت عهـــده النوى بانتـــزاح
كم أدرنا كأس الهـــوى فيه مزجا   رب جد من الجـــوى في المزاح
هل الى رسمـــه المحيل سبيـــل   يـــا حـــداة المطي تلـك الطـلاح
نسأل الدار بالخليط ونسقـــي   ذلك الربع بالدموع السفـــاح
أي شجو عاينت بعـــد نواهـــا   من أســـى لازم وصبـر مـزاح
أهل ودي ان رابكـم برح وجدي   من صبـــا بارح وبـــرق ليـــاح
فاسألوا البرق عن خفـوق فؤادي   والصبا عن سقـــام جسمـي المتاح

يا أهيل الحمى نداء مشوق ما له عن هوى الدمى من براح
طالما استعذب المدامع وردا في هواكم عن كل عذب قراح
عاده بالطلول للشوق عيد من حمام بدوحهن صداح
من لقلب من الجوى في ضرام ولجفن من البكا في جراح
ولصب يهيجه الذكر شوقا فهو سكرا يرتاح من غير راح
وليال قضيت للهو فيها وطرا والشباب ضافي الجناح
راكبا في الهوى ذلول تصاب ساحبا في الغرام ذيل مراح
ونجوم المنى تنير الى أن روع الشيب سربها بالصباح
أي مسرى حمدت لم أخل منه بسوى حسرة وطول افتضاح
واخساري يوم القيامة ان لم يغفر الله زلتي واجتراحي
لم أقدم وسيلة فيه الا حب خير الورى الشفيع الماحي
سيد العالمين دنيا وأخرى أشرف الخلق في العلا والسماح
سيد الكون من سماء وأرض سره بين غاية وافتتاح
زهرة الغيب مظهر الوحي معنى النـ ـنور كنه المشكاة والمصباح
آية الكرمات قطب المعالي مصطفى الله من قريش البطاح
أول الانبياء تخصيص زلفى آخر المرسلين بعث نجاح
صفوة الخلق أرفع الرسل قدرا وسراج الهدى وشمس الفلاح
من لميلاده بمكة ضاءت من قرى قيصر جميع الضواحي
وخبت نار فارس وتداعت من مشيد الايوان كل النواحي
من رقي في السما سبعا طباقا ورأى آي ربه في اتضاح
ودنا منه قاب قوسين قربا ظافرا في العلى بكل اقتراح
من هدى الخلق من بيض وسود وجلا ليل غيهم بالصباح
من يجير الورى غدا يوم يجزى كل عاص وطائع باجتراح
من الى حوضه وظل لواه يلجأ الناس بين ظام وضاحي
أحمد المجتبى حبيبا ، وأنى فوق عز الحبيب مرمى طماح
في أناجيله المسيح تلاه باسمه والكليم في الالواح
ولكم حجة وبرهان صدق في سماع أتى بها والتماح
ان في النجم والنبات لآيا بهرت والجماد والارواح
معجزات فتن المدارك وصفا وحسابا كالزهر او كالصباح
يا رواة القريض والشعر عجزا ما عسى تدركون بالامداح

انما حسبنا الصـــلاة عليـــه وهي للفوز آيـــة استفتـــاح
يا الهي بحـــق احمد عفـــوا عن ذنـــوب جنيتهن قبـــاح
وأدم دولة الخليفـــة موسـى ذي المعالـي المبينة الاوضـاح
مفخر الملـــك مستقر المزايـــا مظهر اللطف ذو التقى والصـلاح
ناصر الحق خاذل الجور عـــدلا ملجأ الخائفيـــن بحر السمـــاح
يتلقى النـــدى بوجـــه حيي ويلاقـــي العدا ببأس صفـــاح
وله المكرمـــات ارثا ولبســـا حاز حمدا بها معلى القـــداح
من علا باذخ وفخـــر صميـــم وكمال بحـت ومجـــد صراح
وأحاديـــث في المعالي حســـان رويت عنه في العوالي الصحـــاح
عاقد صفقـــة العلا كل حيـــن فائز فيـــه سعيـه بالربـــاح
للندى والهـــدى يروح ويغـــدو أي مغدى الى العـــلا ومـراح
ملـــك تشرق الأسرة منـــه في السماء السرير نور صبـــاح
واذا ما عـــلا بعالي العوالـــي صهوة الجرد فهو ليث الكفـــاح
لبس الدهـــر منه حلة حسـن وثنـــى للسرور عطف مـــراح
وعلا عاتـــق الخلافـــة منـــه طرز فخر سبى النهى بالتمـــاح
ورث الملك شامخـــا عـن سراة شيدوا ركنـــه بأيدي الصفـــاح
من بني القاسم الذيـــن تحلـــوا بالمعالي واستأثـروا بالفـــلاح
فرعوا هضبـــة الخلافة مجـــدا رفعوا سقفه علـــى الارمـــاح
نشروا راية المفاخـــر حمـــدا خافق النور بالربـــا والبطـاح
يا امامـــا بذ الملـــوك جـلالا وجمـــا لافديـــت بالارواح
أنت شمس الكمـــال دمت عليـــا في اغتباق من المنى واصطبـــاح
وبنوك الاعلون أنجـــم سعـــد زاهـــرات بنورك الوضـــاح
وأبو تاشفيـــن بـــدر منيـــر زانه الله بالخـــلال الصبـــاح
أكمل العالمين خلقـــا وخلقـــا أشرف النـــاس في الندى والكفاح
وبكم زينت سمـــاء المعالـــي واهتدى الناس في الدجى والصباح

فالقصيدة رائعة في اسلوبها رائقة في معانيها ، لا يشوب شعرهـــا تعقيد ولا غموض بل يمتاز بالانسجام وحسن التركيب والموسيقى التـي تتخلل الالفاظ المختارة الرنانة • انظر الى هذه المهارة في انتقال الشاعر من مدح النبي الى مدح سلطانه • الا انه يؤخذ عليه قوله البيت الاخير في ابي

حمو وكان عليه ان يمدح به النبي صلى الله عليه وسلم • وجميع الادباء الذين عاصروه في تلمسان شنفوا الاسماع بأمداحهم في المحافل الميلادية ، وسنحدثك عنها بعد ، كما سنوافيك حينما نتعرض انى ترجمة ابن مرزوق الخطيب بقصيدة بديعة قالها في محفل ليلة ميلاد بقصر غرناطة • والمدائح من أغراض التصوف والفعال المحمدية وقد سجل لنا التاريخ عددا كبيرا منها • فما ذكرنا منها يكفي ليعطينا فكرة عن هذا النوع من الادب الذي يرجع نشاطه في الحقيقة الى ظهور التصوف في بلادنا ، وان كان الزهد قد دخل الى الجزائر مع بكر بن حماد ، ومدح النبي ظهر منذ الجاهلية ، فقد مدح كعب بن زهير محمداً صلى الله عليه وسلم بقصيدته اللامية ، ومدحه حسان ليدافع عنه ضد المشركين •



أبو حمو موسى

رزق الله الجزائر شخصية في منتصف القرن الثامن الهجري كان خطرها كبيرا في السياسة والنهضة في العلوم والآداب والفنون ، وتلك الشخصية تتجلى في أبي حمو موسى الثاني بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراس بن زيان • ولد بالاندلس ايام مقام ابيه بها سنة ٧٢٣هـ ١٣٢٣ م) ونشأ بتلمسان ، بلد آبائه ،آخذا بحظ كبير من أدب وسياسة وحزم •

وكان بنو مرين يريدون أن يرتكزوا على الدوام بالعاصمة الزيانية • لكن بني زيان لم يتخلوا عن ملك أجدادهم ، ودافعوا عنه باذلين النفس والنفيس حتى طردوهم • وكان أبو حمو أقواهم شكيمة وأشدهم بأسا • فهو الذي جدد الدولة وأمر باطلاق لقب الدولة الزيانية بدل النسبة العبد الواديـة التي كانت اشتهرت بها قبل انبعاثها ، وأظهر أبهة الملك وصولة السلطان • فاسترجعت الدولة في عصر حمو موسى الثاني شبابها ومجدها الذي كاد يقضي عليه بنو مرين وبنو أبي حفص من جهة والفتن الداخلية من جهة اخرى • وكان ابو حمو الثاني يحتفل لليلة المولد النبوي كما كان

يعتني بذلك ملوك المغرب والاندلس ، والعزفي ، صاحب سبتة ، هو الذي سن ذلك في المغرب واقتفى الناس سننه • ومن جملة احتفال لأبي حمو ما يحدثنا عنه كاتبه ابن خلدون أبو زكريا يحيى قائلا :

« أطلت ليلة الميلاد النبوي على صاحبها افضل الصلاة وأزكى التسليم • فأقام لها بمشور داره العلية مدعى كريما وعرسا حافلة احتشدت لها الامم وحشر بها الاشراف والسوقة • فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ومشامع كأنها الاسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة • والخليفة ـ أيده الله ـ تصدر مجلسها ممتطئا سرير ملكه يسر الناظرين رواؤه ، ويثلج الصدور عزه ، وتحار في كمالات خلاله النهي ، حفا فيه التجلة من قومه وأعيان الطبقات من أهل حضرة خلافته على مقاعد عينها الاختصاص ورتب بعضها فوق بعض المناصب ، تخالهم قصع الرياض النضرات قد أغضى الجلال من أبصارهم وخفضت المهابة من اصواتهم • فلا تبصر الا جمالا ولا تسمع الا همسا : يطوف عليهم ولدان اشعروا أقبية الخز الملون وبأيديهم مباخر ومرشات ••

وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه بأعلاها أيكة تحمل طائرا ، فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الأيكة صعدا • وبصدرها أبواب موجفة عدد ساعات الليل الزمانية يصاقب طرفيها بابان موجفان أطول من الاولى وأعرض فوق جميعها ودون رأس الخزانة قمر أكمل ، يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ويسامت اول كل ساعة بابها المرتج فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما صنجة صفر ، يلقيها الى طست من الصفر مجوف ، بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن وينهش الارقم احد الفرخين فيصفر له ابوه • فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء بيمناها اذبارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين ، أيده الله ، حيل أحكمت يد الهندسة وضعها ، وراض تدبير الخليفة ، أعلى الله مقامه،

شماسها . والمسمع قائم صدر عترته على بعد من الخليفة مقـــدر يردد نغمات الالحان ويرتب رنـــات الايقـــاع ، وينشد خلال ذلك امداح سيد الرسل وخاتم النبيين محمد بن عبدالله (صلعم) .

وجيء آخر الليل بالخرس الشهي الملاذ ، الحافل الملامح والمشام ، المتعدد الخوانات ، مما أرحبت ساحته وحبرت بروده وناء بالعصبة أولي القوة ، محمله ، ثم الفواكه فالحلواء . وطعم الناس بين يدي الخليفـة وشكروا الله سبحانه ، ودعوه لجابر صدعهم ولم شعثهم . ولم يفـارق الخليفة ، نصره الله ، مجلسه اول الليل الى ان صلى الصبح في الجماعة ، ثم غدا على داره السعيدة ولسان الحال ينشده :

يا حسنهـــا ليلـــة تولـــت بنهـــر فجـــر له انفجـــار
ولـــم تكـــن قلبتي لتبتلـــي لو مـــد باعهـــا النهـــار

وعلى هذا الاسلوب مرت المواليد النبوية بعد هذا في مدنه السعيدة طالت أيامه وانتشرت في هضاب المعالي اعلامه » .

وكان ابو حمو أديبا يقرض الشعر ويحب أهله . وله تأليف حسن فيالسياسة لخص فيه « سلوان المطاع » لابن ظفر ، وزاد عليه فوائد ، وأورد فيه جملة من نظمه وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم ، وصنفه برسم ولي عهده أبي تاشفين ، وسماه « واسطة السلوك في سياسة الملوك » وما من ليلة مرت في أيامه الا ونظم منها قصيدا في مدح المصطفى (صلعم) . أول ما يبتدىء المسمع في المحفل بانشاده ، ثم يتلوه انشاد من رفع الى مقامه العلي في تلك الليلة ، نظما ، وجميع شعراء البلاط يرفعون اليه القصائد والامداح . وكان الفقيه ذو الوزارتين ، ابن الخطيب كثيرا ما يوجه اليه الامداح في هذه المناسبة . ومن احسن ما بعث اليه ، قصيدة سينية فائقة تحتوي على ١١٤ بيتا . اليك مطلعها :

أطلعن في سدف الفروع شموسا ؟ ضحك الظلام لها وكان عبوســـا

ووصل ابن الخطيب هذه السينية بنثر بارع يخاطب به السلطان أبا حمو موسى .

كان ابو حمو ملتجئا بتونس ، وفي ايابه الى بلاده شن غارات عديدة

على بني مرين وأنصارهم ، وكانت له وقائع انتصر فيهاواستولى على نواحي تلمسان ، ودخل العاصمة يوم الخميس ٨ ربيع الاول سنة ٧٦٠هـ (٧ شباط ١٣٥٩ م) وبويع من طرف اهلها • وفي وصف هذه الحوادث قال أبو حمو قصيدة طويلة كأنك بها ملحمة تحتوي على ٩٢ بيتا منها :

جرت أدمعي بين الرسوم الطواسم | لما شحطتها من هبوب الرواكم
وقفت بها مستفهما بخطابها | واي خطاب للصلاد الصلادم

•••••••••••••••

قطعت الفيافي بالقلاص وانما | تجاب الفلى بالخف او بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعا | تسابق في البيدا ظليم النعائم
مكحلة الاحقاد فيها حشاشة | مهملجة الاطراف سود المباسم
ومعها اسود الحرب تطوي بها الفلى | يرون المنايا بعض تلك الغنائم
وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد | لنيل العلى والصبر اذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتناعلى الحدب والطوى | نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهال أغر محجل | مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم
تسربلت كردوسين من آل عامر | ومن آل ادريس الشريف بن قاسم
رجال اذا جاش الوطيس تراهم | أسود الوغى من كل ليث ضبارم
وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة | وطوعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لارض الزاب تذرف أدمعي | لتذكار أطلال الربوع الطواسم
وشبكت عشري فوق رأسي فلم اجد | بها مخبرا غير الربى والمعالم
وجاورتها ما بين هوج هجائن | رقاق الهوادي عاليات القوائم
وجزت بأرض ريغ راغت بأهلها | بيلقعة قفر قفتها عزائمي
سألت ربوع الدار فيها فلم اجد | بها معلما يأتي الي بعالم
شددت عرى للنجع من كل جانب | وصيرتها مثل الرياح الرواكم
تخيلتها مثل القطافي مسيرها | وفوق ذراها كل شهم وحازم
وحفت بين الابطال من كل جانب | يذكرها عهد الهوى بالصماصم
وجئت لوارجل وجدت مصابها | ولا مخبر غير الصلاد الاعاجم
وما زلت أطوي سهلها واكامها | وأحطمها بين الربى والهضائم
قطعت الحمادى والسراب غديرها | على هيكل عبل الذراعين هاجم
مكر بيوم الحرب لا يشتكي الوغى | مفر اذا طالت عظام الهزائم

الى أن بدا لي واد زرعون أزرقـا وبانت عليـه شاحبات الغياهـم
طرقت برأسي واستفزيت بالكـرى وكم من ليال بتها غيـر نائـم
وجديت في طلب السرايا مسربـلا بسير حثيث او سرى متـداوم
وكم من بلاد قد قطعت اكامهـا وكم نسمة جادت عليها نسائمـي
وبين ضلوعي زفرة مستكنـة يصعدها فيض الدموع السواجـم
وبتنا نسوق النجع في غيهب الدجى وخرصاتنا فيها كشهب عواتـم
الى ملل ملنا وما ملـت السرى سرايا ركاب كالقسي السواهـم
ولما بدا لي منزل القـوم ظاهـرا وحيهـم بين الظلال الغياهـم
جبذنا مجابيذ أوجدت جيادهـا وجالت كما العقبان بين القشاعـم
وضمرها جيش علـى صهواتها كرام سماح بالنفوس الكرائـم
نطارد فيها الخيل بالخيل مثلهـا فكان على الاعداء كر الهزائـم
حملنا عليهـم حملة مضريـة فولوا شرادا مثل جفـل النعائـم
فكم خلفوا ما بين بكرو بكـرة ومن غـادة ملتفة بالهدائـم
وولت سويدكم خلـت بمجيرها وشيخ حماها في الثرى أي جاثـم
وطاحت على وادي ملال هشائـم من القوم صرعى للنسور القشائـم
فكانت الى الطير القشيم فرائسـا وكانت على الاعداء شؤم الذمائـم
وهبت رياح النصر من كل جانـب وجاءت الينا مبهجـات الغنائـم
وخضراء كبود تبدت هضابهـا وهبـت رياح عاطرات النواسـم
درجنا الى درج ولاحت بشائـر بهلك الاعادي التاعسين الاشائـم
ولاح لنا فرتون فافتـرت المنـى الينا اتسامـا للثغور البواسـم
وصارت أسود الغاب تأتي مطيعـة وعادت لنا الايام مثـل المواسـم
قطعنا الثنايا والخميس مسربـل صلاصله مثل الريـاح القواصـم
وعجنا وعرجنـا على وادي يسر وجزنا المحاضر كالليـوث الضراغم
وفي يسر ألم لنـا يسرت لنـا فجددت للاوطان فيه عزائمـي
وبتنا وبات النـوم غير مساعدي واني على جد السرى جد عـازم
وسرنا ضحى والنصر يهفو أمامنـا برايات سعد فوقنا كالغمائـم
قدمنا وكان الفتح يرجو قدومنـا وكان على الاعداء شر المقـادم
وصفوا صفوفا ثم صفـت صفوفنا وسالت دموع القوم مثـل العنادم
وجالت ليوث الحرب بين صفوفهـا وخط بها الخطى بين الحلاقـم
ولاح شعاع الهند بين خميسهـا كبرق تبدى بين درج الاراقـم

علونا على الصفصيف واشتد بيننــا حروب تشيب الرأس قبـل الفطائم
كررنا عليهـــم كرة بعـــد كرة وقد شعلت للحرب نيران جاحـــم
بضرب يزيل الهام عن مستقـــره وطعن مضى بين الكلى والحيــازم
فهذا أميــر صفدته يد الوغـــى وهذا قتيل في عجـــاج المصــادم
فطوى لعبد الواد عند ازدحامهـــم لقد جدلوا في الحــرب كل مزاحم
وجالت خيول العامرية عندهـــا كأسد الثرى في موجها المتلاطـــم
وعاد شعاع الشمس في الجو أصفرا وجال ذباب السيف بين الغلاصـم
جعلنا كراديسا علــى كل ربـــوة وطالت رقاب الاسد تحت العمائـم
شددنا عليهم شدة بعد شـــدة فولوا فرارا والتجوا للمعاصـــم
وداروا بأسوار المدينـــة كلهـا كدور سوار فوق أبهى المعاصـــم
وقد برزت من خدرها كل غـادة درجن على الاسطاح درج الحمائـم
وقد عاد ذاك الجمع منهـم مكسرا بجمع لنا بين الكتائب سالـــم
فرامت مرين الصلح بعد فرارهـا وقد ظلموا عمدا ولست بظالـــم
فلا صلح حتى تضرم الحرب نارهـا وتساقط الابدان تحـــت الجماجم
وتخلى من الاعداء دار عهدتهـــا من الآنسات الناعمات الكرائـــم
دخلت تلمسان التي كنت أرتجـــي كما ذكروا في الجفر أهل الملاحـــم
فخلصت من غصابها دار ملكنـــا وطهرتها مـــن كل باغ وجـــارم
لقد اسلموها عنوة دون عـــدة لقد طلقوها بالقنا والصــــوارم
ولم يغنهم ما شيدوا من معاقـــل ولم تجدهم ما حصنوا من معاصـم
ولا كثرة الجيش اللهـام ولا الظبى ولا ما اعدوا من قسي سواهـــم
اذا لم يكن للمرء سعد مساعـــد فما يغنيـــه عد الجيوش الخضارم
نظمنا شتيت الملك بعـــد افتراقـه وكم بات نهبا شمله دون ناظـــم
شدد ناله أزرا وشدنا بنـــاءه بأوثـــق اركان وأقـــوى دعائم
فصارت ملوك الارض تأتي مطيعـة الى بابنا تبغي التماس المكـــارم
وجاءت لنا من كل أوب ووجهـــة تبايعنا طوعـــا وفود العمائـــم
أنا الملك الزابي ولست بزابـــي ولكنني مفني الطغاة الطماطـــم
فقمنا بأمر اللــه في نصر دينـــه وفي كف ما قد أحدثوا من مظالـم
فلله منا الحمد والشكر دائمــا وصلى على المختار من آل هاشـم

وخاطر ابو حمو بنفسه مرارا في طلب سلطانه ، ومدح هذه المخاطرة في كتابه وتمثل بقول امرىء القيس :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت لا تبك عينك انما ... نحاول ملكا او نموت فنعذرا

وقال مخاطبا الوزير عمر بن عبدالله :

السيف أجدر والخطي من خطب ... فيها اللجاج وقول غير منتسب
خط الكتائب لا خط الكتاب بها ... جلية الامر عند السمر والقطب
والحق فرض على الانسان مفترض ... والصدق أفضل ما أودعت في الكتب
ومن غدا السيف في كفيه عارية ... فكيف يدرك ما يرجو من الادب
فكم تحاول امرا ليس تدركه ... تخطى الطريق وكم ترمي فلم تصب
قد خنت من بعد أيمان مؤكدة ... وتلك عادتكم في سالف الحقب
وكم تجيب لداعي الغي مبتدرا ... وان دعوتك يوم الحرب لم تجب
فانصب الى الحرب ميدانا تشب له ... سود الذوائب بين الحرب والحرب
قدمت طائرك المشئوم ان له ... دلائلا ظهرت في منزل خرب
أخطأت في رأي من خابت روايته ... حتى اقتحمت الردى من غير ما سبب
تخوض بحرا ولا تخشى عواقبه ... وليس يسلك لج البحر بالنجب
عاندت ويحك من اعطاه خالقه ... ومن سما ذكره في العلم والكتب
ومن يعارض بأمر الله معترضا ... يخسر ويصبح على بحر من التعب
أيمنح المرء والقهار يمنعه ... أو يوهب الامر والوهاب لم يهب
كم غاصب قبلكم قد عاد منتهبا ... وطالب خاب والمطلوب لم يخب
من رام ادراكنا رام المحال ولا ... ينجو من السيف من قد لج في الهرب
كم رام غيركم ما رمتموه فما ... نالوه وانقلبوا في سوء منقلب
جرتم على الله في أحكامه ولقد ... قطعتم الدهر بين اللهو واللعب
هتكت سر مرين طالما ستروا ... قتلت مالهم غدرا بلا سبب
تعمدا جرأة أخليت دارهم ... ولم تدع لبني الاملاء من عقب
فلا يغرك ما قد كان من لعب ... شمر ازارك جاء الحق فارتقب
لما دعوت على بعد أجبتكم ... وقد دعونا من قرب فلم تجب
وقدنهضت بعون الله متكلا ... على الاله ومن يسأله لم يخب
بعسكر لجب ضاق الفضاء به ... كالبحر اعظم به من عسكر لجب

عرمرم زاخر فاضت مواكبــــه كأنه سحب أربت علــــى سحب
من كل ليث شجـــاع فارس بطل حامي الذمار من الاعجـام والعرب
على سوابق خيل ضمر عــــرب تزهى بحليتها كالخرد العـــرب
من أحمر عسجدي اللون مذهبـــه وأشقر كشعاع الشمـس ملتهـب
وأدهـــم متنه ليـــــل وغرته صبح فيا حسنه من منظر عجـب
وأشهب كشهاب ان رميت بـــه شيطان كل عــدو في الوغى تصب
فالحمر من فلق والشقر من شفـق والدهم من غسق والشهب من شهب
تشن غاراتها في كـــل منهلـــة فتنثني بالذي نهـــواه مـــن أرب
بها وطئنا بلادا لا سبيـل لهـــا وما أردنا تناولناه من كثـــب
حيث الهوادج والبوجـات مشرفة لاحت لمنزل رأس العين كالشهـب
وافت بنو عامر من كل ناحيــــة في خيلها العرب أو في نجعها الاشب
جاءت الى نصر حزب الله وابتدرت كالاسد تبدو عليها سورة الغضـب
ومن امـــام عبيدالله في أمـــم فاضت مواكبها بالبيـــد والشعب
كتائب ضاقت الارض الفضاء بهـا في ظل ألويـــة خفاقة العـــذب
بحر على البر مرتـــج غواربـــه من فوقه قطع الرايات كالسحــــب
ونحن نقدمهم والنصر يقدمنـــــا والارض تهتز بالفرسان والنجـــب
ثم ارتحلنـــا لتامسات مرحلـــة وكوكب الفتح قد وافـى ولم يغب
الى ثنيـــة بلـــزوز وأتـــت لمستراح أرحناها من التعـــب
ثم ارتحلنا على اســـم الله تقدمنا طلائع الفتح في أبرادها القشـــب
حتى نزلنا على دبـــدو وساحتـه جالت عساكرنا في السهل والهضب
لما بـــدا للعــدا ألا نجـاة لهـم ولا فرار وقد أشفوا على الشجـب
تضرعوا أو أتوا طوعا لخدمتنـــا بالذل والذعر خوف الهلك والعطب
وقد عفونا وان العفـــو شيمتنـــا ومن تردى رداء العفو لم يخـــب
ونال من عفونا ما كـــان يأملـه حمو بن زيان بعـــد القهر والغلب
ومن هناك لوينا نحـــو ملويـــة وكم تركنا بها من منزل خــــرب
ما كل من قاد جيش الزحف منتصر وليس يذكر غير الماجد الـــدرب
لما دعوناك من قـــرب فلـــم تجب علمت قولك بين الهـــزل واللعب
ثنيت عنك عنان العزم محتكمـــا بالرأي والحـزم لا عجزا من الطلب
لا بد من ساعة بيني وبينكـــــم تغيب شمس الضحى فيها ولم تغب
وتكسي الارض ثوبا كالعقيــق ولا تجري الجداول الا من دم سرب

والخيل جائلة والاسد ذاهلـــــة   والارض عارية من ثوبهـا القشب
هناك تجني ثمارا كنت غارسهــا   ويحكم الدهــر بالآيات والعجب
وتأخذ الثأر ممن قد دنا وقصـا   من العداة وهذا منتهى أربـــي
ثم الصلاة على المختــار من مضر   خير البرية من عجم ومن عــرب

وقال أبو حمو عند حلولـــه بتجورارين :

قف بالمنـــازل وقفة المتـــردد   ما بيـــن نأي بالطلول وموقـــد
واذا مررت على الربـــوع مسلما   فاسأل عن القلب الغريب المفـــرد
حدث بها خبر الاسى عن مدنـــف   بحلى الغرام موشح ومقلـــد
هجر السلو فما يقر قـــراره   فيظل خلـــف تأوه وتنهـــد
نزحت منازلـــه وسـط مزاره   ونأت أحبتـــه بغيـر تعمـــد
فغدا يكابـد عبرة في زفـــرة   للبين بيـــن مصـــوب ومصعـد
يا سائق الاظعان هل لـــي بعدهم   من منجد في حبهم أو مسعـــد
ركبوا بدورا في الخـدور وأدلجوا   فسألت توديعا فقلن الى غـــد
فغرقت في دمعي وما يغنـــي البكا   ضنوا بتوديع فكيف بموعـــد
لو كان لي يوم الفـــراق تخيـــر   لفديت ظعنهم بما ملكت يـــدي
تركوا المنازل بلقعا وترحلـــوا   فغدت معاهدها كأن لم تعهـــد
سحبت عليها الرامسات ذيولهـــا   من شمأل‌وصبا تروح وتغتـــدي
وتعوضت بالاثل بيـــن عراصهـا   من بعد ذاك الزهر والـورد الندي
ومن الاوانس بالرياض نواعمـــا   بالوحش يرتع في خـــلاء فدفـد
من بعد طـــول تنعم ونضـــارة   للعيش فيها بالحســـان الخرد
وعناء غانيـــة سبت بجمالهـــا   تزهى بثـــوب معلـــم ومـورد
الشعر ليل فوق صبـــح جبينهـا   يحمي لعقرب صدغها بمجعـــد
ولحاظهـــن صوارم مسلولـــة   فتكت بألباب ولمـــا تغمـــد
ومباسم كالاقحـــوان تخالهـــا   درا بسمط في العقيـــق منضد
ولـكم ظفرنا بالرضى مـــن دهرنا   وأتت لنا الدنيا بوقت مسعـــد
نجني المنى وبنو الزمـــان عبيدنا   والسعد يدني ما لنا مـــن مقصد
لا نختشي في الحي رقبـة عـــاذل   كلا ولا نصغي لقول مفنـــد
نلنا الذي شئنا بدهر طائـــل   من أنعم دامت برغـم الحســد
حتى اذا شهر الزمـــان سلاحـه   بيد العـــدا من أسمر ومهنـــد

ورمى سهاما للفراق كأنما ... كانت لشت جميعنا بالمرصد
وأرى بروق القضب في ليل الوغى ... ذهبت بأبصار العلا والسؤدد
والخيل تعثر في طلى صرعائها ... ما بين مضطجع وبين موسد
من كل اشهب كالشهاب تخاله ... أو أدهم مثل الغراب الاسود
أو أحمر كالورد لون أديمه ... أو أشقر متخلل بالعسجد
أو أصفر منهن ممشوق في ... حسن معارفه كخط باليد
أو أبلق حسن الحجال مدنره ... ومدرهم ومقصد ومحدد
أو أشقر أصدى فسحرة لونه ... سحر وغرة وجهه كالفرقد
وفوارس من فوقهن عوابس ... بسلاحها من أبتر أو أملد
فكأنهم أسد الشرى في غابها ... والسيف قرع زناده لم يصلد
فيجول بين جماجم وغلاصم ... ويقد كل مدرع ومحدد
ومقانب من خلفهن عساكر ... طافت بنا من كل شهم امجد
من عامري ضيغم يوم الوغى ... أو معقلي بهمة لم يرفد
وزناتة من خلفنا وأمامنا ... من كل ليث في الحروب ممجد
وطبولنا زأرت كأسد في الوغى ... وبنودنا خفقت بنصر منجد
واصطفت الجمعان واحتدم الوغى ... لكنها حبثت بسعي المرد
وجرت غشائم خاربين لحربنا ... من كافري نعمائنا أو جحد
حتى تفرق جمعهم وتشتتوا ... بسعاة كل مضلل أو مفسد
فالبعض منهم قد انزوى لعدونا ... والبعض فروا كالنعام الشرد
نقضوا العهود وخلفوني في الوغى ... بين الاعادي كالغريب المفرد
كفروا بأنعمنا وخانوا عهودنا ... وأتوا من الخذلان ما لم يعهد
فهناك فرسان العدا طافت بنا ... من كل طاغ في الوغى او معتد
فنضيتها صمصامة رومية ... وهززت منها منتهى ضرب اليد
أوردتها علق النجيع من العدا ... نهلا وما رويت بذاك المورد
فلكم كررت عليهم من كرة ... بمشطب ومثقف ومهند
من فوق ضامرة الحشا وحشية ... جرداء حجر نعالها كالجلمد
فكأنها برق يلوح لشائم ... وكأنها نجم يلوح لمهتد
من خلفنا النجل الرضى متسربل ... شهم اللقا فمثله لم يولد
فكأنه في الخيل ليث عابس ... يسقي الفوارس في الوغى كأساردي
واذا تثنى نحو العداة فكم له ... من فارس فوق التراب موسد

من فوق أشهب ضامر حسن الحلى فكأنه ريـــح تروح وتغتـــدي
دارت بنا الاعدا فصرنا بينهـــم كالدرة البيضـا بليـــل أسـود
اثنان كـــان الله ثالثنا بهـــا ولكم له عند الشدائد من يـــد
ولكم عفـا ولكم أنـــال تفضلا والله ربي ناصري ومؤيـــدي
يا رب كم آنستني في غربتـــي ! يا رب كم فرجت كـرب المكمـد !
يا رب فاجبر ما ترى من حالتـــي يا رب واجبر قلب كـل موحـــد
يا نفس لا تيأس وان طال المـــدى فالله يجمع شمل كل مبعـــد
ستعـــود ايام السرور وطيبهـــا وتعـــود عن قرب ليالي الأسعـد
يا رب بالبيت العتيق وأهلـــــه وبجـــاه يثرب والنبـــي محمد
فرج بحقك كربتـــي يا موئلـــي وبحق فضلك لا تخيب مقصـــدي
ثم الصـلاة على النبي محمـــــد ما غردت ورق بغصن أملـــــد

قدم على باب الخليفة محمد السبيع بن موسى بن ابراهيم اليرنياتي وهو من خواص خدمة القطر الشقيق طريد خوف • فمدحه بقصيـــدة طويلة اولها :

تطاول ليلـــي فاستفز منامـــي وطـال سهادي فاستطـال سقامي
وحرم سبعا ليس للنفس بعدهـا مقام فطيب العيش جد حرامـــي
منامي وعقلي والفؤاد وسلوتـــي وصبري ولبي والتذاذ طعامـــي

فأجابه أبو حمو بقوله :

تذكرت أطلال الربوع الطواسـم وما قد مضى من عهدها المتقـادم
وقفت بها من بعد بعد أنيسهـــا بصبر مناف أو بشوق مـــلازم
أهيم بمغناهم وأندب ربعهـــم وأي فؤاد بعدهـــم غير هائـم
فلا تندب الاطلال واسأل عن الهوى ولا تغل في تذكار تلك المعالـــم
فان الهوى لا يستفز ذوي النهـــى ولا يستبي الا ضعيف العزائـــم
وكل فتى أعطى الغـــرام قياده وبات على ضيم فليس بحـــازم
وما فاز بالعليا سوى كل ماجـــد مشمر ساق العز ماضي العزائـــم
صبور على البلوى طهور من الهوى قريب من التقوى بعيد المآثـــم
ومن يبغ ادراك المعالي ونيلهـــا يساو بحلو الشهد مر العلاقـــم
ولائمة لما ركبنا الى العلـــى بحار الردى في لجها المتلاطـــم

تقول باشفاق أتنسى هوى الدمى ... وتنثر درا من دموع سواجم
اليك فانا لا ترد اعتزامنا ... مقالة باك أو ملامة لائم
ألم تدر ان اللوم لؤم واننا ... لنجتنب اللؤم اجتناب المحارم
فما بسوى العلياء همنا جلالة ... اذا هام قوم بالحسان النواعم
بروق السيوف المشرفيات والقنا ... أحب الينا من بروق المباسم
وأحسن من قد الفتاة وخدها ... قدود العوالي أو خدود الصوارم
وأما صهيل السابحات لدى الوغى ... فأشجى لدينا من غناء الحمائم
نقود الى الهيجاء كل مضمر ... ونقدم اقدام الاسود الضراغم
وما كل من قاد الجيوش الى العدى ... يعود الى اوطانه بالغنائم
وننصر مظلوما ونمنع ظالما ... اذا شيك مظلوم بشوكة ظالم
ويأوي الينا المستجير ويلتجي ... فيحميه منا كل ليث ضبارم
ألم تر اذ جاء السبيع مقاصدا ... الى بابنا يبغي التماس المكارم
وذلك مما أن جفاه مصاحب ... وكل خليل وده غير دائم
وأزمع ارسالا الينا رسالة ... بود جديد واجب غير واجم
وكان رأى ان المهامة بيننا ... فخلى لذات الخف ذات المناسم
وقال : ألا هل من عليم مجرب ... أبث له ما تحت طي الحيازم
فيبلغ عني الآن خير رسالة ... الى خير اعلام الملوك الاعاظم
على ناقة وجناء كالحرف ضامر ... تخيرها بين القلاص الرواسم
من اللاء يظلمن الظليم اذا عدا ... ويشبهنه في جيده والقوائم
فقالوا : فحملها الحمائم • قال : لا ... لبعد المدى او خوف صيد الحمائم
وما القصد الا في الوصول بسرعة ... فقالوا : فحملها أكف النواسم
فقال : لنعم المرسلات وانما ... لها ألسن مشهورة بالنمائم
وكتبي زهر في كمائم طرسه ... وبالريح يفشى سر زهر الكمائم
فلم يلف فيها للامانة موضعا ... وكل امرىء للسر ليس بكاتم
فحينئذ وافى الينا بنفسه ... فكان لدينا خير واف وقادم
على سلهب ذي صهوتين مطهم ... من الصافنات المقربات الصلادم
اذا شاء أي الوحش ادركه به ... فتحسبه في البيد بعض النعائم
يجوب لنا البيداء طوعا وبشرنا ... يضيء له الظلماء من كل عائم
ويقدمه حبا الينا رجاؤه ... حمايتنا اياه من كل ظالم
ألا أيها الآتي لظل جنابنا ... نزلت برحب في عراض المكارم

وقوبلت منا الذي أنت أهلـــه ... وفاض عليك الجود فيض الغمائم
كذا دأبنا للقاصديـن محلنـا ... حمى وندى ينسى به جـود حاتم
ونحن ذوو التيجان من آل هاشـم ... لعمرك ما التيجان غيـر العمائـم
بهمتنا العليا سمونا الى العلـى ... وكم دون ادراك العلى من ملاحـم
نظمنا شتيت الملك بعد افتراقـه ... وكم بات نهبا شمله فوق ناظـم
شددنـا له ازرا وشدنا بنـاءه ... بأوثق اركـان واقوى دعائـم
مناقـب زيانيـة موسويـة ... يذل لها عز الملـوك القماقـم
فلله منا الحمد والشكر دائمـا ... وصلى على المختـار من آل هاشـم
ويختصكم منا السـلام الأثير ما ... تضاحك روض عن بكاء الغمائـم

وهذه القصائد كلها فخر وحماسة تدل على شاعرية فياضة • وتوفي ابوه الموالي ابو يعقوب بمدينة الجزائر • فحملت جنازته الى تلمسان الكريمة واحتفل الامام ومشى فيها راجلا ودفنه برياض كانت بباب ايلان ورثاه بقوله :

دنف تذكـر حسرة التوديـع ... وهي وصـل بالنوى مقطـوع
ولما عرا من فقـد خير أحبتـي ... ومـرارة التوديع والتشييـع
فبكيت من أسف لذاك كما بكـت ... حزنا عليـه منازلي وربوعـي
وجزعت من ألم الفراق ولم أكـن ... يوم الكريهة في الوغـى بجزوع
ولم تنصف الايـام حر فراقـه ... لكنه قـد أنصفته دموعـي
عجبا لأجفاني سخت بدموعهـا ... والقلب محترق بنـار ضلوعـي
هذي تجـود وذا يشح بنـاره ... فعنيت بالممنـوح والممنـوع
والبين فوق سهمه ورمى بـه ... عمدا الى قلب الشجي الموجـوع
آه لوصل قطعته يد النـوى ... ولحسرة الموصول والمقطـوع
الدهر افجعني وغير باطنـي ... حتى أضر بقلبـي المفجـوع
فعدمت سلواني وبـان تصبري ... وفقـدت خلاني فزاد نزوعـي
ولكم خشيت الفقد قبل وقوعـه ... ولكم حذرت مرارة التوديـع
يا مسعدي أبصرت ما فعل النـوى ... بكريم قوم في التراب صريـع
في طي لحد بالثرى فكأنـه ... ما كـان في عز وفي ترفيـع
والقصر أمسى ماحلا من بعـده ... ومنازل تزهى بكـل صنيـع
ونمارق مصفوفـة قد زينـت ... من درها المنظـوم بالترصيـع

ومقاصر لم يبن قط مثالهـــا — من قبل للمأمــون والمخلــوع
والاسد تخضع والملوك تهابـــه — فلكم له مـــن سامع ومطيـــع
ولكم تزاحفت الكتائب خلفــه — فيروع بأسا وهو غيــر مروع
ولكم عساكر قادها يوم الوغـى — من كل صنديد بكـل نجـوع
من خير قوم من أجل عشيـــرة — وأعز منتسب اليـــه رفيـع
سبط الحسين ابن البتول وجـده — خير الانام أجل كل شفيـــع
من كان هذا اصله او فصلـــه — فــاه العلى في منزل الترفيـع
قد حاز أشتات المحاسن كلهـــا — فاعجب لحسن ثنائـــه المجموع
جود ومجد والشجاعة والنـوى — والجود في طبع لـــه مطبــوع
فبكفــه بأس وفيــه رحمـــة — قسمـــان بين معاند ومطيـــع
عدل اذا يقضي وغيث ان يجـــد — وحسامــه نار لكـــل قريـــع
قد كان كهفـــا للانام وعـــدة — وحمى لمن يرجـــوه جد منيـع
حتى دنا منه الحمام فصابـــه — سهم الردى وانبث كـــل جميـع
ترك الجميع وصار عن أحبابـــه — لم يغن ما قد ضم من مجمـــوع
لو كان يعرض للفداء فديتـــه — بالدر بعسجـــد مطبـــوع
وبما ملكت وناظري وحشاشتـــي — ومهجتي وبقلبي المصـــدوع
قد كان منـــه لنا أبا ذا رأفـــة — كنـــا له بالبر جـــد مطيـــع
حتى رمى الدهر المشيت بسهمـــه — في شملنـــا المنظوم والمجمـــوع
فاحذر زمانـــك لا يغرك انـــه — في شهـــده يأتي بكل فظيـــع
وكذلك الدنيـــا فلا تأمن لهـــا — فلكم تغر بوصلهـــا المقطـــوع
ولكم غدا في أسرها من ماجـــد — ولكم لها من ضيغـــم مصروع
أين الملوك وأين ما قـــد جمعـوا — من كل ذخر في الحياة رفيـــع
ساروا فلم تسمع لهم خبرا ولـــم — تر منهـــم أثرا يلـــوح بريـــع
وأبادهم صرف الزمان وخلفـــوا — ما جمعوا مـــن جنـــة وزروع
لم يبق منها غير فعـــل صالـــح — يملا الصحيفة ، أو ثنا مسمـــوع
أو حب خير المرسلين محمـــد — شرف البريـــة درة الترصيـــع
صلى عليه الله ما لاح الضيـــا — أو حطت الركبان بالينبـــوع
ثم السلام عليه من مستعصـــم — بحماه غير حمى بخير شفيـــع
موسى بن يوسف مرتجيه في غـد — للفوز من هول كـــذاك فظيـع

في القصيدة تفجع أليم ولوعة صادقة • وليس بطبعه ان يبكي فكان له نفس كبيرة لا يهون على الاهوال ان تؤثر فيها ومع ذلك تصاعدت منها زفرات وانحدرت دموع •

وبلاط ابي حمو موسى كان زاخرا بالعلماء والادباء يمدحونه في كل مناسبة • لما فتحت جيوشه « تدلس » جاء أعيانها الى تلمسان يوم ٩ رمضان سنة ٧٧٦ ﻫ (١٣ شباط ١٣٧٥ م) يبايعونه • فهنأه حينئذ الكاتب أبو الفضل بن الشيخ أبي عبدالله محمد بن علي العصامي احد كتاب الانشاء بقوله :

بشرى كمنبلج الصباح المسفر أو كالصبا جاءت بريا العنبر
حياك عاطر نشرها فكأنها دارين أهدت طيب مسك أزفر
جاءتك تخبر بالفتوح كريمة أكرم بها من قادم ومبشر
وافت بفتح بدا متهللا فاهنأ بملك بالفتوح مؤزر
فتدلس تقضي بفتح بجاية فانهض بعزك أو بسعدك تظفر
واكرع بواديها وجل ببديعها وربيعها الزاهي بذاك المنظر
وافرع معاقلها وجس بخلالها فالله يمنحها بأمر أيسر
لا زلت ذا سعد جديد ترتقي أوج الكمال على توالي الاعصر
وبقيت في العز المكين مؤيدا مهما سرت نفحات روض مزهر

ورفع أيضا في ذلك احد الكتاب وهو محمد بن علي بن قاسم المرسي قصيدة منها :

مولى الملوك وواحد الخلفاء ومقر كل مجادة وعلاء

ولما دخل ابو حمو الى تلمسان بعد حركة قام بها ، أنشده محمد بن صالح شقرون احد كتاب دولته الكريمة هذه القصيدة :

حدث عن الملك المنصور ما شيتا تجد ألذ حديث يشبه القوتا
ودع غرائب فتح كلها عجب غدا النظام بها درا وياقوتا
واقرع بها كل اذن فهي واعية فقد أذاعت في العالم الصيتا
اقطع بحسبك قطعا دون ما ريب فانه ملك ما شاءه يوتى

ولا يريبــك شك أن نصرتــه   من السماء وما ينفــك مبخوتا
لا يستطيع عـدو قرب ساحتـه   من رماه بعنـاد عاد مكبوتـا
جرت على أفقه الاقـدار حامية   له فـزاد بها عـزا وتثبيتـا
كم قائد بطـل ردت كتائبـه   خلفته بطعان الرمـح منكوتـا
تنبيك همتـه عن سر مدتـه   فمن رآه بديهـا عاد مبهوتـا
لا تستفز بـه الاهواء جملتهـا   ولا الرقي لا ولا أسحارهـا روتـا
مواقف الحرب لا تعدو أوامـره   ان قال : كفي ، لم تبد تعنيتـا
وان أشار بافـراء لها فصمـت   ظهر العـدو ونالت منـه تشتيتا
انظر اشارته في الغرب ما صنعت   لما أتاهم ثنوا نحـو العرى ليتـا
وأصبحوا شردا في البيد قد جفلوا   مثل الظليـم غدا بالحبل مسؤتـا
واسلموا جزعا للحيـن جامعهـم   وخلفوه حليـف الذعر مفليتـا
ونافر البعض بعضا بعد ألفتهـم   حتى لقد خلت ذا ضبا وذا حوتـا
وعاد ما جمعوا أيدي سبا بـددا   بضعف رأي وقد جـاء وامصاليتا
لو أنهم سئلوا عن اصل جفلتهـم   لقال أثبتهم خلـت العفاريتـا
قل للاعارب والاعـداء جاءكـم   حامي الذمار فربع الموت مبغوتـا
دينوا ببيعة موسى دون ما نكـر   فانه سيف ملك جـاء اصليتـا
لا يرفع السيف عنكم غير طاعتـه   فاستمثلوا أمره لا تبدوا جبروتـا
كم منه نلتم من جـود راحتـه   اذ كان أعظمكم عارا ومسنوتـا
أمدكم بنعيـم من مواهبـه   ومد أيديكم خيـرا وسبروتـا
فما رضيتم سوى كفران نعمتـه   تبا لكم جئتـم نكرا وتبهيتـا
سيخلع السيف منكـم طوق منته   وذاك أجدر بالكفـار تثميتـا
لا غرو ان الامام العـدل يرهفكم   على البديهة ايجافـا وتبييتـا
وذاك فرض علينا كالصلاة فقـد   مضى عليكم كتـاب كان موقوتا
من ينصر الله ينصر في بريتـه   ومن به يعتصم لم يلف مكبوتـا
من ذا كموسى أمير المسلميـن   اذا تدعى نزال ويغدو الشهم هريتا
ودارت الحرب دورا كالرحى وسطت   على بنيهـا ولما تدع تربيتـا
هناك تعرفـه عرفان منتقـد   تحت االعجاجة يستقري الطواغيتـا
ورمحه كشهـاب أثر مستـرق   يردي العداة به صميا وتصميتـا
يدير في أدهـم الهيجاء أدهمـه   كر الحماية قد أبدى المخافيتـا
مولى أعاد رسوم الملك ظاهـرة   بعد الدثور وقد لم الاشاتيتـا

وأمسد الحبل منهم يمن طلعتــــه انما كان من قبل واهي المسد مبتوتا
ورد من عدم قوما الـــى نعـم وانهال من كرم لا يختشي ليتــا
فرض على كل عبد الواد طاعتـــه ومن سواه يروم الملك ملفوتــا
لولاه لم تعـرف الاعداء معانـدة ولا أقاموا ولو كان ابن صابوتــا
فان يكن جده دينا يبوء بـــه فجامـــع الكل زيـــان لماشيتـا
وفضل موسى علـــى كل بسؤدده فقد أتى في بني زيـان منعوتــا
به استقام اساس الملك دون مــرا ومن به الملك يسمو راح كبريتــا
مولاي اليك بقيت الدهر في دعـة من نظم ذي لسن ما زال سكيتــا
لا زلت في نعم شتى مجـــددة لا تدع في عــرض الا ولبيتــا
مني عليك ســلام نشره عطــر ما حمل الله جــرم الارض بهموتا

ومن نثر يحيى بن خلدون الفني قوله في أبي حمو :

اشتمل هذا الخليفة ، أيده الله ، من خلال الكمال ، وكمال الخلال ، على آي لا تحصى ، وانفرد من عوالي المعالي والمعالي العوالي بالمطمــح الاقصى ، عيص ريحاني الشجار ، وخلق طالبي النجار ، وخلق للمحاسن في آيات فرقانه آي اشتجار ، فما شئت من شرف ملتف الوشيج ، وديــن سابري النسيج ، وفضل على أئمة الامة ليس بالمريج ، فالمعارف واضحة البرهان ، والمفاخر مسلم لجيادها السبق في يوم الرهان ، والسراوة معلمة البرد ، والمجادة محكمة السرد ، المعالي تقاصر عن حسبانها مدارك الزوج والفرد ، الى النائل ، والحلم الواضح الدلائل ، العدل المتفيئة ظلالــه عن اليمين والشمائل ، في حزم ماضي الشباة ، ودهاء يشرق نور سياسة منه بالمشكاة ، مع الجنان العطوف ، والهمة الغروف ، والفضل المشهـور المعروف ، فالاصابة خصل ، والقضاء فصل ، والمستخدم يراعة أو نصل ، قلت :

خلال نمتهـــا للكمال عصابـــة فمنهم وصـــي طاهر وبتـــول
ترنح عطفا اذ ذكــرت علتـــي وليس سوى حب الفخـار شمول
صفوح على الجاني كظـــوم لغيظه فؤول لما شاء الكمـــال فعـول
عطوف على الراجي رؤوف بقومــه فصول لاجل اللـــه فيه وصــول

نهوض لكسب الحمد ينظم شمله وقور اذا هول الخطوب مهول
غمام اذا أعطى ، همام اذا سطا فلا صعب الا في يديه ذلول
مراقى سناء دونه الاوج رفعه ومرمى غلاء ما اليه وصول
ولا عيب الا ان عصب مضائه لتشديخ هام الخطيب فيه فلول

فلمقامه الكريم مثل المحامد الاعلى ، ولسلطانه الشريف حيز قدح المفاخر المعلى ، وفي فرات اخلاقه تكرع ظمأ المعالي نهلا وعلا ، ولتداول بشره واعتراضه تقرأ « والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى » فان سفر فالقمر ليلة تمامه أو التثم فذكاء من وراء غمامه ، أو ركب فالعسكر اللجب مهابة وجلالا ، أو مشى فالروض المعجب نضارة وجمالا ، ويقتعد سرير الخلافة فكأنما هو الضرغام ، ويقضي بكتاب الله وسنة رسوله فتمضي بفصل خطابه الاحكام ، لايرسل سوى مرضاة الله سهما ، ولا يقطع الا في السياسة والنفاسة يقظة ولا حلما ، قد نبذ الرياض المزهرات ، والقصور المحبرات ، اكتفاء بالبيض الصفاح ، بن بيض هاتيك الصباح ، وبالسمر الردينيات الرماح عن سمر مقصورات الفصاح ، وبصهوات العراب المسروجة ، عن نمارق الارائك المنسوجة ، وبمطلق الصهيل والصليل ، عن نغمات المثالث والمثاني في البكرة والاصيل ، وبمثار السنابك من العثير ، عن دخان المندل والعنبر العبير ، وبعرف الاذخر والجليل ، من شذا رياحينها الجليل .

له الله من ذي همة همة العلى فليس له سعي على الحرب زائد
كأن عداه اذا تحسس بيأسه قطا قد أثارتها صقور صوائد

فاقتاد بزمام مهابته الدنيا الحرون ، ودمث بسنابك آرائه حوادثها الحزون ، وعلم بصحة تجاربه ما يكون فيها قبل أن يكون ، وهو كما قال جده على ابن أبي طالب لابن عمه عبدالله بن العباس رضي الله تعالى عنهم: لله أنت من رجل فلقد تنظر الى غيب من ستر رقيق فليقظة حربه نام عمر الحروب ، وبصرامة اقدامه تجلت عن معدي كرب غمرات الكروب ، فمن زيد الخيل ، وأين عامر بن الطفيل ، وما ابن المكدم وأيده ، وعمر بن العاص

وكيده ، كلا ان هي الا الشجاعة العلوية ، تعضدها عناية الله العلوية ، وليوم سلمه خلق الرخاء ، والجود والسخاء ، والبأو في العرب والانتخاء ، ثم الحلم والاغضاء ، والطاعة لله ورسوله والارضاء ، فمن الاحنف يومئذ أو اياس ، ومن السموأل بن عاديا بالقبض على ذلك الرئاس ، وأين ابن مامة حاتم طي عند القياس .

لا تنكروا ضربي له من دونه   مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

وله ، أيده الله ، نظم ارتفعت طبقته من شعر الملوك ، وسياسة تكفل بتعريف فضلها تأليفه المسمى بنظم السلوك ، وعلم جلا نوره عن الدنيا مدلهمات الحلوك ، وخضوع الى الله لا تطمس معالم نهجه المسلوك ، واختصه الذي يزيد في الخلق ما يشاء بأحلام كأنما هي فلق الصباح ، والمعية تزري في مشكاة حجره بضوء المصباح ورأي بحط عصم الاهواء من معاقل ابائها الى صعيد الاستفتاح » .

نعم كان هذا الملك الشاعر كريم الاخلاق يتبرع في كل سنة على اهل الاندلس بالمال والخيل والزرع ، ويرى ذلك من الجهاد في سبيل الله تحريرا لارض الاندلس ، مسقط رأسه ، من أزمة الاسبان . وكانت له مواقف مشرفة في انقاذ اهل الاندلس من الهلاك فقد وجه اليهم سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) خمسين الف قدح من الزرع .

ومن مقطوعات لسان الدين بن الخطيب البديعة في مخاطبة موسى قوله يشكره على ما كان أعان اهل بلده :

لقد زار الجزيرة منك بحر   يمد فليس تعرف منه جزرا
أعدت لها بعهدك عهد موسى   سميك فهي تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كنزا   ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وقوله :

وقالوا الجزيرة قد صوحت   فقلت : غمام الندى تنتظر
اذا وكفت كف موسى بها   غماما يعود الجناب الخضر

وعصر أبي حمو الثاني كان عصر رخاء وتقدم في وقته نفقت سوق العلم والادب وصنعت الساعة المشهورة بالمنجانة • قد صنعها ابن الفعام ووصفها يحيى بن خلدون في « بغية الرواد » والتنسي في « نظم الـدرر والعقيان » •

وقد بكته رعيته عندما شاع خبر قتله غرة ذي الحجة سنة ٧٩١ ﻫ (٢١ تشرين الثاني ١٣٨٩) رحمه الله !

ابو زيان محمد الثاني

هو أبو زيان محمد الثاني بن السلطان أبي حمو موسى الثاني • اعتقله ابو العباس احمد المريني بفاس ثم اطلق اعتقاله ولده ابو فارس لما تولى مكانه ومكنه من العودة الى تلمسان ليقوم فيها بدعوة بني مرين • فذهب ابو زيان وجلس على عرش أجداده غرة ربيع الثانـي ٧٩٦ ﻫ (شباط ١٣٩٤ م) • وأول ما قام به أبو زيان هو مقاتلة ابي الحجـاج يوسف بن ابي حمو الثاني واجلاؤه من تلمسان ولم يطمئن حتى أتي لـه برأسه •

كان أبو زيان ميالا الى العلم والادب يحسن الشعر والنثر • وهذه القصيدة التي قالها في برقوق سلطان مصر وأرسلها اليه مشفوعة بهديـة جميلة تعطيك فكرة من شعره :

لمن الركائب سرهن لاذ ميـل — والصبر الا بعدهـن جميـل
يا أيها الحادي رويدك انهـا — ظعن يميل القلب حيـث تميـل
رفقا بمن حملتـه فوق ظهورهـا — فالحسن فوق ظهورها محمـول
لله آيـة انجـم شفافـة — تنجـاب عنها للظـلام سدول
شهب بآفاق الصدور طلوعهـا — ولها بأستـار الجدول أفـول
في الهـودج المزرور منها عـادة — تزع الدجـى بجبينها فيحـول
فكأنها قمر على غصن علـى — متني كثيب والكثيـب مهيل
ثارت مطاياها فثار بي الهـوى — واعتـاد قلبي زفرة وغليـل

أومت لتوديعي فغالب عبرتي   نظر تخالسه العيون كليل
دمع أغيض منه خوف رقيبها   طورا ويغلبني الاسى فيسيل
ويح المحب وضت به عبراته   فكأنها قال عليه وقيل
صان الهوى وجفونه يوم النوى   لمصون جوهر دمعهن تذيل
وتهابه أسد الثرى في خيسها   ويروعه ظبي الحمى المكحول
تأتي النفوس الضيم الا في الهوى   فالحر عبد والعزيز ذليل
يا بانة الوادي ويا اهل الحمى   أرتاح شوقا للحمى وأميل
ما لي اذا هب النسيم من الحمى   هل ساعة تصغين لي فأقول
خلوا الصبا يخلص الي نسيمها   ان الصبا لصبابتي تعليل
ما لي امنع عن ورود محله   وازاد عنه ، وورده منهول
والباب ليس بمرتج عن مرتج   والظن من المولى الجميل جميل

وبعد ذكر أشواقه وحنينه الى زيارة البقاع المقدسة في خمسة عشر بيتا يتخلص الى ممدوحة فيقول .

وعن المليك ابي سعيد فلتنب   فلكم له نحو الرسول رسول
متحمل لله كسوة بيته   يا حبذاك المحمل المحمول
سعد المليك أبي سعيد أنه   سيف على اعدائه مسلول
ملك يحج المغرب الاقصى به   فلهم به نحو الرسول وصول
ملك به نام الانام وامنت   والفضل جم والعطاء جزيل
فالملك ضخم والجناب مؤمل   سبل المخاف فلا يخاف سبيل
والصنع اجمل والفخار مؤثل   والمجد اكمل والوفاء أصيل
يا مالك البحرين بلغت المنى   قد عاد مصر على العراق يصول
يا خادم الحرمين حق لك الهنا   فعليك من روح الاله قبول
يا متحفي ومفاتحي برسالة   سلسالة يزهى بها الترسيل
أهديتها حسناء بكر اما لها   غيري ، وان كثر الرجال ، كفيل
ضاء المداد من الوداد بصحفها   حتى اضمحل عبوسه المجبول
جمعت وحاملها بحضرتنا كما   هي للاخاء المرتضى تكميل
وتأكدت بهدية ودية   جمعت بثينة في الهوى وجميل
أطلعت فيها للقسي أهلة   يرتد عنها الطرف وهو كليل
وحسام نصر زاهيا بنضارة   راق العيون فريده المعسول

ماضي الشبا لمصابه تعنو الظبـــا فيه تصول على العدا وتطـــول
وبدائع الحلل البيانيـــة التـــي روى معاطفهـا بمصر النيـــل
فأحلت فيها ناظري فرأيتهـــا تحفا يجول الحسن حيث تجـول
جلت محاسنها فأهوى نحوهـــا بفم القبول اللثم والتقبيـــل
يا مسعدي وأخي العزيز ومنجـدي ومن القلوب الى هـواه تميـل
ان كان وسم الود منك مذيـــلا بالبر وهـــو بذيله موصـــول
فنظيره عندي وليس يضيـــره بمعارض وهـــم ولا تخييـــل
ود (يزيد) و (ثابت) شهدا بـــه و « لخالـــد » بخلوده تذييـــل
واليكها تنبيك صدق مودتـــي صح الدلديل ووافق المدلـــول
فاذا بذلك المجلس السامي سمـت فلديك اقبـــال لها وقبـــول
دام الوداد على البعاد موصـــلا بين القلوب وحبله موصـــول
وبقيت في نعم لديك مزيدهـــا وعليك يضفو ظلها المســـدول

فقد اعتنى هذا السلطان بالتأليف . فخلف كتابا في علم النفس سماه « الاشارة في الحكم بين النفس المطمئنةوالنفس الأمارة » ولكننا لم نظفر به الآن .

ونشط أبو زيان العلم وأهله كأبيه . فزخرت المدارس والمساجـد بالعلماء والادباء ، وكثر التأليف والتصنيف .

أما بنو مرين فلم يروا بعين الرضى تربعه على عرش اجداده وتنكروا له ، فأغروا به أخاه محمدا عبدالله بن أبي حمو . فغزا العاصمة واحتلها بمساعدة الجند المريني ، وذلك غرة القرن التاسع عشر الهجري (١٣٩٨ م) فأرغم هكذا أبو زيان ان يتخلى عن العرش ، وان يغادر عاصمته ، وبقي يتنقل في البلاد بين احياء العرب الى ان قتل رحمه الله ، سنـة ٨٠٥ ﻫ (١٣٠٢ م) .

محمد بن يوسف الثغري

ومن الشخصيات التي اشتهرت في القرن الثامن بتلمسان شخصية ابي عبدالله محمد بن يوسف القيسي المعروف بالثغري التلمساني . أتقن الادب ورزق حظا وافرا من الشعر فبرز فيه . فقال فيه المازوني في نوازله : « هو الشيخ الفقيه الامام العالم العلامة الاديب الأريب الكاتب » . ووصفه المقري في نفح الطيب « بالكاتب العلامة الناظم الناثر » .

وكانت تلمسان وقتئذ تنافس فاس وتونس في الملك وفيما يستلزم هذا الملك من الحياة الاجتماعية والعلمية والادبية . فقرب بنو زيان اليهم العلماء والادباء ، وشجعوهم مغدقين عليهم جوائزهم . وكان لهذا أثر في ازدهار الادب والشعر في العاصمة الزيانية .

وكان شعر الثغري صورة لهذه البيئة الاجتماعية الادبية التي نشأ فيها وعاش في ظلالها . اتصل ببني زيان وعاش في ظلهم الوارف . اتخذوه كاتبا وشاعرا فمدحهم بقصائد رائعة سنوافيك بها . وكان السلطان ابو حمو الذي اعزه واصطفاه يحتفل بليلة المولد النبوي كجميع ملوك المغرب وقد أشرنا الى ذلك . فكان شاعره الثغري ينظم القصائد الطوال بمناسبة الاحتفال بهذه الليلة المباركة ويلقيها بنفسه .

اليك مقطوعة من قصيدة أنشدها ليلة المولد سنة ٧١٧ هـ (٩ تشرين الاول ١٣٦٩ م) .

قال :

أقصر فان نذير الشيب وافاني ... وانكرتني الغواني بعد عرفان
وقد تماديت في غي بلا رشد ... والنفس تأمرني والشيب ينهاني
كم من خطا في الخطايا قد خطوت ولم ... تراقب الله في سر واعلان
فلا تغرنك الدنيا بزخرفها ... فيا ندامة من يغتر بالفاني

ان البلد الذي عاش فيه الثغري وأحبه هو من اجمل البلدان . فان بهاء طبيعته سحر بصره وولد فيه حب الجمال وسعة الخيال ، ويدلنا على هذا قوله في القصيدة التالية التي رفعها الى صاحب العرش ابي حمو موسى :

أيها الحافظون عهد الوداد … جددوا انسنا بباب الجياد
وصلوها أصائلا بليال … كلآل نظمن في الاجياد
في رياض متضدات المجاني … بين تلك الربى وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المباني … باديات السنى كشهب بوادي
رق فيها النسيم مثل نسيبي … وصفا النهر مثل صفو ودادي
وزها الزهر والغصون تثنت … وتغنت عليه ورق شوادي
وانبرى كل جدول كحسام … عاري الغمد سندسي النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه … أحرفا سطرت بغير مداد
تذكر الوشم في معاصم خود … قضب فوقه ذوات امتداد
وكؤوس المنى تدار علينا … بجنى عفة ونقل اعتقاد
واصفرار الاصيل فيها مدام … وصفير الطيور نغمة شادي
كم غدونا بها لأنس ورحنا … جادها رائح من المزن غادي
ولكم روحة على الدوح كادت … ان تريح الصبا لنا وهو غادي
رقت الشمس في عشاياه حتى … أحدثت منه رقة في الجماد
جددت بالغروب شجو غريب … هاجه الشوق بعد طول البعاد
يا حيا المزن حيها من بلاد … غرس الحب غرسها في فؤادي
وتعاهد معاهد الانس منها … وعهود الصبا بصوب العهاد
حيث مغنى الهوى وملهى الغواني … ومراد المنى ونيل المراد
ومقر العلا ومرقى الاماني … ومجر القنا ومجرى الجياد
كل حسن على تلمسان وقف … وخصوصا على ربى العباد
ضحك النور في رباها وأربى … كهف ضحاكها على كل نادي
وسما تاجها على كل تاج … وسطا سيفها على كل وادي
يدعي غيرها الجمال فيقضي … حسنها أن تلك دعوى زياد (١)
وبشعري فهمت معنى علاها … من حلاها فهمت في كل وادي
حضرة زانها الخليفة موسى(٢) … زينة الحلي عاطل الاجياد
وحباها بكل بذل وعدل … وحماها من كل باغ وعادي
ملك جاوز المدى في المعالي … فالنهايات عنده كالمبادي
معقل للهدى منيع النواحي … مظهر للعلا رفيع العماد

---

١ ـ دعوى كاذبة كدعوى زياد بن ابيه ، ٢ ـ ابو حمو موسى .

قاتل المحل والاعادي جميعا بغرار الظبا وغر الايادي
كلما ضنت السحائب أغنت راحتاه عن السحاب الغوادي
كم هبات له وكم صدقات عائدات على العفاة بوادي
فأيادي خليفة الله موسى أبحر عذبة على الوراد
ركب الجود في بسيط يديه فتلافى به تلاف العباد
جل باريه ملجأ للبرايا كالحيا ضامنا حياة البلاد
جل من خصه بتلك المزايا باهرات من طارف وتلاد
شيم حلوة الجنى وشجايا يشهد المجد أنها كالشهاد
يا امام الهدى وشمس المعالي وغمام الندى وبدر النوادي
لك بين الملوك سر خفي ليس معناه للعقول ببادي
فكأن البلاد كفك مهما كان فيها من ينتمي للعباد
قبضت كفك البنان عليه فانثنى بالاذعان حلف انقياد
وبكم تصلح البلاد جميعا ان آراءكم صلاح البلاد
لم تزل دائما تحن اليكم كحنين السقيم للعواد
لو اعينت بمنطق شكرتكم مثل شكر العفاة للاجواد
قد أطاعتكم البلاد جميعا طاعة أرغمت أنوف الاعادي
فأريحوا الجياد أتعبتموها وأقروا السيوف في الاغماد
واهنئوا خالدين في عز ملك قائم السعد دائم الاسعاد
واليكم من مذهبات القوافي حكما سهلت ليان المقاد
كل بيت من النظام مشيد عطر الافق بالثناء المشاد
ذو ابتسام كزهر روض مجود وانتظام كسلك در مجاد

فالرقة والنعومة والتشابيه الحلوة والصور البديعة ميزة هذه القصيدة • وله قصيدة اخرى في مدح ابي حمو ووصف تلمسان لا تقل جودة وروعة عن السابقة وهي :

قم مبصرا زمن الربيع المقبل ترما يسر المجتنى والمجتلي
وانشق نسيم الروض مطلولا وما أهداك من عرف وعرف فاقبل
وانظر الى زهر الرياض كأنه در على لبات ربات الحلى
في دولة فاضت يداها بالندى وقضت بكل منى لكل مؤمل
بسطت بأرجاء البسيطة عدلها وسطت بكل معاند لم يعدل

سلطانها المولى ابو حمو والرضا   ذو المنصب السامي الرفيع المعتلي
تاهت تلمسان بدولته على   كل البلاد بحسن منظرها الجلي
راقت محاسنها ورق نسيمها   فحلا بها شعري وطاب تغزلي
عرج بمنعرجات باب جيادها   وافتح بها باب الرجاء المقفل
ولتغد للعباد منها غدوة   تصبح هموم النفس عنك بمعزل
وضريح تاج العارفين شعيبها   زره هناك فحبذا ذاك الولي
فمزاره للدين والدنيا معا   تمحو ذنوبك أو كروبك تنجلي
وبكهفها الضحاك قف متنزها   تسرح نفوسك في الجمال الاجمل
وتمش في جناتها ورياضها   واجنح الى ذاك الجناح المخضل
تسليك في دوحاتها وتلاعها   نغم البلابل واطراد الجدول
وبربوة العشاق سلوة عاشق   فتنت وألحاظ الغزال الاكحل
بنواسم وبواسم من زهرها   تهديك اتفاسا كعرف المندل
فلو امرؤ القيس بن حجر راءها   قدما تسلى عن معاهد مأسل
لو حام نحو فنائها وظبائها   ما كان محتفلا بحومة حومل
فاذكر لها كلفي بسقط لوائها   فهواي عنها الدهر ليس بمنسل
كم جاد لي فيها الزمان بمطلب   جادته اخلاف الغمام المسبل
واعمد الى الصفصيف يوما ثانيا   وبه تسل وعنه دأبا فاسأل
واد تراه من الازاهر خاليا   أحسن به عطلا وغير معطل
ينساب كالأيم انسيابا دائما   أو كالحسام جلاه كف الصيقل
فزلاله في كل قلب قد حلا   وجماله في كل عين قد حلي
واقصد بيوم ثالث فوارة   وبعذب منهلها المبارك فانهل
تجري على در لجينا سائلا   احلى واعذب من رحيق سلسل
واشرف على الشرف الذي بازائها   لترى تلمسان العلية من عل
تاج عليه من المحاسن بهجة   أحسن بتاج بالبهاء مكلل
واذا العشية شمسها مالت فمل   نحو المصلى ميلة المتمهل
وبملعب الخيل الفسيح مجاله   أجل النواظر في العتاق الحفل
فلحلبة الاشراف كل عشية   لعب بذاك الملعب المتسهل
فنرى المجلي والمصلي خلفه   وكلاهما في جريه لا يأتلي
هذا يكر وذا يفر فينثني   عطفا على الثاني عنان الاول
من كل طرف كل طرف يستبي   قيد النواظر فتنة المتأمل

ورد كأن أديمه شفق الدجـى   أو أشهب كشهاب رجـم مرسـل
أو من كمتت لا نظيـر لحسنة   سام معـم في السوابـق مخول
أو احمر قانـي الأديـم كعسجد   أو أشقر يزهو بعـرف أشعـل
أو أدهـم كالليل الا غـرة   كالصبح ، بورك من أغر مجحـل
جمع المحاسن في بديـع شياتـه   مهما ترق العين فيه تسهـل
عقبان خيـل فوقها فرسانهـا   كالاسد تنقض انقضـاض الاجدل
فرسان عبد الـواد آساد الـوغى   حامو الذمار أولو الفخار الاطول
فاذا دنت شمس الاصيل لغربهـا   فالى تلمسان الاصيلـة فادخـل
من باب ملعبها لباب حديدهـا   متنزها في كـل ناد أحفـل
وتأن من بعـد الدخول هنيهة   واعدل الى قصر الامام الاعـدل
فهو المؤمـل والديار كنايـة   والسر في السكان لا في المنـزل
فـاذا أميـر المؤمنيـن رأيتـه   فالثم ثرى ذاك البساط وقبـل
فالحمد لفظ في الحقيقة مجمـل   وحلاه تفصيل لذاك المجمـل
بشرى لعبد الواد بالملك الـذي   خلصوا به من كل خطب معضـل
بأعزهم جارا وأمنعهـم حمـى   وأجلهم مولى وأعظـم موئـل
بالعادل المنتصر المنصور والمأمـو   ن والمهـدي والمتوكـل
وكفاهـم سعدا ابو حمو الذي   يحمي حماهـم بالحسام الفيصل
وبحسن نيته لهـم وبجـده   وبسعده وبسعيـه المتقبـل
ذو الهمة العليـا التي آثارهـا   حلت به فوق السمـاك الاعـزل
بحر الندى الاحلى وفخر المنتـدى   تجلـى بمشرق وجهه المتهلـل
هنيء به زمن الربيع وقـل لـه   بشرى بأملح من حلاك واجمـل
وعلى علاه من صنيعة فضلـه   تزداد نافحة السـلام الاكحـل

وفي القصيدة ما يذكرنا بلامية امرىء القيس .

والثغري يكلف بوطنه . فقلما تخلو قصيدة من قصائده من ذكـره والاشادة بحسنه وبهائه . فها هو يمدحه في قصيدة قالها في السلطـان موسى :

تاهت تلمسان بحسـن شبابهـا   وبدا طراز الحسن في جلبابهـا
فالبشر يبدو من حباب ثغورهـا   متبسما أو من ثغـور حبابهـا
قد قابلت زهر النجوم بزهرهـا   وبروجها ببروجهـا وقبابهـا

حسنت بحسن مليكها المولى أبي حمو الذي يحمي حمى أربابهـــا
ملك شمائلـــه كزهر رياضهـــا ونداه فاض بها كفيض عبابهـــا
أعلى الملوك الصيد من أعلامهـــا وأجلهـــا من صفوة ولبابهـــا
غارت بغرة وجهه شمس الضحـــى وتنقبت خجلا بثـــوب ضبابهـــا
والبدر حين بدت أشعتها لـــه حسنا تضاءل نوره وخبابهـــا
لله حضرتـــه التي قد شرفـــت خدامها فسمـــوا بخدمة بابهـــا
فاللثم في يمناه يبلغهـــا المنـــى والمدح في علياه مـــن اسبابهـا

حذق أبو زيان محمد ، نجل ابي حمو ، سورة البقرة • فأقام الملك « مدعى كريما وعرسا حافلا » جمع فيه كل رفيع ووضيع ورفع يومئـــذ الثغري قصيدة قال فيها :

تهلل وجه الروض وابتسم الزهـــر وغارت به في افقها الانجم الزهـــر
وضاحكت الارض السمـــاء مسرة وقابلها من كل ريحانـــــة ثغـــر
ومالت قدود القضب زهـــوا كأنها نشاوى تمشت في معاطفها الخمـــر
وغنت قيان الورق خلف ستورهـــا وللورق أن غنت بأوراقها ستـــــر
وجدت سرورا في صنيع خليفـــة أتاحت له الاقدار ما يقتضـــي القدر
لمولاي موسى أبدت الارض زينـــة فتوجها زهـــر ووشحها نهـــر
وقد رفلت في حلـــة سندسية وشاها الصبا وشيا ودبجها القطـــر
فالروض ايراق بنائلـــه الـــذي غدا الروض منـــه وهو فينان مخضر
وللزهر اشراق بمحفلـــه الذي غدا الدهر منه وهو جذلان مفتـــر
ولك مـــن يـــوم أغـــر مخجـــل وأيـــام مولانا محجلة غـــــر
به الحسن والحسنى جميعا تجمعـــا تلاقت به البشرى وراق بـــه البشر
وقد سر ابناء الملوك بأنسهـــم وناهيك من أنس الملـــوك اذا سروا
أشمس الهدى أطلعت في افق العـــلا نجوما ولي العهد بينهم البـــدر
أبو تاشفين سيف دولتـــك الذي به تفخر العلياء أو يعتلي الفخـــر
لـــه السؤدد المأثور والمجد والعلا له الكرم المشهور والنائل الغمـــر
أمير رضي ارضى الخلافة أمـــره فقد فاز بالرضوان ممن له الامـــر
تلاه أخـــوه في علاه وانـــــه لمنتصر باللـــه عز بـــه النصر
وان أبا زيان زيـــن لذاتــــه زكا منه نجـــل حين طاب له نجر
وقد حذق القرآن حذق مجـــود فأشرق منه القلب وانشرح الصـــدر

وهشت له الجوزاء تخـــدم حفله وقد شد من عقد النطاق لهـا خصر
وبتلو كتـــاب الله والله حافظ لتالي كتاب الله ما حفظ الذكـــر
وقرة عين المجد يوسف صنــــوه يهديهما العليـــاء شـــد لها أزر
وكوكب أفق السعد خامسهم ابـو علي علا في المكرمات له قـــدر
وناصرهم يتلوه عثمان وافتـــدي بفارس عبدالله فانتظم الـــدر
فيا ملكا فاضت أشعة نـــوره فأشرق منها للعلى أنجـم زهـر
هنيئا لك البشرى بنيت يهديهـم من الدين اركان يهد بها الكفـر
بهم تزدهي الاعـلام والبيض والقنا كما ازدهت الاقلام واللوح والحبر
فما منهـم الا امير مؤيـــد وما منهم الا فتى ماجد بـــر
جمعتم لدى القصرين كل فضيلـــة سما لكم في الخافقين بها ذكـــر
مآثر شتى من قرى وقـــراءة تضمـن منـــه كل مأثـــرة قصر
فمن صدقات غار من جودهـا الحيا وفيض هبات غاض في جودها البحر
دعوتم اليهـــا كـل باد وحاضر فلبوا كأن النـاس ضمهم الحشر
كأن الثريا نحوكم مد كفهـــا فمن نيلكم في كفها ورق وفـــر
كذا تبتني العليا ويذخر الثنـــا وتكتسب الزلفى ويغتنم الأجـــر
مكارم لا تنفك تزداد جـــدة على الدهر لا تبلى وان بلي الدهـر
فدامت بك الايام تظهر حسنهـــا فيحسن في أوصافها النظـــم والنثر
ودونك من در الدراري قوافيهـــا فيا من بمقفى لها أبدا اثـــر
وما هي الا بكر فكر تبرجـــت وفي لفظها در وفي لحظهـــا سحر
مخبرة من قـــال مستخبرا لها سلي هل لديها من مخبـــرة ذكـر

فالثغري كما يشهد به ما رأينا من شعره ، يستخدم الطبيعة سبيــلا الى ممدوحه . وشأنه في ذلك شأن الاندلسيين . وذلك لان بلاده الجميلة الفتانة أثرت فيه فامتلكت قلبه وجوارحه كتأثير الاندلس في شعرائهـــا وأدبائها .

وأما الرثاء فله فيه الباع الطويل . وتدلنا على ذلك تلك القصيـدة التي رثى بها والد موسى ابو حمو ، وقد جاء بها يحيى بن خلدون في بغية الرواد . أنصت اليها :

المرء في الدنيا رهين خطـــوب والدهر افصح من خطـاب خطيـب
من صاحب الدنيا الدنيـــة لم تزل تأتيه بالمكروه في المحبـــوب

ومؤمل الايـــام ليس بحاصـــل … الا على امـــل بها مكـــذوب
دنياي مثل الحلـــم من تجريـــب … ولغاية مجهولـــة تجري بـــي
يا نفس خلي الصبر وادرعي الاسى … واذا دعيت بالوجيب أجيبـــي
نادي بنادي المجـد صرخـة نادب … أسفا على المولـى أبي يعقـوب
فعليه ، يا نفسي الكئيبة ، فاندبـي … وعليه ، يا كبدي القريحة ، ذوبـي
أسفا لمن فاق الملـوك جلالـة … وديانة وبكل فضل حوبـــي
جمع الفضائل باختلاف ضروبهـا … فغـدا بهـا فردا بغيـر ضريـب
أعظم به مـن زاهد ومجاهـد … ومنيـــل رفد تارة ومنيـــب
من دأبه الدين المتين ولم يـزل … من كل فضل آخـذا بنصيـب
من كان جيش الموت يخدم سيفـه … أودى بجيش للمنون عصيـــب
أودى فلم نملك له من حيلـــة … أعيا دواء المـوت كل طبيـب
واصيب من كان الزمان مطيعـــه … أبدا بسهـم للزمان مصيـــب
هوت النجوم الزاهرات لفقـــده … وذوى من الأزهار كل رطيـــب
وتغيرت شمس النهـــار له أسى … وتبدلـــت من نورها بشحـوب
وبكت سيوف الهند في اغمادهــا … بدم ، بماء فرندها مخضـــوب
ولقد بكته جيـاده بصهيلهـــا … وغدت تحن له حنين النيـــب
وبكت محاربه لـــه وحروبـه … من بعده لمحـــارب وحـــروب
وعلت على وجه الزمان كآبـــة … والبشر بدل منـــه بالتقطيـــب
جفت ينابيـــع الندى من بعـده … والجود أجدب منه كـــل خصيب
من للوفـــود اذا أوت لجنابـــه … يلقاهـــم بالبشر والترحيـــب
أو من يجير المستجير بظلـــه … ويجيب صوت الصارخ المكروب
ما زال يغلب كل خطب غالـــب … حتـــى أتى ما ليس بالمغلـــوب
رزء رمى بين الضلوع شواظنـــه … فأثار كـل أسى وكل نحيـــب
وتقطرت كمدا عليـــه قلوبنـــا … فانظر لاشبـاح بغير قلـــوب
واذا مصاب جل جـــاز لمثلـه … شق القلوب فكيف شق جيـوب
والحزن وصف قائم فالقلـــب لا … بالثـوب يصبغ كالدجـى الغربيب
ولرب مكتئب قليـــل دمعـــه ، … وكثير دمع وهو غيـــر كئيـــب
والحال من ذي الحال قد تنبي علـى … ما في الجوانح من جوى مشبـوب
قد يستدل بشاهـد عـن غائـب … ويظاهـــر عن باطن محجـــوب
يا نازحـــا راموا اقتراب محلـه … فغدا على التقريب غير قريـــب

انى لأعجب من دنــــو لم يفـــد ... الا نزوحـــا زاد في تعذيـــب
حملـــوه من شـــرق لغرب فاغتدى ... كطلوع شمـــــس بادرت لغروب
حفت ملائكة السمـــاء بنعشــــه ... والخلق حول سريره المنصـــوب
ومشوا على اقدامهم قدامــــــه ... يدعون بالترغيب والترهيـــب
لو أمكن الخلــــق الفدا بنفوسهم ... لفــــدوه طرا من لقاء شعـــوب
فتعز يا مولاي ، عنــــه فانــــه ... قد فاز من مولاه بالمرغـــوب
ومضى لرحمـــة ربـــه مستبشرا ... بثوابـــه والله خيـــر مثيـب
واختار دار الخلد من دار الفنـــا ... بدلا كذلــك فعل كل لبيـــب
ولقد أطاب النفس ان وفاتـــــه ... في العز تحت رواقـــه المضروب
ومضى وخلف منك خير خليفـــة ... للخلق مرغوب الندى مرهـــوب
ما مات من أضحى لمثلـك منجبـا ... يا خير نجل في الملوك نجيـــب
وجب الرضى لكم ببركم لـــــه ... اذ لم تخـــل لبره بوجـــوب
فاسلم ، امير المسلميــــن مؤيـدا ... تجري من العليا على اسلـــوب
وبقيت يا مولاي منصـــور اللوى ... في ظل ملك في الزمـــان رحيب
وعلى عـــلاك تحية كالروض مـــن ... عبد مطيـــل للثناء مطيـــب

هذا هو الثغري في رثائه صادق العاطفة بين اللوعة مما يدل علـــى اخلاصه للفقيد ولنجله ابي موسى • يمتاز أدبه في هذه القصيدة وغيرها ، بالرقة والرنة الموسيقية والعبارة السليمة

التلاليســـي

وثمة شخصية اخرى ازدان بها البلاط الزياني تتمثل في ابي عبدالله محمد بن ابي جمعة التلاليسي •

اشتغل بالطب حتى برع فيه ونما صيته الى السلطان ابي حمو موسى الثاني • فقربه اليه واتخذه طبيبا لنفسه • وعلاوة على حذقه في الطب كان التلاليسي متميزا في العربية والادب •

أتى بالشعر الجيد • تشهد له بطول الباع في قرضه القصائـــد الرائعة التي قالها في كل المناسبات التي وقعت بقصر السلطان • فأصـغ اليه سمعك وهو يمدح مولاه أبا حمو ويصف تلمسان :

سقى الله من صوب الحيا هاطلا وبلا   ربوع تلمسان التي قدرها استعلى
ربوع بها كان الشباب مصاحبي   جررت الى اللذات في دارها الذيلا
فكم نلت فيها من أماني قصية   وكم منح الدهر الضنين بها النيلا
وكم غازلتني الغيد فيها تلاعبا   وكل عذول لا أطيع له قولا
وكم ليلة بتنا على رغم حاسد   ندير كؤس الوصل اذ بالصفا تملى
وكم ليلة بتنا بصفصيفها الذي   تسامى على الانهار اذ عدم المثلا
وكدية عشاق لها الحسن ينتهي   يعود المسن الشيخ من حسنها طفلا
نعم ، وغدير الجوزة السالب الحجا   نعمت بها طفلا وهمت بها كهلا
ومنه ومن عين أم يحيى شوابنا   لانها في الطيب كالنيل بل أحلى
وعبادها ما القلب ناس ذمامه   به روضة للخير قد جعلت حلا
به شيخنا المذكور في الارض ذكره   أبو مدين أهلا به دائما أهلا
لها بهجة تزري على كل بلدة   بتاج عليها كالعروس اذا تجلى
فيا جنة الدنيا التي راق حسنها   فحازت على كل البلاد به الفضلا
ولا عجب ان كنت في الحسن هكذا   وموسى الامام المرتضى فيك قد حلا
ولاحت لدينا فيك منه محاسن   كأن سناها حاجب الشمس اذ جلى
كريم حليم حاتمي نواله   حسام على الباغين في الارض قد سلا
مطاع شجاع في الوغى ذو مهابة   سعيد حميد بصدق القول والفعلا
له راحة كالغيث ينهل ودقها   وسيف به النصر الاكيد فلا يعلى
هو الملك الارقى هو الملك الرضا   هو الملك الاسنى هو الملك الاعلى
ومن هذه الاوصاف فيه تجمعت   حقيقا على كل المعالي قد استولى
امام حباه الله ملكا مؤزرا   فلا ملك الا لعزته ذلا
من الزاب وافانا عزيزا مظفرا   يجر من النصر المنوط به ذيلا
بدت لمليك الغرب شدة بأسه   وانعامه وللمعتفين وما اولى
فبادره بالصلح خوف فَواته   وسالمه اذ كان ذاك به اولى
فكان بحمد الله صلحا مهنأ   به طابت الدنيا وجزنا به السبلا
له في المعالي رتبة لا ينالها   سواه وكتب في فضائله تتلى
لطاعته كل الانام تبادرت   فيا سعد من وافى ويا ويح من ولى
أحساده موتوا فان قلوبكم   بجمر الغضى مما بها أبدا تصلى
لقد جبر الله البلاد بملكه   به ملئت أمنا ، به ملئت عدلا
فلا زال هذا الملك فيه مخلدا .   وصارمه الامضى وخادمه الاعلى

كان ابو حمو موسى ملتجئا في تونس منذ ايام حرب ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) • ولكن هذا الامير ابى الا ان ينتقم من بني مرين ويسترجع السيادة الزيانية • فخرج من تونس وسعى في تجييش الجيوش وقصد تلمسان • وفي طريقه شن غارات على بني مرين وأحلافهم وكانت له وقائع مشهورة انتصر فيها على خصومه • فأرغم بني مرين ان يتخلوا عن تلمسان وان يبرموا معه الصلح ، والقبائل التي كانت شدت أزرهم أن يبادروا بالطاعة صاغرين ، الامر الذي حققت به الدولة الزيانية الاستقرار الذي لا غنى عنه لضمان الرخاء والازدهار للبلاد •

فالى هذه الحوادث التي المت بأبي حمو يشير التلاليسي في هذه القصيدة • واما اسلوبه فيها فلا بأس به الا انه اذا قارناه باسلوب ابن خميس وجدناه دونه صنعة وطلاوة •

وقد عالج التلاليسي هو الاخر فن التوشيح • ومن الموشحات التي خوطب بها ابو حمو في مولد سنة ٧٦٧ قول طبيبه ومعالجه الحاج محمد :

لي مدمع هتان ينهل مثل الدرر
قد صير الاجفان ما ان لها من اثر
حق له يجري دما على طول الدوام
مذ جد في السير ناس الى خير الانام
وعاقني وزري يا صاح عن ذاك المقام
وسارت الاظعان يحدى بها في السحر
فاستبشر الركبان بقرب نيل الوطر
يا سعده من زار قبر النبي المصطفى
محمد المختار قطب المعالي والوفا
في مدحه قد حار الخلق طرا وكفى
من محكم القرآن وشرحه والسير
فضله الرحمان على جميع البشر
يا حادي الركب بالله ان جئت البقيع
تحية الصب بلغ الى الهادي الشفيع

غربـــت بالغـــرب   عن ذلـــك المغنى الرفيـــع
وليـــس لي امكـــان   ينهضنـــي للسفـــر
الا مـــن السلطـــان   الملـــك المظفـــر
من لـــم يزل يسمـــو   الى المعالـــي كـــل حين
ذاك ابـــو حمـــو   المولى أمير المسلميـــن
طاعتـــه غنـــم   نلنـــا بها دنيـــا وديـــن
أظهـــر في البلـــدان   من عدلـــه المشتهـــر
وعـــم بالاحســـان   للبـــدو ثـــم الحضر
قابلـــه اسعـــاد   تكل منـــه الالسنـــه
قبيـــل عبـــد الـــواد   به غـــدت في سلطنـــه
أيـــامـــه أعيـــاد   يا ليتها ألفـــا سنـــه
ملـــك بنـــي زيـــان   بالمشرفـــي الذكـــر
أحياه اذ قـــد كـــان   ليس لم مـــن خبـــر
تاهـــت تلمســـان   بملك علـــى البـــلاد
صـــار لها شـــان   وسعدها حلـــف ازديـــاد
قد ضـــل انســـان   قال بها يشكو السهـــاد
ليل الهـــوى يقظـــان   والحـــب تـــرب السهـــر
والصبـــر لي خـــوان   والنـــوم من عينـــي بري

وميلاديات التلاليسي كثيرة منها هذه ايضا :

ترى يستكين الصبا بالرسائـــل ؟   فدمعي مذ بـــان هام وسائـــل
وهل لزمان مضـــى رجعـــة   كعهـــدي به أترى الدهر راحل
فها انا ابكـــي لفقـــد الشباب   وعصر التصابي بكـــاء الثواكـــل
وليس البكـــاء على فقـــده   ولكن لتضييـــع عمري باطـــل
مضى ضائعـــا في عسى ولعـــل   وحتى وسوف اعتذار والمماطـــل
أطاوع نفسي فـــي غيهـــا   وأمسي عن الرشد لاه وغافـــل
فيا ويـــح نفسي كم ذا تـــرى   تطيع الغواة وتعصـــي العوامـــل
وكـــم ذا اغترار بطـــول البقـــا   ولم يتبـــق من العمر طائـــل
فمن منصفي أو لمن أشتكـــي   ودهري غـــدا لـــي حربا مقـــاتل
وهل من دواء وهل من شفـــاء   ولست لشيء من النصح قابـــل

شكوت اليـــك الهي عســى ... تمن وتسمح بالتــوب عاجل
وتصفح عــن زلتي انني ... أتيت ذليلا لبابــك سائل
فما لي ســواك وأنت الالـه ... الذي لا تخيب لديه الوسائل
توسلــت بالهاشمي الــذي ... بعثت رسولا فأدى الرسائل
نبي الهــدى خاتم الانبيـاء ... شفيع العصــاة وزين المحافل
عظيم الجلال كثيــر النـوال ... كريم الفعال وبالحــق قائل
أتانــا ربيــع بشرابــه ... فحق الربيــع على كل عاقل
فحييــت يا شهــر من قــادم ... سرور قدومك للخلق شامــل
له المعجزات التي ليس تحصــى ... ومن قال تحصى فدعــواه باطل
تخيــره اللــه من امــة ... تخيرها من جميــع القبائل
فيا حادي الركب ان جئــت أرضا ... بها سيد الخلــق ثاو ونــازل
وأبصرت نجــدا وعاينت سلعــا ... وتلك المغاني بها والخمائل
فقف عنــد با بالديــار تر ... ضريح نبي الهدى دون حائل
فبلغ سلامي وبح ثــم باسمي ... ولا يشغلنك عن ذلــك شاغل
لعلــي أكــون له زائــرا ... بعامي هــذا أو العام المقابل
أعفــر خــدي فــي يثرب ... وأذري هناك الدموع الهوامل
واستغفر الله من كــل ذنــب ... ندمت له وعضضت الانامل
وأدعــو بنصر امــام الهدى ... حمق المستجير وقطــب الفضائل
مبيد الطغاة ومفني العــداة ... وكنز العفــاة وكهف الارامل
فذلك موسى الامــام الــذي ... محا عــن رعيتــه باطل
تحلــى به الملــك درا نفيســا ... وما زال مذ كان للخير فاعل
أناف وأربى علــى من ســواه ... فما في الملوك لــه من مماثل
وان الكــرام اذا جمعــوا ... فيبقى عطاؤك جــدواه وابل
وفي طبعــه من بديع الصفات ... عفاف وحلــم وبأس ونائل
وسحبــان لو رآه لانثنــى ... يعيــره بالفهاهــة باقل
فوفى الخلافــة أشراطهــا ... وعدل من أمرها كل مائل
فبشراه بالنصــر والفتــح حتى ... تدين البلاد لــه والقبائل
حللت من الملك أسنــى محــل ... رحمت يتيما واغنيــت عائل
وجئت تلمســان والمشتــري ... تبدي وكيــوان بالغرب آفل
قد افتخــرت حين ملكتهــا ... وحصنتها بالقنــى والقنابل

دع المعتديـــن فمـــا ظفـــرت يداهـــم بما قد حوتـه بطائـل
فـــلا زال امركـــم نافـــذا وملككم ثابتـــا غير زائـــل

انه يتأسف على شبابه الذي قضاه لاهيا مطاوعا نفسه في غيها • فيسأل الله ان يعفو عنه متوسلا بالنبي • وبعد مـدح الرسول والارض المقدسة يتوجه الى ابي حمو فيصفه بأجمل الصفات •

ولما مات والد الملك ابو يعقوب رثاه التلاليسي بالقصيدة التاليـة التي نلمس فيها تلهفا وتفجعا صادقين على هذا الذي حاز المكارم والعلا وكان بحر الندى ماله بين الكرام نظير • فقد كفكف دموع الملك بكـلام رزين وحضه على الصبر فقال :

كأس الحمام على الانام تـــدور ما ان لهـــا الا القضـــاء مديـر
وكذا الليالي لا وفاء لعهدهـــا ان اقسطت يوما فسوف تجـــور
كم شتتت من جمع شمل لم يكـن يخشى الشتات وكل ذا مشهـــور
ان اضحكت في يومها ابكت غـدا فالخير منها ان اتـــاك غـرور
فجعت بمولانا الامير وخلفـــت في الدمع آمـــاق الجفون تغور
كنـا نؤمن ان تـدوم حيـاتـه لكنـه ثـوب الحيـاة قصيـر
رزء ألم فمـــا له من رافـــع أيرد رزء ساقـــه المقـــدور ؟
مولاي يوسف والد الخلفـا الذي منعاه خطب في الوجـــود كبير
ضجت لمصرعه الخلائق ضجـــة كادت بها منـــا القلوب تطيـر
كادت تزول الراسيات لفقـــده والشمس تكسف والسماء تمـــور
قبل الممات نظمت فيه مدائحـــا يقف الحطيئة دونهـــا وجريـر
والان ارثيـــه وابكيه بمـــا يبدو وللخنساء فيـــه قصـــور
يا حامليه قفوا علينـــا وقفـــة تشفي بها قبـــل الممات صـدور
ردوا الذي حاز المكـارم والعلـى بحر الندى يحيـا بـــه المعمـور
بكت الارامل واليتامى بعـــده اذ ما لـــه بيـن الكـرام نظيـر
لقدومه جنـــات عدن زخرفـت وتشوقت ولدانهـــا والحـور
مولاي يا موسى الذي بسعـوده قهر الطغـــاة وجيشه موفـور
اصبر اذا جاء الزمان بحـــادث ان التصبر سعيه مشكـــور
هون عليـــك أذى الخطوب انمـا أنت الامير ودهـــرك المأمـور
لا تأخذ الزمن المسيء بفعلـــه واصفح فانك بالامور خبيـــر

ان كان صرف الدهر بعدك مذنبا ... فبقاء مثلك بعده تفكير
من أنت تخلفه فحي لم يمت ... حقا يقينا أيها النحرير
وفيت حق ابيك بعد وفاته ... ان القيام بحقه لبرور
يا ايها الملك الذي أيامه ... قد اقبلت ولواؤه منصور
هناك رب العرش ما خولته ... في المغربين الامر والتأمير
ما للزمان فضيلة الا بكم ... ان الزمان اليكم لفقير
وبقيت لا تفنى ولا تخشى ردى ... وجميعنا ببقائكم مسرور
أبقاك رب العرش فينا دائما ... تحمي البلاد وسعدك الموفور
ثم السلام عليك ، يا من ذكره ... بين الملوك معظم مشهور

فالتلاليسي شاعر مطبوع . فهو في مدحه مثله في رثائه وتوشيحه ، لا أثر للتكلف في شعره ولا نحس في عبارته بتعقيد ولا غرابة .

محمد بن عمر المليكشي

هو ابو عبدالله محمد بن عمر بن علي بن محمد بن ابراهيم بن عمر المليكشي البجائي . نشأ في الجزائر واخذ علمه وادبه فيها . رحل الى المشرق فحج ، وروى عن جماعة من الائمة والادباء في الجزائر ومصر والاسكندرية،كالرضى الطبري والسراج محمدبن‌طراد وابي‌محمدالدلاصي والنجم الطبري.كان فقيها كاتبا اديبا،قلده صاحب تونس‌خطةالكتابة.وقد ترجم له لسان الدين بن الخطيب في الاكليل فقال :

كاتب الخلافة ومشعشع الادب الذي يزري بالسلافة . كان بطل مجال ورب روية وارتجال . قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه وضاق ببعض الحوادث عطنه فتلوم النسيم بين الخمائل وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ولبث مدة اقامته تحت جراية واسعة وميزة يانع ثم آثر قطره فولى وجهه شطره واستقبله دهره بالانابة ، وقلده خطة الكتابة . فاستقامت حاله وحطت رحاله . وله شعر انيق وتصوف وتحقيق ورحلة الى الحجاز سعيها في الخير وثيق ونسبها في الصالحات عريق » .

---

١ ــ نفح الطيب ج ١ ص ٣٤٦

ومن شعره :

رضا (١) نلت ماترضين من كل مايهوى ... فلا توقفيني موقف الذل والشكوى
وصفحا (٢) عن الجاني المسيء لنفسه ... كفاه الذي يلقاه من شدة البلوى
بما بيننا من خلوة معنوية ... أرق من النجوى وأحلى من السلوى
قفي اتشكى لوعة البين ساعة ... ولا يك هذا آخر العهد بالنجوى
قفي ساعديني عرصة الدار وانظري ... الى عاشق ما يستفيق من البلوى
وكم قد سألت الريح شوقا اليكم ... فما حن مسراها علي ولا ألوى
فيا ريح حتى انت ممن يغار بي ... ويا نجد حتى انت تهوى الذي اهوى
خلقت ولي قلب جليد على النوى ... ولكن على فقد الاحبة لا يقوى

وجاء في نفح الطيب عنه ما نصه :

« حدث بعض من عني بأخباره ، ايام مقامه بمالقة واستقراره ، انه لقي بباب الملعب من ابوابها ظبية من ظبيات الانس ، وقينة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى همت بالانقياد وانعطفت انعطاف الغصن المياد ، فأبقى على نفسه وامسك ، وأنف من خلع العذار بعدما تنسك وقال :

لم انس وقفتنا بباب الملعب ... بين الرجا واليأس من متجنب
وعدت فكنت مراقبا لحديثها ... يا ذل وقفة خائف مترقب
وتدللت بعد تعزز ... يأتي الغرام بكل امر معجب
بدوية أبدى الجمال بوجهها ... ما شئت من خد شريق (٣) مذهب
تدنو وتبعد نفرة وتجنبا ... فتكاد تحسبها مهاة (٤) الربرب (٥)
ورنت بلحظ فاتن لك فاتر ... أنضى وأمضى من حسام المضرب
وأرتك بابل سحرها بجفونها ... فسبت ، وحق لمثلها ان تستبي
وتضاحكت فحكت بنير ثغرها ... لمان نور ضياء برق خلب
بمنظم في عقد سمطي جوهر ... عن شبه نور الاقحوان الاشنب

---

١ ـ رضا مفعول مطلق بفعل محذوف .
٢ ـ صفحا : مفعول مطلق بفعل محذوف .
٣ ـ مشرق ، وقد يكون من قولهم « شرق لونه » اذا احمر من الخجل ،
٤ ـ المهاة : البقرة الوحشية ، ٥ ـ الربرب : القطيع من بقر الوحش .

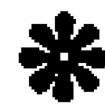
وتمايلت كالغصن اخضله النـــدى ريان من ماء الشبيبة مخصـــب
تثنيه ارواح الصبابـــة والصبا فتراه بيـــن مشرق ومغـــرب
أبت الروادف ان تميل بميلـــه فرست وجال كأنـــه في لولـــب
متتوجا بهـــلال وجه لاح فـــي ظل السحاب لحاجب ومعجـــب
يا من رأى فيهـــا محبا مغرمـــا لم ينقلب الا بقلـــب قلـــب
ما زال مذ ولى يحـــاول حيلة تدنيه من نيل المنـــى والمطلـــب
فأجال نار الفكر حتى أوقـــدت في القلـــب نـــار تشـــوق وتلهب
فتلاقت الارواح قبل جسومهـــا وكذا البسيط يكون قبل مركـــب

لا نلمس في هذا الشعر تعقيدا ، ولا غموضا بل نجده ينم عن ذوق ادبي سليم وملكة مطبوعة • وصف ظبيته وصفا يتجاوب ولوعة نفســه العاشقة •

وقال :

أرى لك يا قلبي بقلبي محبـــة بعثت بها سري اليـــك رســولا
فقابله بالبشرى ، واقبل عشيـــة فقد هب مسك للنسيـــم عليـــلا
ولا تعتذر بالقطر أو بلل النـــدى فأحسن ما يأتـــي النسيم بليـــلا

وتوفي المليكشي غرة المحرم عام ٧٤٠ بتونس ، رحمه الله •



الفصل السادس

الفـــترة المرينيـــة

٦٤٧ ـ ٨١٤ هـ

١٣٥٠ ـ ١٤١١ م

عند افول نجم الموحدين جهز على المغرب الاقصى بنو مرين وهم من زناتة الجزائر مثل بني عبد الواد . كانوا يقطنون الزاب . ثم نزحوا عنها غربا عند مقدم الهلاليين . ورفضوا التعاون مع الموحدين . فدخل بهم « عبد الحق بن مجيوتل » الى المغرب الاقصى سنة ٦٠٠ هـ . وامكنهم ان يبنوا ملكا هنالك . وقد اقتفوا الدولةالموحدية في النظم جميعها .وعلى الرغم من ان بني مرين وبني عبد الواد من سلالة واحدة فقد كانت الخلافات بينهم كثيرة ، وتعددت الحروب حتى تمكن بنو مرين من الاستيلاء ، وذلك لوقت محدود ، على ندرومة وتلمسان ووهران ومستغانم وتنس ومليانة وشرشال والمونشريس والمدية سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) ولكن بني عبد الواد أبدوا شجاعة فائقة في الكفاح وحذقا في السياسة فأبعدوا الخصم عن مملكتهم واسترجعوا كل ما ضاع منها . فانكمش بنو مرين اثر ذلك على نفسهم ، محترمين الحدود التي اتفقوا عليها مع بني عبد الواد ، وقد سبقت الاشارة الى ذلك اعلاه .

ومما يجدر بالملاحظة ان تلك المعارك الطاحنة التي استمرت سنين عديدة بين الدولتين انتهت مع الاسف ، بضعفهما . وقد أثر هذا الضعف في تدهور بني الاحمر بغرناطة الذين كانوا يستمدون من الجزائريين والمغاربة قوتهم المالية والعسكرية . فأمكن للاسبان حينئذ ان يستولوا على مملكة غرناطة وان يهجموا بعد ذلك على شواطىء الجزائر والمغرب ويستملكوا جزءا من ارضهما . ومما يستحق التسجيل في حق بني مرين اهتمامهم بنشر العلم وحبهم اهله . ولقد حلوا بلاطهم بعلماء وادباء جزائريين منهم هؤلاء :

المليانـي

هو أبو العباس احمد بن علي الملياني الاديب الشاعر والكاتب الشهير . اتصل ببني مرين وعاش طويلا تحت ظلهم الوارف ، وقد اتخذه يوسف ابو يعقوب ملك المغرب صاحب علامته .

اتفق ان جماعة من شيوخ مراكش قد سعوا في عمه حتى اعتقل

وجدوا في أمره حتى قتل ، فقام هو يطالب بأخذ الثأر ، « فترصد كتابا الى مراكش يتضمن امرا حزما ويشمل من امور الملك عزما جعل فيه بضرب رقابهم وسبي أسبابهم (١) ، لما علم بان تنفيذ ما طلب في الرسالة قد تم فر الى تلمسان وهي بحال حصارها من طرف بني مرين ، فاتصل بأنصارها وما لبث ان افتضح امر حيلته واستيلاء القتل على اعلام القبيلة المراكشية والى هذا يشير لسان الدين في الاحاطة قائلا : « فتك (ابي الملياني) فتكة شهيرة أساءت الظن بحملة الاقلام على ممر الدهر » ، فلم يسعه حينئذ الا ان يبقى بتلمسان الى ان حل مختنق حصارها سنة ٧٠٦ وتخلى المرينيون عن قاعدة بني عبد الواد ، فلحق بشقة الاندلس ، فعاش في تلك الربوع مبرورا حتى قضى نحبه بغرناطة يوم السبت ٩ ربيع الثاني عام ٧١٥ هـ (١٣ تموز ١٣١٥ م) ودفن بجبانة باب البيرة .

قال فيه لسان الدين في احاطته : « كان نبيه البيت شهير الاصالة رفيع المكانة على سجية غريبة من الوقار والانقباض والصمت آخذا حظا من الطب قارضا الشعر تذهب نفسه فيه كل مذهب » .

ومن شعره قوله مفتخرا :

العز ما ضربت عليه قبابي ... والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
والزهر ما اهداه غصن براعتي ... والمسك ما أبداه نقش كتابي
والمجد يمنع ان يزاحم موردي ... والعز يأبى أن يسام جنابي
فاذا بلوت صنيعة جازيتها ... بجميل شكري او جزيل ثوابي
واذا عقدت مودة أجريتها ... مجرى طعامي من دمي وشرابي
واذا طلبت من الفراقد والسها ... ثأرا فأوشك ان أنال طلابي

ابن مرزوق الخطيب

ومن الشخصيات البارزة في اواسط القرن الثامن شخصية شمس الدين ابي عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني ويلقب بالخطيب والجد والرئيس .

---

١ ـ الاكليل للسان الدين .

كان سلفه من عجيسة بزاب افريقية • فانتقلوا الى تلمسان صحبة الشيخ ابن مدين شعيب بنالحسين الاشبيلي في اواخر القرن السادس الهجري نزلوا بالعباد وتولو سدانة ضريح الشيخ ابن مدين •

ولد محمد بن مرزوق بتلمسان عام ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) ونشأ فيها وقرأ القرآن في كتاب من كتاتيبها العديدة ، وتعلم في مدارسها ، وكانت عامرة زاخرة وقتئذ ، ولما بلغ الثامنة عشرة ارتحل مع ابيه الى المشرق • فحج وجاور وسمع من شيوخ الحجاز ، ثم ترك اباه وأم أولا الشام فبلاد الكنانة : فأخذ عن عدد كبير من علماء المشرق هناك • وسمع من علماء تونس وبجاية وفاس • ونجد اسماء شيوخه في فهرست سماها : « عجالة المستوفر المستجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من اجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز » •

فبرز في علوم مختلفة وخاصة في الحديث • وألف فيه اكثر من سواه • وقال وهو في السجن في احدى نكباته : « انه لا يوجد اليوم من يسند احاديث الصحاح قراءة وسمعا من باب الاسكندرية الى البرين والاندلس غيره » •

وقد كتب كذلكمن السجن سنة ٧٢٦ هـ (١٣٦٠ م) أنه خطب على ثمانية واربعين منبرا في بلاد الاسلام شرقا وغربا واندلسا وبعدما تضلع من العلوم رجع الى مسقط رأسهبأمر والده ليؤنس عمه محمد بن مرزوق• فلقي السلطان ابا الحسن المريني معاصرا تلمسان وقد شيد في العباد مسجدا عظيما سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ م) وكان عمه محمد بن مرزوق خطيبا به على عادتهم في العباد وتوفي العم فولاه السلطان خطابة ذلك المسجد • اختاره من بين اقرانه من العلماء مما تحقق من علمه وادبه • وضمه وقربه اليه بحيث انه صارلا يفارقه حضرا وسفرا حربا وسلما ؛ ورافقه في الحرب في وقعة طريق بالاندلس سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) • واستعمله في الرسالة الى الاندلس ثم الى ملك قشتالة في تقرير الصلح واستنقاذ ولده المأسور يوم طريف • لما عاد من الديار الاندلسية طلب من ابي عنان ان يعفيه من

الخدمة فأعفاه • فرجع الى تلمسان واقام في العباد وعلى تلمسان وقتئذ ابو سعيد عثمان بن عبد الرحمن واخوه ثابت والسلطان ابو الحسن بالجزائر وقد حشد هناك • فأرسل ابو سعيد ابن مرزوق اليه سرا في الصلح • فلما اطلع اخوه ابو ثابت على الخبر انكره على اخيه • فبعثوا من حبس ابن مرزوق ، فأسروه وأودعوه السجن • لما اطلق سراحه أجيز الى الاندلس فنزل على ابي الحجاج سلطان غرناطة سنة ٧٥٢ هـ (١٣٥١م)• فقربه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء ، فلم يزل خطيبه الى ان استدعاه ابو عنان سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٢ م) بعد مهلك ابيه واستيلائه على تلمسان وما جاورها من الاقاليم • فقدم عليه • فنظمه في أكابر اهل مجلسه ثم بعثه الى تونس يخطب له بنت السلطان ابي يحيى الحفصي • فردت الخطبة ، واختفت البنت • فوشي الى أبي عنان ان ابن مرزوق كان مطلعا على مكانها فسخطه لذلك ورماه في غياهب السجن • الا انه اطلق سراحه قبل موته •

ولما استولى ابو سالم على الملك آثره وجعل زمام الامور بين يديه• فعلت منزلته عند السلطان وحاشيته •

ثم وقع انقلاب حكومي سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦٠ م) اذ وثب عمر بن عبدالله بالسلطان فحبس ابن مرزوق ، وهي النكبة الثالثة التي نكب بها • وما لبث ان اطلق سراحه بعد ان رام كثير من اهل الدولة قتله ، فمنعه منهم • فالتحق بتونس سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) ونزل على صاحبها ابو اسحاق وصاحب دولته ابي محمد بن تافراكين • فرحب به وولي الخطابة في جامع الموحدين • وبقي مكرما بتونس الى ان مات السلطان أبو يحيى سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٦ م) وولي ابنه خالد • ولما قتل السلطان ابو العباس خالدا واستولى على العرش ، وكان بينه وبين ابن مرزوق شيء لميله مع ابن عمه محمد صاحب بجاية عزله عن الخطبة • فوجم لها • فأجمع الرحلة الى المشرق واستأذن في ذلك السلطان • فركب السفينة وقصد الاسكندرية ،ومنها ارتحل الى القاهرة • فلقي هناك اهل العلم وامراء الدولة ونفقت بضائعه عندهم واوصلوه الى السلطان الاشرف

شعبان • فرحب به وولاه الوظائف العلمية • فلم يزل بها موفور الرتبة معروف الفضيلة مرشحا لقضاء المالكية ملازما للتدريس في مدارس شتى الى ان هلك سنة ٧٧١ هـ (١٣٨٩ م) في القاهـرة ودفن بين ابـن القاسم وأشهب •

تآليفـه :

خلف لنا ، رحمه الله ثروة علمية ضخمة : منها شرحه الجليل علـى العمدة في خمسة أسفار جمع فيها بين ابن دقيق العيد والفاكهاني مـع زوائد ، وشرحهالنفيس على الشفاء للقاضي عياض ولم يكمل ، وشرحه على الاحكام الصغرى لعبد الحق ، وشرحه على ابن الحاجب الفرعي سمـاه « ازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب » ، وديـوان خطب بالغـرب مشهور ، والمسند الصحيح الحسن في محاسن مولانا ابي الحسن توجد منه نسخة بمكتبة « الاسكوريال » تحت عدد (١٦١٦) واخرى بمكتبة الجامعة الجزائرية تحت رقم : ٢٠٧٧٠١ ، ومنها فهرسته وكتاب الطـرق الى الملك الاشرف والاربعين المسندة في الخلافة والخلفاء ، وكتاب الامامة وايضاح المراشد فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والقواعد ، وشرح لصحيح البخاري ، وكتاب في التنجيم ، وكتـاب ضاهى به العقـود والاعتذار ، وجنى الجنتين في فضل الليلتين ـ ليلة القدر وليلة المولد النبوي توجد منه نسخة بمكتبة خاصة بفاس • وترك لنا قصائد تـدل على باعه في الشعر • فقال قصيدة بمناسبة نكبته بتلمسان مطلعها :

رفعت امـوري لبـاري النسم   وموجدنا بعـد سبق العـدم

ومن نظمه عند وداعه لأهل تونس الذين أحبوه وأكرموه :

اودعـكم وأثنـي ثـم أثنـي   على ملـك تطاول بالجميـل
وأسأل رغبة منكـم لربـي   بتيسير المقاصـد والسبيـل
سلام طيـب لكـم جميعـا   فقد عزم الغريب على الرحيـل

وكان ابن مرزوق استاذا للسان الدين بن الخطيب • أخذ عنه في البلاط الغرناطي النصري • فقال في ترجمة شعره انه ركب مع السلطان

ابي الحجاج بخارج الحمراء ايام ضربت اللوز قبابها البيض وزينت الفحص العريض والروض الاريض فارتجل في ذلك :

أنظر الى النوار في أغصانه ... تحكي النجم اذ تبدت في الحلك
حيا امير المسلمين وقال : « قد ... عميت بصيرة من بغيرك مثلك »
يا يوسف احزت الجمال بأسره ... فمحاسن الايام تومي هيت لك
انت الذي صعدت به اوصافه ... فيقال فيه ذا مليك او ملك

وباع ابن مرزوق في النظم والنثر مديد . فكانت بينه وبين تلميذه لسان الدين بن الخطيب مراسلات اشتملت على شعر ونثر . لما قدم ابن الخطيب الى فاس خاطبه ابن مرزوق بمنزل الشاطبي بما يأتي :

يا قادما وافى بكل نجاح ... أبشر بما تلقاه من أفراح
هذي ذرى ملك الملوك فلذ بها ... تنل المنى وتفز بكل سماح
مغنى الامام ابي عنان يمن ... تظفر ببحر في العلا طفاح
من قاس جود ابي عنان في الندى ... بسواه قاس البحر بالضحضاح ١
ملك يفيض على العفاة نواله ... قبل السؤال وقبل بسطة راح
فلجود كعب٢وابن سعدى٣في الندى ... ذكر محاه عن نداه ماحي
ما ان سمعت ولا رأيت بمثله ... من أريحي للندى مرتاح
بسطا الأمان على الانام فأصبحوا ... قد ألحقوا منه بظل جناح
وهمى على العاقين سيب نواله ... حتى حكى سح الغمام الساحي
فنواله وحلاله وفعاله ... فاقت وأعيت ألسن المداح
وبه الدنا اضحت تروق واصبحت ... كل المنى تنقاد بعد جماح
من كان ذا ترح فرؤية وجهه ... متلافتة الاحزان والاتراح
فانهض أبا عبد الاله تفز بها ... تبغيه من أمل ونيل نجاح
لا زلت ترتشف الاماني راحة ... من راحة المولى بكل صباح

فالحمد لله ! يا سيدي وأخي ، على نعمه التي لا تحصى ، حمدا يؤم به جميعنا المقصد الأسنى ، فيبلغ الامد الاقصى ، فطالما كان معظم سيدي للأسى في خبال ، وللاسف بين اشغال بال ، واشتغال بلبال ، ولقدومكم

---

١ الضحضاح : الماء القليل ، ٢ ـ كعب : كعب بن مامة الايادي ، ٣ ـ ابن سعدى : أوس بن حارثة .

على هذا المحل المولوي في ارتقاب ، ولمواعيدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أنت تجتني من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرة صباحا ، وتتلقى احاديث مكارمه ومواهبه مسندة صحاحا . بحول الله تعالى ، ولسيدي الفضل في قبول مركوبه ، الواصل اليه بسرجه ولجامه ، فهو من بعض ما لدى المعظم من احسان مولاه وانعامه ولعمري لقد كان وافدا على سيدي في مستقره مع غيره ، فالحمد للهالذي يسر في ايصاله على افضل احواله » .

الحق أن هذه الرسالة ليست من النماذج الراقية ، ولكن لا يمكننا أن نحكم بها على مقدرته في ميدان الترسل . فالتاريخ قد سجل له رسائل اخرى مرتفعة عن هذا المستوى ، وقد نوه ابن الخطيب بعظمته في الشعر والنثر . وناهيك برجل كان كاتبا وحاجبا للدولة المرينية . فالخطابة التي اشتهر بها اكثر من سواها لم تمنعه من قرض الشعر الرائق. اسمعه ينشد رائيته العصماء بين يدي الملك الغرناطي ليلة الميلاد المعظم سنة ٧٦٣ هـ :

قل لنسيم السحر لله بلغ خبري
ان أنت يوما بالحمى جررت فضل المئزر
ثم حثثت الخطو من فوق الكثيب الاعفر
مستقريا في عشبه مخفي وطء المطر
تروي عن الضحاك في الروض حديث الزهر
مخلق الاذيال بالعبير أو بالعنبر
وصف لجيران الحمى وجدي بهم وسهري
وحقهم ما غيرت ودي حروف الغير
لله عهد فيه قضيت حميد الاثر
ايامه هي التي أحسبها من عمري
ويا لليل فيه ما عيب بغير القصر
العمر فينان ووجه الدهر طلق الغرر
والشمل بالاحباب منظوم كنظم الدرر
صفو من العيش بلا شائبة من كدر

ما بيـــن أهـــل تقطف الأنـس جنـــــــي الثمـــر
وبيـــن آمـــال تبيـــــح القرب صافي الغـــدر
يا شجـرات الحـــي حيـــاك الحيـــا من شجـــر
اذا أجـــال الشوق فـــي تلـــك المغانـــي فكـــري
خرجـــت من خـــدي حديـــث الدمـــع فـــوق الطرر
وقلت يا خـــد ارو مـــن دمعي صحـــاح الجوهـــر
عهدي بحـــادي الركب كالـــورقاء عنـــد السحـــر
والعيش تجتـــاب الفـــلا واليعمـــلات تنبـــري
تخبـــط بالاخفـــاف مظلـــلوم البرى وهـــو بـــري
قد عطفـــت عن ميـــد والتفتت عـــن حـــور
قسى سيـــر ما سوى العـــزم لهـــا مـــن وتـــر
حتـــى اذا الاعـــلام حلـــت لحفـــي البشر
واستبشر النـــازح بالقـــرب ونيـــل الوطـــر
وعين الميقـــات للسفـــر نجـــاح السفـــر
فالنـــاس بيـــن محرم بالحـــج او معتمـــر
لبيك لبيـــك الـــه الخلـــق بـــاري الصـــور
ولاحـــت الكعبـــة بيـــت الله ذات الأثـــر
مقـــام ابراهيـــم المـــأمن عنـــد الذعـــر
واغتنـــم القـــوم طـــوا ف القـــادم المبتـــدر
وأعقبوا ركعتـــي السعـــي استـــلام الحجـــر
وعـــرفـــوا فـــي عـــرفـــا ت كـــل عـــرف أذفـــر
ثم أفـــاض النـــاس سعيـــا فـــي غـــد للمعشر
فوقفـــوا وكبـــروا قبل الصبـــاح المسفـــر
وفي منى نالـــوا المنـــى وأيقنـــوا بالظفـــر
وبعـــد رمـــي الجمـــرا ت كـــان حلـــق الشعـــر
أكرم بذلـــك السفر واللـــه وذاك السفـــر
يـــا فـــوزه مـــن موقـــف يا ربحـــه من متجـــر
حتى اذا كـــان الـــودا ع وطـــواف الصـــدر
فـــأي صبـــر لـــم يخـــن أو جلـــد لـــم يغـــدر
وأي وجـــد لم يصـــل وسلـــوة لم تهجـــر

ما أفجع البين لقلب الواله المستعبر
ثم ثنوا نحو رسول الله سير الضمر
فعاينوا في طيبة لألاء نور نير
زاروا رسول الله واستشفوا بلثم الجدر
نالوا به ما أملوا وعرجوا في الأثر
على الضجيعين أبي بكر الرضا وعمر
زيارة الهادي الشفيع جنة في المحشر
فأحسن الله عزاء قاصد لم يزر
ربع ترى مستنزل الآي به والسور
وملتقى جبريل بالهادي الزكي العنصر
وروضة الجنة بين روضة ومنبر
منتخب الله ومختار الورى من مضر
والمنتقى والكون من ملابس الخلق عري
اذ لم يكن في أفق من زحل ومشتري
ذو المعجزات الغر أمثال النجوم الزهر
يشهد بالصدق له منها انشقاق القمر
والضب والظبي الى نطق الحصى والشجر
من اطعم الألف بصا ع في صحيح الخبر
والجيش رواه بما ء الراحة المنهمر
يا نكتة الكون التي فاتت منال الفكر
يا حجة الله على الرائح المبتكر
يا أكرم الرسل على الله وخير البشر
يا من له التقدم الحق على المتأخر
يا من لدى مولده المقدس المطهر
ايوان كسرى ارتج اذ ضاءت قصور قيصر
وموقد النار طفي كأنه لم يسعر
يا عمدتي يا ملجئي يا مفزعي يا وزري
يا من له اللواء والحوض وورد الكوثر
يا منقذ الغرقى وهم رهن العذاب الاكبر
ان لم تحقق املي يؤت بسعيي المخسر

صلى عليك الله يا   ثمال كل معسر
صلى عليك الله يا   نور الدجى المعتكر
يا ويح نفسي كم أرى   في غفلة من عمري
واحسرتي من قلة   الزاد وبعد السفر
يحجني والله بالبر   هان وعظ المنبر
يا حسنها من خطب   لو حركت من نظري
يا حسنها من شجر   لو اورقت من ثمر
أؤمل الأوبة والأمر   بكف القدر
أسوق العزم به   من شهر لشهر
من صفر لرجب   من رجب لصفر
ضيعت في الكبرة ما   أعددته في صغري
وليس ما مر من الاي   ام بالمنتظر
وقلما ان حمدت   سلامة في غرر
ولي غريم لا يني   في طلب المنكسر
يا نفس جدي قد بدا   الصبح ألا فاعتبري
واتعظي بمن مضى   وارتدعي وازدجري
ما بعد شيب الفود من   مرتقب فشمري
انت وان طال المدى   في قلعة وسفر
وليس من عذر يقيم   حجة المعتذر
يا ليت شعري والمنى   تسرق طيب العمر
هل ارتجي من عودة   أو رجعة او صدر
فأبرد الغلة من   ذاك الزلال الخصر
مقتديا بمن مضى   من سلف ومعشر
نالوا جوار الله وهو   الفخر للمفتخر
أرجو بابراهيم مو   لانا بلوغ الوطر
فوعده لا يمتري   في الصدق منه ممتري
وهو الامام المرتضى   والخير ابن الخير
أكرم من نال العلا   بالمرهفات البتر
ممهد الملك وسيـ   ـف الحق والليث الجري
خليفة الله الذي   فاق بحسن السير

وكان منـــه الخبـــر في العليـــاء   وفـــق الخبـــر
فصـــدق التصديق مـــن   مـــرآه للتصـــور
ومستعيـــن اللـــه في   ورد لـــه وصـــدر
فـــاق الملوك الصيـد بـــالمجد الرفيـــع الخطـــر
فأصبحـــت ألقابهـــم   منسيـــة لم تذكـــر
وحـــاز منـــه اوحـــد   وصـــف العديـــد الاكثر
برأيـــه المـــأمون أو   عسكـــره المظفـــر
بسيفـــه السفـــاح أو   بعزمـــه المقتـــدر
بالعلـــم المنصـــور أو   بالنبـــال المنتصـــر
يا ابن الامـــام الطاهـــر   البر الزكـــي السيـــر
مدحـــك قد علـــم   نظم الشعر من لـــم يشعر
جهد المقـــل اليـــوم من   مثلـــي كموســـع المكثر
فـــان يقصـــر ظاهـــري   فلـــم يقصر مضمـــري

قال لسان الدين في حق هذه القصيدة : « انها من الشعر المنسوب الى محاسنه » • فلعمري أن « هذا تعريض خفي لانه يفهم من كلامـــه هذا أنها قد تكون لغيره ونظمت له شأن الكبراء في الدولة • وكيف يا ترى يستغرب منه مثل هذا الشعر وهو القائل على البديهة الابيات السابقة في اللـــوز ؟

ولما شرح ابن مرزوق كتاب الشفاء للقاضي عياض طلب أهل العدوتين نظم مقطوعات تتضمن الثناء على الكتاب المذكور • فأجابه الكثير نذكـــر من بينهم ابن الخطيب وابن زمرك •

فقال الاول ثلاث قصائد بعثها اليه • اليك مطلع كل منها :

١ ـ شفاء عياض للصدور شفاء   فليس بفضل قد حـــواه خفاء
٢ ـ أأزاهيـــر ريـــاض   أم شفـــاء لعيـــاض
٣ ـ حييت يامختط سبت ابن نوح   بكل مزن يغتـــدي أو يروح

وقال الثاني قصيدة مطلعها :

ومسرى ركاب للصبا قد ونت بـــه   نجائب سحب للتراب نزوعهـــا

وانشد الزمخشري في كشافه يعرض بأهل السنة والجماعة وينصر مذهبه وكان معتزلي الاعتقاد :

لجماعة سموا هواهم سنـــــة وجماعة حمر لعمـــري موكفه
قـد شبهـوا بخلقه وتخوفـوا شنع الوري فتستروا بالبلكفـه

وقد تصدى للرد عليه من أهل السنة جم غفير منهـم الخطيب ابن مرزوق ، فقال :

وجماعة عرفـــت لعمري بالسفه وتمسكت بضـلال اهل الفلسفه
عدلت على النهج القويم فلقبـت عدلية وعدولها عن معرفــــه
ضلت وقالت لن يرى رب الورى يوم الجزاء فألزمت نفي الصفـه
هذا وكم من زلــــة وكـــم من مذهب ذهبت به متلفــــه
وكذاك أسملت الامور لنفسهـا هيهات تنقذ نفسها من متلفـــه
كيف السبيل لصرفها عن غيهـا والعدل يمنع صرفها والمعرفـــه

فان ابن مرزوق بسؤاله والزمخشري بانتقاده أفادا الادب اذ استجليا مكنون قرائح الشعراء وبعثا فيهم نشاطا فجاءوا بشعر غزير •

ابو الحسن علي الخزاعي التلمساني

هو الشيخ أبو الحسن علي محمد بن احمدبن موسى بن مسعود الخزاعي التلمساني ، ينتمي الى أسرة عريقة قد اشتهرت في الاندلس بالرئاسة في السياسة والعلم وانتقلت الى الجزائر . وكان والده أديبا كاتبا ، اتصل ببني زيان . فحظي عندهم ، وقلدوه خطتين : السيف والقلم، لبراعته في الميدانين . واشتهر بلقب ذي الوزارتين . ومنحه الله سنة ٧١٠ هـ. نجلا كان خير خلف لخير سلف ، هو مترجمنا علي . نشأ هذا مقتفيا أثر أسلافه مكبا على تحصيل العلم والتدرب في فنون الكتابة . تتلمذ لكثير من كبار الأساتذة كأبن مرزوق الخطيب ، والقاضي البلفيقي ، واقتبس منهم علما غزيرا . فبلغ الغاية في براعة الانشاء ونظم الشعر ، وأصبح الى جانب كونه شاعرا وكاتبا عالما مؤرخا . وأمكنه بجده واجتهاده وثقافته العالية أن يتبوأ ذروة المجد كأبيه ، فتقلد الاعمال الجليلة ، وخدم الملوك كوالده . قربه اليه السلطان المريني ابراهيم أبو سالم وأغدق عليه من رزقه ، وقلده خطة الكتابة . ثم انتقل الى البلاط الزياني وكتب لسلطان تلمسان ، الا انه عاد الى البلاط المريني بفاس كاتبا للاشغال . ولم يلبث أن حاز لدى بني مرين رئاسة ديوان الكتابة وهذا المنصب ليس بالكثير في حقه نظرا الى مقدرته السياسية والثقافية .

قال الخزاعي الشعر وأجاد فيه . فأنصت الى قوله في موسى بن أبي عنان المريني لما كبا به فرسه بالشماعين بفاس اثر صلاته الجمعة بالقرويين :

مولاي لا ذنب للشقراء ان عثرت ... ومن يلمها لعمري فهو ظالمها
وهالها ما اعتراها من مهابتكم ... من أجل ذلك لم تثبت قوائمها
ولم تزل عادة الفرسان مذ ركبوا ... تكبو الجياد ولم تثب عزائمها
وفي النبي رسول الله اسوتنا ... اعلى النبيين مقدارا وخاتمها
كبابه فرس أبقى بسقطته ... في جنبه خدشة تبدو معالمها
صلى عليه الاله دائما أبدا ... أزكى صلاة تحييها نواسمها

وللخزاعي تأليف مشهور فريد من نوعه سبق به علماء عصره الى تدوين الحضارة الاسلامية على عهد الرسول (صلعم) وصنعه قبيل وفاته بثلاثة أعوام سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) وسماه تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله (صلعم) من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية ، ولا نقول فيه أحسن مما قاله الأخ الاستاذ عبد الرحمن الجلالي في الجزء الثاني من تاريخه القيم : « هو لعمري كتاب نفيس فريد في بابه مستوعب لموضوعه لم يترك خطة أو وظيفة أو رتبة أو صناعة أو حرفة او أي عمل من اعمال المجتمع الاسلامي في ميدان المصالح الادارية عسكرية كانت او مدنية أو شرعية أو عملية الخ ... الا وأثبت أصلها في الاسلام ودليلها من السنة وعمل الخلفاء الراشدين فيها مع التعرض الى ذكر أول من باشر تلك الأعمال بنفسه من الصحابة أو كان ممن ولاه رسول الله عليها ، فكان الخزاعي بذلك من أسبق العلماء الى تدوين تاريخ المدنية الاسلامية وتفصيل الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في صدر الاسلام . فجاء عمله هذا مفخرة من مفاخر الجزائر التي يحق لها أن تباهي بها وتتطاول » .

توفي الخزاعي ، رحمه الله ، بفاس يوم الاحد الخامس من ذي القعدة سنة ٧٨٩ هـ (١٧ من تشرين الثاني ١٣٣٧ م) .

عبد الرحمن بن خلدون

لقد أجمعنا الرأي على ألا ندرس في كتابنا هذا الا الجزائريين الأقحاح . فالادباء الذين نزلوا الجزائر واستوطنوها سنحدثك عنهم في تأليف آخر الا عبد الرحمن بن خلدون . فبما أنه قضى حياته في الأقطار العربية يخدم أمراءها ويفيد طلابها فلا نستطيع أن ننسبه الى أي قطر من هذه الأقطار دون الآخر ، فهو تونسي وجزائري ومغربي وأندلسي ومصري معا ، فلم يكن لنا بد من أن نترجم له فنقول :

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولد بتونس في أول رمضان عام ٧٣٢ هـ من أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والرئاسة ، انتقلت الى تونس في أواسط القرن السابع الهجري من اشبيلية .

ونشأ عبد الرحمن في تونس وأخذ العلم عن والده وعن بعض الأساتذة المشهورين بالزيتونة • ولكن تونس أصيبت بالطاعون ، فمات أغلب أفراد عائلته ، فحزن لذلك حزنا كبيرا • فدعاه السلطان أبو اسحاق ملك تونس عام ٧٥١ ليتولى كتابة العلامة • ولكن ابن خلدون لم يبق طويلا معه • فتركه والتحق بالمغرب الأقصى لمواصلة دراسته • فاتصل هناك بالقصر المريني ، فتولى الكتابة والتوقيع ، واتهم بالتآمر على السلطان • فرماه في غياهب السجون •

الا انه أطلق سراحه بعدوفاة ابي عثمان ورد الى وظائفه • ثم تولى كتابة السر والانشاء وخطة المظالم لأبي سالم • ولاذ وقتئذ بالسلطان أبي سالم ملك غرناطة محمد بن الاحمر ووزيره لسان الدين بن الخطيب بعد ان اغتصب العرش منه • فاتصل ابن خلدون بلسان الدين وتوطدت الالفة بينهما • ثم توفي السلطان ابو سالم سنة ٧٦٢ هـ • ولم يلبث ان استرد ملك الاندلس عرشه • وفي عام ٣ ٧ هـ شخص ابن خلدون الى الاندلس فأقام مشمولا بعناية ورعاية ابن الاحمر ووزيره ابن الخطيب• ولحقه هناك من شرور السعاية ما نغص عيشه وكره اليه المقام • فعزم على مغادرة الديار الاندلسية وتوجه الى بجاية حيث تولى الحجابة ، الا أن دولة بجاية زالت فبقي ابن خلدون ينتقل من خدمة امير الى خدمة آخر •

ثم انتقل الى المغرب ثم الى الاندلس • ولكن الجو السياسي لم يلائمه • فانثنى راجعا وعازما على اعتزال الحياة السياسية والانقطاع الى الدرس والتأليف • فقصد في سنة ٧٧٦ هـ قلعة بني سلامة ، بنواحي « تيارت » ، وكان عمره اذ ذاك اثنين واربعين عاما •

وهناك اخذ يدون مقدمته التي بها اشتهر وبها اصبح للتاريخ اتجاه جديد • وبها يعد ابن خلدون المبتكر لعلم الاجتماع وواضع أسس العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد الاجتماعي والسياسي وفلسفة التاريخ والقانون العام • فانها اثر لحياة ابن خلدون وثقافته وتجاربه بعروش دول المغرب وتوليته اعظم المناصب فيها • ان ما في المقدمة لم يتعرض له اي

عالم قبله . فالكلام فيها « مستحدث جديد أدى اليه البحث والتفكير » وأنه « ليس من علم الخطابة المنطقية ولا من علم السياسة المدنية » وأنه « علم مستقل » . فالتاريخ عنده ليس سرد الحوادث فقط ، بل ينبغي تحليلها والبحث في اسبابها والنظر فيها بعين ناقدة تميز بين الاساطير والتاريخ ، وتمحص حتى تقف على الخطأ والصواب في الخبر . فهو خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم وما يعرض له من احوال وما ينشأ عنه من ملك وما ينتحله البشر من صناعات ومعارف . الا أن القواعد التي وضعها لكتابة التاريخ قد أخل فيها . ولكنه معذور . فلعله لم يجد المراجع الكافية ليسلم من نفس المغالط التي اخذ على سابقيه الوقوع فيها .

قضى أربع سنوات في تأليف هذا الكتاب الوحيد من نوعه اذ ذاك فأتمه عام ٧٧٩ هـ . ثم ارتحل الى تونس للنظر في بعض المراجع والكتب فكتب اثرها فصولا اخرى من كتابه وفي سنة٧٨٤ سافر الى مصر ، وكانت سمعته قد سبقته اليها . فاتصل «ببرقوق» رأس دولة المماليك فقربه وولاه التدريس في المدرسة القمحية وقضاء المالكية . فأرسل الى عائلته يستقدمها من الجزائر ، ولكنها غرقت بها السفينة . وبعد ثلاث سنوات في القضاء قصد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، ثم عاد الىمصر وتولى القضاء مع التدريس دون أن ينقطع عن العمل في كتاب التاريخ حتى أتمه عام ٧٩٧ هـ وسماه « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » وقسمه الى مقدمة وثلاثة كتب . وسافر الى الشام وفلسطين . وبينما كان في دمشق أغار « تيمورلنك » على تلك النواحي فوقع أسيرا ، فقدم الىتيمورلنك، فأعجب به ، وعرض عليه مصاحبته . ولكن ابن خلدون امتنع واعتذر ، وعاد الى مصر . فاستأنف خطة القضاء للمرة الثالثة ، ثم استقال منها للمرة الرابعة ثم الخامسة ثم السادسة . وفي يوم ٢٥ رمضان سنة ٨٠٨ هـ توفي بمصر تاركا ذلك التراث الفكري العظيم الذي اصبح في عصر النهضة الاوروبية محور بحوث وجهود الفلاسفة الغربيين ، وذلك الاسلوبالذي

كان له اثر واضح في أساليب الكتاب والادباء في مصر منذ ذلك الحين.

ويعرض ابن خلدون في مقدمته نظريات عديدة منها أن الاجتماع الانساني ضروري وأن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه ، وأن البادية أصل العمران ، والامصار مدد لها ،وأن رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها ، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران، وان الهواء يؤثر في ألوان البشر والكثير من أحوالهم . ولا بأس أن نعطيك نموذجا من نظرياته في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة فقال :

« والسبب في ذلك (اي حصول الملك بصبغة دينية) أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الامم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة . فقلما تجمع أهواؤهم . فاذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان النوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهموذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة الوازع عن التحاسد والتنافس . فاذا كان فيهم النبي او الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لاظهار الحق ثم اجتماعهم . وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الاخلاق الا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيىء لقبول الخير ببقائه على الفطرة الاولى وبعد عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات . فان كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم » .

فمباديء عبد الرحمن بن خلدون في كتابة التاريخ كانت ثورة على الطريقة المتبعة قبله ودستورا مشى بمقتضاه من جاء بعده من المؤرخين والباحثين . وقد أعانه على التفوق على سابقيه حنكته في التعليل والاستدلال والاستنتاج ومهارته في الانشاء . فكلما وضع نظرية عزز كلامه بأمثلة فلا يدع مجالا للشك . وأسلوبه في ذلك كله سهل العبارة

قريب من الاذهان بريء عن الاغراب ، لا يلتزم فيه سجعا ولا محسنات بديعية •

ويثبت لنا التاريخ أن لعبد الرحمن شعرا •

خرج مرة صحبة امير بسكرة وزعماء مشايخ العرب الى نصرة السلطان أبي حمو الزياني • فاتصلوا به في مدينة البطحاء البسيط الواقعة بين مدينة غليزان ووادي شلف وبقي معهم ابن خلدون مدة الى ان أظلهم عيد الفطر هناك • فخطب عبد الرحمن وصلى بالسلطان صلاة العيد ، ثم أنشده عند انصرافه من المصلى قصيدة يهنئه بالعيد وفيها حث وتحريض للسلطان • فقال في مطلعها :

هذي الديار فحيهن صباحا وقف المطايا بينهن صلاحا
لا تسأل الاطلال ان لم تروها عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد اخذن على جفونك موثقا ان لا يرين من البعاد سحاحا
ايه على الحي الجميع وربما طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

فهذا شعر لا بأس به ولكن ليس فيه ما يميز ابن خلدون عن سواه من الشعراء وما يكسبه شهرة • فالشهرة التي يتمتع بها في العالم أجمع ترجع الى كونه مؤرخا ، شخصيا في آرائه وأديبا شخصيا في انشائه •

*

الفصل السّابع

فترة الجزائر العثمانية

٩٣٠ — ١٢٤٦ هـ

١٥١٤ — ١٨٣٠ م

السياسة :

قضى الاسبان على العروبة والاسلام في الاندلس . ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل تاقت نفسهم للشمال الافريقي ، فأغاروا عليه . فنزلوا بالسواحل الجزائرية واحتلوا المراكز الاستراتيجية كبجاية وجيجل والجزائر وتدلس ومستغانم ووهران وهنين . وكشفت هذه الاغارات عن مدى الضعف الذي كان يسري في جسم المملكة الزيانية اذ لم تقو على طرد العدو الذي داس أرض الوطن وحرمة البلاد . وتأكد الشعب أنه لا بد من أن يقاوم العدو بنفسه عاملا بقول من قال : ما حك جلدك مثل ظفرك . فشمر حينئذ عن ساعده واندفع للمقاومة ، ولكن هذه المقاومة ، مهما قويت شوكتها ، لا تكون نافذة المفعول الا اذا كانت لها قيادة حربية محنكة . وكان الاسطول التركي قد اشتهر بانقاذ مسلمي الاندلس من براثين الاضطهاد العنصري والديني المسيحي . فاستنجد حينئذ الشعب الجزائري بالاتراك ، وبعثوا اليهم برسائلهم وقصائدهم . فلبوا طلبهم وحاربوا العدو حربا مريرة بجانب الشعب الجزائري الباسل الأبي حتى أرغموه ان يعرض الصلح على الجزائر . فأبرم في عام ١٧٨٥ . وشرعت اسبانيا في الجلاء يوم ١٧ كانون الاول ١٧٩١ وتم الجلاء النهائي في شهر اذار ١٧٩٢ م رمضان ١٢٠٦ هـ . وكما أن الشعب طهر بلاده من الاسبان فانه أتى على قواعد مملكة الزيانيين الذين اشغلهم عن الذود عن سلامة البلاد تنازعهم على السلطان والطموح الى السيطرة والنفوذ . فلم ينفعهم للاحتفاظ بالملك اتصالهم بالاسبان ولا تواطؤهم معهم ولا استجاشتهم بالوطاسيين ملوك فاس . فانضمت رقعة مملكتهم الى ارض الوطن الذي حرره المجاهدون البررة ، كما اضيفت اليه مقاطعتا قسنطينة وبجاية حينما أرغم الحفصيون على التخلي عنهما . أنقذت هذه المعركة الجزائر من فرسان المسيحية ، ولكنها جعلتها تحت السيطرة التركية مدة ذاق أثناءها الشعب الجزائري مرارة تصرفات الجند الفظيعة ، والجند التركي كان من أتراك ومرتزقة . وفي أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر سيطرت

عائلتان يهوديتان ، عائلتا بخريص وبوشناق ، على الاقتصـــاد الجزائري واحتكرتا اسواق الحبوب ، أضف الى ذلك تواطؤ الداي مع الفرنسيين حين وقع معهم معاهدة تضمن امتيازات للمركز التجاري الفرنسي وتسمح للفرنسيين بامتلاك قوة عسكرية داخل المركز مما يعد نيـلا من السيادة الجزائرية • هذا من جهة ، ومن جهة أخرى انفرد الاتراك بامتيازات مع أن الاسلام يفرض المساواة بين المسلمين • فهذه الظواهر كلها أغضبت الشعب الجزائري فلجأ الى رجال الدين فأفتوا بشرعية الثورة ضد الحاكميـن وأعلنوا حربا عمت جميع البلاد وفشلت لعدم قيادة خبيرة بأمور الحرب• ولكن ، لا يهمنا فشل هذه الثورة أو نجاحها • الامر المهم عندنا هو أن الشعب الجزائري أصبح واعيا يجسم أمة تسهر على مصالح البلاد وعلى السيادة الوطنية وأن البلاد لهم لا لغيرهم •

وفي عام ١٨١٧ أبى الداي الا ان يتخلص من البولداش ، أولئك الجنود الاتراك الذين لا يعرفون نظاما ولا يتقيدون بأي شيء • فغادر « علي خوجة » مقر الحكم الى حي باب الجديد بالقصبة واختار حاميته الخاصة من أبناء الجزائر ، ابناء الجرجرة • فغضب لذلك الجنود الاتراك لكن القوة الشعبية قامت ضدهم وألزمتهم الاستسلام • فهكـــذا طهر الجزائريون بلادهم من المحتل الاجنبي واحرزت الجزائر على وحدتهـا القومية وحريتها واستقلالها بحدودها التي وجدها عليها الفرنسيون ابـان الاحتلال واصبحت دولة جمهورية •

المجتمـــع :

المجتمع الجزائري قد أنهكته المحن التي ألمت به من فتن وثـورات في عصر الزيانيين ومن غارات اسبانية فيما بعد ذلك • فلم يتنفس الشعب الصعداء حتى أنهى على السلطة الزيانية وأجلى الاسبان عن أرض الوطن اجلاء نهائيا • فصفا الجو ووقع استقرار نسبي ولا سيما في الحكم التركي كان له الاثر الحسن في الميادين الاجتماعي والاقتصادي فأمكن للشعب ان يتنفس ويسترجع ما فقده من رفاهية • فازدهرت حركة الفلاحة وتربية

المواشي • وكانت اراض تسمى « العرش » وهي ملـــك للقبيلة كلهـا تستعملها للرعي او توزع شيئا منها على اعضاء القبيلة ممن هم في حاجة اكثر من غيرهم • فكانت القبيلة بفضل هذا النظام تحافظ على التـوازن بين الموسرين وغيرهم من أفرادها • فنظام الملكية في الجزائر كان يقوم وقتئذ على أسس اشتراكية بحيث ان نظام الملكية المشتركة الذي نطبل له اليوم ونزمر ، ليس بغريب عن حياتنا •

الا ان هذا النظام الاشتراكي لم ينف وجود الملكية الفردية • فقد عرفت بلادنا اقطاعيين كثيرين •

وبجانب هذا النظام كان نظام آخر أعني به الاوقاف التي كانت لها مداخيل مهمة تذهب لفائدة التعليم وبناء المساجد والقيام بشؤنها واصلاحها ومشاريع خيرية اخرى •

وبجانب الفلاحة نرى أن الصناعة أيضا قد نشطت • فقد أحـذق الصناع في النسيج والدباغة والاسلحة كالسيوف والمدافع الخفيفة وفي صنع السفن في الموانيء الهامة •

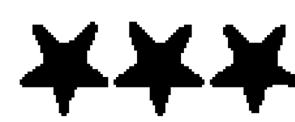
وكان للجزائر نظم تجارية داخلية وخارجية ، وتبادلها التجاري كان مع القطرين الشقيقين ، المغرب وتونس ، وبعض البلاد الاوروبية •

ويلاحظ ان الاتراك لم يندمجوا في المجتمع الجزائري كاندمـــاج الاندلسيين النازحين اثر الاضطهـاد الاسباني المسيحـــي ، وذلك لان السياسة التركية كانت قائمة على التخوف من السكان الجزائريين وعلـى حرمان هؤلاء من مناصب الادارة والحكم كما فعلت روما قبلهم وفرنسا بعدهم • فكانوا يجندون الجنود من الخارج حتى يمكنهم ان يسيطروا على الاهالي وان يمتد عهدهم بالبلاد •

الا أن من مآثر الاتراك عددا لا بأس به من المساجد والقصـور والقلاع العسكرية والسدود والسواقي وكان لرجال الدين والعلم حظوة لدى أولي الامر ، فكانوا دائما الى جانبهم لا سيما وقت التعدي المسيحي•

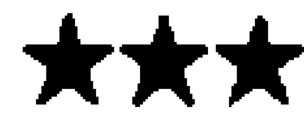
الثقافة :

ذكرنا أنه كان تطاحن بين افراد العائلة المالكة بتلمسان في اواخر أيامها • فمن البديهي ان تتعثر الحياة الثقافية الفكرية يومئذ • ونلاحظ أن جهود الاتراك كانت متجهة نحو حركة الجهاد ضد القراصنة والمعتدين على البلاد • فلم يعطوا لامر الثقافة ما تستحقه من عناية واهتمام ، ولهذا غلب على عهدهم طابع الجفاف الفكري • وطالما لوحظت هذه الظاهرة من قبل في جميع الاقطار التي سيطروا عليها • الا أننا لا ننكر بأن مدنا مثل بجاية وتلمسان وقسنطينة ومازونة لم تزل محافظة على ما ورثته من التراث الفكري • فنبغ فيها رجال خلفوا لنا علوما وأدبا كما سترى بعد • وبما أن المركز السياسي تحول الى مدينة الجزائر فان الحركة الفكرية عرفت في هذه المدينة نموا لا بأس به فيما يخص الفنون اللسانية والادبية •



ممن اشتهر في علم الحديث الامام المجتهد ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجعفري نسبة الى عبدالله بن جعفر بن ابي طالب • ولد سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٥ م) بناحية وادي يسر وهو موطن آبائه وأجداده الثعالبة أبناء ثعلب بن علي من عرب المعقل • اخذ العلم في صغره من علماء ناحيته • ثم ارتحل الى بجاية ، فنزل فيها سنة ٨٠٢ هـ (١٣٩٩ م) واتصل بعلمائها وأخذ عنهم ، ثم انتقل الى تونس سنة ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) ومن هناك انتقل الى مصر واستفاد من علمائها ، وقصد البقاع المقدسة • فحج ولقي فضلاء أخذ عنهم وعاد الى تونس ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) • فوجد فيها ابن مرزوق الحفيد فلازمه واستفاد من علمه • ففاق علماء تونس في الحديث • فقال : « ولم يكن بتونس يومئذ من يفوتني في علم الحديث• اذا تكلمت انصتوا وقبلوا ما أرويه تواضعا منهم وانتصافا واعترافا بالحق » • وعاد الى وطنه وتصدر للاقراء وعكف على العبادة والتأليف • فاستفاد منه كثير من الطلبة • منهم محمد بن يوسف السنوسي والشيخ

أحمد زروق ومحمد المغيلي التلمساني وأحمد بن عبدالله الجزائري وابن مرزوق الكفيف • تولى القضاء ، ثم خلع نفسه ، والخطابة بالجامع الاعظم بالجزائر وان من بقايا آثاره مقبض عصا خطيب الجمعة بالجامع المذكور. ترك رحمه الله ما يزيد على التسعين مؤلفا في التفسير والفقه والحديث والتاريخ والعبادات ويروى له قصائد في الزهد •



ومن اشتهر في العربية والمنطق العالم أحمد بن يونس بن سعيد بن عيسى الحميري القسنطيني • ولد بقسنطينة سنة ٨١٣ هـ (١٤١٠ م) ونشأ فيها واخذ عن علماء بلدته الحديث والاصلين والبيان والمنطق والطب وغيرها من العلوم العقلية والنقلية • وارتحل الى البقاع المقدسة وحج سنة ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) • وتتلمذ هناك لكثير من العلماء • ثم عاد الى بلده • ثم حج وجاور بمكة وولى • ثم حج وجاور بمكة مرة ثانية وتزوج فيها وتصدى فيها لاقراء العربية والحساب والمنطق • وجاور أيضا بالمدينة ثم استوطنها واقرأ فيها وارتحل الى القاهرة حيث لقي السخاوي فقال هذا : « وقد لقيته بمكة ثم بالقاهرة واغتبط وسمع مني بعض الدروس وسمعت أنا كثيرا من فوائده ونظمه • منه قوله في طالع قصيدة امتدح بها النبي :

يا أعظم الخلق عند الله منزلة   ومن عليه الثنا في سائر الكتب

وأطلعني على رسالة عملها في ترجيح ذكر السيادة في الصلاة على النبي وغيرها بعد ان استمد مني فيها • وكان اماما في العربية والحساب والمنطق مشاركا في الفقه والاصلين والمعاني والبيان والهيئة • ومات بالمدينة في شوال سنة ٨٧٩ هـ (شباط ١٤٧٤ م) ودفن بالبقيع •



ومن اشتهر في الفقه أبو زكريا يحيى بن ابي عمران بن عيسى بن يحيى المغيلي المازوني • أخذ علمه عن والده وعن أئمة وقته كابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وابن زاغو محمد بن العباس • فنال قسطا وافرا

من العلم وتولى قضاء بلدةمازونة • فكان مرجع اهل الشورى في الاحكام الشرعية معتمدا في مذهب مالك ، حاملا لواءه بالمغرب •

له من التآليف كتابه المشهور باسم « الدرر المكنونـــة في نوازل مازونة » وهو كتاب حافل بفتاوي المتأخرين من علماء الجزائــر وتونس والمغرب ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجزائر الوطنية في جزئين ومن هذا الكتاب استمد الونشريسي في المعيار •

توفي المازوني بتلمسان سنة ٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م) •



ومن اشتهر في المعقول والمنقول أبو الفضل محمد بن أبي القاسم المشدالي نسبة الى مشدالة احدى قرى بجاية • ولد ببجاية رجب سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) في بيت كريم معروف بالعلم والصلاح • تعاطى مـن صغره العلم والادب والحكمة • وكان متوقد الذهن • اخـــذ القرآن برواياته السبع عن والده • قيل انه ابتدأ حفظ القرآن ببجاية في السنــة الخامسة من عمره ، وأتم حفظه في سنتين ونصف • وبعد ذلك أكب على حفظ المتــون ودواوين الادب • واختلف الى المشايخ ولازم منهم أبــا يعقوب يوسف الريغي فأخذ عنه علم الصرف • ثم اخذ عن ابي التلمساني فنون اللغة والمنطق والاصول والميقات وعن ابي بكر بن عيسى الونشريسي اخذ الميقات أيضا ، ثم عن علي يعقوب التيروني النحو وعن ابي اسحاق ابراهيم بن أحمد بن ابي بكر النحو والاصلين والمعاني والبيان وعلــوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه عن والده ابي عبدالله • ولم يقنع بما اخذ في بجاية • فأراد التحر والتعمق في العلم ، فارتحل الى تلمسان سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) •

وهناك اجتمع بفطاحل اخذ عنهم التفسير والحديث والفقه والادب والمنطق والطب والتصوف والفلسفيات والهندسة والحساب وجر الاثقال والجبر والمقابلة وعلم الهيئة والارطماطيقي والموسيقى وفنونا اخـرى • وبعدما تزود بعلم كثير عاد الى بلده بجاية سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) مبرزا

على أقرانه • فتصدر بها للاقراء وتدريس العلم •

ويروى أن ابن مرزوق الحفيد قال : « ما عرفت العلم حتى قدم علي هذا الشاب • فقيل له : كيف ؟ ـ قال : « لاني كنت أقول فيسلم كلامي• فلما جاء هذا شرع ينازعني • فشرعت أتحرز وانفتحت لي ابواب من المعارف » •

وقال أيضا : « ان عاش هذا كان عالم المسلمين » •

وكتب ابن مرزوق لابيه : انه قدم علينا وكنا نظن به حاجة الينا ، فاحتجنا اليه اكثر •

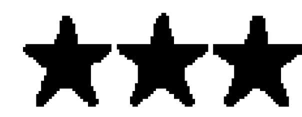
وقد دخل عنابة وقسنطينة وتونس • ومن ثم أبحر الى مصر على ظهر سفينة لنصارى « جنوة » فأرست به في قبرص • فنزل هناك وتجول فيها وحصل له مع بعض أساقفتها مناظرة • ثم ارتحل من قبرص الى بيروت (آذار ١٤٤٢ م) فطاف بلاد الشام ، ثم دخل القدس ، ثم حج سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) ، وجاور ، ومن ثم شخص الى القاهرة حيث ارتفع شأنه عند السلطان وأرباب المملكة ، وأخذ ينشر علومه من معقول ومنقول • فأدهش الالباب ، فزادت بذلك شهرته وعلت مكانته • وكان ممن تعرف اليهم بأرض الكنانة السخاوي صاحب الضوء ، وقد ترجم له في هذا الكتاب وقال عنه : « قد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة ، ورأيت منه من حدة الذهن وذكاء الخاطر وصفاء الفكر وسرعة الادراك وقوة الفهم وسعة التحفظ وتوقد القريحة واعتدال المزاج وسداد الرأي واستقامة النظر ووفور العقل وطلاقة اللسان وبلاغة القول ورصانة الجواب وغزارة العلم وحلاوة الشكل وخفة الروح وعذوبة المنطق ، ما لم أره من احد » • وزاد يقول عن درسه : « ثم حضرت درسه في فقه المالكية بالجامع الازهر في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين • فظهر لي انني ما رأيت مثله ••• وأن من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب» • وقال فيه ابن ابي عذبية : « الامام العلامة أوحد أهل زمانه قدم علينا القدس سنة ٨٤٧ هـ فأقرأ العضد وكتب المنطق والمعقولات ، وشهد له الأئمة ببلدنا

وبدمشق ومصر وطرابلس أنه أوحد أهل الارض وأنه العديم النظير في بني آدم » •

وليس للمشدالي من التآليف سوى كتاب واحد وهو شرحه على جمل الخونجي • ومن شعره ، وكان بتلمسان سنة ٨٤٠ للهجرة ، وهو في عهد الشباب ، مخاطبا بعض اصدقائه ببجاية ، هذه الابيات :

برق الفراق بدا بأفق بعادنا فتضعضعت أركانها لرعوده
كيف القرار وقد تبدد شملنا والبين شق قلبنا بعموده
لله أيام مضت بسبيلها والدهر ينظم شملنا بعقوده

وتوفي ، رحمه الله ، غريبا بعينتاب من بلاد الشام في شهر شوال سنة ٨٦٤ هـ (تموز ١٤٦٠ م) قبل وفاة والده بسنتين •



وممن اشتهر في علوم الشريعة حامل لواء المذهب المالكي على رأس المائة التاسعة احمد بن يحيى بن محمد الونشريسي نسبة الى جبال الونشريس بمقاطعة الاصنام • ولد حوالي سنة ٨٣٤ هـ (١٤٢٨ م) • وتتلمذ لشيوخ تلمسان كأبي الفضل قاسم العقباني والقاضي العالم أبي سالم العقباني ومحمد بن العباس وأبي عبدالله الجلاب والكفيف بن مرزوق والغرابلي والمازوني •

كان الونشريسي متخصصا في علوم الشريعة والاصول • ووقعت له واقعة من طرف السلطان فانتهبت داره بتلمسان في أوائل المحرم ٨٧٤هـ (تموز ١٤٦٩ م) فعزم على مغادرة بلده • ولجأ الى فاس ، فاستوطنها ، وانقطع فيها للتدريس • فتخرج على يده جماعة من كبار العلماء منهم ولده عبد الواحد وأبو عباد بن مليح اللمطي والاستاذ ابو زكريا السوسي والفقيه محمد بن عبد الجبار الورتد غيري والمصمودي وقاضي فاس محمد بن الغرديسي التغلبي • وكان لهذا القاضي مكتبة هائلة انتفع بها الشيخ الونشريسي في تصنيف معياره ، ولا سيما فيما يرجع الى فتاوي

فاس والاندلس • وأما فتاوي أهل افريقية وتلمسان فاعتمد فيها على نوازل البرزلي والمازوني • وهذا الكتاب النفيس سماه «المعيار المغرب عن فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب » • طبع لاول مرة في فاس سنة ١٣١٤ ه في اثني عشر مجلدا • وله تآليف أخرى : تعليق على ابن الحاجب الفرعي في ٣ أسفار ، وغنية المعاصر ، وكتاب القواعد في الفقه والوثائق المسماة بالفائق في أحكام الوثائق • وقد نقد الونشريسي كتاب ابن الخطيب « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » فقال : « الحمد لله جامع هذا الكلام المقيد هنا بأول ورقة منه ، قد كد نفسه في شيء لا يعني الأفاضل ، ولا يعود عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائل وأفنى طائفة من نفيس عمره في التماس مساوىء طائفة ، بهم تستباح الفروج ، وتملك مشيدات الدور والبروج ، وجعلهم أضحوكة لذوي الفتك والمجانة ، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة ، سامحه الله وغفر له » (١) •

هذا نموذج من نثره ، نلمس فيه البساطة والوضوح ولكن يساير فيه أهل عصره فيلتزم السجع •

وكان متواضعا فرغم غزارة علمه وسعة اطلاعه تراه دائما يبحث ويسأل حتى من كان أدنى منه مقاما • فجاء في تأليف لابن غازي سماه بـ « الاشارات الحسان المرفوعة الى حبر فاس وتلمسان » يعني بحبر فاس وتلمسان الشيخ الونشريسي • فقال : (٢) الى السيد الفقيه العالم المحقق المدرس المفتي الصدر ، الحجة الكبير الخطير الاحظى الملحوظ الاحفل الاكمل أبي العباس سيدي أحمد بن سيدي يحيى الونشريسي ، حفظ الله سبحانه وتعالى كماله وبلغه في الدارين آماله من محبه طبعا وشرعا أصلا وفرعا ، وترا وشفعا ، افرادا وجمعا ، محمد بن احمد بن غازي سمح الله سبحانه له مسلما عليكم أكمل السلام مخصصا لكم بمحض البر والاكرام•

---

١ ــ ازهار الرياض ج ٢ ص : ٢٩٧

٢ ــ أزهار الرياض ج ٣ ص : ٦٥

سيدي ، متى صار النهر يستمد من الساقية ؟ وكيف عاد الشيخ يفتقر الى الساقية .

في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل
ليس التكحل في العينين كالكحل

كتبت ، كتب الله لك السعادة ، وبلغك منها الحسنى والزيادة ، تشارك محبكم في امر سعيد بردا باسكات عمر بن عبد العزيز ، أو اخراجه من المسجد ، هل كان ذلك في خلافته ، أم في امرته بالمدينة ؟ ومن برد هذا ، ومن عرف به ؟ ومن قال باسلام أبي طالب غير السعودي ؟ ومن أبو العباس العشاب الذي نقل عنه ابن عرفة في فصل الاستثناء من كتاب الطلاق ؟ ومن الابلي المصري ؟ وهل الف أحد في التعريف برجال أهل السنة والمعتزلة ؟فتوزع فكر محبكم في ايرادكم شذر مذر ، ولم يكن بد من اسعاف ردكم ، ولو بالتشدق والهذر » .

وقد وصفه المقري بحافظ الاسلام

توفي ، رحمه الله ، يوم الثلاثاء ٢٠ من شهر صفر سنة ٩١٤ هـ (١٤ حزيران ١٥٠٨ م) وعمره يومئذ نحو الثمانين سنة ابان سقوط وهران بيد الأسبان على قول أحمد بابا التنبكتي .

رثاه الوادياشي الذي حل بتلمسان بعد ان اخذ غرناطة وحصلت له فيها مصاهرة مع أعيانها بني مرزوق فقال :

لقد أظلمت فاس بل الغرب كله ... بموت الفقيه الونشريسي أحمد
رئيس ذوي الفتوى بغير منازع ... وعارف أحكام النوازل الاوحد
له دربة فيها ورأي مسدد ... بارشاده الاعلام في ذاك تهتدي
وتالله ما في غربنا اليوم مثله ... ولا من يدانيه بطول تردد
عليه من الرحمن أفضل رحمة ... تروح على مثواه فيضا وتغتدي

وقال :

أبعد ابي يحيى اليوم في الغرب عالم ... يطبق بالفتيا المفاصل مثله
ويعرف من فقه النوازل غاية ... يوقع منها ما به بان نبله

وان جئت للانصاف لم يبق مثلـــه   وهذا الجليل ليس ينكر فضلـــه
فاذ كان جاء الموت فالصبر والرضا   على ما قضى الخلاق فالحول حوله

وقـــال أيضا مبدلا القافيـــة :

رأيت نجوم الدين تبكي حزينـــة   على فقد حبر كان قطب أولي العليا
فقلت ومن هذا ؟ فقالت مجيبـــة   على الونشريسي رئيس ذوي الفتيا
فصحنا وقلنا ويلنا ثم ويلنـــا   على فقده مذ غاب اظلمت الدنيـــا
عليه من الرحمان افضل رحمـــة   تعاهد مثواه مع الجـود والسقيا

وقـــال مستعملا قـــافية أخرى :

رأيت نجوم الدين تبكي حزينـــة   على فقد من قد كان قطب زمانـــه
فقلت ومن هذا ؟ فقالت : مجيبـــة   على الونشريسي وحيـد اوانـــه
اليه انتهت في الفقـــه كل رياسة   ومعرفة زينت بحسن بيانـــه
ومذ غاب عنا اظلم الكون كلـــه   وصار الضحى ليلا لفقد عيانـــه
وان عزائي فيـــه للخلق كلهـــم   خصوصا ذوي فقه لعز مكانــــه

الادب :

ان الادب لمرآة عصره • عرفناه قويا على عهد ما كان ملوك الجزائر أقوياء وعرفناه جميلا على حين كانت الحياة ناعمة جميلة مطمئنة • أما الآن فهذه الفتن تشب في جميع أطراف الجزائر ، وها الاسبان يشنون غاراتهم على شواطىء البلاد ويجسرون حتى يقبضوا على مراكز في قلبها ، وهـا ملوك تلمسان يتسابقون ويتقاتلون للاستيلاء على الحكم ويتواطئون مع الاسبان او الوطاسيين • فكثرت المحن وتألمت الجزائر • فالادب هو الآخر أخذ الضعف يدب في مفاصله ، وقل رجاله ، ولم يبق من الحركة الفكرية التي طالما ازدهرت قبل هذه الفترة الا ذلك البصيص النافذ من بيوتـا ت عرفت بالعلم من قديم • فلا نجده ماثلا في القرن العاشر في أديب يستحق هذا الاسم عن جدارة ، وانما نعثر على رجال مثقفين زاولوا قرض الشعر وأصابوا منه بعض الشيء • فالادباء الذين يتميزون بهذه الصفة لا نعثر

عليهم الا في القرن الحادي عشر مع المقري وابن الفكون وغيرهما عالجوا الشعر وجاؤوا بالقصائد التي تنبأنا بخروجه من نكسته التي أصابته في القرن السابق ، فاذا ماء الشعر عاد يجري في عروقه على الرغم من المحسنات البديعية التي نمقوه بها •

وعالجوا النثر فأتوا به خالصا كأنه شعر منثور عمدوا فيه الى المحسنات البديعية في حين ، ومرسلا مطبوعا في حين آخر •

سنقدم لك أولا صورة من أدب تلك الفئة المتأخرة من علماء وأدباء العصر الزياني وفي طليعتهم التنسي •

التنسي

من الأدباء الذين لهم صيت في هذه الآونة الحافظ محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني • كان من أكابر علماء تلمسان • وصفه أحمد بن داود الاندلسي « بقية الحفاظ قدوة الادباء العالم الجليل » • وسئل أحمد بن داود ، حيث خرج من تلمسان ، عن علمائها فقال : « العلم مع التنسي ، والصلاح مع السنوسي والرئاسة مع ابن زكري » •

أخذ علمه من علماء بلده منهم ابن مرزوق الحفيد وابن الامام وقاسم العقباني والعالم الاصولي محمد بن النجار وابراهيم التازي وابن العباس • تصدرللاقراء ، فأخذ عنه كثير من الفضلاء منهم أبو القاسم الزواوي والشيخ عبد الله بن الجلال وحفيد الحفيد ابن مرزوق ، ولازمه أبو عبد الله بن الامام بن العباس عشر سنين وحضر اقراءه تفسيرا وحديثا وفقها وعربية وغيرها • نقل عنه الونشريسي بعض فتاويه في المعيار، ووصفه بالحفظ والادب والتاريخ • وله تآليف منها « الطراز في الضبط » و « نظم الدر والعقيان في دولة آل زيان » وراح الارواح فيما قاله أبو حمو » (١) •

وقد أتى المقري في النفح والازهار بنموذجين من نثره فجاء في راح

---

١ ـ ابو حمو موسى بن يونس الزياني .

الارواح بأسلوب سهل لكنه استعمل فيه السجع ويا حبذا لو تخلى عنه ، ولكن ، ما من مسايرة العصر في ذلك بد ، فقال :

« انه كان يقيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بمشورة من تلمسان المحروسة ، مدعاة حفيلة ، يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ، وبسط موشاة ، ووسائد بالذهب مغشاة ، وشمع كالاسطوانات، وموائد كالهالات، ومباخر صفر منصوبة كالقباب يخالها المبصر من تبر مذاب ؛ ويفاض على الجميع أنواع الاطعمة كأنها أزهار الربيع المنمنمة تشتهيها الانفس وتستلذها النواظر ، ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر ، رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال ، وقد علت الجميع ابهة الوقار والاجلال ، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكفرات ترغب في الاقلاع عن الآثام ، يخرجون فيها من فن الى فن ، ومن اسلوب الى أسلوب . ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح الى سماعه القلوب . وبالقرب من السلطان ، رضوان الله عليه ، خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلة يمانية ، لها أبواب مرتجعة على عدد ساعات الليل الزمانية فكلما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب من أبوابها ، وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة . ويسراها على فمها كالمؤدية المبايعة حق الخلافة . هكذا كان حالهم الى انبلاج عمود الصباح ونادى المنادي حي الفلاح » .

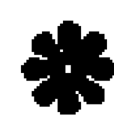
وأما في نظم الدرر والعقيان فجاء أسلوبه مرسلا لا يشوبه سجع . فقال في نفس المعنى :

« وكان السلطان أبو حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يقيم مدعاة ، يحشر لها الاشراف والسوقة . فما شئت من نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة وشمع كالاسطوانات وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون . وبأيديهم مباخر ومرشات ، ينال كل منها بحظه.

وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين، محكمة الصنعة بأعلاها أيكة تحمل طائرا فرخاه تحت جناحيه ويختله فيهما أرقم خارج من كوة بجذر الايكة صاعدا ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الله الزمنية ، يصاقب طرفيها بابان كبيران ، وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظير من الفلك ، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن ، وينهش الارقم احد الفرخين فيصفر له ابواه • فهنا يفتح باب الساعة الذاهبة وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما انت راء بيمناها اضبارة فيها اسم ساعتها منظوما ، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة • والمسمع قائم ينشد أمداح سيدي المرسلين وخاتم النبيين ، سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم • ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دورا والرياض نورا ، قد اشتملت من محاسن انواع الطعام على ألوان تشتهيها الانفس وتستحسنها الاعين ، وتلذ بسماع أسمائها الاذن ، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول ، وان كان ليس بغرثان ، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه • وكل ذلك بمرأى منه ومسمع حتى يصلي هناك صلاة الصبح •

على هذا الاسلوب تمضي ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته ،أعلى الله مقامه في عليين ، وشكر له في ذلك صنعه الجميل آمين ! وما من ليلة مولد مرت في أيامه الا ونظم فيها قصيدا في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم • أول ما يبتدىء المسمع في ذلك المحفل العظيم بانشاده ، ثم يتلوه انشاد من رفع الى مقامه العلي في تلك الليلة نظما » •

وتوفي التنسي سنة ٩٠٠ هـ (١٤٩٤) م •



ولا بأ س أن نأتيك بالاشعار التي أنشأها أبو زكريا يحي بن خلدون

كاتب أبي حمو على لسان جارية المنجانة • فقال في الساعة الاولى من الليل :

أمولى الملوك وأعلى الامم ومن جوده العالم الكل عم
مضت ساعة لبيت لو تنثني فان الحياة بكم تغتنم
ولله وجهك لما بدا وقد خلته البدر في الافق تم
عليه لأجل التقى هيبة وفيه من الفضل بشر الكرم
أقمت بمولد خير الورى سرورا لكم بالمعالي حكم
طويت الفؤاد على حبه ففعلك هذا على ذاك نم
فنلت السعادة دنيا وأخرى وحزت المفاخر دون الامم
فدم ما حييت لنا ملكا يطيعك عرب الورى والعجم

وقال في الساعة الثانية :

أخليفة الرحمن والملك الذي تعنو لعز علاه أملاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي علا بك مالكي أفق السما لمن نظر
أو ما ترى فيه النجوم زواهرا وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت تثني عليك ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصورا بكم وبلغت مما ترتجي أسنى الوطر

وقال في الثالثة :

أمولاي يا ابن الملوك الألى لهم في المعالي سني الرتب
تولت ثلاث من الليل أبقت لك الفخر في عجمها والعرب
فدم حجة الله في أرضه تنال الذي شئته من أرب

وقال في الرابعة :

يا واحدا في المعالي ومالك الفضل أجمع
مولاي دمت علينا مضت لليلك أربع
لا زلت تفني الاعادي وللمفاخر تجمع

وقـال في الخامسـة

يا أميـــر المسلمينـــا وجمـــال العالمينـــا
والــذي جاز المعالـــي كلهـــا دنيـــا ودينـــا
وقـــد مضت لليـــل خمس حسنهـــا راق العيونـــا
وانقضـــى النصـــف فـــآه هكـــذا تمضـــي السنونـــا
دمت فـــي عز وسعـــد خالـــد الملـــك مكينـــا

وقـال في السادسـة :

يا ما جـــدا وهـــو فـرد تخالـــه فـــي عساكـــر
ســـت من الليـــل ولت ما ان لهـــا من نظائـــر
دامت لياليـــك حتـــى الـــى المعـــاد نواظـــر

وقـال في السابعـة :

يا مـــن له الفخـــر طبـــع والفضـــل فيـــه سجيـــه
مـــرت من الليـــل سبـــع ما ان لهـــا مثنويـــه
لا زلت والشمـــل جمـــع يعليـــك رب البريـــه

وقـال في الثامنة :

يا اكـــرم الخلـــق ذاتـــا وأشرف النـــاس أسره
مـــرت ثمـــان وأبقـــت فـــي القلب منـــي حسره
فيهـــن كـــان شبابـــي أخـــا نعيـــم ونضره
ولـــى بهـــا الدهر عنـــي ترى لهـــا بعـــد كـــره
فالله يبقيـــك مولـــى يطيـــل في السعـــد عمره

وقـال في التاسعـة :

يا أوحد الناس في مجد وفي شرف وافضل الخلق في باس وفي كـرم
مولاي تاسعة الساعـات قد ذهبت والليل من بعدها قد عـاد ذا هرم
كذا يمر ولا نـــدري الزمان بنا وينقضي العمر في اللذات واندمي
من كان ذا عمـــل في البر مثلكم يا فـوزه يوم تخشى زلـة القدم

لا زلـت ذا عزة والملك ذا شرف بكم وانتم مدى الايـام في نعم

وقـال في العاشرة :

يا ملك الخير والخيل التي حكمـت له بعز علـى الايـام مقتبـل
هذا الصباح وقد لاحت بشائـره والليل ودعنـا توديـع مرتحل
لله عشـر من السـاعات بـاهرة مضين لا عن قلى منـا و لاملـل
كنا نمر ليالـي العمر راحلـة عنـا ونحن مـع الآمـال في شغل
نمسي ونصبـح في لهـو نسر به جهلا وذلك يدنينـا من الاجل
والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفـا عليه اذ مر في الآثـام والزلل
يا ليت شعري غدا كيف الخلاص به ولم نقـدم له شيئا من العمـل
يا رب عفوك عما قد جنته يـدي فليس لي بجزاء الذنب من قبـل
يا رب وانصر أمير المسلمين أبـا حمو الرضا وأنله غايـة الامـل
وأبق في العز والتمكين مدتـه وأعل دولته الغرا على الـدول

محمد النقاوسي

وعاصر التنسي الاديب محمد بن يحي بـن أبـي علـي النقاوسي القسنطيني . ولد يوم الاربعاء ١٨ جمادي الثانية سنة ٨٤٩ هـ (٢ تشرين الاول ١٤٤٤) بمدينة نقاوس من غربي قسنطينة وكان والده قاضيا فيها . حفظ القرآن واشتغل بالعلم في بلدته . ثم دخل قسنطينة طالبا العلم . ثم ارتحل الى تونس فأخذ الفقه عن ابراهيم الاخدري والعربية والمعـاني والمنطق وأصول الفقه عن أحمد النخلي ومحمد الواصلي . وبعـد وفاة أبيه شخص الى مصر سنة ٨٩٩ هـ . فواصل اشتغاله بالعلم . فأخذ عـن الشمني في حاشيته والتقي الحصني في المنطق والشرواني في شرح الطوالع، ولازم علماء آخرين كالقصرائي ويحي العلمي والسخاوي . فاستفـاد منهم ونال الفقه والتأريخ والادب .

أدى فريضة الحج ثم قفل راجعا . ولكنه لم يلبث أن ارتحـل الى تونس واستقر فيها وصار احد عدولها .

كان يحسن قرض الشعر • فامتدح صاحب زكريا بن يحي بن مسعود بعد اخراج عبد المؤمن بن ابراهيم بن عثمان عنها ، زكريا بن يحي بن مسعود وذلك بقصيدة منها هذه الابيات ·

ضحك الربيع وجاء سعد مقبل   ولك الهنا ذهب الزمان الممحل
فارفل فديتك في ميادين المنى   هذا لواء النصر وافى يرفل
وارح جواد الجد في اثر العدى   فسهام سعدك في الاعادي انبل

وقد امتدح زكريا بكثير ولم يطابق الواقع في مدحه غيره ، شهد له بذلك بعض الفضلاء المغاربة وقد سمعها منه •

ولم يمكث على الدوام بالديار التونسية بل انتقل بعياله وجماعته قاصدا الحجاز • وفي طريقه مكث بمصر ثلاثة أشهر • ثم أبحر الى جدة صحبة نائبها • ووصل الى مكة في أثناء رجب ، ولقيه السخاوي فقال : « دام الشيخ فيها على طريقة حسنة في الانجماع والعبادة الى ان سافر مع المدنيين الى طيبة • فقدمها في أواخر سنة سبع وتسعين وثمانماية • فدام فيها • ولقيته حينئذ فيها وكتب لي بخطه ما عمله اجابة لصاحبه الخطيب الوزيري • وأقرأ بعض الطلبة • وذكر لي أن عزمه استيطانها » •

محمد بن عبد الرحمن الحوضي

من ادباء النصف الثاني من القرن التاسع الهجري وأوائل القرن العاشر محمد بن عبد الرحمان الحوضي • نشأ بتلمسان ونال من الاصول قسطا وافرا وتعاطى الادب ، فأصبح شاعرا لا يستهان به • له نظم في العقائد شرحه الامام السنوسي • ومن شعره القصيدة الطنانة التي يقول فيها متغزلا :

أرذاذ المزن من عين نزل   أم دموع الشوق ان رق الغزل
أبعيني ديمة وكافة   أم شعيب للنوى منها انبزل
لا بكت عيني ولا أبغي البكا   ضوؤها عن فعلها ان لم تنزل
دع عذولي اللوم اني شائق   رق طبعي دون صنعي في الازل

أوينسى العهد قلب دنف والهوى قبل النوى عنه نزل
لا تلمني دون علم عاذلي فبسمعي صمم عمن عذل
ان نار هواكم جبتي لو علمت الحبل منكم يتصل
امنوا روعة قلبي باللقا فانتظار الوعد قرب ان حصل

مات امام الموحدين محمد بن يوسف السنوسي الحسني • فرثاه الحوضي بالقصيدة التالية :

ما للمنازل أظلمت أرجاؤها والارض رجت حين خاب رجاؤها
وأتى عليها النقص من أطرافها وتراكمت وتعاظمت أرزاؤها
رزء عظيم خطبه ومصيبة لم ندر بالقوم كيف عزاؤها
فقد السنوسي الامام محمد وهو ابن يوسف هد منها علاؤها
قد كان بحرا للمعارف زاخرا فانزاح عنها حين بث غطاؤها
ودعا الى التوحيد دعوة مخلص والى الشريعة فاستنار ضياؤها
هذا الذي ورث النبي فأصبحت علل الضلال به أستفيد دواؤها
هذا الذي تبع النبي وصحبه فانجاب عن سبل الهدى ظلماؤها
يا أيها النفس المقدسة التي لبقائها المحمود كان فناؤها
يا أوحد العلماء يا علما به كل العلوم بدت لنا أنحاؤها
يا درة الزهاد يا غوثا به يرجى لأمراض القلوب شفاؤها
كم جاءت الدنيا تسوق رياسة يبغي اليك تغربا أبناؤها
فأبيت عنها معرضا مستحقرا لم يحد عنك جمالها وبهاؤها
وجعلتها نحو الجنان مطية وسبيل ترحال وذاك جزاؤها
من للتآليف التي ألفتها يبدي بها ما اشتكلت قراؤها
من للعلوم على اختلاف فنونها يبدي لها نكتا يروق سناؤها
من للقلوب اذا صدت واذا قست تأتي مواعظه فيذهب داؤها
ما ذاك الا من مزاياك التي اعطاكها رب له اعطاؤها
ما شئت من تقوى ومن ورع ومن كرم ومن شيم تلا احصاؤها
واسيت أهل العلم حتى اصبحوا وعليك من نفقاتهم اجراؤها

تعطي وتؤثر من تـرى ذا حاجـة فاعتاد رفـــدك دائمـا فقراؤها
تلقاهـــم متهللا متبسمـــا فوجوههم باق عليهـــا ماؤهـا
وينال كل النـــاس منك نصيبه حتى لقد بلغ المراد رجاؤهــــا
أخلاقك التسليم يصحبه الرضـى بالله منشور عليــك لواؤهـا
خلق كريم لم ينل بعطيـــــة الا من المولى ينـــال عطاؤها
شهد الاعادي كالصديق فانشدوا ومليحة شهدت لهـــا اعداؤها
لكن مشيئة ربنا تجري كمـــا سبق القضاء فلا يرد قضاؤهـــا
لهفا ولهفا دائمـــا لو أنهـــا تجدي وما تغني وكيـــف غناؤها
ان تبكه عين فمـــا أدت لـــه حقا ولو مزج الدموع دماؤهـــا
أو تبكـــه ابدا تلمسان ومـــن في حوزها ورجالها ونساؤهـــا
لم يقدروا مقداره أنى لهـــم ولقد بكته أرضهـــا وسماؤهـا
فلمثله يبكي الوجود مصيبـــة عظمت فأحزنت الورى اغماؤهـــا
هيهات للدنيا تجـــود بمثلـــه من شأنها لم يصف قط اناؤهـــا
وجب العزاء به لكـل موحـــد ولبلدة بحلاه طـــاب ثناؤهـــا
ولأهل مجلسه خصوصا ابنـــه شمس نأت عنهم وغاب ضياؤهـــا
وشيوخنا العلما نعزي اننـــا جسد له اعطاؤهم رؤساؤهـــا
ولأهله حق العـــزا فبيوتهـــم من بعـــده لا تنجلي ظلماؤهـــا
لكن من الشمس المنيرة ان تغـــب بدر الدجى خلف وفيه سناؤهـــا
يا قلب ، صبرا فالمصائب كلهـــا ان تلقها بالصبر خف بلاؤهـــا
يا رب قدس روحـــه وضريحـه ومن الجنان تحفـــه نعماؤهـــا
وعليه من رب الانـــام تحيـة موصولة لا تنقضي آناؤهـــا

وقال أبو عبدالله في قصيدة مدح بها سلطان تلمســان أبا عبدالله الزياني :

اصبح المزن من عطائـــك يحكـي يوم تفخـــار الأنـــام عطاء
كيف يدعي لك الغمـــام شبيهـا ولقد فقتـــه سنا وسنـــاء
أنت تعطي اذا تقصر مـــالا وهـــو يعطي اذا تطـــول ماء

فنلمس غلوا واطراء في هذه الابيات • ولا عجب في ذلك • فالمداحون جميعا يمارسون الغلو والاطراء طمعا فيما في يد الممدوح •

وقال الونشريسي في وفياته ان الحوضي قد توفي في ذي القعدة عام (٩١٠) عشرة وتسعمائة بتلمسان رحمه الله •

محمد بن عبد الكريم المغيلي

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي التلمساني • يعد أحلا أعلام الجزائر في فاتحة القرن العاشر الهجري • وانه ، على قول أحمد بابا ، خاتمة المحققين • أخذ عن عدد من الفضلاء كالشيخ عبد الرحمن الثعالبي والشيخ بن يحي يدير • اشتهر بتصلبه في الدين وتمسكه بالسنة • وكان رحالة جوابة • دخل بلاد « توات » ، ومنهـا شخص الـى بـلاد « أهروتكدة » واجتمع بصاحبها وأقرأ أهلها • وتابع رحلته • فانتقـل الى بلاد « كنووكش » من أرض السودان ، واتصل بصاحب « كنو » ، وكتب كتابا في أمور السلطنة تحت عنوان « تاج فيما يجب على الملوك والسلاطين » طبع بمصر في ١٨ صفحة يحض فيها على أتباع الشرع الحنيف والامر بالمعروف والنهي عن المنكر •

ثم ارتحل الى بلاد « التكرور » • فوصل مدينة « كاغو » • واجتمع بسلطانها « ساسكي محمد الحاج » وألف له تأليفا أجابه فيه عن مسائل • وفي كاغو بلغه نبأ مقتل ولده على يد اليهود بتوات • فتأثر لذلك ، وطلب من السلطان أن يلقي القبض على أهل توات المقيمين في كاغو • ففعل • فأنكر عليه ذلك أبو المحاسن محمود بن عمر اذ لم يلحقه شر من طرفهم • فرجع حينئذ عن رأيه وأمر باطلاقهم •

عاد المغيلي من رحلته الى توات حيث توفي سنة ٩٠٩ هـ (١٥٠٤ — ١٥٠٥ م) وله تآليف كثيرة ذكرها التنبكتي في « نيل الابتهاج » وهـي البدر المنير في علوم التفسير ومصباح الارواح في أصول الفلاح ، ومغنى النبيل في شرح مختصر خليل ، ومفتاح النظر في علـم الحديث ، وشرح

الجمل في المنطق ، وكتاب الفتح المبين « وفهرسة رواياته ، وعدة قصائد منها الميمية عن وزن البردة ورويها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم • وكان جلال الدين السيوطي قد حرم علم المنطق • فراسله المغيلي ملاحظا عليه موقفه هذا فقال :

سمعت بأمر ما سمعت بمثلــــه وكل حديث حكمه حكــم أصله
أيمكن أن المرء في العلـــم حجة وينهى عن الفرقان في بعض قوله ؟
هل المنطـــق المعني الا عبـــارة عن الحق او تحقيقه حين جهلـــه
معانيه في كل الكلام وهل تـــرى دليلا صحيحا لا يـرد لشكلـــه ؟
أريني ، هداك الله ، منه قضيـــة على غير هذا تنفها عن محلـــه
ودع عنك ابدا كفور وذمـــــة رجال وان اثبت صحة نقلـــــه
خذ الحق حتى من كفور ولا تقـم دليلا على شخص بمذهب مثلـــه
عرفناهم بالحق لا العكس فاستبن به لابهم اذ هم هداة لاجلـــــه
لئن صح عنهم ما ذكرت فكم هــم وكم عالم بالشرع باح بفضلـــــه

فأجابه السيوطي بقصيـــدة مطلعها :

حمدت اله العرش شكرا لفضلـــه وأهدي صـــلاة للنبي وأهلـــه
عجبت لنظم ما سمعت بمثلـــه أتاني من حبـــر أقر بنبلـــه
تعجب مني حين ألفت مبدعـــا كتابا جموعا فيه جـــم بنقلـــه
اقرر فيه النهي عن علـم منطـق وما قاله الاعلام من دم شكلـــه
وسماه بالفرقان ، يا ليت ، لم يقل فذا وصف قرآن كريم لفضلـــه
وقال به فيمـــا يقرر رأيـــه مقالا عجيبا نائيا من محلـــه

عبد الرحمن الاخضري

هو عبد الرحمن الشيخ بن الصغير بن محمد الاخضري نسبة الى بطن من بطون الدواودة من أولاد رياح يعرف بالاخضري •

ولد حوالي سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) نبغ فذا في جميـع العلـوم معقولها ومنقولها • ألف فيها وهو حديث السن كما تدل على ذلك عباراته

في تآليفه العديدة من نظم ونثر . فقال في سلمه المرونق في علم المنطق معتذرا ومتواضعا :

وقل لمن لم ينتصف لمقصدي العذر حق واجب للمبتدي
ولبني احدى وعشرين سنة معذرة مقبولة مستحسنة
لا سيما في عاشر القرون ذي الجهل والفساد والفتون
وكان في أوائل المحرم تأليف هذا الرجز المنظم
من سنة احدى واربعين من بعد تسعة من المبين

وفي ختام نظمه « الجوهر المكنون » في فنون البلاغة يقول انه وضعه سنة خمسين من القرن العاشر أي سنة بعد وضع السلم :

تم بشهر الحجة الميمون متم نصف عاشر القرون

وكان متضلعا من العلم وذا خبرة بفن التعليم . وكتب في علوم الحكمة والتصوف والفقه والمنطق والبيان والكلام والحساب والهيئة . فأقبل الناس على مؤلفاته يدرسونها ويشرحونها في كل مدرسة أو معهد في المغرب العربي وفي المشرق أيضا . وما السبب في ذلك الا أنها مفيدة يبسط مسائله باسلوب سهل منطقي . وجوهره المكنون في علوم البلاغة مطبوع بمصر ، وله عليه شرح مخطوط يوجد بالمكتبة الوطنية الجزائرية ونظم الدرة البيضاء في الحساب والفرائض وهي مطبوعة بشرحها في مصر . ونظم السلم المرونق في علم المنطق ، وله عليه شرح مختصر وكلاهما مطبوع بمصر ، ونظم السراج في الفلك مع شرحه طبع بالجزائر ومصر ، وله منظومة في العمل بالاسطرلاب مخطوطة ، والفريدة الغراء في التوحيد ، والمنظومة المسماة بالقديسية في التصوف ، وآداب السلوك وانتقاد البدع مخطوطة ، ومختصر في فقه العبادات على مذهب مالك مطبوع بالجزائر وعليه شرح لابن المسبح القسنطيني طبع بمصر .

وشعر الاخضري لا يخاطب وجدانا بل استخدمه للمعاني العلمية فنجد فيه الحقيقة تسبق الخيال والطبع يغلب التصنع والجزالة في غير ضعف ولا غرابة . توفي ، رحمه الله ، سنة ٩٥٣ هـ (١٥٤٦ م) ودفن

في قرية تنطيوس احدى قرى الزاب بالقرب من بسكرة .

المقري

لعل من يمثل الادب الجزائري في القرن الحادي عشر هو الاديب المؤرخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد المقري نسبة الى مقرة وهي قرية من قرى بلاد الزاب (١) . ولد في تلمسان حوالي سنة ٩٨٦ هـ (١٥٧٨ م) . وفيها نشأ وبها حفظ القرآن وأخذ عن مشايخها الادب والتاريخ ، وقرأ العلوم الدينية على عمه عثمان سعيد مفتي تلمسان ، وبرع فيها وتفرد بعلم الحديث حتى لقب بحافظ المغرب . رحل الى فاس سنة ١٠٠٩ . فأخذ عن علمائها ثم عاد الى بلده . فمكث فيه سنتين ثم غادره ثانيا الى فاس سنة ١٠١٣ فانقطع هناك الى الدرس ، فتبحر في علوم الشريعة والادب والتاريخ ، وانتهت اليه رئاسة علماء زمانه وترامى صيته في الآفاق ، ولقي من اولي الامر هناك اعزازا كبيرا . ولي الامامة والخطابة بجامع القرويين ، وقلد الفتوى وبقي في هذا المنصب نحو ١٣ سنة .

لما توفي أحمد المنصور اختلت أحوال المملكة السعدية وكثرت الفتن وانقسمت الدولة الى مملكتين : مملكة فاس وعلى رأسها مولاي زيدان ومملكة مراكش وصاحبها أبو فارس . فسئم المقري الاقامة هناك . فقرر أن يرتحل الى المشرق تاركا المنصب والاهل والوطن والالف . فهاجر من المغرب في أواخر رمضان سنة ١٠٢٧ هـ (أيلول ١٦١٨ م) . فركب متن البحر الى مصر ومن ثم توجه الى الحجاز . فأدى فريضة الحاج . ثم عاد الى مصر . فدخل القاهرة في شهر رجب سنة ١٠٢٨هـ (حزيران ١٦١١م) فسكنها وتزوج فيها من السادة الوفائية واستقرب في الازهر متجردا للعلم . فاشتهر ، وعلت منزلته ، وتبارى الادباء والشعراء في مدحه بقصائد

---

١ ــ ابن مريم ص : ١٥٥ ــ وتقع بالضبط بين قرية بني حماد وشط الحضنة .

ورسائل بليغة . وجرت له معهم مساجلات شعرية ومطارحات علميـة . وزار شيخنا بيت المقدس في شهر ربيع الاول في سنة ١٠٢٩ . ثم عاد الى القاهرة . ومنها كرر الذهاب الى البقاع المقدسة خمس مرات وأملى فيها على قصد التبرك دروسا عديدة . ثم رجع الى القاهرة . ثم تاقت نفسه الى العودة الى القدس حيث ألقى هناك دروسا قيمة بالمسجد الاقصى كانت سببا في اتصاله بكثير من علماء وادباء فلسطين . وكانت مدة اقامتـه خمسة وعشرين يوما . ثم دخل دمشق . ففرح علماء الشام . ونزل فيها بالمدرسة الجقمقية . فبالغ أهلها في اكرامه . فآنسوه وطنه وأزالوا عنـه لواعج الحزن التي كانت تعتريه لفراق أهله . وهناك أملى صحيح البخاري بالجامع الاموي . وحضره غالب علماء دمشق . وأما الطلبة فلم يتخلف منهم أحد . وكان يوم ختمه حافلا جدا ، اجتمع فيه الآلاف من الناس . فانتقلت حفلة الدرس الى وسط الصحن ، وأتي له بكرسي الوعـظ . فصعد عليه وخاطب الناس في العقائد والحديث ، فأبهرهم ، وتعـرض لترجمة الامام البخاري وانشد له هذين البيتين وأفاد أن ليس لذلـك العالم الجليل غيرها .

اغتنم في الفراغ فضل ركـوع   فعسى أن يكون موتـك بغتـة
كم صحيح قد مات قبـل سقيم   ذهبت نفسـه النفيسة فلتـة

واستغرق مجلس الختم هذا من شروق الشمس الى قـرب صلاة الظهر وعندما نزل عن الكرسي ازدحم الناس على تقبيل يده ، وذلك يوم الاربعاء ١٧ رمضان سنة ١٠٣٧ . ودخل بعد ذلك مصر واستقر فيها مدة يسيرة . ثم طلق زوجته الوفائية وأراد العودة الى دمشق للتوطن فيها ، لكنه مات ، وذلك في جمادي الآخرة سنة ١٠٤١ ، ودفن في مقبرة المجاورين ، الا أن ذكره لم يمت . فقد خلف لنا ثروة أدبية ممتعة نثرا وشعرا . ألف كتابا نفيسا مدة اقامته بفاس بين سنتي ١٠١٣ و ١٠٢٧ للهجـرة وسمـاه أزهار الرياض . وكان الباعث له على تأليفه رغبة أهالي بلدة تلمسان في التعريف بالقاضي عياض عالم المغرب . وقد ألم في هذه الترجمة بكثير

من شئون بلاد الاندلس ، وذكر طائفة كبيرة من الاخبار والنصوص المغربية • وألف كتابا آخر لا يقل همة عن الاول بعد سنة ١٠٣٨ في القاهرة استجابة لرغبة بعض أعيان دمشق وعلمائها في التعريف بلسان الدين بن الخطيب وسماه نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، ذكر فيه كثيرا من أخبار ذلك الفردوس المفقود • وفرغ من تأليفه واملائه سنة ١٠٣٩ أي سنتين قبل وفاته •

تعرض شيخنا في الاول والثاني للترجمة ورسم لها خطة واضحة يرتب عناصرها ويتعمق في التفصيل ويتتبع أخبار المترجم له حتى قبل ولادته ويبحث عن نشأته في صباه وشبابه وكهولته ، ويذكر شيوخه ونتاجه الادبي ، ولا ينسى تصرفه في الحياة ووفاته وآراء الناس فيه •

الا أنه يؤخذ عليه التكرار الكثير والاستطراد • والكتابان رغم ذلك نفيسان • فهما كدائرة معارف تأريخية أدبية بل خزانة علم وأدب وفن وتأريخ ، انفرد فيهما مؤلفهما بجمع وتدوين أخبار الاندلس والمغرب • وبجانب هذين الكتابين له مؤلفات اخرى : أزهار الكمامة واضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة ، والبداة والنشأة كله أدب ونظم ، وحاشية على شرح أم البراهين ، وأم البراهين هي السنوسية ، والدر الثمين في أسماء الهادي الامين ، وروض الامس عاطر الانفاس في ذكر ما لقيته من علماء مراكش وفاس ، وعرف الطيب في اخبار ابن الخطيب ، وعرف النشق في أخبار دمشق ، والغث والسمين والرث والثمين ، وفتح المتعال في وصف نعال النبي (صلعم) وقطف المهتصر في أخبار المختصر ، كتبها كلها بعد زهر الرياض وقبل نفح الطيب • وهذه المؤلفات القيمة تدل على ثقافته الواسعة وعلمه الغزير وحافظته النادرة • فقال فيه صاحب خلاصة الاثر « حافظ المغرب ، جاحظ البيان ومن لم ير نظيره في جودة القريحة وصفاء الذهن وقوة البديهة • وكان آية باهرة في علم الكلام والتفسير والحديث ومعجزا باهرا في الادب والمحاضرات » • وقال الاديب يحي المحاسني في كتاب أرسله الى شيخنا المقري :

طلعت شموس علومه في سماء القاهرة ، فاختفت نجوم فضائلهـــا والاشعة باهـــرة •

هو الشمس علما والجميع كواكب　　اذا ظهرت لم يبد منهن كوكـــب

ووصفه معاصره ابن الفكون بالشيخ الشهير الصدر النحرير ذي الفهم الثاقب والحفظ الغزير •

ولما سمع أبو الحسن علي الخزرجي الفاسي بعزم المقري على الارتحال عن المغرب كتب اليه بما كتب أبو جعفر أحمد بن خاتمة المغربي الى بعض أشياخه وهو :

أشمس الغرب حقـــا ما سمعنـــا　　بأنك قد سئمت من الاقامـــــه
وأنك قد عزمت على طلـــــوع　　الى شرق سموت به علامـــــه ؟
لقد زلزلـــــت منا كل قلـــب　　بحق الله لا تقيـــم القيامـــــه

وقال الاديب ابراهيم الاكرمي في تأريخ وفاته :

قد ختـــم الفضـــل به　　فأرّخـــوه « خاتـــم »

ان نثر أدباء الاندلس يمتاز بالصنعة من سجع وجناس واستعـــارة وطباق وغيرها من ضروب البديع يسيرون فيه على أسلوب ابن العميد • والمقري احتك بهؤلاء الادباء ، واحتكاكه بهم كان له أثره في نثره • فقد التزم هو الاخر السجع ونمقه بالالفاظ المختارة والتشبيهات والاستعارات• وعند قراءة نثره نرى أنه بارع في اللغة العربية وفنونهـــا يأتي بأسلوب شعري ، والاسلوب الشعري المنمق صعب الانقياد لا يستكين الا لكاتب بليغ مستطيل على الالفاظ بارع في المجاز • فقال في زهر الرياض :

حين ورد علي هذا الخطاب الذي تقدم ، وألفى ركن الاصطبـــار كاد يتهدم أو تهدم ، أضربت عن جوابه حينا من الدهر وما طلت مقتضي دينه من يوم الى يوم ومن شهر الى شهر ، والارض تميـــد اضطرابـــا واختلالا ، والاحوال تزيد دنقا واعتلالا ، وأنا أحوم على مناهل الجواب حوما • وأروم الورود في مشاربها العذبة يوما فيوما ، والايام لا تسمح

بنهله ،ولا نفسح لها فسحة ، ولا توسعها مهلة ؛ ثم وقع العزم والتصميم على جواب هذا السائل ، راجيا من الله سبحانه ان يكون ذلك من أفضل القرب وأعظم الوسائل ؛ ودخلت من هذا الباب بعد ان قرعت ، وأخذت في هذا الغرض وشرعت ، وشربت من ماء التصنيف وكرعت ، وبذرت في ارض التأليف وزرعت ، هذا مع اني مهرت ولا برعت ، ولا أتقنت لصناعة التأليف عملا •

لكن قـــدرة مثلي غير خافيـــة والنمل يعذر في القدر الذي حمـــلا

وكثيرا ما خرجت من الشيء الى ما يناسبه ويدانيه ، وربما أبعدت النجعة ، ثم وقعت الاوبة والرجعة ، على رغم أنف قالي ذلك وشانيه ، وقربت بذلـــك كله شاسعا كي تسهل مؤنته على معانيه ، ليقرب اقتطافه لجانيه ؛وسميته بأزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يصـــل به ارتياح وارتياض » تسمية وافقت ، ان شـــاء الله ، معنـــاه ، وناسبت منزله ومغناه ، لانه جمع أزاهر ذات ألوان من ورد وأقحوان وبهار عرفه ذو انتشار ، ومنثور ، ،وضه مريع ممطور ، ونسرينا يفوق أرجه مسك دارين ، وآس عاطر الانفاس ، وشقيق ، خليق بالمدح حقيق ، ونيلوفرحاز من المحاسن النصيب الاوفر ، وأجريت جداول أنهار ، مـــن الحكايات لسقي هذه الانهار ، فأينع النوار ، وتألقت الانوار ، وتفنن الناظر بـــين أنجاد وأغوار ، ولم يدر وقد انتقل من أطوار الى أطوار ، وتأمل صرحا بني على غير شفا جرف هار » •

وقال في نفح الطيب :

لما وصلني هذا الخطاب الذي ملأ من الفصاحة الوطـــاب وحلي في عيني وقلبي وطاب ، تحركت دواعي الوجد لذلك المجد الذي ولعت به ولوع ابن الدمينة بصبا نجد ، وتضاعف الشوق الى تلك الانجاد والاغوار منشدا قول الاول «لعل أبي المغوار» وتذكرت ، والذكرى شجون وأطوار ، تلك الاضواء والانوار ، المشرقة بقطر أزهر بالمحاسن وجرى نهره غـــير آس فلم يذم فيه الجوار •

وان اصطباري عن معاهد جلــق غريب فما أجفى الفراق وأجفانــي
سقى الله ارضا لو ظفرت بتربهــا كحلت بها من شدة الشوق أجفاني

وحصل التصميم على التكميل للتأليف والتتميم ، رعيا لهذا الولي الحميم ، أفاض الله تعالى عليه غيث البر العميم ...

ولما حصل لي كمال الاغتباط بما دل على صحة حال الارتباط نشر بساط الانبساط ، وحدثت لي قوة النشاط ، وانقشعت عني سحائب الكسل وانجابت ، وناديت فكرتي فلبت مع ضعفها وأجابت ، فاقتــدحت مــن القريحة زندا كان شحاحا ، وجمعت من مقيداتي حسانا وصحاحا ، وكنت كتبت شطره وملأت بما تيسر هامشه وسطره ورقمت من أنباء لسان الدين بن الخطيب حللا تخلق جدتها الاعصر وسلكت من التعريف به ، رحمه الله ، مهامة تكل فيها واسعات الخطا وتقصر . فحدث لي بعد ذلك عزم على زيادة ذكر الاندلس جملة ومــن كان يعضد بهــا الاسلام وينتصر ، وبعض مفاخرها الباسقة ومآثر أهلها المتناسقة . لان كل ذلك لا يستوفيه القلم ولا يحصر ، وجئت من النظم والنثر بنبذة توضح للطالب سبلــه وتظهر علمه ونبله وتترع كأس محاسنه من راح المذاكرة وانــاؤه حتى يرى حسن هذا التأليف ابناء هذا التصنيف وادباؤه ، وكنت في المغرب وظلال الشباب صافيه وسماء الافكار من قزع الاكدار صافية ، معتنيا بالفحص عن أنباء أبناء الاندلس وأخبار أهلها التي تنشرح لها الصدور والانفس ، وما لهم من السبق في ميدان العلوم والتقدم في جهاد العدو الظلوم ، ومحاسن بلادهم ، ومواطن جدالهم وجلادهم ، حتى اقتنيت منها ذخائر يرغب فيها الافاضل الاخاير ، وانتقيت جواهر فرائدها للعقــول بواهر ، واقتطفت أزاهر أنجمها في افق المحاضرة زواهر ،وحصلت فوائد بواطن وظواهر ، طالما كانت أعين الالباء لنيلها سواهر ، وجمعت من ذلك كلما عالية لو خاطب بها الداعي صم الجلامر لانبجس حجرها ، وحكما غالية ، لو عامل بها الايام ربح متجرها ، وأسجاعا تهتز لها الاعطــاف ، ومواعظ يعمل بمقتضاها من حفت به الالطاف ، وقوافي موقورة القوادم

والخوافي يثني عليها من سلم من الغباوة والصمم ، ويعترف ببراعتها من لا يعتريه اللمم ، وطالما أعرض الجاهل الغمر بوجهه عن مثلها وأشاح ، وأنصت لها الحبر انصات السوار لجرس الحلي ونغم الوشاح ، وفرح ان ظفر بشيء منها فرح الصائد بالقنيص ، والساري العاري ذي البطـــن الخميص ، بالزاد والقميص ، وتركت الجميع بالمغرب ، ولم استصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويعرب الا نزرا يسيريرا علــق بحفظي ، وحليت بجواهره جيد لفظي ، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي ، ولو حظى ، ولو حضرني الآن ما خلفته مما جمعت في ذلك الغرض وألفته ، لقرت به عيون وسرت ألباب اذ هو ، والله ، الغاية في هذا الباب ، ولكن المرء ابن وقته وساعته وكل يقف على قدر وسعه واستطاعته » •

وللمقري الباع الطويل في الوصف • أسمعه يصف أهوال البحـر ويلتزم كذلك السجع :

ركبنا البحر وحللنا منه بين السحر والنحر ، وشاهدنا من أهواله وتنافي أحواله ما لا يعبر عنه ولا يبلغ له كنه •

البحـــر صعب المرام جـــدا ... لا جعلت حاجتـــي اليـــه
أليس مـــاء ونحن طيـــن ... فمـــا عسى صبرنا عليـــه

فكم استقبلنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر ، قد أزعجتها أكف الريح من وكرها كما نبهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئا من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجبال صفيرا ، وللرياح دويـا عظيما وزفيرا ، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك الا فضل الله مجيرا وخفيرا ؛ واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه وأيسنا مـن الحيـاة لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حيا الله ذلك الصوت المزعج ولا بياه ، الموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب • فكأنه مـن كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق وتختلف و لاتكاد تتفق ، فتخال الجو يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها ، حتى كاد سطح الارض يكشف من خلالها ، وعنـان السحب

يخطف في استقلالها ، وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها ، وآذنت الاحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون ، وتراءت في صورها المنون ، والشراع في قراع مع جيوش الامواج ، التي أمدت منها الافواج بالافواج ، ونحن قعود ، كدود على عود ما بين فرادى وأزواج ، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الغرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس في الوجود ، أغوار ولا نجود ، الا السماء والماء ، وذلك السفين ، ومن في قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدو ، في الرواح والغدو ، فزادنا ذلك الحذر ، الذي لم يبق ولم يذر ، على ما وصفناه من هول البحر قلقا • وأجرينا اذ ذاك في ميدان الالقاء باليد الى التهلكة طلقا ، وتشتتت أفكارنا فرقا ، وذبنا أسى وندما وفرقا ، اذ البحر وحده لا كمي يقارعه ، ولا قوي يصارعه ، ولا شكل يضارعه ، لا يؤمن على كل حال ، ولا يفرق بين عاطل وحال ، ولا بين أعزل وشاكي ومتباك وباكي :

ثلاثـــة ليس لها أمـــان البحر والسلطـان والزمـان

الى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن ، وان نهى عنه وأخطأ المائن • فرأينا البر وكأن قبل لم نره وشفيت به أعيننا من المره ، حصل بعد الشدة الفرج ، وشممنا من السلامة أطيب الارج • » •

نلاحظ في هذه القطعة وصفا بارعا لسفر البحر وأسلوبا رائعا يبدو فيه دقة الملاحظة والتأنق في التعبير •

واليك وصفا آخر لا تجد فيه سجعا وانما تلمس أسلوبا مرسلا مطبوعا • فقال في الزهراء :

كان الخليفة عبد الرحمن الناصر كلفا بعمارة الاندلس واقامة معالمها وتخليد الاثار الدالة على قوة الملك وعزة السلطان • فأفضى به الاغراق في ذلك الى أن ابتنى مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره المنتشر صيته • واستفرغ جهده في تنميقها ، واتقان قصورها وزخرفة مصانعها • فاستدعى عرفاء المهندسين ، وحشد برعاء البنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية • ثم أخذ في بناء المنتزهات

وانشاء مدينة الزهراء الموصوفة بالقصور الباهرة وأقامها بطريق البلد على ضفة قرطبة ، ونسق فيها كل اقتدار معجز . وكان قصر الخليفة متناهيا في الجلالة والفخامة . أطبق الناس على أنه لم يبن مثله في الاسلام البتة ، وما دخل اليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة الا وكلهم قطع أنه لم ير له شبها بل لم يسمع به بل لم يتوهم كون مثله . ولو لم يكن فيه الا السطح الممرد المشرف على الروضة ، المباهي بمجلس الذهب والقبة وعجيب ما تضمنه من اتقان الصنعة وفخامة الهمة ، وبراعة الملبس والحلة ، ما بين مرمر مسنون ، وذهب مصون ، وعمد كأنما أفرغت في القوالب ، وتماثيل لا تهتدي الاوهام الى سبيل التعبير منها لكفى مثلا . وكنت ترى في مقصورة الخليفة بركة يجري الماء فيها بصنعة محكمة ، وفي وسطها يعوم أسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد . فيمج الماء من فيه في تلك البركة . فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه . فتسقى من مجاجه جنان هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحته وجنباته . وهذه البركة وتمثالها من أعظم آثار الملوك في غالب الدهر لفخامة بنيانها . فكان الناصر قد جلب اليها الرخام الابيض المجزع من اوربة ، والابيض من غيرها ، والوردي والاخضر من افريقية وبنى في القصر المجلس وجعل في وسطه اليتيمة التي أتحف الناصر بها أليون ملك القسطنطينية . وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة . وهذا المجلس في وسطه هريج عظيم مملوء بالزئبق . وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايامن العاج والابينوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر قامت على سوار من الرخام الملون والبلور الصافي . وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالابصار . وكان بناء الزهراء في غاية الاتقان والحسن ، وبها من المرمر والعمد كثير ، وأجرى فيها المياه وأحدق بها البساتين ، وقد أتقنه

الى الغاية • وأنفق عليه أموالا طائلة ، ووضع في وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون • فكان الماء ينزل من أعلى القبة على جوانبها محيطا بها ويتصل بعضه ببعض • وكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري • وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع • وتم بناء الزهراء بأربعين سنة » •

تناول في نثره وشعره الاغراض التي كانت تدور في محيط الناس ، وعرض الى ما عرض له أدباء عصره ، ولكن الميدان الذي جال فيه فنال قصب السبق هوميدان وصف النفس التي نأت عن الاوطان • فغنى باصطفاء الالفاظ الجزلة والعبارات الفحلة والتركيب الرصين مازجا النثر بالشعر فقال : نزحت عن بلد فيه الوالد وما ولد ؛ محل قطع التمائم وفتح الكمائم سقى الله عهاده صوب الغمائم •

بلد تحف به الرياض كأنه — وجه جميل والرياض عذاره
وكأنما واديه معصم غادة — ومن الجسور المحكمات سوارة(١)

حللت الحضرة الفاسية ـ حاطها الله ـ حيث المجالس غاصة بالعامة والخاصة ، والمساجد آهلة معمورة والمشاهد بالزوار مغمورة ••• فألقيت بها عصا التسيار وقاها الله من الافات والاغيار •• ولم تزل كتب الاقارب والاخوان ترد علي ، وتثنى عنان اعتنائها الي •••وكثيرا ما يحرك ذلك مني كامن شوق ، شب عمره عن الطوق ، وأجد من لواعج الاوار ما وجده الفرزدق عند مباينة النوار :

بلد الجزائر ما أمر نواها — كلف الفؤاد بحبها وهواها
يا عاذلي في حبها كن عاذري — يكفيك منها ماؤها وهواها

والحنين الى الوطن مجال لكل حر ومضمار !

ايه أحاديث نعمان وساكنه — ان الحديث عن الاحباب أسمار

---

١ ـ البيان للسان الدين بن الخطيب .

وليس بمستنكر حنين الناب (١) الى عطنه (٢) والمرء في محلـــه ونشأته ووطنه ... ورب ذكرى أثارت الاشواق وحركتهــا ، وأنشبت النفوس من حبائل البؤس وتركتها ؛ وكم من ماجد بكى لفقد المشاهد ، واهتم لبعد المعالم والمعاهد :

سلام على تلك المعاهد انهــــا   مراتع الا في عهــــد صحابي
ويا سرحة الحي انعمــي فلطالما   سكبت على مثواك ماء شبابــي

فلله تلك المعاهد ، ما أبهج محياها ! وحاط بين كلاءته تلك المشاهد ، ما أطيب رياها ، حين باكرها الوسمي (٣) وحياها :

حيا تلمســان فربوعهــــــا   صدف يجــود بدره المكنــون
ما شئت من فضل عميم ان سقى   أروي ومن ليس بالممنـــون
أوشئت من دين اذا قدح الهدى   أورى ودنيا لم تكن بالـــدون
ورد النسيــم لها بنشر حديقة   قد أزهرت أفنانها بفنـــون
واذا حبيبة أم يحيى أنجبـــت   فلها الشفوف على عيون العون

طالما ذكرت الابلة (٤) وشعب بوان (٥) ، وأنست صروف الزمان الخوان ، وأنبتت أزهار أنس ذات ألوان ، وثمار نخل من القرب ، صنوان وغير صنوان (٦) ، والشمل مجتمع بالجيران والاخوان ، والروض مطلول النبات (٧) مخضر العذبات (٨) مخضل (٩) الجنبات مفوق (١٠) الخمائل ،

---

١ ـ الناقة المسنة .
٢ ـ وطن الابل ومبركها حول الماء .
٣ ـ مطر الربيع الاول ويليه « التولي » وهو المطر الثاني .
٤ ـ الابلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة .
٥ ـ شعب بوان : بفارس وهو الابلة من متنزهات الدنيا التي سار ذكرها .
٦ ـ الصنوان : المجتمعة او التي اصلها واحد .
٧ ـ مطلول النبات : مندى جماع الطل .
٨ ـ العذبات : أطراف الاغصان .
٩ ـ مخضل : مبتل .
١٠ ـ مفوق : فيه بياض .

متضوع الشمائل (١) ، منساب الماء ، منجاب السماء (٢) ، والغصون متأودة (٣) الاعطاف ، دانية الجنى والقطاف ، والنسيم يعبـــق نشرا ، والجو يتألق رونقا وبشرا ، فتقصر عنه أوصاف ذوي الانصاف .

والزهر حيانا بثغـــر باســـم | والنهر قابلنا بقلب صافـــــي

ولآلىء الانداء في الغدير غرقى ، ودموع النهر لا ترقى (٤) والزهـــر يسقط وأكف الريح تكتب والغمام ينقط :

كأن أكف الريـــح تكتب أسطـــرا | على النهـــر الا ان أحرفهـــا زرق
فتحني عليهن الغصون قدودهـــا | لتقرأها جهرا من الورق الـــورق

والورقاء تهتف لفقد الف نازح ، فتهيج شجو الجاد والمازح .

رب ورقاء هتـــوف بالضحـــى | ذات شجـــو صدحت في فنـــن
ذكـــرت الفـــا ودهـــرا صالحـــا | فبكت شجـــوا فهاجـــت حزنـــي
فبكـــائـــي ربمـــا أرقهـــا | وبكـــاهـــا ربمـــا أرقنـــي
فاذا تبدؤنـــي أسعدهـــا | واذا أبـــدؤهـــا تسعـــدنـــي
ولقـــد تبكـــي فمـــا أفهـــمهـــا | ولقـــد أبكـــي فمـــا تفهمني
غـــير أنـــي بالشجـــا أعرفهـــا | وهـــي أيضا بالشجـــا تعرفنـــي

فأكرم بها من ذات طوق ، عبرت عما في ضميرها من جوى وشوق ، فساقت لواعج الافكار أي سوق ، وبينها وبين الصب فرق ، عنـــد ذوي الذوق :

وتـــرنمت ذات الجنـــاح بسحرة | بالـــواديـــين فهيجت أ شـــواقـــي
ورقـــا تعلمت البكـــا والبث مـــن | يعقوب والالحـــان مـــن اسحـــاق
أني تضاهينـــي هـــوى وصبابـــة | وأسى وفرط جوى ومنيض مآقـــي
وأنا الذي أملي الهوى من خاطري | وهـــي التي تملي مـــن الاوراق

١ ــ متضوع الشمائل : الرياح تنبعث معطرة بأريج هذا الروض .
٢ ــ صافية السماء .
٣ ــ متأودة : تهتز وتميل .
٤ ــ لا تسكن .

فما كان باسرع من تمزيق ذلك الاهاب ، وحصول شمله في يد الاتهاب ، وانشاد لسان حاله عند الذهاب :

الا أن هذا الدهر يوم وليلة يكران من سبت عليك الى سبت
فقل لجديد العيش لا بد من بلى وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت

وهكذا الدنيا احلاء وامرار ، واقرار وانكار واعلان وأسرار ، تعفي كل ربع عامر ، وتبدد شمل كل مأمور وآمر » • (١)

وهذا الاسى الذي ألم بنفسه في مقامه بفاس أحس به كذلك أيام اغترابه بالمشرق • أنصت اليه يتحدث عن موطنه ويتألم لفراقه :

« محل فتح الكمائم ومسقط الرأس وقطع التمائم •

به كان الشباب اللدن غضا ودهري كله زمن الربيع
ففرق بيننا زمن خؤون له شغف بتفريق الجميع

لم أنس تلك النواسم التي أيامها للعمر مواسم ، وثغورها بالسرور بواسم ، فصرت أشير اليها وقد زمت للرحيل القلص الرواسم •

ولنا بهاتيك الديار مواسم كانت تقام لطيبها الاسواق
فأبانا عنها الزمان بسرعة وغدت تعللنا بها الاشواق

••• وأتمثل في تلك الحدائق التي حمائمها سواجع ، بقول من جفونه من الهوى غير هواجع •

تشدو بعيدان الرياض حمائم شدو القيان عزفن بالاعواد
ماد النسيم بقضبها فتمايلت مهتزة الاعطاف والاجياد
هذي تودع تلك توديع التي قد آذنت منها بوشك بعاد
واستعبرت لفراقها عين الندى فابتل مئزر عطفها المياد

وأحدق النظر الى روض ، لانسان العين من فراقه في بحر الدموع سبح وخوض •

روض به أشياء ليست في سواه تؤلف

---

١ ــ ازهار الرياض .

فمـــن الهزار ترنـــم ومـــن القضيب تقطـــف
ومن النسيـــم تلطـــف ومـــن الغدير تعطـــف

وألتفت كالمستريب ، والحي اذ ذاك قريب ، وحديث العهـد ليس بمنكر ولا غريب •

أهذا ولما تمض للبيـــن ساعة فكيف اذا مرت عليـــه شهور

والآثار لائحة والشمال غادية ورائحة •

أرى آثارهـــم فأذوب شوقـــا وأسكب من تذكرهم دموعـــي
وأسأل من قضى بفراق حبـــي يمن علي منهـــم بالرجـــوع

والنفس متعللة ببعض الانس ،والمشاهد الحميدة لم تنس •

تلك العهود بشدهـــا مختومة عندي كما هي عقدها لم يحلـــل

غير أن الرحيل عن الربع المحيل ، فصل به بين الشـائق والمشـوق وحيـــل :

وقفنا بربع الحـب والحب راحـــل نحـــاول رجعاه لنا ويحـــاول
وألقت دموع العين فيه مسائـــلا لها عن عبارات الغرام دلائـــل
وبالسفح منها كم سقيت لبانهـــا فميلته والسفـــح للبان مائـــل
اذا نسمة الاحبـــاب منها تنسمت تطيب بها أسحارنا والاصائـــل
تثير شجوني ساجعات غصونهـــا فمنها على الحالين هاجت بلابـــل
مرابع ليلي في مراتـــع لذتـــي مطالع أقمـــاري بها والمنـــازل

فحياها الله من منازل ذات أقمار سائرة فيها ، ومنـارة لا يحصـى الواصف محاسنها ، وأمداح أهلها ولا يستوفيها •

حلوا عقود اصطباري عندما رحلوا وفي الخصائل حلوا مثل امطـــار
ان المنـــازل قد كانـــت منازه اذ باتوا بها وهي أوطاني وأوطـــاري

ورعى الله من بان ، وشاق حتى الرند والبان :

بانوا لعينـــي أقمارا تقلهـــم لدن الغصون فلما آنسـوا بانـوا
عهودهم لست أنساها وكيف وقد رثى لبيني عنها الرنـد والبـــان

وأين من له صفاة لا يطمع القوي في نحتها وجنات دنيوية لا تجري أنهار الفراق من تحتها ؟

فسقى رضيع النبت من ذاك الحمى بحيا تـدور على الربا كاساتـه
سفح سفحت عليه دمعـي في ثرى كالمسك ضاع من الفتاة فتاتـه

ولم أزل بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق ،واتصالي في أثـر ذلك الجمع بالفرق •

أحن اذا خلوت الـى زمـان تقضـى لي بأفنيـة الربـوع
وأذكر طيـب أيـام تولـت لنا فتفيض من أسف دموعـي

وأتوق وقد اتسع من البعد الخرق ، وخصوصا اذا شدا صادح أو أومض برق الى ديار لا يعدوها اختيار •

وأربع احبـاب اذا ما ذكرتهـا بكيت وقد يبكيك مااتـت ذاكر
بطاح وأدواح يروقـك حسنهـا بكل خليج نمنمتـه الازاهـر
فما هو الا فضـة في زبرجـد تساقط فيـه اللؤلؤ المتناثـر
بحيث الصبا والترب والماء والهوى عبير وكافـور وراح وعاطـر
وما جنة الدنيـا سوى ما وصفتـه وما ضم منه الحسن نجد وحاجـر
بلادي التي أهلي بها وأحبتـي وروحي وقلبي والمنى والخواطـر
تذكرني أنجادهـا ووهادهـا عهودا مضت لي وهي خضر نواضر
اذ العيش صاف والزمـان مساعد فلا العيش مملول ولا الدهر جائر
بحيث لياليـنـا كغض شبابنـا وأيامنا سلـك ونحن جواهـر
ليالي كانت للشبيبة دولـة بها ملك اللذات نـاه وآمـر
سلام على تلك العهـود فانهـا موارد أفراح تلتهـا مصـادر (١)

وهذا قليل من كثيرا جاد فيه وأفاد • فن المعاني التي مرت بخاطره هنا حنينه الى وطنه وذكر أيام حلوة قضاها في مرح دائم بـين أحبابـه وخلانه بتلمسان الجميلة وبين أحضان تلك الطبيعـة الفتانة • وعندمـا

---

١ ـ نفح الطيب .

تفيض دموعه يروح يشكو الزمان الذي قضى عليه بالاغتراب ، ولكنه يعلل نفسه ويصبرها بقوله :

فقل لجديد العيش لا بد من بلى   وقل لاجتماع الشمل لا بد من شت
هو القدر الجاري على الكره والرضى   فصبرا وتسليما لما قدر الله

وفي كل هذه الاسطر نثرا كانت أم نظما لا نعثر على كلمة يكدى لها الذهن ويستغلق معناها على الفهم رغم استعماله المحسنات البديعية ، وربما زادته هذه رونقا وجمالا ، والسر في ذلك أنه عزف عن الغريب •

وتجاوبا مع نفسه في حنينها وشوقها جاء أسلوبه لينا رقيقا وألفاظه مؤثرة نافذة الى أعماق القلوب ، وتجاوبا مع الطبيعة في جمالها ، جاء أسلوبه عذبا ساحرا ، وألفاظه رشيقة ناعمة الملمس وصوره براقة ملونة ، يشخص الطبيعة ويجسدها فتتحرك أمامك • قال :

كأن أكف الريح تكتب اسطرا   على النهر الا ان احرفها زرق

فلقد أعجب بالاندلسيين فغنى على قيثارتهم ، وافتن بالمشارقة في متانة العبارة واحتباك البيت •

وهذه الاساليب السهلة العذبة وهذه العبارات المتينة الرشيقة نجدها في رسائله التي نعطيك منها نماذج • اسمعه يجيب عبد الرحمان العمادي عن رسالته ويمدحه ولم يكن مداحا متملقا ولا محترفا :

ما تبر راح كأسها مذهب   ما للنهى عن حسنها مذهب
تستدفع الاكدار من صفوها   وتنهل الافراح او تنهب
تسعى بها هيفاء من ثغرها   او شعرها النور او الغيهب
أو شعرها النور او الغيهب   تسعى بها هيفاء من ثغرها
فتانة الاعطاف نفاثة   سحرا بألباب الورى يلعب
في روضة قد كللت بالندى   والزهر رأس الغصن اذ يعصب
برودها بالنور قد نمنمت   كالوشي من صنعاء بل أعجب
والماء يجري تحت جناتها   والنار من نارنجها تلهب
والظل ضاف والنسيم انبرى   والجو ذاكي العرف مستعذب
والطير للعشاق بالعود قد   غنت فهاجت شوق من يطرب

أبهى ولا أبهج في منظر ... من نظم من تقديمه الاصوب
مفتي دمشق الشام صدر الورى ... من في العلا تم به المطلب
علامة الدهر ولامرية ... وملجأ الفضل ولا مهرب
لله ما امتاز به من حلى ... بغير من الله لم تكسب
أبدى به الرحمن في عبده ... مظاهر المنح التي تحسب
جود بلا من وعلم بلا ... دعوى به التحقيق يستجلب
وبيت مجد مسند ركنه ... الى عماد الدين اذ ينسب
فبرقه الشامي من شامه ... نال مراما والسوى خلب
وما عسى أبديه في مدحه ... أو وصف ابناء له انجبوا
تسابقوا للمجد حتى حووا ... سبقا لما في مثله يرغب
اعيذهم بالله من شر ما ... يخشى من الاغيار او يرهب
وأسأل الله لهم عزة ... باديه الاضواء لا تحجب

ولما قرأ ابن شاهين على المقري قصيدته المسماة باضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة سأله أن يجيزه فيها وفي غيرها • فكتب اليه المقري قصيدة تحتوي على سبعة وخمسين بيتا • ومن الاجازات الكثيرة التي قالها بدمشق الشام ما كتبه للاديب يحي المحاسني في قصيدة تحتوي على أربعة وأربعين بيتا •

رأى المقري أن الموت لا مهرب منه لا يرده جاه ولا مال ولا منصب • فالايام تجري ويجري معها الانسان الى مضجعه الاخير • فعبر شاعرنا عن فكرته هذه في قصيدة طويلة باسلوب رائع • فاختار لها وزنا وقافية يناسبان الموضوع • اليك مطلعها :

سبحان من قسم الحظو ... ظ فلا عتاب ولا ملامه (١)

وخلاصة القول ان المقري كان من آكبر مثقفي عصره • له المقام الرفيع فيالفقه والتفسير والحديث والشهرة الواسعة في التأريخ وفنون

١ ــ نفح الطيب ج ١ ــ ص : ٢٣ .

الادب • وتأثيره بالثقافة العربية بين في نثره وشعره وتوشيحه • فارق الحياة ، رحمه الله ، في القاهرة في شهر جمادي الثانية سنة ١٠٤١ (كانون الثاني ١٦٣٢ م) •

عبد الكريم بن محمد الفكون

هناك شخصية أخرى عاصرت المقري تتمثل في الشيخ الصالح مفتي قسنطينة عبد الكريم بن محمد الفكون • انه من بيت شهير بالفضل والعلم والادب • ترجم له المقري في النفح فقال :

« سلالة العلماء الاكابر ووارث المجد كابرا عن كابر ••• عالم المغرب الاوسط غير مدافع وله سلف علماء ذوو شهرة ولهم في الادب الباع المديد غير أن المذكور ــ عبد الكريم بن الفكون ــ مائل الى التصوف » وقال العياشي • « كانت لنا به ، رضي الله عنه ، وصلة انتساب بالخدمة والولاء والاعتقاد الصالح لما حججت معه في سنة ١٠٦٤ » •

وكان عبد الكريم عالما اديبا شاعرا ناثرا • له ديوان في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مرتب على حروف المعجم • وذكر العياشي نماذج من قصائد هذا الديوان في رحلته • ومن مؤلفاته شرحه على أرجوزة الماكودي في التصريف وجزء في تحريم الدخان سماه « محدد السنان في نحور اخوان الدخان » وشرح على شواهد الشريف على الاجرومية •

ومن آثاره أيضا رسالة كتبها الى معاصره بالمشرق شهاب الدين أبي العباس أحمد المقري ، من نوع الاخوانيات نعرضها لك لتكون على بينة من أسلوب النثر والنظم المستعمل في المكاتبة بين الادباء في تلك الآونة •
قـــال :

باسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على من أنزل عليه في القرآن : « وانك لعلى خلق عظيم » وآله وصحبه وسلم أفضل التسليم • من مدنس الازار المتسربل بسرابيل الخطايا والاوزار ،الراجي للتنصل منه رحمةالعزيز الغفار ،عبداللهعبد الكريمبن محمد بن الفكون ،أصلح الله بالتقوى حاله !

وبلغه من متابعة السنة النبوية آماله ! الى الشيخ الشهير ، الصدر النحرير، ذي الفهم الثاقب ، والحفظ الغزير ، الاحب في الله المؤاخي من أجله سيدي أبي العباس أحمد المقري • أحمد الله عاقبتي وعاقبته ! وأسبل على الجميع عافيته ! أما بعد فاني أحمد الله اليك وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أريد الا صالح الدعاء وطلبه منكم ، فاني أحوج الناس اليه ، وأشدهم في ظني الحاحا عليه ، لما تحققت من أحوال نفسي الامارة ، واستبطنت دخيلائها المثابرة على حب الدنيا الغرارة ، كأنها عميت عن الاهوال ، التي أشابت رؤوس الاطفال ، وقطعت أعناق كمل الرجال ، فتراها في لجج هواها خائضة ، وفي ميدان شهواتها راكضة ، طغت في غيها وما لانت ، وجمحت فماانقادت ولا استقامت ، فويلي ثم ويلي من يوم تبرز فيه القبائح وتنشر الفضائح ، ومنادي العدل قائم بين العالمين ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، فالله أسأل حسن الالطاف ، والستر عما ارتكبناه من التعدي والاسراف ، وان يجعلنا من أهل الحمى العظيم ، وممن يحشر تحت لواء خلاصته الكريم ، سيدنا ومولانا وشفيعنا النبي الرؤوف الرحيم ، ولنكف من القلم عنانه ، لما ارجو من أجله ثواب الله سبحانه ، وقد اتصل بيدي جوابكم ، أطال الله في العلم بقاءكم ، فرأيت من عذوبة ألفاظكم وبلاغة خطابكم ما يذهل من العلماء فحولها وينيلها لدى الجثو لسماعه سؤلها ومأمولها ، بيد ما فيه أوصاف من أمره قاصر ، وعن الطاعة والاجتهاد فاتر ، وأصدق قول فيه عند مخبره ومرآه ، أن تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، لكن يجازيكم المولى بحسن النية ، البلوغ في بحبوحة الجنان غاية الامنية ، وقد ذيلتم ذلك بأبيات أنا أقل من أن اوصف بمثلها ، على اني غير قائم بفرضها ونفلها، فالله تعالى يمدكم بمعونته ، ويجعلكم من أهل مناجاته في حضرته ، ويسقينا كاسات القرب ما تتمتع منه بلذيذ منادمته ، وقد ساعد البنان الجنان ، في اجابتكم بوزنها وقافيتها، والعذر لي أنني لست من أهل هذا الشأن ، والاعتراف بأنني جبان ، وأي جبان ، والكمال لكم في الرضا والقبول ،

والكريم يغضي عن عورات الاحمق الجهول ؛ وظننا حققه الله تعالى أن نجعل على منظومتكم الكلامية يعني « اضاءة الدجنة تقييدا ، أرجو من الله توفيقا وتسديدا بحسب قدري لا على قدركم ، وعلى مثل فكري القاصر لا على عظيم فكركم ، وان ساعد الاوان ، وقضى بتيسيره رب الزمان ، فآتي به ، ان شاء الله ، الاجل معي لانني بالاشواق الى حضرة راكب البراق ، ومخترق السبع الطباق ، وكنت عازما على ان ابعث لكم من الابيات اكثر من الواقع ، الا أن الرفقة اعجلت ، وصادفتني أيام موت قعيدة البيت فلم يتيسر عاجلا الا ما ذكر وعلى الله قصد السبيل وهو حسبي ونعم الوكيل :

يا نخبة الدهر في الدراية   علما تعاضده الروايه
لا زلت بحرا بكل فن   يروي به الطالبون غايه
لقد تصدرت في المعالي   كما تعاليت في العنايه
من فيك تستنظم المعاني   بلغت في حسنها النهايه
رقاك مولاك كل مرقى   تحوي به القرب والولايه
أعجوبة ما لها نظير   في الحفظ والفهم والهدايه
يا أحمد المقري دامت   بشراك تصحبها الرعايه
بجاه خير العباد طرا   والآل والصحب والنقايه
صلى عليه الاله تترى   تكفى بها الشر والغوايه

وأختم كتابي بالصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب بغاية عجله يوم السبت سابع أو ثامن رجب من عام ثمانية وثلاثين والف للهجرة على صاحبها الصلاة والسلام » .

نلاحظ في هذه الرسالة معاني بسيطة واسلوبا سهلا لا تشوبه الزخارف اللفظية ، الا ما كان من السجع الذي تأثر به جميع الناس يومئذ، فهو صورة ناطقة لهذه النفس المطمئنة الهادئة البعيدة عما يشوبها .

وقد توفي رحمه الله ، عشية الخميس ٢٧ ذي الحجة سنة ١٠٧٣ هـ (٣ آب ١٦٦٣ م) .

الفصل الثامن

فترة الاحتلال الفرنسي

١١١٤ ـ ١٢٤٦ هـ

١٨٣٠ ـ ١٩٦٢ م

السياسة :

ملىء البحر المتوسط بالقراصنة الاوروبيين واشتدت حملاتهم على شواطىء افريقية الشمالية • ففكرت نيابات الجزائر وتونس وطرابلس في انشاء قوات بحرية ولم تتعرض الا لسفن الدول المعادية • وكان المسلمون يعتبرون البحر المتوسط بحرا اسلاميا لا ينبغي أن تعلو فيه غير راية المسلمين ، ولا يسمح بالمرور فيه الا لسفن الدول التي تبرم معاهدات السلام والصداقة مع دول المغرب العربي ، وتلتزم أن تدفع غرامات سنوية وهدايا للوالي في مختلف المناسبات • ومن بين الدول التي أبرمت مثل هذه المعاهدات فرنسا ، مما جعلها تكن كرها وحقدا للاسلام وللمسلمين • وكانت هذه الدولة شديدة الاهتمام باحياء التجارة بالمشرق ، وتأسيس أمبراطورية استعمارية فيما وراء البحار • وهذا الهدف يحتم عليها تدمير قوات الجزائر البحرية التي في وسعها أن تحول دون تنفيذ عزمها • فعزمت على أن تستولي على الجزائر فأخذت تستعد وتمهد السبيل الى ذلك • وكانت الجزائر قد أذنت لفرنسا ان تنشىء مراكز في « القالة » بشرط الا تحصن هذه المراكز و لاتسلحها وأن تدفع ضرائب مقابل السماح لاقامتها • ومن الاسف ان اولي الامر لم يتنبهوا لخطر ذلك • ففرنسا بعدما تمكنت من اقامة مراكزها تنكرت للشروط وجعلت تلك المراكز « وكرا » لنشاطها التخريبي ضد سلامة البلاد • ثم كانت الجزائر قد أقرضت فرنسا أموالا ، فتملصت من اداء ما عليها من ديون •كل ذلك كان سببا لازمة شديدة بدأت بحادث المروحة وانتهت بحملة الاحتلال عام ١٨٣٠ •

قبيل ان تنقض فرنسا على الجزائر أعلمت بعزمها قنصلها « دوفال » بالجزائر وطلبت منه ان يتخذ الاحتياطات اللازمة لسلامة الرعايا الفرنسيين المقيمين بالعاصمة وعنابة • فجاء يوم عيد الفطر (١٢٤٣ هـ) وذهب « دوفال » بحسب العادة المتبعة لتقديم التهاني للداي « حسين باشا » • وعند اللقاء به سأله الداي لماذا لا يجيب وزير الخارجية الفرنسية

على رسائله المتعددة المتعلقة بتصفية حساب الدين ولماذا لايكتب له مباشرة • فأجابه « دوفال »بكل وقاحة « ان حكومتي لن تكتب اليك أبدا ، وان الوزير لا يتنازل ليكتب ويجيب من هو دونه بلا واسطة » • فغضب الداي ، وكانت بيده مروحة من الريش ، فأشار بها الى دوفال بقوله : « اخرج يا كافر ، اخرج يا ملعون ! » فادعى دوفال أن ريش المروحة قد لمس وجهه وخرج وفي قلبه ما فيه • فوجم الحاضرون وفهموا أن الحادث متعمد • وفعلا كان متعمدا يدل على تواطؤ بين موقفه ورغبة حكومته في ان يثير مشكلا يبرر الحملة القادمة •

لما علم وزير الخارجية الفرنسي بالحادث أمر « دوفال » ان يوقف اتصالاته بالداي ويترك الامر لقائد الحملة الذي سيأتي لينال الترضية خلال اربع وعشرين ساعة او يستعمل القوة للانتقام لكرامة فرنسا التي أهينت بحسب زعمه في شخص قنصلها • ثم أخبر الدول الاجنبية بالحادث واخطرها بأن شرف الملك قد أهين ، وهو يريد حينئذ ان يتلقى من الداي الترضية الكافية والا فرض الحصار على الجزائر حينا •

وفعلا فرضت فرنسا الحصار لان الداي لم يقبل بشروطها ، وقامت اثر ذلك بين الدولتين حرب لم يستسلم لها الشعب ابدا • لما اشتدت الحرب واستفحل الامر ، ترك العثمانيون البلاد وشأنها لانهم ليسوا ابناءها • وهذا ما جعل الاهالي لا يعتمدون لحماية البلاد على السلطات الرسمية ولا على الدولة العثمانية ، ذلك الرجل المريض ؛ فاتكل الشعب على نفسه ، وراح ينظم المقاومة وينادي بالجهاد ويقيم في كل جهة من جبالها وسهولها معاقل للكفاح واتخذ عبد القادر بن محي الدين رئيسا • فأظهر هذا شجاعة وقدرة حربية لا نظير لهما مدة ثمانية عشر عاما ، الى ان تغلبت الجيوش الفرنسية العرمرمة على جيشنا الباسل الذي لظهر شجاعة وتضحية خارقة للعادة • الا ان الجزائر لم تخسر الحرب ابدا بل خسرت معركة فقط اذ استمر الكفاح الى يوم انتصارها النهائي عام ١٩٦٢ على فرنسا التي تعد من اعظم دول العالم •

المجتمـع :

عرف عبد القادر أن مقاومة فرنسا غير ممكنة اذا بقيت موكلـة للقبائل المتفرقة واذا لم يجمع شتاتها في قبضة دولة وطنيـة مخلصة • فنشأت حينئذ دولة ، وشرعت في تنظيم الجيش والقضاء والثقافة والحياة الاقتصادية • ولكن الجيش الفرنسي بلغ عددا باهظـا بحيث لم يعـد للجزائريين احتمال مغالبته • ولجأ الفرنسيون الى وسيلة الابادة وارتكبوا توحشا لا مثيل له • فأمكن فرنسا ان تستولي على الجزائر ، وان تبعـد العنصر الاسلامي عن الحكم ، وقسمت البلاد الى عمالات ومقاطعـات فرنسية • فالعامل في كل عمالة يتبع رأسا وزير الداخلية بباريس ، وللوالي العام عليه حق الاشراف ليس غير • وفي ادارة كل عمالة جيش من الموظفين لا وجود للمسلم بينهم • وكان المشير « دوبرمون » الفاتح الفرنسي قد تعهد على احترام الدين وشعائره ومؤسساته ، وتعهد بحفظ ممتلكـات الاتراك ، لكنه لم يكد يستتب له الامر حتى اعلن مصادرة كل اوقـاف المسلمين من ارض وعقار ، ومصادرة كل ممتلكات ابناء البلاد من الاتراك ووزعها على الحثالة التي صحبت جيش الاحتلال • وقد قلنا سابقا بأن المسلمين كانوا يملكون الجهات الشاسعة من الارض ملكا جماعيا • فقد صدر قرار سنة ١٨٣٢ يقضي بملكية الدولة الفرنسية لكل ارض لا يستطيع صاحبها ان يستظهر بعقد امتلاك لها •

وصدر قانون آخر في تشرين الاول سنة ١٨٤٤ يبيح ارض الاوقاف للمعمرين ثم صدر قانون آخر في ٣١ تموز سنة ١٨٤٦ يبيح للاستعمـار كامل الاراضي التي تقيم فيها القبائل الرحالة • فهكـذا اصبح بيـد الاستعمار اكبر مساحة من الارض • واما اهل البادية فلم يبق لهم الا أرض البـور •

وتغلب الاستعمار على المقراني وأعلن مصادرة كامل ارض الفلاحـة ووزعها على اللاجئين من « الألزاس » وتركت هكذا زواوة عرضة للجوع •

شرد الجزائريون من أرضهم ، وبقيت الحالة هكذا الى قيام الثورة الجزائرية الكبرى •

ولم يكتف الاستعمار بالاستيلاء على ما فوق الارض بل استحوذ على كل ما تحتها ايضا • ومعادن القطر الجزائري كثيرة درت على شركات الاستعمار الارباح الذريعة • وتعمد الاستعمار اعدام كل حركة صناعية في البلاد • لم يحدث صناعة في القطر الجزائري يزاحم بها معامل فرنسا• والتصنيع يغير وضعية سوق اليد العاملة الجزائرية « فيغري العمال الجزائريين بالعمل الصناعي المرتفع الاجور ويزيدهم في العمل الفلاحي عند المعمرين مقابل الاجور المنخفضة • وهذا ليس في مصلحةالمستعمرين• وحالة التجارة كانت سيئة تحتكرها فرنسا ، تبتاع منتوجات القطرالجزائري وتبيعه ما يحتاج اليه مما تنتجه معاملها • والجزائريون لا وجود لهم في هذا كله • والعامل الجزائري كان يعمل كثيرا ويربح قليلا • فبقدر ما تزداد ثروة الاوربيين بقدر ذلك يزداد فقر الجزائريين • فقد تعهدت فرنسا سياسة تفقير الاهالي والقضاء عليهم • فلا نعجب حينئذ تجاه هذه الحالة أن تكون الامة الجزائرية لذلك العهد في حالة مرض مزمن •

والقضاء في الجزائر كان قضاء فرنسيا وان اهل البلاد ليس لهم فيه أدنى مشاركة • أما القضاء الشرعي الاسلامي فكان لا يهتم الا بما يتعلق بالحالة الشخصية الاسلامية من زواج وطلاق وحضانة ومواريث • والقضاء في أرض القبائل يعتمد على العرف والتقاليد القبلية منذ سنة ١٨٧٤ ، وتريد فرنسا بذلك فصل البربر عن العرب والاسلام • اما الدين الاسلامي فكان ملكا خاصا من ممتلكات الدولة الاستعمارية تتصرف فيه بحسب هواها • أصبحت الاوقاف الاسلامية تحت تصرف الدولة سنة ١٨٣٠ • فكل المساجد والمؤسسات الاسلامية اصبحت لها • اخذت منها لصالح المسيحية ما اخذت ودمرت ما دمرت ثم هي تسمح للمسلمين باقامة شعائر دينهم في ما بقي منها • فهي التي تعين المفتيين وأئمةالمساجد ومؤذنيها • وهؤلاء الناس لا يتسلمون وظائفهم الا اذا قدموا للاستعمار

ما يوجب رضاه . وكانت الزوايا من قبل منبع علم وأكبر عامل لاصلاح المجتمع . فما لبثت ان انحرفت عن غايتها المحمودة . فتسلط عليها شيوخ جهلة استغلوا مكانة الزوايا في قلوب العامة . فخلعوا على انفسهم الحقيرة صفات الالوهية وأوهموا المريدين . فصار الناس يعتقدون أن رضا شيخهم هو الذي يكفر ذنوبهم ويدخلهم الجنة ويورثهم البركة والصحة والسعادة . وسقط هؤلاء الشيوخ في شبكة الاستعمار يسخرهم لمصلحته . فوقعت بينهم وبين زعماء النهضة معارك ظهر اثرها الحق وزهق الباطل . الا أن هناك زوايا لم تفسد ، نشرت الدين والثقافة ونبغ في معاهدها علماء كان لهم الاثر الحسن في النهضة الحديثة . لكن الاستعمار قضى على أغلبها واستولى على اوقافها اذ أبت أن تسير في ركابه .

الثقافة او سياسة التجهيل

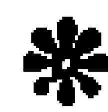
كانت قبل الاحتلال الفرنسي الكتاتيب والمساجد والزوايا منتشرة في جميع انحاء البلاد يتلقى النشء فيها ثقافته العربية الاسلامية . فلا يجهل الاستعمار ان العلم سيف قاطع . فاذا تسلح به الجزائري أمكنه ان يقاومه . فسعى حينئذ في تجهيل الأمة الجزائرية . فشغله الشاغل هو افناء العنصر الاسلامي بالتفقير وتجهيل ما بقي منه ، وما هي الا فترة حتى أصبحت البلاد فارغة من العلم . الا أنه في سنة ١٨٨٣ أخذ يفتح أبواب المدارس في وجه أبناء الجزائر ، لكن التعليم كان فرنسيا بحتا . فكيف لا والجزائر أصبحت عندهم قطعة من فرنسا ولغتها الفرنسية . ولم يكن القصد في تعليم الجزائريين الاستجابة لصوت الأمة المتعطشة للعلوم والعرفان وانما تقريبهم من فرنسا بواسطة اللغة الفرنسية حتى يسهل ابتلاعهم وادماجهم .

أما اللغة العربية فكانت في المدارس الثانوية لغة اختيارية كأنها لغة أجنبية في بلادها . لكن الأمة الجزائرية لم تبق مكتوفة الايدي امام هذه الوضعية ، بل اخذت تبني المدارس العربية الاسلامية الحرة بجهودها الضئيلة . وشيدت منها ما يزيد على ١٧٠ مدرسة وذلك تحت اشراف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . وهذه المدارس أمكنها أن تكون نخبة

عربية اسلامية من الفتيان والفتيات • ثم أسست هذه الجمعية معهد عبدالحميد بن باديس التكميلي • منه يوجه الطلبة الى المدارس والمعاهد العليا بتونس والشرق العربي • وجهزت لهذا المعهد دار التلميذ وهي مؤسسة داخلية يجد فيها نحو ألف طالب المأوى والطعام •

وهذه المصائب التي نكب بها الشعب الجزائري لم يمكنها أنتزعزع ايمانه ولم يستول عليه اليأس أو الضعف ، بل كان يعتقد أنه انما يقاسي محنة عارضة • فلا بد أن يسترجع يوما ما ضاع له من أرض وما ضاع له من شرف ، وسيحيا في أرضه حرا سعيدا كما فعل أسلافه في عهد الرومان • فقامت الطبقة المثقفة تقاوم الاستعمار بالقلم • فسجلت الفظائع التي قام بها الجندي الفرنسي وبينت مصادرة الاملاك والارزاق والمظالم ، وطالبت بالمساواة والحقوق المشروعة • وقامت جمعية نجم شمال افريقية تقاوم الاتجاه الفرنسي في الخارج وأخذت جمعيةالعلماء تقاوم نفس الاتجاه داخل البلاد : فحاربت أنصار الاستعمار وقاومت وحطمت البدع والضلالات الدينية التي استغلها العدو أي استغلال تحت ستار الطرقية ، ونشطت في توجيه السياسة توجيها عربيا اسلاميا •

وتكونت بجانب هذه الجمعية أحزاب جزائرية : حزب الشعب الجزائري وحزب البيان والحرية ، المؤلفة من خريجي المدارس الفرنسية• وفرنسا نكلت بجميع الاحزاب ، لكنها لم تقو على أن تجعل حدا لهذه المقاومة الذريعة التي نتجت عنها الثورة الكبرى في كل مكان من ارض الوطن التي استرجع بها الشعب حريته واستقلاله الكامل •



الادب :

سررنا لخروج الأدب من نكسته في القرن الحادي عشر الهجري وتمنينا أن يسلك طريقا تؤدي به الى ما عرفه من الازدهار من قبل ، لكنه ، ويا للأسف ، رجع الى نكسته على الرغم من أنه ظل مسيطرا على موقفه

مستميتا في حفظ كيانه • فلا نستطيع أن نعثر على أديب يمثل حقب الحركة الادبية بعد وفاة المقري حتى القرن الثالث عشر الهجري حيث برزت شخصية فذة تتمثل في الامير عبد القادر •

الامير عبد القادر

هو عبد القادر بن محي الدين من عائلة شريفة دينية • ولد عام ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) في قرية القيطنة بناحية مدينة (معسكر) • وأخذ الفقه على والده وعلماء بلده ، ثم ارتحل الى مدينة وهران فاستكمل فيها ثقافته ودرس الفقه والاصول والحديث والعلوم اللسانية • فبرع في علوم الشريعة وألف فيها • ومن تآليفه رسالته المسماة « بذكرى العاقل وتنبيه الغافل » • خرجت الى عالم الوجود عام ١٢٧١ هـ نشرها ابنه • وهذه الرسالة بعث بها الى المجمع العلمي الفرنسي الذي أستن سنة انتقاء اعضاء مراسلين يفيد من آرائهم وخبرتهم ما يضيفه الى المعرفة الانسانية مساهمة منه في خدمة الحضارة والرقي العقلي والفني • ونلمس فيها أن عبد القادر واسع الاطلاع ، وأن له اسلوبا واضحا يختلف عن أسلوب القرون الوسطى المسجع المتكلف المنمق بالبديعيات وقد كان سائدا في عصره • لذا يعد عبد القادر واحدا من تلك الفئة المحددة التي جفت الطرق المتكلفة وأنست الى الاسلوب المرسل المطبوع • وأما أفكاره في هذه الرسالة فكثير منها قابل المناقشة • يقول : « لقد حكي عن بعض علماء الوقت الان انه قال : ان الضوء يمشي من الجسم المضيء الى ما يقابله من الاجسام كذا وكذا مترا في كذا وكذا ثانية أو دقيقة • وتلقى العامة منه هذا القول بالقبول ! فلو استعمل هذا العالم قوته النظرية في حقيقة هذا الضوء ، لم يحكم بانتقاله • لان الضوء لا يخلو ، اما ان يكون جسما أو عرضا ولا ثالث لهما • فلو كان الضوء عرضا ، يمشي من الجسم المضيء الى ما يقابله من الاجسام ، لكان لا ينتقل الا بانتقال الجسم الذي قام به ذلك العرض ، باتفاق العقلاء ، اذ حقيقة العرض هو ما لا يقوم بنفسه • ولو كان الضوء

جسما كان لا يداخل الاجسام . ولو دخل الضوء الى بيت ، من طاق ، فسد انسان الطاق ، دفعة واحدة ، كان يلزم : أن تبقى الاجسام المضيئة في البيت ، على تقدير أن الضوء جسم ، وهو غير واقع بالمشاهدة . انما حقيقة الضوء عرض يحدث في ظاهر الجسم الكثيف ، من مقابلة الجسم المضيء له ، اذا كان بينهما جسم شفاف . وانما يحدث ذلك الضوء من السبب الذي يحدث منه ضوء الجسم المضيء ، كالشمس والسراج فالذي يخلق الضوء في الجسم المضيء يخلق الضوء في الجسم المقابل له ... فالضوء عرض يحل في الجسم الكثيف ، ولا يحل في الهواء ، كما توهمه قوم ، بدليل أن القاعد في غار طويل في الجبل ، لا يدري بالليل ، ولا بالنهار ، خارج الغار بلا شك » .

نلاحظ على الامير هنا عدم تقبله للنظريات الحديثة التي بنت ظواهر الكون على التجريب والحساب الرياضي وكيف لا يؤمن بقوانين الطبيعة في الضوء وهي لا تتنافى والايمان بالله ؟ فالله القدير على كل شيء هو الذي وضع قوانين الطبيعة في الضوء والصوت والكهرباء وغيرها من مظاهر الكون . وعلى اساس هذه القوانين تقدمت العلوم التجريبية هذا التقدم السريع العجيب الذي نلاحظه في العصر الحاضر . ولو وقف العلماء موقف الامير من نظرية سرعة الضوء لما عرفنا الهاتف والبرق والتلفزة والطيارة والصواريخ والاقمار الاصطناعية .

ونلاحظ على الامير موقفه من تعليم المرأة الكتابة . يقول :

« وفي الكتابة تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان ولذا قيل : القلم احد اللسانين بل الكتابة ابلغ من اللسان . فان الانسان يقدر على كتابة ما لا يقدر ان يخاطب به غيره ويبلغ المقصود ، حيث لا يمكن الكلام مشافهة . ولهذا نهى شرع الاسلام عن تعليم النساء الكتابة لان المرأة قد لا يمكنها لقاء من تهوى فتكتب له ، فتكون الكتابة سببا للفتنة » .

يفهم من قوله هذا انه يصد المرأة عن نور العلم اذ لا يكون العلم بغير تعلم الكتابة ، لكن الاسلام يحض على العلم فجاء في كتابه تعالى : هل

يستوي الاعمى والبصير ؟ وقال صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وقال ايضا : ربي زدني علما .

والامير معذور لان التقاليد المتخلفة شاعت يومذاك ان تحرم المرأة من التعليم وغيره . وعلى كل حال فان رسالته جديرة بالتقدير لانها تعطينا صورة عما وصل اليه المستوى العلمي في الجزائر في هذه الفترة .

والامير قضى اكثر ايامه في المعارك بين قعقعة السيوف وتفجر البارود ورعد المدافع أو في الأسر كاسف البال . وقد شاءت الاقدار ان يضيع ملكه وحريته وماله . أليس عجبا أن يجد الوقت الكافي لكتابة الرسائل او تأليف الكتب أو قرض الشعر ؟ فكان يحب الشعر ويراه زينة وحلية وقد أجاز شعراء امتدحوه .وله ديوان قام بجمعه ولده محمد باشا ومن بعده الدكتور ممدوح حقي ، وقد قسم هذا الاخير الديوان الى فخر وغزل ومساجلات ومناسبات وتصوف .

نلمس في فخره أثر عنترة والمتنبي ، تغنى مثلهما بالشجاعة والبأس والبطش بالعدو . ولا غروة من ذلك ، فانه عرف المعارك ومارسها ممارسة الجندي والقائد .

فقال :

تسائلني أم البنين وانها	لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي ، يا ربة الخدر ، أنني	أجلي هموم القوم ، في يوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت ، لا متهيبا	وأحمي نساء الحي في يوم تهوال
أمير ، اذا ما كان جيشي مقبلا	وموقد نار الحرب ، اذا لم يكن صالي
اذا ما لقيت الخيل ، انني لاول ،	وان جال أصحابي ، فاني لهم تال
أدافع عنهم ، ما يخافون من ردى	فيشكر كل الخلق من حسن افعالي
وأورد رايات الطعان صحيحة	وأصدرها بالرمي تمثال غربال
ومن عادة السادات ، بالجيش تحتمي	وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي
وبي تتقي ، يوم الطعان ، فوارس	تخالينهم في الحرب أمثال أشبال
اذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحما	أقول لها : صبرا كصبري واجمالي

وأبذل يوم الروع نفسا كريمة ... على أنها في السلم أغلى من الغالي
وعني سلي جيش الفرنسيس تعلمي ... بأن مناياهم بسيفي وعسالي
سلي الليل عني كم شققت أديمه ... على ضامر الجنبين ، معتدل عال
سلي البيد عني والمفارز والربى ... وسهلا وحزنا ، كم طويت بترحالي
فما همتي الا مقارعة العدا ... وهزمي أبطالا شدادا بأبطالي
فلا تهزئي بي ، واعلمي انني الذي ... أهاب، ولو اصبحت تحت الثرى بالي

فالامير مخلص فيما قال . فانه لا يتخيل المعارك تخيلا كما تخيلها شعراء كثيرون قبله . وانما يصف ما رآه وما عاناه وقاساه وصف الخبير الذي خاض غمارها ومارس اهوالها . وشعره متين في لغته ، ولكن نلاحظ عليه استعماله الضرائر الشعرية .

ولا بأس ان نزيدك مقطوعة من قصيدة اخرى تؤكد لك فخره وحماسه قالها اثر معركة هائلة وقعت عام ١٨٣٢ عند وهران في مكان يدعى « خنق النطاح » ترأسها والد الامير :

ألم تر في خنق النطاح نطاحنا ... غداة التقينا ، كم شجاع لهم لوى ؟
وكم هامة ، ذاك النهار ، قددتها ... بحد حسامي والقنا ، طعنة شوى
وأشقر تحتي كلمته رماحهم ... ثمان ولم يشك الجوى بل وما التوى
بيوم قضى نحبا أخي فارتقى الى ... جنان له فيها نبي الرضا أوى
فما ارتد من وقع السهام عنانه ... الى أن أتاه الفوز زاغم من عوى
ومن بينهم ، حملته ، حين قد قضى ... وكم رمية كالنجم ، من افقه هوى
ويوم قضى تحتي جواد برمية ... وبي أحدقوا لولا اولو البأس والقوى
وأسيافنا قد جردت من جفونها ... وردت اليها بعد ورد ، وقد روى
ولما بدا قرني بيمناه حربة ... وكفي بها نار بها الكبش قد شوى
فأيقن اني قابض الروح ، فانكفا ... يولي فوافاه حسامي ، مذ هوى
شددت عليه شدة هاشمية ... وقد وردوا ورد المنايا على الغوى
نزلت « ببرج العين » نزلة ضيغم ... فزادوا بها حزنا وعمهم الجوى
وما زلت أرميهم بكل مهند ... وكل جواد همه الكر ، لا الشوى

وذا دأبنـــا فيه حياة لديننـــا وروح جهاد بعـــد ما غصنه ذوى
جزى الله عنا كل شهم ، غدت بـه غريس لها فضل ، أتانا ومـا انزوى
فكم أضرموا نار الوغى بالظبا معي وصالوا وجالوا والقلوب لها اشتوا
وانا بنو الحرب العوان لنا بهـــا سرور ، اذا قامت وشانئنا عـــوى
لذاك ، عروس الملك كانت خطيبتي كفجأة موسى بالنبوة في طـــوى
وقد علمتني خير كفء لوصلهـــا وكم رد عنها خاطب ، بالهوى هوى
فواصلتها بكرا ، لدي تبرجـــت ولي أذعنت والمعتدي بالنوى ثـوى
وقد سرت فيهم سيرة عمريـــة وأسقيت ظاميها الهداية فارتـــوى
فواصلتها بكرا لدي تبرجـــت ولي اذعنت والمعتدي بالنـــوى
واني لأرجو أن اكون انا الـــذي ينير الدياجي بالسنا ، بعد ما لـوى
بجاه ختـــام المرسلين محمـــد أجل نبي كل مكرمة حـــوى •

دافع الامير عبد القادر عن حقه وحق شعبه في الحياة الحرة • ولكن فرنسا اكثرت الجيوش المزودة باحدث الاسلحة والزمته الاستسلام ، فحمل على بارجة الى فرنسا وحبس عليه بقصر في « أمبواز » خمس سنوات• وهناك كان موضع تكريم من علماء فرنسا وعظمائها • فبعث اليه بعضهم يسأله رأيه في : هل البدو أفضل أم الحضر • فرد عليه بالقصيدة الآتية :

يا عاذرا لامرىء قد هام في الحضر وعاذلا لمحب البـــدو والقفـــر
لا تذممن بيوتا خف محملهـــا وتمدحن بيوت الطين والحجـــر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني لكن جهلت•وكم في الجهل من ضرر!
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقيا بساط رمل ، به الحصباء كالـدرر
أو جلت في روضة ، قد راق منظرها بكل لون جميل شيق عطـــر
تستنشقن نسيما ، طاب منتشقـــا يزيد في الروح لم يمرر على قـــذر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنـــه علوت في مرقب ، أو جلت بالنظـــر
رأيت في كل وجه من بسائطهـــا سربا من الوحش ، يرعى أطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبق من حـــزن في قلب مضنى ، ولا كدا لذي ضجر
نباكر الصيد أحيانا فنبغتـــه فالصيد منا مدى الاوقـــات في ذعر

فكم ظلمنا ظليما في نعامته ... وان يكن طائرا في الجو كالصقر
يوم الرحيل اذا شدت هوادجنا ... شقائق عمها مزن من المطر
فيها العذارى وفيها قد جعلن كوى ... مرقعات بأحداق من الحور
تمشي الحداة لها من خلفها زجل ... أشهى من الناي والسنطير والوتر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها ... شليلها زينة الاكفال والخصر ٠
نطارد الوحش والغزلان نلحقها ... على البعاد وما تنجو من الضمر
نروح للحي ليلا بعد ما نزلوا ... منازلا ، ما بها لطخ من الوضر
ترابها المسك بل انقى وجاد بها ... صوب الغمائم بالآصال والبكر
نلقى الخيام ، وقد صفت بها ، فغد ... مثل السماء زهت بالانجم الزهر
قال الألى قد مضوا قولا يصدقه ... نقل وعقل ، وما للحق من غير :
« الحسن يظهر في بيتين رونقه ... بيت من الشعر أوبيت من الشعر »
أنعامنا ان أتت عند العشي تخل ... أصواتها كدوي الرعد بالسحر
سفائن البر ، بل أنجى لراكبها ... سفائن البحر كم فيها من الخطر !
لنا المهاري وما للريم سرعتها ... بها ، وبالخيل نلنا كل مفتخر
فخيلنا دائما للحرب مسرجة ... من استغاث بنا بشره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحدا ... وأي عيش لمن قد بات في خفر ؟
لا نحمل الضيم ممن جار نتركه ... وأرضه وجميع العز في السفر
وان أساء علينا الجار عشرته ... نبين عنه بلا ضر ولا ضرر
بيت نار القرى تبدو لطارقنا ... فيها المداواة من جوع ومن خصر
عدونا ما له ملجأ ولا وزر ... وعندنا عاديات السبق والظفر
شرابها من حليب ما يخالطه ... ماء وليس حليب النوق كالبقر
أموال اعدائنا ، في كل آونة ... نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
ما في البداوة من عيب تذم به ... الا المروءة والاحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية ... والعيب والداء مقصور على الحضر ٠
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى ... فنحن أطوال خلق الله في العمر !

وفي غزله افكار عادية لا يرتفع فيها عن مستوى عصره ، نسمعه

يشكو الهجران وآلام البعاد ويتمنى لقاء الحبيب ونراه يسهر الليل ويساير النجوم .

أنصت اليه :

أقاسي الحب مـــن قاسي الفؤاد وأرعـــاه ، ولا يرعـــى ودادي
أريد حياتها ، وتريـــد قتلـــي بهجر ، أو بصد ، أو بعـــاد
وأبكيها فتضحـــك ملء فيهـــا وأسهر ، وهي في طيب الرقـــاد
وتعمى مقلتـــي ، اما تنـــاءت وعيناهـــا تعمى عن مـــرادي
وتهجرنـــي بلا ذنب تـــراه فظلمي قد رأت دون العبـــاد
وأشكوها البعاد وليس تصغـــي الى الشكوى وتمكث في ازديـاد
وأبذل مهجتي في لثـــم فيها فتمنعني وارجـــع منـــه صاد
واغتفر العظيم لها وتحصـــي علي الذنب ، في وقـــت العداد
وأخضع ذلة فتزيـــد تيهـــا وفي هجري أراها في اشتـــداد
فما تنفك عنـــي ذات عـــز وما أنفـــك في ذلي أنـــادي
فما في الذل للمحبوب عـــار سبيـــل الحب ، ذل للمـــراد
رضا المحبوب ليس له عديـــل بغير الذل ليس بمستفـــاد
ألا من منصفي من ظبـــى قفـــر لقد أضحـــت مراتعـــه فؤادي
ومن عجب تهاب الاســـد بطشي ويمنعني غزال عـــن مـــرادي
وماذا ؟ غيـــر أن له جمـــالا تملك مهجتي ملـــك السواد
وسلطان الجمال لـــه اعتـــزاز على ذي الخيل والرجل الجـــواد
وهذا الفعـــل مغتفر وزيـــن اذا ، يوما ، أبيـــت على معـــاد
فان رضيت علي أرت محيـــا بشوشا بالملاحـــة ، ظل بـــاد
خليلي ! ان اتيـــت الي يومـــا بشيرا بالوصـــال وبالـــوداد
فنفسي بالبشارة ان ترمهـــا فخذها بالطريف وبالتـــلاد
اذا ما الناس ترغب في كنـــوز فبنت العـــم مكتنـــزي وزادي

فالامير جليد أبي ليس لأهوال الحروب على قلبه تأثير ، ولكن فراق

زوجته ، ام البنين ، يؤلمه ويضني فؤاده ويفيض دامعه فيتسلـى بالاشعار فيقول :

أقول لمحبوب تخلف من بعـــدي عليلا باوجاع الفراق وبالبعـــد
أما أنت حقا لو رأيت صبابتـــي لهان عليك الامر من شدة الوجـد
وقات أرى المسكين عذبـه النوى وأنحله ، حقا الى منتهى الحـــد
وساءك ما قد نلت من شدة الجوى فقلت : وما للشوق يرميك بالجـد
واني ، وحق الله ، دائم لوعـــة ونار الجوى ، بين الجوانح ، في وقد
غريق حريق هل سمعتم بمثـل ذا ؟ ففي القلب نار والمياه على الخـد
حنيني ، أنيني زفرتي ومضرتـــي دموعي، خضوعي قد أبان الذي عندي
ومن عجب صبري لكل كريهـــة وحملي أثقالا تجل عـــن العـد
ولست أهاب البيض ، كلا ، ولا القنا بيوم تصير الهام للبيض كالغمـد
ولا هالني زحف الصفوف وصوتها بيوم يشيب الطفل فيه مع المـرد
وأرجاؤه أضحت ظلامـــا وبرقـه سيوفا واصوات المدافع كالرعـد
وقد هالني بل قد أفـاض مدامعي وأضنى فؤادي بل تعدى عن الحد
فراق الذي أهواه كهلا ويافعـــا وقلبي خلي من سعـاد ومن هنـد
فحلت محلا لم يكن حل قبلهـــا وهيهات ان يحلل به الغير ويجدي
وقد عرفتني الشوق من قبل والهوى كذا والبكا ، يا صاح ، بالقصر والمد
وقد كلفتني الليل أرعى نجومـــه اذا نام المرتاع بالبعد والصـد
فلو حملت رضوى من الشوق بعض ما حملت لذاب الصحر من شدة الوجد
ألا هل لهذا البين من آخر ؟ فقـد تطاول حتى خلت هذا الى اللحـد
ألا هل يجود الدهر بعد فراقنـا ؟ فيجمعنا والدهر يجري الى الضـد
وأشكوك ما قد نلت من ألم ومـا تحمله ضعفي وعالجه جهـــدي
لكي تعلمي أم البنين ، بأنـــه فراقك نار واقترابك من خلـد

وهو لا يطيق البعد عن اولاده . فهم دائما نصب عينيه أينما ارتحل. فها هو يبعث بهذه القصيدة الى ولده في بروسة وهو في باريس في أثنـاء رحلته الاولى اليها بعد فكاك أسره عام ١٢٧١ هـ .

اجاب قلبي ! كم بيني وبينكـــــم من أبحر وصفها قد دق عن حـــد
تحار فيها القطا والعي يدركهـــا حتى الجهات بها تخفى عن القصـــد
ما كنت أدري بان الدهر يبعدكـــم عني ويتركني ، من بعدكم ، وحدي
قد خانني الصبر ما اجدى بمنفعة سيل المدامع قد سالت على خـــدي
والطيف مثل لي اوصافكم فبـــدا بشرى ومذ قمت قد سالت على خدي
والطيف مثل لي اوصافكم فبـــدا بشرى ومذ قمت غير الحزن ماعندي
هل الغزال ، الذي أهواه ، يسعفني بالوصل يوما كما قدكان في العهد ؟
هل النفور ، الذي أهواه ، يسعدني بالقرب من بعد ما ابدى من الصد ؟
يا ذا النفور ، الذي في القلب مرتعه أرتع به ، الا ترع فالصب في بعد
اني وان كنت مني نافرا ، فلقـــد أرضى بطيف خيـــال منك لا يجدي

ويطول أسره ويشتاق الى رؤية أهله وأحبابه وأوطانـــه فتفيض شجونه ويروح يناجيهم بشعره ، كقوله من قصيدة :

ماذا على سادتنا ، اهل الوفـــا لو أرسلوا طيف الزيارة في خفـــا
يترصـــد الرقباء حتى يغفلـــوا ويكون مانع وصلنا ليـــلا غفـــا
فاذا تمكنـــت الزيارة خفيـــة يأتي مواعد وصلنا متلطفـــــا
ويكون قبل حلوله أفرشتـــــه خـــدي وطاء للنعـــال وللحفا
ويكون بيت نزوله قلبـــي الذي ، وحياتكم ، من حب غيرهم عفـــا
ضيف له نزول لدي كرامـــــة كبد شواها البعـــد في جمر الجفـــا

وبعد بضع سنين تسامح الفرنسيون لبعض علماء الجزائر والمغرب من اصدقائه أن يزوره ، وقدم عليه يوما السيد محمد الشاذلي القسنطيني، فرحب به الامير بالقصيدة التالية :

أهلا وسهلا بالحبيب القـــادم هذا النهار لدي خير مواســـم
جاء السرور مصاحبا لقدومـــه وانزاح ما قد كان قبل ملازمـــي
أفديك بالنفس النفيسة زائـــرا من غير ما من ولســـت بنـادم
طالت مساءلتي الركاب تشوقـــا لجمال رؤية وجهـــك المتعاظـــم

لا غرو ان احببتكم من قبـل مـا شاهدتكم ، أتتم جمـال العالم
كانت على سمعي تغـار نواظري حتى رأيتك ، انت ، انت مكالمـي
عندي الايادي البيض حيث أريتني ما كان قبلا في يقين العالـم
والآن صرت من اليقين بحقـه وبعينه ، ان السرور منادمـي
اسمي قطب العارفين ! لك العـلا متبوئا منـه أجـل معالـم
انت الذي في الفضل أصبح مفردا لعلاه ما من مـدع ومزاحـم

فأجابه الشاذلي على هـذه القصيدة بمقطوعة مطلعها :

سلام عليكم طال شوقي اليكـم وقلبي سواكم في البرية ما أحب

فشعره في الاخوانيات أحط من شعر مفاخره مع انك لا تنفر منه ، فمعانيه صادقة وتعبيره بسيط •

أما الرثاء فلا يطلعنا ديوانه على شيء منه ولعل تعوده ركوب الاهوال جعله يستهين الموت فلا يهابه ، ولهذا جاء شعره خاليا من هذا اللون • ولم يتعرض الى وصف أسباب اللهو لانه كان ذا نفس أبية شريفة عفيفة تأبى أن تتصدى لما يدنسها ويمنعها الوصول الى ذروة المجـد • أليس هو الشاعر الامير والامير الفارس والفارس الشريف الهاشمي ؟

على أن الامير لم يكن وحده ينظم ويكتب في تلك الآونة • استنجدت تلمسان بالامير مرة فأنجدها بنفسه ودخلها مظفرا فقال :

الى الصون مدت تلمسان نداهـا ولبت • فهذا حسن صوت نداهـا
وقد رفعت عنها الازار فلج بـه وبرد فؤادا مـن زلال نداهـا
وذا روض خديها تفتق نـوره فلا ترض من زاهي الرياض عداهـا
ويا طالما صانت نقاب جمالهـا عداة وهم ، بين الانـام ، عداها
وكم رائم رام الجمال الذي تـرى فأرداه منهـا : لحظها ومناهـا
وحاول لثم الخال من ورد خدهـا فضنت بما يبغي وشط مداهـا
وكم خاطب لم يدع كفئا لها ولـم يشم طرفا من وشي ذيل رداهـا
وآخر لم يعقد عليها بعصمـة وما مسها مسا أبـان رضاهـا

ولم يتح للامير أن يتمها لشغل شاغل • فكلف كاتبه قدور بن محمد بن رويلة أن يجيزها ويكمل معناها فقال :

ولم تسمح العذرا اليه بعطفـة ولم يتمكن من جميل سناها
وشدت نطاق الصد صونا لحسنها فلم يتمتع من لذيذ لماها
وأبدت له مكرا وصدا وجفوة وسدت عليه ما نوى بنواها
وخابت ظنون المفسدين بسعيهم ولم تنل الاعدا هناك مناها
قد انفصمت من « تلمسان » حبالها وبانت وآلت لا يحل عراها
سوى صاحب الاقدام في الرأي والوغى وذي الغيرة الحامي الغداة حماها
ولما علمت الصدق منها بأنها أنالت الكرسي وحزت علاها
ولم أعلمن في القطر غيري كافلا ولا عارفا في حقها وبهاها
فبادرت حزما وانتصارا بهمتي وأمرتها حبا شفاء دواها
فكنت لها بعلا وكانت حليلتي وعرسي وملكي ناشرا للواها
ووشحتها ثوبا من العز رافلا فقامت باعجاب تجر رداها
ونادت : أعبد القادر المنقذ الذي أغاث اناسا من بحور هواها
لانك أعطيت المفاتيح عنوة فزدني ، أيا عز الجزائر ، جاها
ووهران والمرساة كلا بما حوت غدت حائزات ، من حماك مناها

عرض القائد « بيجو » الصلح على الامير عبد القادر • فلم يرفضها بل أدخل عليها تعديلات ثم دعا مجلس شورى دولته وعرض عليهم الامر• فكان منهم من مال الى قبول الصلح وآخرون أبوا الا متابعة الحرب • فقام أبو طالب عم الامير خاطبا في الناس وكان من أنصار الصلح • وخطبته تعطينا صورة لاسلوب الخطابة لذلك العهد فقال :

وقد علمتم ، أيها السادة ، انه لما تكاثرت المظالم وتواطأ العمال ومن وافقهم على ارتكاب المآثم انتقم الرب تعالى منهم وعمنا ذلك معهم•
قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » •
فسلط الله علينا عدو ديننا فتكالب على بلادنا واستولى على مراسينا واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس وأخلاها من المدارس والدارس ، فمرج

لذلك اهل قطرنا وضاقت بهم أرض مغربنا ، واستبدلوا من القصور المشيدة خيام الشعر ومضارب الوبر ، وتفرقوا أوزاعا في المواطن ، وتباينوا في الموارد والمعاطن ، وتغيرت الاحوال ، واشتبه الممكن بالمحال ، وتوالى الحل والارتحال ، وضعف الرجاء في أن يؤوب المسافر ويعود الشارد النافر الى ان طالت القصة وعز ما تدفع به هذه الغصة ، ومالت شمس الاتفاق الى الافول ، وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول . فأظهر الله تعالى بلطفه بدر الدين ومؤيد كلمة المؤمنين ابن أخي هذا السيد عبد القادر بن محي الدين . فبذل جهده في الذب عن الدين والاوطن . وكيف تذهبون الى ان عدم قبول الصلح أولى من قبوله مع علمكم بقلة الانصار والاعوان وكثرة المشاغبين والمفسدين في الاقطار والاوطان ، وحاصل ما اقول ان ما تسعون فيه ان لم ترجعوا عنه يدعكم لاجله القريب والبعيد وينقمه عليكم الاريب والبليد . ثم لا شك انكم ترجعون بخسارة الدارين وفقد الراحتين وشماتة الاعداء علاوة على ذلك . ولله الامر من قبل ومن بعد ...)

وهذه الخطبة تدلنا على ان حظ ابي طالب في الادب لا بأس به ، وأنه يحاول أن يقلع عن الاسلوب المتكلف الجاف ولكنه يزلق قلمه احيانا فيأتي بالسجع ، غير أن هذا السجع لا يمس بقيمة نثره ، فلا يمجه الذوق الادبي .

فهذه النماذج من الشعر والنثر تدل على ان الادب اخذ ينجو من نكسته في هذه الآونة . الا أنه لم يكد دبيب العافية يدب في مفاصله حتى عاودته نكسته . فان سياسة التجهيل التي سلكتها فرنسا في بلادنا والتي حدثناك عنها آنفا قد اضطرت الادباء الى الانكماش والادب الى الركود مدة طويلة .

الفصل التاسع

النهضـــة

اليقظـــة

الثـــورة

بدأت الثورة في الجزائر مع عبد القادر ولم تنته منذ ذلك الحين • فان خمدت نيران الحرب التي قضت على سلاسل العبودية فان الثورة السياسية والاجتماعية والثقافية لا زالت مستمرة •

منذ وطأ الفرنسيون الارض الجزائرية اخذوا يخربون القيم الروحية هناك • فصدوا الشعب الجزائري عن الثقافة العربية بجعل حواجز بينه وبين اخوانه العرب شرقا وغربا ، وفرضوا ثقافتهم حتى يقتلوا اللغة العربية لما فيها من خطر على بقائهم في الجزائر لاهمية اللغة بين مقومات القومية • فقد نجحوا في نشر اللسان الفرنسي اذ ارمل الشعب بأدبهم من شعر ونثر وقصة ، ولكنهم لم يقدروا ان يميتوا اللغة العربية التي ظلت حية تدعو أهلها الى مواصلة الكفاح والذود عن الكيان فتمسك الشعب بلغته وضن بها ، وأمكن نفرا من المثقفين ان ينفلتوا من تلك الحواجز فلجأت فئة منهم الى تونس وأخرى الى مصر • فتعاطوا كلهم وحملوا عند قفولهم الى بلادهم التراث الادبي العربي ، وأمكن للآثار الادبية من شعراء الشرق ان تدخل الى الجزائر • ثم قامت الحرب العالمية الاولى وما انتهت حتى كانت تلك المؤثرات المختلفة الموارد قد فعلت فعلها في نفوس الناشئة • فأخذ الادب ينهض من عثرته متثاقلا وتكونت نخبة لا بأس بها من الشعراء اتجهوا الى انفسهم يبحثون عنها والى الزمان يحملونه ما يقاسون من شقاء وما يلاقونه من حرمان فها الامين العمودي ١ يرى أن الدهر هو سبب بلائه يصده عن الوصول الى ما تصبو اليه نفسه من عز وعلا • فقال :

خير خصال الفتى حزم واقدام ... وشرها عن قضاء الوطر لمحجام
نفسي تريد العلا والدهر يعكسها ... بالقهر والزجر ، ان الدهر ظلام
ان الزمان سطا بسطوته ... كما سطا عن ضعيف الوحش ضرغام
أبكي اذا اشتد ارزام الحوادث بي ... وللحوادث مثل الرعد ارزام

---

١ ـ العمودي : نشأ بوادي سوف . تعلم بالمكتب الفرنسي الابتدائي وبالمكتب القرآني . ثم دخل مدرسة قسنطينية في السادسة عشرة .

ان حل عام جديد قمـــت أسأله : قل لي بماذا أتيت ، ايهـــا العام ؟
هذا القضاء على من خصمه ملـــك لا يعتري فاه وقت الحكـم تبسام
قل للذين تمادوا في غوايتهـــــم هل في قلوبكم ، يا قـــوم اسلام ؟
اني وان حط سوء الحظ منزلتـــي وقد علا شرفـــي بالظلـــم أقوام
في خلقي رجل بر وفي أدبـــــي فحل لأثمن در الشعـــر نظـــام
لو اتخذت خليج البحـــر محبـرة وصيغ لي من يراع العلم اقـــلام
وكان لي الجو قرطاســا أمهـــده ضاقت على ذكر ما قاسيت أعـوام
لي أسوة بالاولى غارت كواكبهـم ولم تهب لهم الاقـــدار ما راموا

وقال في نفس المعنى :

في قسنطينـــة قضيت شبابـــي في عنـــاء ومحنـــة وعـــذاب
وخطوب تحـــل بعد خطـــوب ومصـــاب يجيء بعد مصـــاب
حزنـــي دائم بها مستمـــــر وسروري يمر مر السحـــــاب
كعروض الطويل قد طال قبضـــي وكبعض البحور دام اقتضابـــي
فرمتني نواجـــذ الدهـــر وانقضـت حياتي وما أخـــذت منابـي
كأسه ملؤهـــا الحوادث شربـي وهموم تجيء من كل بـــــاب
ذاك اكلي لا حبذا الأكل أكلـــي لا ولا حبذا الشراب شرابـــي
دار عني دهري وما عصمتنـــــي من زماني وأهلـــه آدابـــي
انما الدهر كربـــة وصروف الـد هر نار عصبيـــة التلهـــــاب
قبـــح الله اهل هذا الزمـــــان كل من ساد أسـود مثـــل غراب

لم يشتك العمودي وحده من الدهر فحمود رمضان (١) هو كذلك تذمـر منـــه :

ويلاه من هم يذيب جوانحـــــي فكأنما في القلب جـــذوة نـــار
نفسي معذبـــة بهمة شاعـــــر دمعي على رغم التجلد جـــــار

---

١ ــ حمود رمضان : شاعر سياسي ولد بغرداية سنة ١٩٠٦ وتوفي بهـا سنة ١٩٢٩ تاركا شعرا غزيرا وكتابا سماه « بلوور الحياة » .

حظي على متن النوائب راكب — تمشي بـه لمحطة الاكـدار
قد خانني دهري وتلك سجية — للدهر مثـل سجيـة الاشرار
هو دائما لي عابس متنكـر — حتى الطبيعة حسنهـا متـوار

ولم يلبث ان يثوب الى رشده فيقول :

علام نلوم الدهر واللـه عـادل — وننسب للايام ما هـو باطـل
وملأ وجه الارض رطبا ويابسـا — بكاء ، وهل تجدي الدموع الهواطل؟
ونجزع للمكر من كل حـادث — وما ذاك الا ما حوتـه الانامل

وأما الاستاذ المولود بن محمد السعيد بن الموهوب(١) فانه يدعو الى الصبر اذا جار الزمان . فان الايام لا بد ان تنقلب ويزول حينئذ ما قد يكدر صفو العيش :

اذا جار الزمـان عليك يومـا — فصبرا فالزمان لـه مـرور
ولا تنظر لحادثـة ألمـت — فان القـرح يتبعـه السرور
وكن متمسكا باللـه عقـدا — هو المعطـي المدبر والخبيـر
فلطف الله اقـرب كل شـيء — الى احكامه الاشيا تصيـر
علام المـرء تزعجـه شئون ؟ — ويتلف عقلـه منه الغـرور
أليس اليسر يأتـي بعـد عسر — بذا أنبـا محمدنا البشيـر
فقل لي ، يا رقيق القلب ، قل لـي — أيجمل أن يرى منـك النفور ؟
لعمـرك ان تكن تبغي هنـاء — تمهـل دون عسرك عسيـر
تجرع مر صبـر فهو صعـب — فان حـلاوة الصبـر الاخيـر
ودع شكواك للمخلوق واشكـر — الها شكـره للقلـب نـور

---

١ ـ محمد المولود بن الموهوب بن محمد السعيد بن الشيخ المدني بن العربي. ولد في آب ١٢٨٣ هـ (١٨٦٦ م) بقسنطينة . وفي سنة ١٨٩٥ م عين استاذا للفقه والعلوم الاسلامية بمدرسة سيدي الكتاني . وفي ٢٢ حزيران سنة ١٩٠٨ اسندت اليه وظيفة الافتاء . لم يكن له الباع الطويل في الشعر فقط بل في الخطابة ايضا . ترك لنا مؤلفات مفيدة. كان يحسن الفرنسية ويجادل المستشرقين والمستعمرين .

والقصيدة طويلة نجتزي بما ذكرنا منها .

وفي هذه الفترة تعددت الزوايا وأعانها الاستعمار ودر عليها من ماله ، فمالت الى جانبه وأرقدت العقول . فقام الشيخ الطاهر بن عبد السلام (١) يرميها بنباله ، فيقول :

لهم طرق شتى بها قد تشرعوا وهم عن طريق الشرع عمي البصيرة
لهم من شياطين الانام عصابة تقودهم للنار من غير مرية
يسومونهم سوء العذاب بدجلهم وأن أولاء هم شيوخ الطريقة
أنابهم الشيطان عنه لزيغهم لهم لضعاف العقل أكبر فتنة
ترى غرر الأموال تجبى اليهم فتصرف في مثل الزنى والسبيئة
وفي أضرب اللذات حل ومأثم وساعات نقد والفصوص الكريمة
وفي ملك دور أو شراء مزارع ممددة الاطراف ذات خصوبة
ولست بهذا العد أحسدهم على متاع قليل غبه شر حسرة
ولا أن قصدي أن أكون كشيخهم ! لأني بحمد الله صاحب ثروة
ولكن ما أهواه ارشادهم الى طريق النجاة والسبيل المنيرة
وان يصرفوا ذا المال في طريق الهدى وفيما يعم نفعه خير أمة
وفي البر والتقوى وتأسيس معهد جليل لنشر العلم في كل بلدة
فانهم ، والله ، يرثى لامرهم وحالهم في الجهل غير خفية
وأما جناب الشيخ فليحترف ولا يلبس لاجل العيش امر الديانة
لاجل اكتساب الرزق غير وجهه فذي شيمة الفساق أهل البطالة
فأجسامهم تقضي عليهم بكل ما يشق كحفر أو كنقل الحجارة

وقد دخلت حبائل شيوخ الطريقة النساء أيضا فها هو يعرض بهم قائلا :

---

١ ـ الطاهر بن عبد السلام بن ابراهيم الشاعر الناثر . ولد بدائرة سوق اهراس في أواخر العقد الاول من القرن الرابع عشر الهجري . تخرج من الزيتونة وكتب في الجرائد . فكان لما كتب صدى في افريقية وفرنسا .

ويأتيـــه كل الغانيات يزرنـــه بأفخر ملبوس وأحســن زينــة
بوجه جميل مشرق ذي تــورد وطرف كحيل ذي فتور وفتنــة
وقد كغصن البان يبدي تمايــلا كسي من لباس العصر أجمل حلـة
كعوب رداح بضة مستقيمـــة (مهفهفة الاطراف غير مفاضــة)
وردف ثقيل تحت ضامر خصرهــا ويحمل هذا الحسن اغصان فضـة
وتبتسم من ثغــر لآلئـه بدت منضدة تسبي لأول نظــرة
بطيب يضوع والمعاصم زينــت بكف خضيب ذي بنــان لطيفـة
فيظفر ذاك الكلب في وسـط داره بسالبة الألباب ذات الرشاقــة
« ينام اذا نامت على عكناتهــا » ويمتص ريقا طيبا كالسلافــة
يبيت يطوف بين هذي وهــذه وكل اليه ذات سمع وطاعــة
ويصطاد ريم الأنس من دون ما عنا ولا بذل مال أو لحــوق معـرة
ولا خوف واش او رقيب وانمــا يزدن له مالا وكــل كرامــة
فيا عجبا للريم كيــف تأنسـت وقد كان ريم الأنس صاحـب نفرة
ويا عجبا للظبي يألف صائــدا ويأتيه طوعا مظهرا كــل زينــة
ويا عجبا للحرس كيف تغافلــوا ويا عجبا للزوج أعمــى البصيرة

وحمود رمضان هو الآخر قد ندد بالطرقيين ومن قصيدة فيهم قوله :

وان أذكر الشرك القديم وحالهم أجدها على ما كان من أمره طبقــا

والشعر في هذه الآونة أخذ يلتفت الى مشاكل المجتمع يحـاول أن يشارك في حلها • طعن الزوايا بسهامه الفتاكة ، وها هو الآن يتحدث عن المرأة • فقال محمد الصالح خبشاش (١) •

تركــوك بين عبادة وشقـــاء مكئوبة فـــي الليلة الليــلاء
مغلولة الايدي بأسوأ بقعـــة محفوفــة بكتائــب الأرزاء
دفنــوك من قبل الممات وحبـذا لو مت قبــل تفـاقم الادواء
مسجونة مزجـــورة محرومـة محفوفــة بملاءة ســـوداء

---

١ ــ محمد صالح خبشاش : ولد في وادي يعقوب على ٨ أميال من قسنطينة سنة ١٩٠٤ م •

ماذا جنيت على الزمـــان وأهلــه   حتى رموك بطعنـــــة نجـــلاء
لهفي على الجنس اللطيف تداولت   عنه الرياح بأرضنـــا الجدبـــــاء
لهفي على الجنس اللطيف تداولت   أنوارهن فتهن قيـــــد عنـــاء
لهفي على بنــــت تعيش شقيـــة   حتى تصادف هـــــادم السراء
أترى أرى فتياتنا وسط المـــدا   رس يرتشفـــة سُلافة القـــراء
أترى أرى فتياتنـــا عونا الـــى   شباننـــا في الساعـــــة اللاواء
الغرب قد سئم السبـــات فكسر الا   غـــلال واستعلى على الجــوزاء
والشرق قد ألف السهـــاد وطالما   رام النهوض فناء بالاعبـــــاء
فسطا عليه الغرب سطوة ماكـــر   حتى هوى في الهـــوة التعساء
وأذاقه سوط العذاب صبيحـــــة   وعشيـــــة من غير ما جـــراء
فالى متى هـــذا الحجـاب الى متى   ألى التلاشي أم ليـــوم لقـــاء
وأتـــى بقانـــون له متشعـب   متلون كتلـــون الحربـــاء
ما ذاك الا للجهالـــة بيننـــــا   وغباوة الفتيـــات والابنـــاء
أترابكن من الفرنج غـــدون فـي   غرف العلـــى من عـــزة قعساء
وتمتعت أفكارهن بنهلــــــة   من خمرة العرفان لا الصهبـــاء
ولقد رأيت جماعة تعـــزى الـــى   نهج الهدى والملة السمحــــاء
قد أوعدوا وتجهموا وتهـــددوا   من حل قيـــد حليفـة الارزاء
اني لاعتقدن أن عقولهـــــم   ممزوجـــة بمجمدات المـــاء
فهل الشريعة حرمت تعليمهـــا ؟   يا نخبة الاشيـــاخ والصلحـاء
ان كان ذاك فبينوا بحقائـــق   قطعيـــة لنياط كـــل رداء

الادب ساير الواقع الجزائري • كان دعوة ملحة الى النهضة والاخذ بأسباب الرقي والتقدم ، و لايرقى الشعب الا اذا اخذ بتلابيب العلم • فها محمد بن الحاج ابراهيم الطرابلسي (١) يصيح بالشباب ويحضه على العلم فيقول :

---

١ ــ محمد بن الحاج ابراهيم الطرابلسي . ولد في ليلة الاثنين ٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٠٤ هـ بطرابلس .

شباب العصر شمر للمعالـــــي فان العز فـــي هـــذا المآل
وبادر للحيــــاة بلا تــــوان ولا تكســـل ولا تبخل بمـــال
فان العلم أنفس من جمـــــان ومن در ومن كـــل اللآلـــي
فلست ترى له أبدا مثيــــلا فجد وكن على الاقران عالــــي
جمالك في بني الدنيـــا جميعـــا بعلمك لا بثوبك في الرجـــال
حياة الشعب في الدنيا اذا لـــم تكن بالعلم لا تبقـــى بحـــال
اذا ما الشعب لم ينتهض عليـــه فحيك في دنى الاجيـــال خـــال
فشد بالعلم صرح العز واعـــل على الشهـــب في جنح الليالي
وبلغ امـــة نامت طويـــــلا أحاديث الجدود ذوي الخصـــال
وكن لسنا خطيبا ذا سجايـــــا تبكت كل ذي مكر وقــــال
بني وطني اذا ما قد طلبتـــم عزيزا فاستعدوا للنضــــال
بني وطني فلا الايـــام تبقـــي لنا أثـــرا على هـــذا المثـال
فان اللـــه رب العـــرش يأبـى عليكم ان تعيشوا في خبـــال
ألام البغـــض ينخرنا عظامـــا وينثرنا ولـــم ترثوا لحـــال
بني وطني بكـــم ترقـــى بلادا وتشرف في الحيـــاة على الجبال
فهزوا من بنيها كـــل نـــدب الى شرف الى هذا المنـــال •
بني الاوطان ان العصر نـــور ونور العلـــم غال أي غـــال
بني الاوطان ان الجهل عيـــب قبيح قاتل مثـــل النبـــال
بني الاوطان موطنكم عزيـــز فصدوا عنه أربـــاب الضلال
بني الاوطان كونوا مثل اســـد حمت غاباتها يوم النـــزال
بني وطني كفانا من جمـــود فـــان العصر عصر للتعالـــي
ويكفينـــا من الخذلان انـــا غرقنـــا منـــه في داء عضال

وها الان الاديب احمد بن يحيى بن الاكحل (١) يوبخ شبان وقته ويدعوهم الى العلا فيقول :

---

١ ــ احمد بن يحيى بن الاكحل : ولد في ربيع الاول عام ١٣٢٤ هـ .

أشبائنا هل من نهـــوض الى العلا فنرقى الى الحسنى بأحكـام قرآن
أشبائنا ما لي أرى في منامكـــم سباتا يذيب القلب من صخر صوءان
وهذا لعمر الحق عار عليكـــم لقد ضاعت الاعمار فيمحض خسران
فلا خير في نشء اذا لم يكن لـــه ولوع بآثار الجدود ذوي الشـان
أشبائنا عودوا لفخر جدودكـــم لعلـــم وآداب وتصحيح ايمـان
فجيراننا فازوا بعلم فسخـــروا به كل شيءلا يكون بحسبـان
فكانوا هم القومالسلاطين في الورى وما كان قوم غيرهم بذوي شـان
« مناطيد » في جو السماء كأنهـا نسور تحوم فوق أبهج أوطـــان

فالشعر في هذه الاونة عالج ما رأيناه من المشاكل الاجتماعية ولـم يجسر على الخروج الى آفاق رحبة ليشارك الشعب همومه وآلامه ، فلم يتحدث البتة في الحياة السياسية • ونلاحظ أن الاسلوب ارتقـى بعـض الشيء ولكنه لا زال جافا ، لا حياة فيه ولا ماء • فهو اسلوب الوعـظ والارشاد •

والجزائريون قاتلوا في الحرب العالمية الاولى جنبا الى جنب مـع الفرنسيين ظانين بذلك ان فرنسا يلين قلبها فتعطيهم حقوقهم • ولكنفرنسا أخذت تبذل الوعود وتماطلهم حتى خاب املهم • فرجعوا الى انفسهـم يبحثون عنها ، فيجدونها تحتاج الى علاج ضد الجهل والفقر وغيرهما • فشمروا عن ساعدهم وشرعوا جديا فيما ينقذهم من ورطتهم •

وساهم الادباء في هذه الحركة فراحوا يعبرونعن آلام الشعبوطموحه فضربوا صفحا عن المديح وترفعوا عن الاشادة بذكـر تلك الفئـة الارستقراطية البغيضة آخذين بتلابيب الشعر الوطني والسياسي وقضايا الشعب • فهو لسان الثورة في جميع ميادينها • وأما الشعر الزهـدي فلا يتلاءم والحياة الثورية فزهدوا فيه • أرادوا أن يحيوا حياة حرة شريفة ناعمة • فكان شعرهم كله حماسة وثورة ، ثورة على الجهل والفقر والمرض والحياة الاجتماعية القذرة ، ثورة على العدو وعلى ما يرون من أذى • وكيف يرضون بمركب النقص ، وهم الذين حاربوا روما والوندال والروم

وطهروا أرضهم منهم ومن كل من سولت له نفسه أن يتعدى عليهم • ولا تسل عما لقوه من الاذى من طرف الاستعمار ، ولكن ذلك لم يثن عزيمتهم ولم يصدهم عن قصدهم • عرفت بلادهم العز وعرف اجدادهم المجـد فليسأل شبابنا التاريخ فسيكون جوابه قول محمد العيد (١) :

يا حماة البلاد يا فتيـــة الضـــا	د ، ترى هل لكم من الرأي مغني ؟
سار جيرانكم مع العصر شوطـــا	ووقفتم ما بين وهـــم ووهـــن
تحت شتى القوى تقاسون منهـــا	ما تقاسون من أذى وتجنـــــي
أين منكم مهابـــة وانتصـــاف ؟	ام سكنتم الى احتقـــار وغبن ؟
لا تقولوا : هان الجدود فهنـــا	سأنشيء له بهـــم سوء ظـــن
في تلمســـان في بجاية في تيهر	ت في القلعـة ازدهى كل فـــن !
يوم كانت مهاجر الشرق والغـرب	مثابـــا كمعهـــد وكحصـــن
وعليها من الملوك ذوي العـــز	ة والبأس كل سهران فطـــن
دعموا البر دعمـوا البحـر بالاعـ	ـلام من منشآت مـــدن وسفن
ومشوا في مناكب الارض صيـدا	بين جرارة ملائـــك جـــن
يزعون الشعوب رأيا ورعيـــا	ويسوسونهـــا بحكـــم واذن

سوف يصل الشعب الى هذا المجد ، ولكن بواسطة العلم • فعلى الشعب اذا ان يتعلم • ثم يتحدث العيد عن وسائل النقل وكيف ان الغرب الذي يبحث ويفكر قد اخترع الآلة واخضعها لنفعه ، بـل سخر الطبيعـة

ـ محمد العيد بن محمد علي بن خليفة : ولد في مدينة عين البيضاء في ٢٨ آب سنة ١٩٠٤ م (٢٧ جمادي الاولى ١٣٢٣ هـ) . انتقـل مع اسرته الى بسكرة سنـة ١٩١٨ م وفي سنة ١٩٢١ ذهب الى تونس يتـابـع دروسه بالزيتونة . ثم رجع سنة ١٩٢٣ الـى بسكرة وشارك فيـ الانبعاث الفكري يعلم ويكتب في شتى الجرائـد . وفي سنة ١٨٢٧ ادار مدرسة الشبيبة الحرة بالعاصمة ، ثم أدار مدرسة التربية التعليمية بباتنه سنة ١٩٤٧ ومدرسة العرفان بعين مليلة سنة ١٩٥٤ . وبعد اندلاع الثورة الكبرى القي القبض عليه ثم اطلق سراحه وفرضت عليه الاقامة الاجبارية ببسكرة الى ايام الاستقلال . نظم شعرا كثيرا يمتاز ببلاغة التعبير وصدق التصوير وقد اعتنت بتدوينه وزارة التربيـة الوطنية .

لخدمته • أما نحن فقد تخلفنا لأننا لم نستخدم عقولنا ولم نحاول اللحاق بمن سبقنا في ميدان المعرفة ولم نستوح ماضينا لنستمد العزم والتصميم• فقال الشاعر يخاطب الحجاج :

طويتم له الابعاد فوق مسخـــــر   من النار والفـــولاذ هيء مركبـــا
فمن سار في البحر يدفـــع لجة   ومن ضارب في البر يقطـع سبسبا
أشار اليه الله في الذكـــر قائلا :   « ويخلق مالا تعلمون » ليطلبـــا
ولكن ، أبينا ان نجيل عقولنـــا   لنكشف عما ظـــل عنا محجبـــا
ولم نسع سعي الغرب في الكشف بالحجى   عليه فلم نكسب مع الغرب مكسبا
اذا ما رأينا الغرب أبدى بدائعـــا   فغايـــة ما نبديه أن نتعجبـــا

ثم يطلب من المسلمين ان يجمعوا شتاتهم ويتحدوا ويأخذوا بتلابيب لغتهم • فهو يقول :

قضى بولاء المسلمين جميعهـــم   ووحدتهم في الارض شرقا ومغربـا
ولو أذعنوا لاسترهبوا الغرب شوكة   وكان لهم في كل مؤتمر نبـــا
ولو آثروا الفصحى علـى لهجاتهم   لردوا الى أحضانها من تغربـــا

اكثر العيد الحديث على بناء المدارس والمساجد والجمعيات والاندية التي تخدم الاهداف الوطنية ، لأن فرنسا ، كما قلنا ، قد استولت علـى جميع المؤسسات الدينية والثقافية • فما من تجديد بنائها بد ليسيروا في ركب الحضارة والرقي •

ابنوا المدارس نضرة مزدانـــــة   تحكي المغـــارس في الربيع المونع
وابنوا المساجد ليست الـــــى   متحكـــم تعزى ولا متبـــدع

ونـادى العيد بالحجاب للمرأة كي يقيها ، في نظـره ، من الشرور ، وبتعليمها الدين الذي يرشدها الى ما فيه خيرها ، فمن تربى حسنا يربي حسنا :

كيف ينجو من الشرور نســـاء   لا يواري وجوههـــن لثـام ؟

عصمـــة المرأة احتجاب وصـون وابـــاء وعفـــة واحتشـــام
علموا المرأة الحقـــائق في الـــد ين فقد طوحـــت بها الاوهـــام
علموها كيف الوقاية ممــــا هاجمتهـــا بشره الايـــام
لا تغرنـــك بضاعـــة نخـا سين كانت بها الامـــاء تسام

وفرنسا قسمت اللغة العربية في الجزائر الى اقسام : اللغة القديمة الجامدة او قل الميتة ، واللغة العامية وهي عاجزة عن ترجمة العواطـــف والافكار العلمية الفلسفية ، واللغة الحديثة وهي لغة اجنبية عن الجزائـــر التي هي الآن فرنسية • فقام الشعب يحتج ويطالب باعتبار اللغة العربية لغة رسمية لا يريد عنها بديلا • فهو من سلالة عربية لا يمكن فصله عن عروبته وتجريده من لغته ، والشعراء دوما في طليعة الجمهور فقال العيد :

تحن الى نيـــل الحقوق نفوسنـــا وتأبى علينا نيلها قـــوة الغشـــم
ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها وليس سوى الفصحى لسان لنا رسمي
وما نحن الا من سلالـــة يعـــرب فمن رام عنهـــا فصلنا باء بالرغـــم

والعيد وصف حياة الشعب حينذاك من جراء الفقر والبطالة والامراض والتشرد • فانه يجيب الجرائد الاستعمارية التي تتشـــدق بان الشعب الجزائري لا ينقصه شيء ، فهو سعيد ، يحيا حياة ناعمة بقوله :

كم ضارب منهم في الارض منتشر ما حاول الرزق الا اعتاص وامتنعا
وعاطل صنع الكفين مقتـــــدر مهما أتى معملا عن بابـــه دفعـــا
ومستغيث وجل الناس في شغـــل عنه ، وطاو وجل الناس قد شبعـــا
وثاكل واصلت ندب السنين فمـــا قلب لها حن أو طرف لها دمعـــا
وأيم ويتامى حولها اصطرخـــوا في الليل واصطرخت من بينهم هلعا

يرى فقراء كثيرين جائعين عارين يطوفون على المزابل ويطرقـــون البيوت ويستندون الأكف ، فتؤلمه حالهم ويصيح قائلا :

فيا ويح الفقيـــر يضيع جوعـــا وليس له من الاقـــوام حامـــي
يطوف على المزابل حيث يرجـــو فتات الخبز أو قطـــع العظـــام

ولولا الجوع لم ينبش قمامـــا ولم يشتق الـــى ما فيالقمـــام
وقد يطوي الازقة مستميحـــا فيحرمه الحطـــام ذوو الحطـام
وقد يأتي البيوت بها فتخشـــى ذراريهـــا وتجفل كالنعـــام
وقد يعطى الادام بلا رغيـــف وقد يعطـــى الرغيـــف بلا ادام
مآس كالسهام رمت فأصمـــت بلادا مثل اهـــداف السهـــام

ويقول في موضع آخر :

قف بالجزائر والح فيها امـــة بلهـــو الشباع بها يجنب الجـوع
لم يلتحق بالقوت غير مقتـــر او يلتحف بالثـــوب غير مرقع

والشاعر حمود رمضان هو الآخر تعرض في شعره الى الحيـــاة الاجتماعية • دعا الشعب الى ان يسير حثيثا الى العلا ، وحثه على ان يطالب بحقه المهضوم • فأوضح له طريق الدعوة ، ويرسم له سبيـــل العمل ، اياه ان يطالب بحقه بعنف وشدة بل بكياسة وسلم وعلم • يقول :

موطن الامجاد ••• سيرا للعـــلا عشت حرا يا مقر الفضـــلاء
ارفع الرأس وزاحـــم من عـلا واترك الخـــوف لقلب الجبنـاء
وانشد الحـق وطالب ما تـــرى فيه خيـــرا لبنيـك النبـــلاء
لا بذل وهـــوان وصغـــار لا بحرب ودمـار ودمـــاء
بل بسلم وهـــدوء وهـــدى وبعلـــم ونشـاط وذكـــاء
انظروا الغرب بعلـــم ما بنـى من قصور شامخـــات للعـــلاء
ملك الدنيـــا وما يتبعهـــا من تراب وميـــاه وهـواء

يوصي الشعب بالسلم خوفا عليه من بطش العدو ، ولكن الحقوق في النظام الاستعماري تؤخذ ولا تعطى •

فسئم الشعب حياة الذل وضاق بهذه الاغلال • وقد كثرت دسائس الاستعمار ومكره • فلم يبق الا طريق النضال • فلا يحقق نصره وعزه بالهدوء والاتزان • فهذه الوسيلة تعتبر عند الاستعمار جبنا وضعفا •

وفتحت فرنسا باب النيابة في برلمانها في وجه افراد لا يهمهم سوى الكراسي • فأحس الشعب بالخطر يهدد كيانه • فقام يدعو الى مؤتمر عام

يعمل لمصلحة الوطن العليا • فقام هذا المؤتمر سنة ١٩٣٦ • فقال محمد العيد قصيدة يحيي هذه الجهود البناءة ، ويصور مدى جمود السياسة الاستعمارية ، وما حل بالبلاد من الرزايا وينادي ابن الشعب للنهوض ويطلب منه ان يعلن حربا ضد العدو لينال عزه وحقه •

شهدت اليوم مؤتمرا عظيما أغر لمثله يجب الشهود
به تبنى الجزائر من جديد وتحيا المآثر والجدود
وتقتحم السدود الى حقوق حرمناها وان علت السدود
بلغنا رشدنا يا كون فاشهد وأدركنا فأذعن يا وجود
ركبنا للقضية كل صعب نرود من المراجع ما نرود
وأقسمنا بكل يمين صدق لها بسوى المطالب لا نعود
وجاءتنا الردود بألف بشرى فما أغنت بها عنا الردود
متى توفى الوعود فقد مللنا تساؤلنا •• متى توفى الوعود ؟
أصابتنا الجرائح والرزايا وأعوزت المرافق والرفود
حنت أعناقنا الاغلال ظلما وحزت في سواعدنا القيود
وأعلنا المظالم والشكايا فأخفتها الدسائس والكيود
وأنفضت الروؤس لنا هزوءا وانكارا وصعرت الخدود
فقم ، يا ابن البلاد ، اليوم وانهض بلا مهل فقد طال القعود
وقل ، يا ابن البلاد ، لكل لص تجلى الصبح وانتبه للرقود
فخض ، يا ابن الجزائر ، في المنايا تظللك البنود أو اللحود
باخلاص واقدام وعلم يسود على البرية من يسود

اما الشاعر احمد سحنون (١) فقد رحب بعودة اصحاب المؤتمر بقصيدة رائعة الا انها أقل جودة من قصيدة العيد • فاقرأها يتضح لك ذلك • يقول سحنون :

---

١ ـ احمد سحنون : شاعر وكاتب وخطيب ـ ولد في ليشانةبناحية بسكرة في العقد الثاني من القرن العشرين وهو الامام الاول بجامع العاصمة الأعظم .

مرحبا معشر الحماة الكـــرام   يامثـــال الثبـــات والاقـدام
مرحبـــا بالمنافحيـــن بحـق   عن حمانا وعزنـــا المستضـــام
انهم جنـــدك المدافـــع حقـا   والمغاوير ساعـــة الاحجـــام
هذه العصبة العظيمـــة قـــدرا   فامتثل أمرها تفـــز بالمـــرام

والشاعر حمود رمضان الذي كان يوصي الشعب بالمطالبة بالحقوق في هدوء أخذ هو الآخر يدعو الى الجهاد في غير تستر فيقول :

لن ينال العز شعب كالجمـــــاد   فقد الاحساس خـال من شعـور
لن ينال المجد شعب بالرقـــاد   يترك اللب ويعنى بالقشـــور
انما المجـــد قرين بالجهـــاد   ووئام وثبـــات في الظهـــور

ويقول في موضع آخر :

دعوني فمـا المجد الا العنـــا   وخـــوض الجلال عند الطـلاب
فليست تنـــال العلا صدفـــة   ولكنها بركـــوب الصعـــاب
دعونـــي اناضل عن امـــة   توارت حقوق لهـــا بالحجـــاب
دعوني أناضـــل عن امـــة   توارت فضائلهـا بين ظفر ونـاب
دعوني اناضـــل عن امـــة   عليها توالـــت شرور الذئـــاب
فأمست تنـــوح على عزهـــا   وتبكي دموعـــا كوطف السحاب

والنتيجة من هذا المؤتمر هي ان فرنسا رنت اليهم بعين العطـــف فأرسلت لجنة تبحث الحالة الراهنة بالجزائـــر ووعدت باصلاحـات كعادتها • فاغتاظ لذلك شاعرنا العيد وقال قصيدة يتهكم فيها على وعود فرنسا والاصلاحات التي تقوم بها في الجزائر ، وراح بعد ذلك يتكلم مع الباحثين فقال :

ما للحقوق اليـــنا غير واصلـــة   وقد سمعنا بها من منـــذ أزمان ؟
هل عاقها البحر عنا فهي عاجـــزة   عن قطع ما فيه من لـــج وشطآن ؟
أم راقها البحر حسنا فهي سابحـــة   تلهو بما فيه من در ومرجـــان ؟
أم ألحقت ببنات البحر فاحتجبـت   عن كل قاص من الرائين أو دان ؟
يا باحثـــا ممعنا في كشف حالتنا   الى متى انت في بحث وامعـــان ؟
الى متى انت منا خائف حـــذر   كأننا في البرايا جنس غيـــلان ؟

فكان للشعب الجزائري عدو واحد هو الاستعمار • فأصبح الان يقاوم ثلاثة • كثر النواب الذين في زعمهم يتحدثون عن الشعب ويدافعون عنه وهم في الحقيقة لا تهمهم الا انفسهم لا يجابهون فرنسا ، وانما يسيرون في ركابها •

فقال محمد العيد في هؤلاء النواب متهكما :

أفدني برأي في النيابات هل حوت — أساود في قاعاتها أم وسائدا ؟
والا فما تلك السموم التي سرت — فمن ذاق منها طأطأ الرأس هامدا ؟
ألم يأتها ان المعابد حجرت — على الذاكرين العامرين المعابدا ؟
وكم من مآو أو مكاتب عطلت — على انها تهدي البنين المراشدا
فيا نائبا ناب البلاد بحادث — وخلف شعبا قائما فيه قاعدا
على أي ظهر كنت سوطك منزلا — وفي أي نحر كنت سيفك غامدا
وما لك ترغي في النيابة موعدا — ألم تك من قبل النيابة واعدا ؟
ويا مجلس النواب انك قاطع — يدا كنت منها لو تبينت ساعدا

وهناك فئة اخرى مالت الى العدو طمعا في ماله عن طريق التجسس او التستر وراء الدين او الوظيفة • ففضح الشعر حقائقهم وشهر بهم • فقيل فيهم :

ويلتاه خذي يدي من وهادي — هذه ادمعي وذاك فؤادي
يا لذكرى سؤدد تقضي — تحت طيات كل عصر تلاد
واشهدي مصرع الفضيلة كلمي — تحت اقدام قارعات العوادي
صوبوها تفري القلوب شظايا — اسمها في صميم قلب البلاد
همهم في الحياة خطة جاسو — س أمين على حمى الآماد
بهجة العيش ان ترى الشعب منكودا — وتحظى بنعمة الاسياد
يتهادون بالوسامة والالقاب — والكبرياء اي تهاد
يالحالله اوجها رسم الشر — على صحنها هناك السواد
وبطونا ملئت سحقا وطاغو — تا وبالدين شبكة الاصطياد

والزاهري لا يرى ما يفرق بين المزابي وغيره من الجزائريين من

حيث العاطفة الوطنية . فالجزائر أم للجميع وجنة فيحاء لكل مواطن . فحق الامومة نقضيه مهما كانت الظروف .

وليس لنا الا الجزائر موطن ترابك فيها واحدا وترابي
هي الأم واست في الصبا كل مرضع وفيها اهتدى الساعون سبل صواب
سأقضي لها حق الأمومة انها بلادي التي فيها محط ركابي
هي الجنة الفيحاء من قبل نشأتي وان كنت ظلما نازلا بيباب
عروش تجلت في المحاسن خطبة على جانبيه العز مد بناب

وهذه الابيات تذكرنا بقصيدة « العيد » التي ألقاها في احتفالات مدرسة الشبيبة بالعاصمة سنة ١٩٣٧ . فهو أخ لكل جزائري مهما كان أصله ، يكون بجانبه في السراء والضراء . ومنها هذه الابيات :

وهبتك روحي ، يا جزائر ، فأمري كما شئت اني خاضع لك خادم
حماك ربيع لي وان كان جاحما علي وهل يصلى خليلك جاحم ؟
وقرباك هم قرباي لست مباليا أغاريب هو في جنسهم أم أعاجم
فخذ من دمي ، يا ابن الجزائر انني أخ لك في كل الحظوظ قاسم

وقال في نفس المعنى :

وما نحن الا امة ذات نسبة سماوية الاسباب لن تتقطعا
وذرية للاطلس الفخم لو به تصدت لنا ذرية ما تصدعا
اذا ما دعا في (توقر) (١) ابن أجابه (بجرجرة) ابن ليس يخذل من دعاه

وقال ايضا :

يا موطنا لي خصبه ونعيمه وله هواي على المدى وتشيعي
مصطافي الباهي الظليل ومخرفي الز اهي ومشتلي الجميل ومربعي
ما زال حبك ناشئا مترعرعا في ناشيء بجوانحي مترعرع
أقسمت لو خيرتني في مصرعي ما اخترت الا في سبيلك مصرعي
اسأل أجب ، وامر أطع واصرخ أغث واصفح أنب واسمع أقل وانصح أع
بوركت من وطن تسامى فالتقى بالمنتهى في مستواه الارفع

---

١ ــ توقر : تقرت وهي مدينة في اعماق الصحراء .

وقاوم الشعر فكرة الاندماج، فأبى الا ان تكون الجزائر مسلمة عربية .

فقال عبد الحميد بن باديس :

شعـــب الجزائر مسلـــم والـــى العروبـــة ينتسب
من قال حـــاد عن اصلـــه أو قال مـــات فقد كـــذب
أو رام ادماجـــا لـــه رام المحـــال من الطلـــب
يا نشء أنـــت رجاؤنـــا وبـــك الصبـــاح قد اقترب
خذ للحيـــاة سلاحهـــا وخض الخطـــوب ولا تهـــب
وارفع منـــار العـــدل والا حسان واصدم مـــن غضـــب
واقلـــع جـــذور الخائنين فمنهم كـــل العطـــب
وأذق نفـــوس الظالميـــن سمـــا يمزج بالرهـــب
واهزز نفـــوس الجامديـــن فربمـــا حيي الخشـــب
من كـــان يبغي ودنـــا فعلـــى الكرامـــة والرحـــب
من كـــان يبغـــي ذلنـــا فلـــه المهانـــة والحـــرب
هـــذا نظـــام حياتنـــا بالنـــور خـــط وباللهـــب
حتـــى يعـــود لقومنـــا من مجدهم ما قد ذهـــب
هذا لكم عهـــدي بـــه حتى أوسد فـــي التـــرب
فاذا هلكـــت فصيحتـــي تحيا الجزائـــر والعـــرب

ومن قصيدة قالها محمد الصالح رمضان (١) في حفلـــة تكريـــم بتلمسان هذه الابيات :

لقد قال قوم مسخنـــا فرنجة وصرنا بمنأى عن بني الشرق مبهـــم
وقالوا : خرجنا عن طبائع قومنـــا وملنا الى رأي العدو المسمـــم
وأنا جفاة الطبـــع لالطف عندنـــا وأنا ... وأنا ... لا أبا للمرجـــم

---

١ ــ ولد بقرية القنطرة بالجنوب الجزائري من تلامذة الشيخ ابن باديس وشارك في الحركة الاصلاحية . كان مديراً لدار الحديث بتلمسان ولا زال مديرا لاحدى مدارس العاصمة .

وما صدقوا ، والله ، في مفتراهـــم ... وليس لهم أدنى دليل مقـــوم
وقد فند الله المزاعـــم كلهـــا ... بحاضرنا ، والبشر بعـــد التجهم
وما نحن الا من سلالة يعـــرب ... وللشرق نعزى لا لغرب مهـــدم
نحن بنو العرب الذين تحـــدوا ... من النسب الزاكي لعـــاد وجرهم
ومن نسل مازيـــغ الأبي تناسلت ... أفارقـــه للشرق تعزى وتنتمـــي
فنحـــرج بنو العرب الذين تنقلوا ... من العدوة الدنيا للعـــدوة أعجمي
وفي عدوة الاسبان اكبر شاهـــد ... على مالنا من عزة وتقـــدم
أقمنا بها عزا تليدا ليعـــرب ... بفردوسنا المفقود يا مصر فاعلمـــي

ويريد محمد الصالح رمضان ان يكون جزائريا مسلما ليس الا وأن يحتفظ بلغته •

فيقول :

أنا مسلـــم لا اعتني الا بمـــا ... فيـــه الصـلاح لملتي أو مفخـــر
والدين والوطن المفـــدى واللغـــا ... لا أنثني عن فكرتـــي أو اقبـــر
اني لها حيا وميتـــا فاشهـــدوا ، ... يا قوم ، انـــي بالفـــداء مبادر
روحي ونفســـي والجـــوارح ... وقف على ذاك التراث محجـــر
ما أن أبالـــي في هـــواه مضرة ... بالضرب او بالطعن لا أتأثـــر
بالسجن او النفـــي بل والشنق لا ... اخشى من التعذيـــب أو أتضرر
هذه الطبيعة بالدمـــا ممزوجـــة ... (والطبع في الانسان لا يتغيـــر)
حسبي فخارا انني أغدو فـــدا ... ديني الحنيف وأمتي لا أدبـــر
هيهات يسعد مسلم ما لـــم يكـــن ... في نفسه للديـــن شيء يذكـــر
آليت عن نفسي يمينا صادقـــا ... فسأخدم الدين القويم وأجهـــر

فالمرحلة حافلة بالاحداث ومن ثم بالافكار الجديدة التي كان لها تأثير في الادب • فصرنا نجد الحركة الادبية تتنفس شيئا فشيئا حتى استقلت على أقدامها وهي اقوى ما تكون في آخر النصف الاول من القـــرن العشرين الميلادي • نلاحظ تطورا هاما فيها يرجع الى الاسلوب • فحاول الشعراء ما استطاعوا ان يبتعدوا عن الابتـــذال • ساير التعبير المعنى ،

والمعنى واضح صاف عال ، فجاء التعبير مثله رشيقا بعيدا عن الغموض والغريب ، والصور رائقة • وأما البحور فلا زالت خليلة لم يحدث فيها تجديد • ونلاحظ على شعر هذه الفترة فقرا من حيث وصف الطبيعة ، ولكن الشاعر معذور • فكيف يلهو بالطبيعة وهو يدافع عن الذات والكيان • فقد أشغله عنها وعن نواح اخرى من حياة الشعب همه بالاحداث السياسية المتعلقة بمصير البلاد •

جاءت الحرب العالمية الثانية وشارك فيها الجزائريون لانتصار الحرية في العالم الحر راجين ان ينالوا حظهم من هذه الحرية المنشودة • فقامت مظاهرة سلمية تطالب بالحرية • فغضب الاستعمار وجن وكشر عن أسنانه، فأخذ يقتل ويحبس ويهدم • فتكبد الشعب من جراء ذلك خسائر فادحة في الارواح والمتاع • فأدرك حينئذ انالطرق التي كان يتبعها للحصول على حقوقه المشروعة غير مجدية • فالوسيلة الوحيدة التي تؤدي به الى ضالته المنشودة هي الكفاح والنضال بنظام دقيق • صدمة لم تكن في الحسبان كان لها دوي في الميدان الادبي ، فقال الربيع بوشامة (١) •

قبحت من شهر مدى الاعوام ... يا « مايو » كم فجعت من أقوام !
شابت لهولك في الجزائر صبية ... وانماع صخر من أذاك الطامي
وتفطرت اكباد كل رحيمة ... في الكون حتى مهجة الايام
تاريخك المشؤوم سطر من دم ... ومدامع في صفحة الآلام
ان أعلنوا فيك السلام فقد رموا ... بابن الجزائر في سوء ضرام
وتناهبوا أمواله وحياته ... وشربوا مهجاته بهيام
طلبوه للهيجاء حتى حرروا ... بكفاحه •• فجزوه بنت حسام
لا بد أن يبقى كرمز خالد ... يوحي الشجا ويصيح مثل الهام
ألقوه في الاغلال نضوا صاديا ... واستيق بين الجند للاعدام
ورموا به وبولده من حالق ... جزر السباع كجيفة لسوام

١ ـ الربيع بوشامة : ولد ببني يعلى في بلاد القبائل حوالي سنة ١٩١٦ . وشارك في حرب التحرير ومات شهيدا في نيسان سنة ١٩٥٩ بعد تعذيب شديد على يد الطغاة .

وتتابـــع الاولاد ثـــم أبوهـــم يسقون في النيـــران كأس حمام
ذهبوا وأمست دارهم مفجوعـــة تبكي رزيتهـــا وذل مقـــام
من للحليـــة من لام والـــه وولائد من رضـــع وفطـــام
لاذوا بحزن قاتـــل ومدامـــع مكبوتـــة تذكي أشـــد ضرام
يا « مايو » مالك واجما لم تنتقـم او ما سقاك الظلـــم أسوأ جام ؟
هذا حرامك بالدماء مشـــوه قد عـــج بالارواح والاجسـام
مهج وآذان وكبـــد رطبـــة شويت وكانت من ألذ طعـــام
فارفع الى مولاك شكوى ضـارع يبرأ من الحكـــام والاحكام
عجل لهذا الغرب من ربما السمـا بقواصـــم مجتاحـــة وضرام

اما محمد العيد فقال :

أأكتم وجـدي أو أهدىء احساسي « وثامن ماي » جرحه ماله آســي
وأرقب ممن أحدثوه ضمـــادة وهم في جماح لم يميلوا لآسلاسي
تمر الليالي وهو يدمي فلم نجـــد له مرهما منهم سوى العنف والبأس
اذا ما رجونا برأة ثر دافقـــا بأحـــداث سوء وقعها مؤلم قاسي
فيا لجريح ظل ينكأ جرحـــه ويؤذي بلا ذنب على أعين النـاس
يضج ويستعدي بغير نتيجـــة ويشكو بلا جدوى الى غير حساس
سئمنا من الشكوى الى غير راحـم وغير محق لا يديـــن بقسطـاس
ولا خير في عد المظالـــم وحدها اذا لم نبن عن مرهفات وأتـــراس

اليك الآن شذرة من قصيدة احمد معاش الباتني :

متألهات في الجمـــال العـاري يعنـــو لها متألـــه الازهـــار
شمخت بأنف صاعـــرات خدهـا متبرجـــات بهجـــة النظـار
شقت على السحب الستائر واعتلت تزهو بهـــام رصعت بنضـــار
مدت الى افريقيـــا أظفارهـــا يا ويـــل افريقيا من الاظفـــار
ورمت على شطآنها ورمالهـــا مثل الافاعي في رحـــاب الدار
لكن أصلع في الشمال مجربـــا أودى الزمان بريشه المحطـــار
رفع العقيرة وانبرت أصـــداؤه ملء الاثير تصيح في « التاتـــار »

ويلي وويلكم اذا دام العدا فأنا وأنتم طعمة الاغيار
انا لرأس افريقيا ورمز شمالها ما للرؤوس الشم من قهار
فالنار تهدر والمنايا حولها تأتي على الفولاذ والاحجار
والارض ترجف بالجحافل فوقها والساح تعصف بالردى والنار
وقال ابن آدم في حمقه يسائلها ساخرا : ما لها ؟
فلا تسألوا الارض عن رجة تحاكي الجحيم وأهوالها
ألا ان ابليس أوحى لكم ألا ان ربك أوحى لها !
تعاليت يا رب ! كم عابث بآيك لم يك يصغي لها

والقصيدة طويلة رائعة تبعث في النفوس حماسا كبيرا تدل على طاقة شاعرية هائلة وطول النفس •

وبعد مأساة ٨ مايو ألمت بالجزائر ملمة أخرى • فقد زلزلت أرض الاصنام سنة ١٩٥٤ وذهبت أرواح عديدة وحطمت الابنية تحطيما كما وقع في « خراطة » من قبل وفي « مسلية » من بعد • وفي كل من هذه النكبات وقف الشعر بجانب الشعب يواسيه ويعزيه • فها هو محمد العيد يتألم ويصف الزلزال ويلوم على مواطنيه عدم اكتراثهم بالمصيبة ويسألهم :

ويحح الجزائر ما دهاها ما هالها ؟ تدعو دراكا وتستغيث رجالها
ويح الجزائر أصبحت مكروبة ولهي تئن فمن يكون ثمالها
مفجوعة ثكلت فتاة برة حسناء شوهت المنون جمالها
أسفي على الاصنام رجت دورها تحت الظلام وزلزلت زلزالها
عجبا لها من رجة أرضية ما شاهد الجيل الحديث مثالها
دوت دوي الرعد ثم تدكدت بالآهلين وأخرجت أثقالها
أودت باعلاق التلاد وازهقت مهج العباد ومزقت اوصالها
كم كرمة ألوت بها وحديقة عصفت بهاو من استغل غلالها
وسراية قد زينت بأسرة تؤوي عرائس لا تحد دلالها
خسفت بها فتقوضت وتعوضت من بينها شؤما يقبح فالها

امست مشردة تهيم فقيرة تبكي سعادتها وتندب مالها
كم مرضع صاد الحمام وحيدها كالنسر صاد حمامة فاغتالها
لم نكتشف سببا له متيقنا الا افتراضات نعوك خيالها
فترى الديار على الديار اكبها وترى الجبال على الجبال أمالها
خرت مطأطئة الرؤوس فبددت حول السفوح صخورها ورمالها
فكأنها سفن ببحرها هائج صخب تميل يمينها وشمالها
ولرب دار هزها من أسها وأدارها مثل الرحى وأجالها
وترى أعاصير الرياح أثارها حربا وتسدد للكبود نبالها
وترى الكواكب في سواد قاتم مثل الثكالى استشعرت أسمالها
وبنو الجزائر في سفاسف عيشهم خلف اللذائذ ينشدون وصالها
ترجو الجزائر أن تناضل حرة عن حقها فيعرقلون نضالها

وهذا مفدي زكريا (١) يصف نفس الزلزال ويستعطف الطبيعة ويزبد ويرعد لما يراه من فتور في الناس وكان عليهم أن يبادروا الى مساعدة المنكوبين • فالقصيدة جيدة الا أننا نلاحظ على الاخ بساطة الفكرة فيما يخص سبب الكارثة • فهو يعزوها الى الاثم والفجور وينسى قوى الطبيعة وظواهرها •

هو الاثم زلزل زلزالها فزلزلت الارض زلزالها
وحملها الناس أثقالها فأخرجت الارض أثقالها
وقال ابن آدم في حمقه يسائلها ساخرا : ما لها
فلا تسألوا الارض عن رجة تحاكي الجحيم وأهوالها
ألا ان ابليس اوحى لكم ألا ان ربك اوحى لها
تعاليت يا رب ! كم عابث بآيك لم يك يصغي لها
وجل جلالك ! كم أنفس تحداك ، قطعت أوصالها
وكم أمم ، غيرت ما بها فغيرت يا رب أحوالها

---

١ ـ ولد بوادي ميزاب سنة ١٩١٢

وزلت بأعمالها فغدت   تـرى في الزلزال أعمالها
عساها تثوب الى رشدها   فاولى لها ثم اولى لها
* * *
أمانا ! الا يا سماء اقلعي   فقد صبت الارض أنكالها
ويا أرض رحماك ! لا تبلعي   صبايا البلاد وأطفالها
ويا سيل ، قف واحتشم ان في   طريقك اكبادا يرثى لها
كأنك والناس ، حيهم   كمن مات ، قد جئت غسالها
جرى ما كفى ! هل كفى ما جرى ؟   كفى بالجزائر ما نالها
ويا خطب ! رفقا بهذي البلا   د • ألم تر يا خطب أحمالها ؟
ألم ترها بين جهل وفقر   تجرر للموت أذيالها ؟
وما فعل الغشم في أمرها   وقد فوضت فيه جهالها
فلن تستخف العلا امة   تولي القيادة أرذالها
وكيف تريد البقاء بلا   د تعد الضفادع أبطالها
وليست ببالغة امرها   وجلادها صار دلالها
ولا خير فيها ••• اذا الم تثر   لتنسف بالنار أغلالها
* * *
ذوي المال مدوا أكف السمآ   تخفف عن القوم أوحالها
ففي الحي قوم عراة حفاة   جياع تصارع آجالها
لقد فقدوا كل شيء سوى   محاجر تندب أطلالها
هياكل حتى السمآ ارسلت   تطادها اليوم هطالها
كأن البلاد التي زلزلت   اقامت من الناس تمثالها
ففي كل شبر ترى صنما   تريك الحضارة أشكالها
* * *
وقوم اذا جئتهم أمسكوا   وشدوا على الدور أقفالها
كرام مساريع في موبقا   ت جبين المرؤة يندى لها
فيا لغنات احصدي أنفسا   عن الشعب تمسك أموالها !
ويا صلوات اعضدي معشرا   غدوا للجزائر آمالها
وقالوا سنبقى على عهدها   وقالوا نموت ونحيا لها

وهذا محمد الاخضر السائحي (١) يحدثنا عن ذلك الزلزال ويصف الحادث باسلوب مؤثر يبعث فيك الرحمة والشفقة ولو كان قلبك من فولاذ ويستعطف به بني جلدته ليضمدوا جروح من بقي من سكان الاصنام :

وقفة حول هذه الاطلال ... أيها الضاحكون للآمال
ها هنا كانت الحياة نعيما ... بلغت كل غاية للكمال
بسم الحظ للعباد لديها ... فانتشوا بالسرور والاقبال
ومشوا خلف ركبها في حبور ... يتغنون بين تلك الظلال
انما الحظ كالحروب سجال ... فهو حال على المدى بعد حال
والليالي ، من يطمئن اليها ... سحقته وذاك شأن الليالي
لهف نفسي على أوانس غيد ... كالدمى تحت هذه الاطلال
كم ملأن الفضاء عطرا وسحرا ... حين أقبلن رائعات الجمال
نمن في نشوة مع الامل الحلو ... وعانقن طيفه في الخيال
وصغار مثل الملائك طهرا ... قد تربوا في نعمة ودلال
ذبلوا كالورود والخطب أعمى ... لا يراعي براءة الاطفال
وشيوخ ذوي وقار عليهم ... من جلال المشيب أي جلال
ضرجوا بالدماء في غير حرب ... أو سيوف ، لدى الوغى ونصال
ورجال مثل الاسود صمودا ... وثباتا في الخطب اي رجال
صرعتهم من الزلزال هوجاء ... على غير أهبة للنزال
ايه شعري ردد لحونك شجوا ... وأنينا عن نكبة الزلزال
وصف الليلة التي ضج فيها ... وطني بالبكاء والاعوال
حين هز الدجى دوي مخيف ... منذر بالشرور والاهوال
يتحدى الرعود في الافق عنفا ... فيصد الربى وشم الجبال

---

١ ــ ولد سنة ١٩١٨ بقرية العلية بالجنوب الجزائري وتعلم بها القرآن ثم انتقل الى القرارة لطلب العلم ومنها انتقل الى الزيتونة ثم رجع الى الجزائر والتحق بالاذاعة سنة ١٩٥٢ ولا زال بها يعمل ، له ديوان شعر « همسات وصرخات » نشرته المطبوعات الوطنية .

والورى بين غـارق في سبـات مطمئـن وذاهـل لا يبـالـي
وشجـي مسهـد ليـس يغفـو وخلـي منعـم القلـب سـالي
والمنـايـا مـن حولهم شاخصات في صفوف غـريبـة الاشكـال
ليـس يدورون من أمام وخلف هـي أم في اليمين أم في الشمـال
كل شيء يبدو لهم فيه حتـف كل شـيء بيـدو أداة وبـال
موضـع الامن بات خوفـا ورعبا وطريـق الهدى طريق الضـلال
فالسعيـد السعيد من ليـس ذا دار ولا معشـر ولا أمـوال
آه من منظـر أراه مـريعـا هـاج من لوعتـي ومن بلبـالي
أبـدا ماثـل امـامي لعينـي كـل حيـن مجسـم في خيـالي
منظر الشامخات تهوي الى الارض وتغـدو في قبضـة الزلـزال
وبكـاء الاطفـال في هـزة الذعر يصيحـون بيـن أيدي الرجـال
وصـراخ النسـاء يندبن قتلـى سقطـوا فجـأة بدون قتـال
تـركـوا خلفهم صغـارا يتامى ومضـوا فـي الدجى مع الآجال
رب طفل قـد ضاع بعـد ابيـه ليس يدري المسكين رجع سـؤال
يسأل الـرائحين فـي كل وجـه وينادي في الليل : امـي تعـالي
وهي لو تستطيع في القبر نطقـا صرخت مـلء قبرها لا تبـالـي
تتنزى تحت الصخور حنـانـا وهي في القبـر حفنة من رمـال
سكنـت واسمه على شفتيهـا ومحيـاه مـاثـل في الخيـال
كيـف يحيـا ابنها وقـد تركته ؟ كيف يحيـا بـلا أب أو خـال ؟
وسواها حـول المقـابر ثكلـى دفنت ثم سائـر الانجـال
نملأ الليـل كالحمـام هـديـلا وتغنـي علـى الربـى والتـلال
ترتمي فوق كل طفـل تـراه وتكيـل التقبيـل للاطفـال
غرقـت فـي د موعهـا من أساها يـالد مـع التواكل الهطـال
وأب كاليتيـم يحيـا شقيـا بعد أن كان ذا بنيـن ومـال
فقـد الاهـل والشباب وأمسى وحـده ضائعـا بـلا آمال
أيهـا النـاس رحمـة ببقاياهـم فهـم اخـوة علـى كـل حـال

ارحمـوا بائسـا وطفلا يتيمـا وجريحـا ممـزق الاوصـال
عوضوهـم بعطفكم ما أضاعـوا مـن سـرور في هذه الاهـوال•

أما الشاعر ابو شامة فيحدثنا عن زلزال اخر وقع من قبل ، زلـزال خراطة تلك البلدة التي ساءها الحظ فدهتها هذه النكبة بعد مأساة ٨ مايو ١٩٤٥ • يبدأ قصيدته بمطلع قوي من شأنه أن يبعث في السامع تشوقـا الى ما بقي من الحديث ولا يعزو الحادثة الى الاثم كما فعل زكريا بل الى الطبيعة القاسية • ثم يختم قصيدته كسابقيه بحث الناس على مواسـاة المصابيـن

قف بالحمى •• وانظر مدى الزلزال وتحسس البركان فـي اقبـال
والحظ هوادي فيحـة وحميـة ودويـة المتـزايـد الصـوال
قد شـف فوهةـ بعيـدا غورها يرمـي بأدخنـة •• نذير خيـال
« خراطة » باتت مسـارح رجـة كبـرى تـوقع أروع الاهـوال
وتحس في أطـوائهـا وسهولهـا بمهـزة وتمـايـد فعـال
قـد خرج منها أهلها واستبولوا سكنـى الخيـام وعيشة الترحال
فالبعض يبكـي النازحين ويرتجي في كل حيـن بطشـه الزلـزال
والبعض منهـا قوضت أركانهـا وتخربـت لـم يبق من أطـلال
وهوت علـى سكـانها في وهدة وتعانقـوا تحت الثرى المنهـال
أسفـا عليـك بليـدة مسكينـة رصدتـك أحداث بكـل مجـال
بالامـس أنت طريدة معروضـة للظلـم •• أفنـاك بسيف نكـال
واليـوم انـت فريسة مقهـورة في مخلـب البـركان والـزلزال
كـل جفـاك ومـا دريت بعلـة وسقـاك ألـوانـا مـن الاذلال
حتى الطبيعة سددت طعنـاتهـا لجـراحـك المشبوبة السيـال
وتهجمـت بقساوة تبغي القضـا ء علـى بقايا النفس والامـوال
لـم يثنهـا عنك الدموع ولا الدما كـلا ••• ولا عطف على الاطفال

يتضح مما تقدم أن الشاعر اهتم اهتماما كبيرا بالقضايا الداخلية ، ووقف دائما جنبا لجنب مع الشعب يسجل ما ألم به من الاحداث ، فيفرح

لفرحه ويتألم لالمه • ومشاكل بلاده لم تمنعه من ان يفكر في القضايا الخارجية ولا سيما العربية منها • ان الجزائري عربي مسلم • فرغم الاحداث الخطرة التي ألمت به ورغم سياسة الادماج ، احتفظ بقوميته العربية ، وسنقدم لك نماذج من الشعر تدل دلالة واضحة على انالجزائري لا يفصل بين بلاده والبلاد العربية • كيف ينسى الجزائري العروبة وهو عربي لحما ودما وروحا • حاولت فرنسا أن تضرب سدا منيعا بينه وبين اخوانه العرب لكنها لم تقض البتة على وعيه القومي العربي الاسلامي كافح على الدوام من اجل قوميته ولغته واسلامه ومن جراء ذلك رأى الوانا من الآلام • فللجزائري احساس وعواطف نحو العرب ونحو الانسانية ايضا ويظهر ذلك جليا فيما يلي من شعره •

اثارت احداث فلسطين العربية في نفس شعراء الجزائر شجوا واحزانا فراحوا يندوون بالصهيونية فقال العيد قصيدة منها :

قل لابن صهيون اغتررت فلا تجر ان ابن يعرب ناهض للثار
اعرضت عن خطط السلام موليا فوقعت منها في خطوط النار
لا تحسبن بان صبحك طالع فالبدر ويحك خادع للساري
سترى امانيك التي شيدتها منهارة مع ركنك المنهار
القدس لابن القدس لا لمشرد متصهين ومهاجر غدار

وندد العيد بالانجليز الذين يشاهدون العصابات الصهيونية تعتدي على العرب دون ان يحركوا ساكنا بل كانوا يؤازرونها عليهم :

بني « التاميز » قد جرتم كثيرا فهل لكم عن الجور ازدجار ؟
ألم يؤلمكم حرم مباح وشعب يستجير ولا يجار ؟
ونكبة أوجه بالكشف غر لمثل جمالها صنع العجار
كم احتجت لظلمكم وضجت ولكن في قلوبكم انحجار
اذن فالحرب للعربي د أ ب وهل تخفى البسوس او الفجار ؟
شددتم قهره فعلا انفجارا وعقبى شدة القهر انفجار

واحداث فلسطين حركت احساس شعراء اخرين فنادوا بالذود عنها فقال ابو شامة يدعو العرب الى ان يستردوا فلسطين •

تقدم بحزم قوي الفؤاد لصون الدماء وفك البلاد
فلسطين ارض الهدى والمعاد تنادي : الجهاد ، الجهاد ، الجهاد
فتى العرب هيا فلب النداء ولاق المنايا بساح الفداء
فلسطين في النار نهب العداء تنادي : الجهاد ، الجهاد ، الجهاد
أغث مرهقا في العذاب الاليم يجر على وجهه في الجحيم
شيوخا نساء وكل يتيم ينادي : الجهاد ، الجهاد ، الجهاد
أقم للمعالي نصاب الحسام وخل الهوينى ولذ بالصدام
فلسطين شعب الذوى والسماح ينادي : الجهاد ، الجهاد ، الجهاد
ونكل بصهيون شر العبيد وأطعمه نارا وسم الحديد
فلسطين هبت لمحق الطريد تنادي : الجهاد ، الجهاد ، الجهاد
ووف بكل القوى والجهود لدين الرسول وعهد الجدود
فأرواحهم في سماء الخلود تنادي : الجهاد ، الجهاد ، الجهاد
سينصرنا الله رب الانام وياتي بفتح كمسك الختام
ويولى حمانا العلى والسلام فناد : الجهاد ، الجهاد ، الجهاد

ووقف ابو شامة مرة اخرى يحث العرب على مساعدة عرب فلسطين الذين يذوقون مرارة العذاب من طرف اليهود ، ويختم كلامه بالترحم على أرواح الشهداء • يقول الشاعر :

ايها العرب أمة المجد والبأ ساء ماذا ترجون غير التفاني
انه الموت في الكرامة والعز او العيش في الشقا والهوان
تحت حكم اليهود أخبث من عا ث فسادا في عالم الانسان
والد الخصوم أبلوا بلاء منكرا في التخريب للعمران
أين ذاك الجزائري المجلي في ميادين كل حرب عوان
كيف ترضون عيش أمن وخير وفلسطين في الجحيم تعاني
هل نسيتم عهد الاخوة والقر بى وفضل التحرير والانسان

رحم الله كل حر شهيد في سبيل الاسلام والاوطان

ويصيح أبو شامة مرة اخرى بالعرب ويسألهم أن يتحدوا ويثوروا على الظلم . اليسوا من سلالة يعرب التي سادت شرقا وغربا وافادت الانسانية ماديا وادبيا فليتعظوا بما وقع لاهل فلسطين :

أراكم نسيتم عهودا مضت عهود « أمية » أو « تغلب »
فثوروا على الظلم مثل جدود عنا لهم الغرب في الاحقب
فكم حطموا معقلا شامخا وسادوا من السؤدد الاعجب
وكم ارشدوا حائرا او تائها يقفز من الشك أو سبب
أرى الغرب قد جمعوا شملهم على الشرق والشرق مثل الصبي
فدرس فلسطين درس بليغ يذكرنا الحلف في موكب
رويدك يا غرب ، لا تغترر فشمس بني الشرق لم تغرب
وانا سنرجع عهد الاخاء ويجمع شمل بني يعرب
فحسبك بالضاد من نسبة اذا ما انتسبنا ودين النبي

والشاعر العقون (١) يوصي الشعب الجزائري الثائر ان يولي وجهه الى اخوانه في الشرق ويكون عضوا للجامعة العربية فيقول :

سينقشع الغيم المخيم عن شعبي فيغدو ضحوكا كمشرق الافق كالغرب
ويحظى بآمال عذاب جميلة وكم من جنى عذب لدى الامل العذب
ويخلع أغلالا ثقالا يجرها ويجلو ظلام الظلم بالزأر والوثب
يؤمل أن يحيا عزيزا مظفرا سريع الخطى للمكرمات وللذب
يجاهد أعداء الحقيقة جهده ويرميهم مثل الشياطين بالشهب
دماء بني العرب استفاقت فأيقظت نفوسا فثارت تطير مع السرب
لقد اوقدوها ثورة عربية بجيش همام كالصواعق منصب
شديد المراس في النوازل مدرب جريء الى واسع الطعن والضرب
سيصلي شياطين الطغاة بجمعهم شواظا من النيران كالوابل السكب

---

١ ــ ولد سنة ١٩١٥ في ناحية برج ابي عريرج واستشهد في غابات الدويرة سنة ١٩٥٩ .

لقد جهلت «صهيون» واشتط حلمها   بدولة اسرائيل في موطن العرب
ألا فاجعلوهـا طعمـة لأجيجهـا   فليسوا بأهل للثبات لدى الخطب
ويا شعب ول الشرق وجهك واعتبر   بجامعة العرب الموحدة الركب
فثق بمبادئها وكن من جنودهـا   وخض معها الاحداث جنبا الى جنب
وما نحن الا من سلالة يعرب   وعبد مناف جدنا وبنو كعب

واحمد سحنون التغلي دعا هو ايضا اخواننا في الشرق ان يتكتلوا وسأل زملاءه الشعراء ان يدعوا مواطنيهم عن الجبن والبخل وان يحرضوا الجيش العربي على خوض المعركة حتى النصر • فيقول :

موطىء أقدام النبيين والرسل   وأرض نبي الوحي بوركت من نسل
فداك الفدا لا تقبل قسمة العدى   وللموت سيري لا تبيتي على الذل
ويا زعماء الشرق ضموا صفوفكم   ليصبح هذا الشرق مجتمع الشمل
لقد جد جد العرب فاقتحموا الوغى   فلا تدفعوا جد الحوادث بالهزل
ويا شعراء الضاد حثوا شعوبكم   بشعر يداويها من الجبن والبخل
فما الشعراء الا ثورة غير أنها   (توصل بلا كف وتسعى بلا رجل)
ويا أيها الجيش الذي هد ذكره   قلوب العدى باكر فلسطين كالويل
سترجع منشور اللواء مظفرا   ويرجع أعداء النبيين بالثكل

وكافحت بلاد الكنانة وواصلت كفاحها حتى النصر ، وكان الشعب الجزائري يرقب الاحداث التي تجري في تلك الديار العزيزة عليه بيقظة • فيفرح كلما فرحت ويألم اذا تألمت • فهذا محمد العيد يعبر عن ألم الشعب الجزائري عندما اعتدى الانجليز على اخواننا المصريين ويحث الناس في مصر للزحف على الاعداء وتطهير أرض العروبة منهم • فيقول :

أغار على الكنانة شر عاد   فقل يا مصر حي على الجهاد
أعدي كل بأسك واستعدي   لرد الزاحفين بلا اتئاد
أمن شكر الصنيعة أن يجازوا   ببيض صفاحهم بيض الايادي
فشنيها عليهم حرب ثأر   وشبيها لظى ذات اتقاد
وخطيها كتائب غير كتب   وصفحا من دم لا من مداد

هتافات « الشمال » اليـك تعلـو صدى وعهـوده لـك كالعهـاد

عقدت معاهدة الجلاء سنة ١٩٥٤ ، ففرحت مصر وشاركتهـا الجزائر فرحتها ، ويتجلى ذلك في شعر العقون حيث قال :

انجلى الظلم عن «الوادي» الخصيب كانجلاء الليـل عن فجـر حبيب
فو قسبعيـن قضـاها جاثمـا في ربـوع مسها منـه اللهيب
فعنـا فيهـا زمـانـا خـائرا ثـم ولـى جانحـا للغـروب
كـأي من فؤاد هنـا في طـرب راقـص للنبـأ العـذوب
فاذكرونا مثل ذكـرانـا لكـم ايهـا الابطـال انـا في كـروب
م نـدخيـل لـج في طغيـانـه سـد في أوجهنـا كـل الدروب
نحـن في الخطـب سواء هل لنا منكـم عـون على دفع الخطوب ؟

وفاز الشعب السوداني بالاستقلال ، ولا تسل عن مدى فرح الجزائريين لهذا الحدث يقول العيد .

فـوز سر ت بحديثه الركبـان فالشـرق مغتبـط به جـذلان
والسمحـة البيضاء تعلق بشرهـا ولو ازدرت بحقوقهـا الاديـان
والنيـل يجري صاخبا ومصفقـا طربا فترقـص حـوله الشطـآن
وبنـو العروبة يهتفون لمركـب في النيـل أبحـر ركبه العريـان
مـا أسعد السودان باستقلالـه فاليـوم يرفـع رأسه السـودان
من مبلغ السودان عنـا أننـا شيـع لـه بشعورنـا خـلان
نتبـادل القبـلات باستقـلالـه فرحـا وان طافـت بنـا الاحزان
متسـائليـن عن الجزائر هل دنـا تحريرها أم حظهـا الحرمـان ؟
ومتـى تقرر كالشعوب مصيرهـا فقـد اقتضى تقريـره الابـان ؟
ومتـى يكف عن الخصومة خصمها أو يرعوي محتلهـا الغضبـان ؟
ومتى تفوز بنعمـة استقـلالهـا لقـد استقلـت دونها الاوطان ؟

وقد تحدث الشعر الجزائري عن الاحداث التي جرت على جانبيه بالمغرب العربي وعن اولئك الابطال والزعماء كمحمد الخامس ومنصف باي وعمـر المختار ، قدس الله روحهم ، فها هو محمد العيد يشيـد

بذكــر المغرب :

بــورك المغــرب مــن دار لنــا بوأتنـــا من مغانيها كنانــــا
نحن فيهـــا اســرة واحـــدة اخــوة دينــا وجنســـا ولسانا
فتــت الفــرقــة فــي اعضادنــا ان منهــا ابــدا كــل ضنانــا
عالجوهـــا باتحـــاد جــامـــح ناجــع المفعول يبغــي الشنانــا
ضمن اللـــه بــــه العز لنــــا ونفــى الذلــة عنــا والهوانــا

وهذا مفدي زكريا ينشد قصيدة بين يدي البطل الفذ جلالة الملك محمد الخامس يوم اعلان استقلال المغرب بالقصر العامر يوم ١٧ تشرين الثاني ١٩٥٥ باســم الجزائر الثائرة :

قالوا : نريد • فقيــل للاقـــدار كوني ! فكانت رجـــة الاقدار !
قالوا : نريد • فقال ربك : نلتـــم فمشيئتـــي وارادة الاحــــرار !
لا تعجبــوا من معجزات زمــانكم ومفاجــئات كــوامــن الاستار
لا تعجبــوا امس الزمان كيومــه وقــرار عزل مثل عــزل قــرار
وارادة المستضعفين اذا دعـــت : ربــاه ! انفذهـــا قرار البار ي
قال الزمان الستم ؟ قالوا : بلـــى نحن الضيوف وانت رب الــدار
فانزل كريمــا في بــلاد حــــرة أخــذ الزمــان لشعبهــا بالثـــار
واهبط من الملكوت أكــرم هابط وانشر قميص أبيــك للابصـــار
وافرش على قدس الرحاب عيونـنــا واصعد على مهــج هناك كبـــار
قمــر الزمان انشق عنك لامـــة فكــن الحقيقــة للخيال الساري
ورآك شعبك في السموات العلــى فلكــا فقــام يطوف بالانــوار
الله أكبر ! حل عدلــك عبـــرة وقضــاؤك القهــار للقهـــــار
الله أكبر ! جل عيدا خالــــــدا مـــا كــان أكبــره عن الاكبار!
عيــد بــه الدنيا تموج عروقهــا خفاقــة بروائــــح الاســـرار
وبكل بيت للعــروبــة صــادح يتلــو مع اسم « محمد » أشعاري
واهتز فيـــه الشعـــب يروي للعلا استقباله للضيغـــم الهصـــار
واهتز فيه العرش يعلن للورى استقــلاله « بمحـــد » المختـــار

ملك تجلى كالملاك حياله شعب وفي لم يلن لصغار
وصحابة مثل الصحابة نجدة وكتائب ككتائب الانصار
ملك من الشعب استمد جلاله فأحبه وفداه بالاعمار
ومضى يتيه على (جناحي) كاسر متحد بالعواصف الاخطار
والمالكون ، اذ هم لم يخلصوا لشعوبهم فعروشهم لبوار
واذا ابن يوسف كان اصدق معرب عن مغرب فبثاقب بتار
واذا ابن يوسف كان اقدس مالك في أمة فبصالح الآثار
ماذا أرى ؟ جنات عدن فتحت ابوابها ؟ ام موطني ودياري ؟
ام ان (رب العرش) جل جلاله أولى (لرب العرش) عقبى الدار؟
وارى الخلائق جحفلا في جحفل اعظم به من جحفل جرار
الشعب حول القصر أخلص حجة متمسحا بجوانب الاسوار
(ورباط) أصبح كالبقيع قداسة متينا بمناسك الزوار
والناس بين مهلل ومكبر يتواكبون لكعبة الابرار
ان كان عيد النصر عيد ضحية عيد الضحايا حق كل النهار
الشاة أخلصت الفداء لواحد وفدا البلاد جماجم الاحرار !
يا ايها الملك الحبيب محبة وتحية من حافظ لجوار
مولاي خذها نفحة من شاعر ما كان يوما في القريض يداري!
كلماته بالمعجزات طوافح وحديثه كالكوكب السيار
ورواته عجب بكل محلة لا فرق بين مجاهد وهزار
ميزانها قلب الجزائر نابضا ورنينها من صرخة الثوار !
ان الجزائر أمة عربية تسعى الى استقلالها وتجاري
بارك (فديتك) يا محمد سعيها وجهادها واخلد مع الانصار
كفرا لألى قالوا (الشمال ثلاثة) ودعوا الى اذ لاله بالنار
نصبوا العصي على الحدود سفاهة وسعوا الى توزيعه لضرار
والمغرب العربي شعب واحد ملء العروق دم العروبة جاري
للشرق لا للغرب ولى وجهه فعداله سندا لخوض غمار

مـا بالهـم يتصدقون ؟ كـأننـا نرضـى من الاسلاب بالاشطار !
لا نقبل الصداقات ، كـلا اننـا طـلاب حق لا سماسـر عـار !
لا شـيء الا وحـدة عربيــة جبـارة في المغرب الجبــار !
يا شعب يهنك ما بلغت من المنـى فاسعـد بيـوم كرامة وفخـار
اليوم يوم البعث في اطـوائـه لغـد البـلاد عجائب الاطـوار
واذا اتى يوم الحساب فـلا تنم واقـرأ حساب الماكـر الغد ار
طالب بحقـك كاملا وحذار أن ترضـى (بأنصاف الحلول) حذار!
واذكر دم الشهداء وارع ذمامهم واخلص لعرش محمـد المختـار

يتراءى لنا مما تقدم أن الشعر الجزائري قد قام برسالته أحسن قيام : دافع عن الكيان الجزائري في عقربيته ، واهتم بالاحداث المؤلمة التي ألمت بالعرب ونادى ايضا بمؤازرة المظلومين حيثما كانوا • قال العيد فيمـا دهى اليابـان :

كرة واحدة في (هـورشيمـا) تركـت كـل مبانيهـا هشيمـا
هـذه معجـزة العلـم التـي فضحت بالجهـل من كان عليما
نشأ العلـم ملاكـا طـاهـرا واستحال اليوم شيطانا رجيمـا
أصبـح اليـوم جحيمـا بعدمـا كـان بالامس على الارض نعيمـا
عـاث في الارض فسادا وأ ذ ى لم يـدع شبرا من الارض سليما
وابتلـى أسلحـة الارض فلـم تكفه فاختـار للفتك السديمـا
وانتقـى شتـى سموم يبتغـي بثهـا في الجـو للخصم شميمـا
ومضـى يهـدم مـا كـان بنى من حضارات فتنقض حطيمـا
يطـرد السلم من الارض كمـا يطـرد الصياد في القنص ظليمـا

وهذه الاحداث في الداخل والخارج شغلت الشعراء عن التغني بمحاسن الطبيعة ، وطبيعة الجزائر فتانة الى اقصى حد بشـلالاتهـا وغاباتها ومياهها وجبالها وسهولها ومروجها وصحرائها • ولو التفتـوا اليها لآتوا بما يضاهي شعر المشارقة والاندلسيين في هذا المضمـار • الا أن هذه الثلمة التي شهدناها في الفترة السابقة قـد حـاول سدهـا

بعض شعراء هذه الآونة .

فالشاعر احمد الباتني يصف لنا الصحراء متحدثا عن رمالها ونخيلها وعن الذكريات التي أثارتها في نفسه وعن حياة سكانها .

بسط الرمل راحتيه وحيا وحبا النخل طيبه القدسيا
واستوى في الفضاء يرفع جيدا مستطيلا يضوع مسكا زكيا
فكأن النخيل في البيد بحر ذو سوار يخوض بحرا حييا
حالقات كأن في كل رأس جنح صقر يجوب أفقا عليا
هز في المخلب الكريم جنى با ت يباهي بما جناه الثريا
حائمات أسرابه فوق ساج لا شراع به لغوص تهيا
موطن الوحي لا أخالك الا منبع السحر سرمدا ابديا
من لآلىء ثراك ينبثق النو ر فيكسو الحياة معنى ثريا
كنت ، يا موطن الجدود رحينا ببنيك الاباة .. كنت سخيا

والقصيدة طويلة نكتفي بهذا النموذج منها فانه على قلته يدلنا على قدرة شاعرية الباتني . فالمضمون جذاب والصياغة ساحرة . ولهذا الشاعر قصائد أخرى لا تقل روعة عن الاولى .

وهناك شاعر آخر تحدث عن الصحراء هو احمد سحنون . وصف الصحراء ، ولكنه لم يبلغ شاو الباتني لا سيما في احساسه وحبه لها .
ومن قصيدته هذه الابيات .

أصحراء ، أنت الكون بل أنت أكبر وشخصك في عيني ابهى وأبهر
أنا ابنك قد لقنت حبك ناشئا واني على ذا الحب لا أتغير
وشاعرك الباني علاك ومن غدا بمجدك في الدنيا يتيه ويفخر

وهناك شاعر ثالث قد فتنته الصحراء وتغنى بجمالها . وهذا الشاعر هو محمد الاخضر السائحي . فقال :

كثب أنت ام سنا وضياء ورمال ام فتنة و ر وا ء
وسكون مخيم ووجوم ؟ أم غناء مرجع وحداء ؟
وبساط مهد من حرير ؟ أم هضاب على الثرى شماء ؟

لسـت أدري أأنـت أرض دحـاها اللـه أم أنـت يا رمـال سمـاء؟
الجمـال البديع والسحـر والروعـة والطهـر والسنـا والصفـاء
هـا هنـا كلهـا بدت في رمـال « وهضاب ماجـت بهـا البيـداء »
مـا جنـان مثل الفراديس حسنا ورياض علـى الربـى غنـاء
ضحك الزهر للجـداول فيهـا وجـرى بالحيـاة فيهـا المـاء
وشـدا طيرها فمـالت غصـون أرقصتهـا ألحـانـه ـ لفـاء
وتهـادى النسيم يسحب ذيـلا عطرتـه أرجـاؤهـا الفيحـاء
قـد كساها اذار من كـل لـون فهـي صفـراء عنـده خضـراء
يرجـع الطرف عن سناها حسيـرا ويفـوت الاوصـاف فيهـا البهاء
مـا أراهـا مـثل الرمـال جمالا أيـن منهـا جمـالها الوضـاء؟
اي سحر يفيض منها على النفـس فتسمـو بفعلـه مـا تشـاء
وأنـا الشاعر الـذي يعشـق الحسـن ولا تستخفـه الاسمـاء
ويـراه لدى الطبيعة صـرفـا لـم تنمقـه صنعـة وطـلاء
كل معنـى للحسن فيها جلـي لا غمـوض، لا دقـة، لا خفـاء
وهي في الليـل كالنهـار جمـال راح يغـري صباحهـا والمسـاء
يقظـة تملأالنفـوس حيـاة مـا لها عنـد من يحس انقضاء
فكأن السكون فيهـا حـراك وكأن السكـوت فيهـا غنـاء
لتـود النفـوس لـو تحتويها وهـي أفـق لا ينتـهي وفضـاء
هـام في حسنهـا الفلاسفـة الاعـلام والناسكـون والانبيـاء
واتاهـا اهـل السعادة يلهـون كمـا خـف نحوها الاشقيـاء
منحتهـم على السـواء سـرورا مـا السعادات عندها؟ ما الشقاء؟
عبدوهـا فمـا عتت مـن غرور ونسوهـا فمـا عراها استيـاء
وازدروها فمـا ثنوها عن الخيـر ولا نـال فضلهـا الازدراء
لـم تـزل في الرياض تنمو زهور وعلـى الافـق لم تزل أضـواء
والنسيـم العليل مـا زال يسري فـي رباهـا وتهطل الانـواء
فسـواء لـدى الطبيعة مـدح صـادق من قلـوبنـا وهجـاء

ليس فيهـا مثل العباد نفـاق   ليس فيهـا مثـل العبـاد ريـاء
هـي في العين ان نظرت رمـال   وهـي في العقل ان فهمت سمـاء

لقد أفلح السائحي في قصيدته هذه . فانها تحتوي علـى صـور تعبيريـة جميلة والفاظ موسيقية عذبة . فتنته الصحراء بفضائها الواسع ونسيمها العليل ورمالها الذهبية وواحاتها التي تملأ النفوس حياة وسعادة. فوصفها وصفا يجعل القارىء يفتن بها بدوره ويود ان يكون من اهلهـا صافي الذهن طاهر القلب لا يعرف نفاقا ولا رياء .

والشاعر زكريا هو الاخر تحدث عن الصحراء ، هـذه الصحـراء المملؤة ارضها بالذهب الاسود ذات الواحات الجميلة والفيافي الشاسعة . وصف حياة اهلها واخلاقهم ، ووصف مـا فيها من مـناظر سـاحـرة باسلوب ساحر وفي نغمة هادئـة حلـوة .

وفجر بئر « مسعـود » مـلال   فـاذن واستمال لـه الرقابـا
وكبـر للجهـاد بهـا فقمنـا   نخضـب بالدم الغالي الترابـا
شققنـا فوقهـا للمجـد طرقـا   وفتحنـا بهـا للخلـد بـابـا !
وفي صحرائنـا جنـات عدن   بها تنساب بثروتنا انسيـابـا
وفـي صحرائنـا الكبرى كنـوز   نطارد عـن موقعهـا الغـرابـا
وفي صحـرائنـا تبـر وتمـر   كـلا الذهبيـن راق بها وطـابـا
وفـي صحرائنـا شعـر وسحـر   كـلا الملكيـن حط بهـا الركابا
وفي صحـرائنـا ادب وعلـم   زكـا بهمـا المثقف واستطابـا
وفـي واحـاتنـا ظـل ظليـل   تفـور بـه نواعرها حبـابـا
وفوق سمـائهـا قمـر منيـر   نطـارحـه الاحاديـث العذابـا
وتحـت خيامهـا انبجست عيون   لهـا « ماروت » قد سجد احتسابا
وتحت خيامها انبجست عيـون   اسالت من فـم الدنيا لعـابـا
عشقنـا عنـد اسمرها صبـاحا   فنـون السحر ، والتبـر المذابـا
يراقص رملهـا الذهبي شمسـا   تودعـه فيمنعهـا الذهـابـا
وبيـن غزالتيـن جرى سبـاق   وكـان الثأر بينهما طـلابـا

وهزت مـريـم العذرا نخيـلا   فاسقطت الفلوذج والرضـابـا
عراجـن كالمجـرة مشـرقـات   عسالجها انسكبن بها انسكابـا
يدغـدغ تحتهـا الغنـام نـايـا   فينطـق مـن فم الغنـم الربابـا
يدلـي فـي الغديـر الحلو ساقا   وبالكفيـن يغتـرف الشرابـا
ويستلقي بحـافتـه ينـاجـي   الـه العـرش يسـأله متـابـا
قرير العيـن في الفلوات أضحـى   يعـاف الناس مذ ألف الذئـابـا
فمـا يـدري بجنتـه نفـاقـا   ولا كذبـا ولا خـان الصحابا
وفوق منابـع البـترول حـاد   ينـاغـي العيش والخيل العرابا
على خطواتها نشـوان يشـدو   فتطـوي في مراحلهـا اليبابـا
تساجله الاغـانـي وهـي نشوى   فتنسيـه وينسيهـا العذابـا
فمـا تدري المطايا وهي تسعـى   أدسـن الشعب ام دسـن الشعابا
وتحـت نعـالها استقلال شعـب   يـلاقي في « المنظمة » الصعابـا !

وهذه الصحراء « مهد السحر والجمال ومرتع الشعر والخيـال » قـد تغنى بها ايضا صالح الخرفي (١) لكنه تناولها بطـريق الثورة لا بطريق الفن كما فعل زميله زكريا . فقد استعمل الخرفي الجزالة وفخامـة اللفظ الذي يتناسب مع الثورة . فانصت اليه :

يا من على الصحراء سال لعابهم كـم موردا فيها ، سلوا : هل أصدرا ؟
اقسمت بالرمضاء فيهـا .. بالرياح الهوج تنتعل الجديـب المقفـرا
بالنـاقـة الوجناء فيهـا ، لم تـزل عربيـة الخطوات شامخة الـذرا
اقسمت بالصحراء مهـدا لانبثـاق الوحـي نقاها « حراه » وطهـرا
بالخيبـة السـوداء بالليـل الأنيـس بنـارهـا ما انفـك طائي القرى
بالنفط في الصحـرا عشقت سواده الداجي وعفت به النضار الاصفـرا
بالذرة الرعناء أقعـد راجـلا اشعاعهـا المودي واعمى مبصـرا
سنعيـد ذكرى « القادسية » للنهى تهوى بكسري أو تطيـح بقيصرا

---

١ ـ صالح الخرفي ولد في القرارة بوادي ميزاب سنة ١٩٣٢ . تخرج من كلية الاداب بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

ان كنتم تجار حرب ان من أجدادنا من باع فيها واشترى
فرسان حوماتها سلوا صهواتها كم اسرجت بابن الوليد وعنترا !

اما محمد العيد فقد قصر في الحديث عن الصحراء فقال :

هذه الارض سوف تنبت عزا ان تصافت في ظلها الاحزاب
كلنا اخوة من الدين والجنس عليها وكلنا أحباب
نبتغي العيش في الجزائر حرا مطلقا لا يحفه ارهاب
ارشدينا السبيل أيتها الحمراء انا قوم اليك ركاب
هل الى وصل بيننا من سبيل غبت عنا وطال منك الغياب ؟

تعب العقون من المدينة فذهب الى البحر يريح نفسه مما تعانيه من الاحزان والالام فراعه المنظر وأخذا يناجي الموج فقال :

ها أنا اليوم قد وقفت اناجيكا أيا بحر فاستمع لنشيدي
فكلانا في موقف تتناغى بأغان سحرية الترديد
انك اليوم مؤنسي وسميري يا نجيبي ، في قفر هذا الوجود
سكنت نفسي الحزينة وارتاحت الى حسنك البديع الفريد
آثرت قربك الحبيب على كل رفاقي قديمهم والجديد
علها في جوارك اليوم تنسى ما تعانيه من بلاء شديد
هل أرى فيك بلسما لجروحي ؟ أو ألاقي تحررا من قيود ي ؟
ام كلانا قد أرهقته الليالي بصروف ما فوقها من مزيد ؟
جئت أقضي النهار فيك لعلي واجد فيك مفزعا للشريد
شاديا للعباب للمنظر الفا تن للموج للصدى الممدود
ايه ، يا بحر أنت فيض من الالهام موح للشاعر الغريد !
أنت ألهمتنا الجمال فرحنا نهتف اليوم باسمه المنشود!
أنت سر من الطبيعة ، مغر بجلال وكبرياء عنيد !
انت معنى محجب عن عيوني لا أرى فيك غير رمز بعيد
تتهادى مرددا نغمات وقعها في النهى كوقع القصيد

تتراءى في وحشة واضطراب وهد يركز فرة العمود
يا مثال الجلال ماذا ينال الو صف منك وما يحيط نشيدي ؟
أنت مرعى الخيال مورد الخصب وان كنت فوق كل الحدود
ايه يا ساكنا على هدأة الريح ويا ثائرا كزأر الاسود
لست تخشى الرياح ان زمجرت حو لك غضبي كقاصفات الرعود
لست تخشى اذا تلبد غيم أو حوى الليل كل من في الوجود
أنت رمز الخلود والحسن فاسلم رمز حسن على المدى وخلود

أدبر الشتاء ببرده وثلوجه وقساوته وجاء الربيع • فراح « العقون» ينعم بمشاهد الجبال والروعة التي يقدمها له هذا الموسم • فها هو يصف لنا تلك المشاهد المختلفة من رواسب ترفل في حللها القشيبة ، وفراشات تحوم على الزهور النضرة ، وقطيع ينتشي بما ينطلق من ناي الرعاة من الالحان الشجية • ويظهر لنا العقون في القصيدة التالية رساما بارعا يجمع من تفاصيل المشاهد لوحة جميلة من لوحات الفن • فاصغ اليه سمعك :

قد بدا البشر من محيا الربيع فازدهى الكون بالجمال البديع
مذ تراءى للناظرين سناه خف كل في نشوة ونزوع
يا له منظرا يحرك اوتا ر فؤاد يهتز للتوقيع
والروابي قد اسفرت عن وجوه زانها منظر الجمال الوديع
اكتست بردها القشيب وتاهت في دلال محبب للجميع
بعد عرى أصابها ورياح لفحتها وذلة وخشوع
فبدت مزهوة وعليها بسمة من دموع غيث مريع
وغدت تسحر النفوس بوشي ناطق ••• بجلال سر منيع
والفراشات حائمة على الزهر يداعبن ثغره في ولوع
سابحات مع النسيم المندى هامسات الى الندى والزروع
غارقات في حملها تنشر العفة والطهر والمنى ••• كالربيع
والقطيع انتشى بلحن شجي قد تغنى به رعاة القطيع

نغمـا يفعـم النفـوس سرورا هـو أشهى من صوت كل سجوع
كـل قلـب اليـه ينبض شـوقا وهيامـا كومـض بـرق لمـوع
لاعـدمـت (الربيع) ملهم قلبي ليتـه لـم يمـل الى التـوديـع

وقدرة العقون على الوصف نلمسها في قصيدته في النهر بمسقـط رأسه « برج الغدير » رسم فيها ذكريات طفولته • بعد غياب طويل عـاد الى ذلك النهر الذي كان يذهب اليه في صغره • فاذا بالسويعات الحلـوة التي كان يقضيها على ضفاف النهر تتبادر الى ذاكرته : فقد كان فرحـا مرحا يشدو كالطيور ويروح يعبث بمياه النهر الدافقة وبالزهور الجميلة، ويمتع نظره بسحر الغابات الهادئة والجبال الشاهقة ، ويشم العبير المنتشر في تلك الخمائل الضاحكة ، ويصغي الى اغاريد الطيور الشجية ، ويبحث عن بيضها ويحكي ثغاء الشياه • فأنصت اليه :

قد عـدت للنهر الحبيب ظامئا أطفي الزفير
متسليـا بجمـاله الاخاذ انصت للخريـر
وقضيته يومـا جميلا من مدى العمر القصير
فوق المروج الخضر ما بين الحشائش والزهور
احيي عهودا عذبة قضيتها الطفـل الغـرير
أشد كأطيار نشاوى بالاصـائل والبكور
واروح أعبث بالميـاه الجاريات وبالزهـور
وأظل في الغابات بين هدوئها الشاجي المثير
بيـن الجبال الشاهقات أعيش مغتبطا قرير
أصغي الى ترتيـل آيات الجمال مع الطيور
وأشم نوار الخمائل حيـن تعبـق بالعبيـر
واتابع الأفراخ في اشجارها أو في الوكور
وأبحث عن بيض الطيور لدى المغاور والوعور
أحكي ثغاء الشاة او أحكي الصغير مع النسور
وصدى الكهوف مع الجـداول اذا يطيـر

أمضي لتحقيق الاماني لا أبالي بالفتور
آه على تلك الليالي قد مضت ليست تحور

والسائحي هو الاخر ابتهج بقدوم الربيع وفتن بالطبيعة في هذا الفصل ، فصل الحياة والحب ، فصل الجمال والمرح • فقال :

هاته كالربيع في ألوانه كل شيء محبب في أوانه
موسم الشعر قد أظلك فاهتف (مرحبا بالربيع في ريعانه)
مسح الكون مقلتيه •• وعادت نظرات الصبا الى أجفانه
وافاقت من نومها هضبات مسها موسم الهوى ببنانه
ومشى بالسرور في كل شيء في وهاد الحمى ، وفي كثبانه
في الرياض الغناء في الزهر الضاحك فيها في السهل ، في وديانه
في الطيور الطراب تصدح في أغصانها في الفراش في طيرانه
في الفضاء الرحيب في الجبل الشامخ ، في عشبه وفي قطعانه
في الخضم المواج في المركب السابح فوق العباب ، في ربانه
كل شيء حتى الجماد يغني هائما كالطيور في ألحانه
فابعث الشعر كالتغاريد واهتف ها هنا في زمانه ومكانه
صغه من هذه الزهور وصغها من تقاطيعه ومن أوزانه
تتحدى القريض في الحسن حتى لا تبالي بلفظه وبيانه
لك في كل منظر ألف نبع للقوافي من دره وجمانه
صاغها الله في الربيع •• ولكن أي شخص يصوغها بلسانه
مرحبا بالربيع في حسنه الزاهي ، وفي جوده وفي احسانه
فامش في الكون بالرخاء وبالخير ••• وسر بالسلام في أركانه
واسر بالخصب في الحنايا وفي الانفس ••• لا في الثرى وفي كثبانه
لم تزل في الشتاء تحيا وتفنى أنفس ••• وهي لم تكن في أوانه
أجدبت هذه القلوب وشاخت والربيع الجميل في عنفوانه

أيهــا الناس ، في الربيــع معــان فاطلبوهــا كالنحل في أحضــانــه
هو فصل الحياة والحب ... لــو لاه لظـــل الوجود في اكفانـــه
نثر الزهر في الرياض .. وأعطى كل غصن هــواه فــي ميــلانــه
ودعــا الطير للغنـــاء فغنــت فتسلــى الشجي عــن أشجانـــه
فخــذوا منــه الحيــاة مثـــالا نحن في فصلـــه وفي ابــانـــه

ومحمـــد العيد هو الاخر تصدى لوصف الطبيعة . فأعطاها حقهــا في شتى المواقف وقف يوما أمام البحر فناجاه بقصيدة طويلة لا تقل جودة عن قصيدة العقون منهــا هذا البيت :

يــــا بحـر أفديـك بحـــرا ملكـــت قلبـــي سحـــــرا

وأعجبتــه فوارة رآها في الحديقة العمومية (بباتنه) فقال فيها :

يــــا حبـذا عيـــن تفـــــور حفت بحافتهـــــا الزهـــــور
بــاتـت (بيــاتنـــه) تفيـض علـــى سـرائرنـــا الســـرور
في روضـــة غنـــاء قـــد غنـت بسـاحتهـا الطيـــور
فــي حــوضهـا مـــاء يجـو ل كـأنــه فلــك يــدور
وتــرى الفقــاقــع كالكـــوا كــب فيــه تطلـع أو تغـــور
وتــرى الاسمـــاك تلمع كـــاللآلـــىء فـــي النحـــور
تلهـــو وتمـرح لا تحـس بحبسهـــا بيـــن الصخـــور
مثـــل الطيـــور الغـــاديا ت الرائحـــات على الوكـــور
بينـــا ميـــاه في صعـــو د اذ ميـــاه فـــي حـــدور
فكـأنهــا رتـــب العبـــا د يديـرهـا صرف الدهـــور
أو كـــالريــاح فمــن قبـــو ل ناوحتــك ومـــن دبـــور

وهطلت الثلوج على العاصمة فسجل احساسه بقوله :

وأرى الثلــج ذات الا بقيـــا ت بها الـــدور توجت فهي بلـــق
خالعــات علــى الربـى حللا بيضــا بدت تحتــها غــلائل زرق
واذا الارض كالسمـــاء رواء ليس بين السماء والارض فـــرق

فكأن الثلوج في الارض غيـــم   وكأن الريــاض في الارض أفـــق

وقد اعطى لنــا عن (القنطرة) هذه الصورة :

عـرضـــت (بقنطـــرة) الطبيعـــة حسنهـــا متجـــردا
لوح مــن الرسـم القـديـــم بـــه القـــديـر تفـــردا
أنفـاسهــــا تذكــي العبيــر بهـــا فتحيـــي الملحـــدا
فكــأنهـــا نفــس ابــن مريـم راح فيهـــا واغتـــدى
وتــرى الحيـاة تبسطـــت فيهـــا فلـــن تتعقـــدا
وتـرى الحـدائــق نضـرة خضـــراء بللهـــا النـــدى
وتـرى الغصون بهـــا ثنـــى متـــأود متـــأودا
رقصــت علــى نغـم الصبـــا رقصـــا يهـــز الجلمـــدا
وتــرى الجداول حـولهـــا تجـري علــى طـول المـــدى
المـــاء يصبـــح فضـــة فيهـــا ويمســي عسجـــدا
وكــأن صــوت خـريــره صــوت الهـزار اذا شـــدا
صوت الميـــاه اذا جـــرت يسلـي الشجـــي المكمـــدا
ولعلـــه واتــــى لـــدا وود الزبـــور فأنشـــدا
ولعلـــه دل القـــر يــض علــى الغنــاء ومعبـدا
وتـــرى النخيـل مبعثـــرا مـــن حـولهـــا ومنضـــدا
فكأنــــه جيش بثغــــر للعــــدو ترصـــدا
وتــرى الجبـــال بيـأسهـــا مـــن عهـــد آدم شهـــدا

والقطعة التالية تعطينا صورة عن جمال العاصمة :

غنــاء أغنــى عن الترحيب منظرها   وفي المناظر ما يغني عــن الكلــم
البر والبحر في أكنافها اعتنقــا   وواصلا قبــلا فيها فمـــا بغــم
والقــاطرات بهـــا والفلك زاخرة   بمعجزات من الآلات والنظـــم
والطيـر كاسيــة فيها وعاريــة   صفت باجنحــة من فوقها دهــم
من ذي قوادم بالارياش منتفـض   أو ذوي لوالب بالفولاذ ملتحـم

والسحب غادية فيها ورائحة ما بين منسجر منها ومنسجم
والشعب ريان والازهار يافعة ما بين منتثر منها ومنتظم
والريح تجري رخاء حول أفنية أو حول ابنية شماء كالقمم

وها هو محمد العيد يتحدث عن جمال الريف فيقول :

هزتك للشعر حنات وأشواق وعاودتك حساسات وأذواق
اليوم صدرك للافراح منشرح فما عليه من الافراح اغلاق
أقم هنيئا فما في القلب موجدة ونم قريرا فما بالعين أراق
حيتك في البدو كل الكائنات به الريح عازفة والروض صفاق
والحقل محتفل الاشجار من طرب تشدو وتهفو به ورق وأوراق
والنهر في جنبات السفح منبسط والماء في جنبات النهر رقراق
وفي الكروم عناقيد تحف بها كأنها في نحور الغيد أطواق
وفي المزارع قطعان منوعة ضأن ومعز وأبقار وأنياق
تشدو الرعاة بسوق للغناء بها وللغناء كما للشعر أسواق
لهم مزامير بألحان صادّحة كأنها في صدى الوديان أبواق
والوحش سلوان في الغابات منطلق والطير جذلان في الاوكار زقزاق
الشمس زاهرة في كل آونة كأن امساءها في العين اشراق
والبدر في الليل يبدو زاهدا ورعا له الى الله اخبات واطراق
الكوخ أبهى من الافلاك نيرة والقصر يعلوه طاق فوقه طاق
عيش البوادي نضير لا نظير له وجوها لعضال الداء ترياق

وقد زار شاعرنا (تمقاد) فأثر في خياله المشهد • فقام حينئذ يصور تصويرا دقيقا رائعا ذلك الماضي البعيد وزواله وقيام الحضارة العربية ـ البربرية على أنقاضه فقال :

وقفت على (تمقاد) وقفة جائل وطفت بها مسترشدا بالدلائل
عجبت لها من بلدة أثرية خلت منذ أجيال طوال دوائل
لقد عمرت من قبل عيسى وبعده بحزبين كفار به وقوائل

صفائحها منقوشة بلسانها على من يرى معروضة كالرسائل
تماثيلها تبدي لنا كل بادن قويم من الاجسام جعد الخصائل
طرائقها بالصخر رصت ودورها فما انقض منها غير دور قلائل
مبان كأمثال الجبال شماخة تروع النهى بالذكريات الجلائل
فمسرحها ذكرى لابداع فنها وساحتها ذكرى لعرض المسائل
ومعهدها ذكرى لبث علومها وديوانها ذكرى لصون الفضائل
وكم مستحمات وكم برك بها وأقبية معقودة كالخمائل
وكم من كراسي بها مرمية ممهدة كانت مراح الخلائل
ومستودعات أقفرت من عروضها وباعتها والمشترين العوائل
وكم من سوار ينطح الجو هامها تنم على فن من النعت هائل
ومن فسيفساء بالتصاوير جملت بما لم يمثله الخيال لخائل
فمتحفها يحوي زخارف جمة الى اليوم باق لونها غير حائل
وآلاتها معروضة في خزائن زجاجية للقافلات الجوائل
فأين بنو الرومان في عز ملكهم وتمقاد هم في عهدها المتفائل ؟
لقد أخليت من ساكنيها وأحرقت قديما وهدت باتقاف القبائل
برابر كانت تحت نير مذلة مسخرة للسعي من غير نائل
يجرعها الرومان كل مجرع مرير بها مفض الى الموت آيل
فضجت اخيرا منهم وتبرمت بحكم لهم عاثعن الحق مائل
وثارت باجماع عليهم ووحدة فأجلتهم عنها بكل الوسائل
فمن مبلغ الرومان أن عبيدهم غدوا سادة عزا كرام الشمائل
رعت دولةالاسلام بالعدل أرضهم فصار ابن مازيغ أخا لابن وائل

أما جسر قسنطينة فقد أخذ مشهده بمجامع قلب الشاعر فراح يعبر عما أحدثه في نفسه بقوله :

ولرب جسر أحكمته بناته وافتن فيه مهندسوه فهالا
شقوا له الصخر الاصم وأوثقوا في الجانبين من العديد حبالا
فهواؤه كالبحر وهو بعرضه كسفينة أرست عليه رحالا

لـم ادر حين رأيتـه متنائيـا أيقـل ناسـا أم يقـل نمـالا

وهذه النماذج كلها تعطينا صورة واضحة عن شعر العيد الذاتي فانه اصدق الوان شعره ، الا أنه قليل الحظ من عمق الخيال اذ الخيال الشعري منشأ الاحساس الدقيق والشعور الحاد ، والعيد في كثير من الاحيان يظهر لنا « كالمصور الضوئي يلتقط المنظور والمحسوس دون ان يتعمق الى ما في الصورة من ابعاد » كما قال أبو القاسم سعدالله • ولكن هذا لا يحط من منزلة شعره الفنية فان تعابيره عذبة شيقة ووصفه دقيق جذاب •

اقصي الجزائري عن وطنه وامتهن في أعز مقدساته وجرد من كل شيء الا من ايمانه وإبائه ، فلم يستطع الاستعمار أن يأتي عليهما • وقد تخلى الزعماء السياسيون عن الاهداف الوطنية وتركوا الشعب يقاسي أنواع المحن • فلم ينفعه ، لمسح العار واسترجاع كيانه وكرامته ، الا اللجوء الى المقاومة المسلحة • وشعورا لشعب قبيل الثورة نلمسه في قصيدة للعيد نقتطف منها هذه الابيات :

يـا فـؤادا بـه احتـرق لاعـج الهـم فـاحتـرق
مـا عسـى ينفـع الاسـى أمـة شملهـا افتـرق
من الحيـران فـي الـدجـى مسـه الضـر والارق
يخبـط الليـل ساريـا متعبـا عمـه العـرق
كلمـا شـام بـارقـا خـالـه بالمنـى بـرق
ويحـه ضـاع كـل مـا فـي الـوغـى مـن دم هـرق

فاندلعت الثورة المباركة ليلة أول تشرين الثاني ، ليلة القدر الكبرى كما سماها مفدي زكريا • فكان لكل رجل ولكل امرأة ولكل ولد حظه من الجهاد ، ومن البديهي أن يتحدث شعراؤنا عن هذه الليلة المشهودة المنذرة بزوال الاستعمار على الدوام • فها هو مفدي زكريا يتحدث عنها قائلا :

دعـا التاريـخ ليلـك فاستجابا (نوفمبر) هل وفيت لنا النصابا ؟
وهـل سمع المجيب نداء شعـب فكانـت ليلـة القدر الجوابـا ؟
تبارك ليلـك الميمـون نجمـا وجـل جلاله هتـك الحجابـا
زكت وثباته عن الـف شهـر قضاها الشعـب يلتحـق السرابا
تجلـى ضاحـك القسمات تحكي كـواكبـه قنـابلـه لهـابـا
بناشئـة هناك أشـد وطـأ وأقـوم منطقـا وأحـد نـابا
مضـت كالشهب وانحدرت شظايا تلهـب في دجنتهـا التهـابـا
مـلائك بالفـواتـك نـازلات باذن الله ، أرسلهـا خطابـا
وهزت « ثورة التحرير » شعبـا فهـب الشعـب ينصب انصبـابا
تنـزل روحهـا من كل امـر بـأحـرار الجزائر قـد أهـابـا
وبـرزت الكواعـب قاصـرات فرحـن يخضـن للموت العبابـا
ولعلع من (شلعلـع) ذو بيـان فأنطـق فوق (جـرجرة) الجعابا
وشبت من ذرى (وهران) نـار رآها (برج مدين) (١) فاستجابـا
وقال الله : كن يا شعب حربـا على من ظـل لا يرعـى جنابـا !
وقال الشعب : كن يا رب عـونـا علـى من بات لا يخشى عقـابا !
فكان وكـان من شعـب ورب قـرار أحدث العجب العجابـا !
جهـاد دوخ الدنيـا وألقـى (هنالك) (٢) في سياستها اضطرابا
وزلـزل من صياصيها فرنسـا وأوقـع في حكـومتهـا انقلابا
وحـرب للكـرامـة في بـلاد مضت تفتـك عـزتها غـلابـا
وأوقـدت الرصاص ينوب عنهـا يناقـش غاصـب الحق الحسابـا
فايقظـت القنابـل من تعـامـى وأسدل فـوق ناظره نقـابـا

ثم استطرد الكلام على الصحراء وقد أتيناك به في بابه وبعده قال :

وقالوا : في الجزائر سوف يلقـى أجـانبهـا اذا انتصرت تبابـا
هم كذبـوا ومـا لهـم دليـل وكـان حديثهم أبـدا كذابـا
ونحـن العادلـون اذا حلمنـا سلـوا التاريـخ عنـا والكتـابا

---

١ ـ برج مدين : كناية عن تلمسان .
٢ ـ هنالـك : اي الامم المتحدة .

ونحـن الصـادقـون اذا نطقنا ألفنـا الصدق طبعـا لا اكتسابا!
وعن أجدادنـا الاشراق انـا ورثنـا النبل والشرف اللبابـا
كـراما للضيوف اذا استقامـوا بسطنـا في وجوهـهم الرحابـا
ونحترم الكنيسـة في (حمـانا) ونحترم الصوامـع والقبـابـا
وكـان محمـد نسبـا لعيسـى وكـان الحـق بينهما انتسابـا
وموسى كـان يأمـن بالتـآخي وحذر قومـه مكـرا وعـابـا
فقـل للنازلين بهـا : أقيمـوا كراما واعلمـوا تجـدوا الثوابـا
وقـل للمـاكريـن بها : استريحوا فمـن يمكـر بهـا يلق الخـرابا
وللجنـد المعطر : عد سـريعـا وعجـل عن معاقلنـا انسحابـا
وللجيـش المظفر : صل وحقـق أمـانـي الشعب قهـرا واغتصابا
وللعلم المنـور لـح رفيعـا وداعب في السموات السحابـا !
وللشـرق المـؤزر : دم نصيـرا ورافـع عن قضيتنا مهـابـا
وقل للمجلس الدولـي : انـا نريد لديـك (حكما) لا عتـابـا
فمـا جـرت الدمـاء على(اطار) ولم نقصـد بثورتنـا انتخـابا
وما جهلـت قضيتنا البرايـا وان دارى (ممـولهـا) وحـابى
وانـا أمـة وسـط نصافـي مودتنـا الالـى قالوا صـوابـا
وانـا أمـة للمجـد قامـت علـى الاشـلاء وامتلأت شبابـا
وعـن أصلابنـا قدمـا ورثنـا دمـا حـرا وأضلاعـا صلابـا
نزلنـا من معاقلنـا صقـورا وصلنـا في الوغى أسـدا غضابا
وفي استقلالنا متنا كـرامـا وبلغنـا الرسالـة من تغـابـى
وقلبنـا مـن التاريـخ وجهـا وجـددنا لهيكلـه اهـابـا
وجئنـا بالخـوارق معجـزات فلـم تترك لناكرنـا ارتيابـا
وخضناهـا (ثلاث سنين) دأبـا فأصبحنـا من التحرير قـابـا
فلا نـرضـى مساومة وغبنـا ولا نرضى لسلطتنـا اقتضابـا
ولن نرضـى شريكا فـي حمانـا ولو قسمت لنـا الدنيا منابا ..!

فقـد احسن الاخ زكريا في هذه القصيدة بل ابدع مبنى ومعنـى

لا فض فوه • وصالح الخرفي هو الاخر بايع هذا الشهر رمز الثـــورة والبطولة والاباء فيقــول ••

بايعت من بين الشهــور (نفمبرا) ورفعت منه لصوت شعبي منبــرا
شهر المواقف والبطولة قف بنـــا في مسمـــع الدنيا وسجل للورى
فــلأنت مطلع فجرنا وزنـــاد بـــر كان أثرت كمينـــه فتفجـــرا
دوت بمطلعــك الخصيب رصاصـــة فاهتزت (البيضاء) وانتشت الذرى
وانداح فجرك عن مصب من دم الاحرار فانتعش الجديب وأزهـــرا
خبأت معجزة ، تمخض ليلــك الدا جي بهـــا ، والارض في سنة الكرى
يــا وثبـــة الاحرار منـــا يا نفمبر لمـــا تـــزل علمـــا لقافلـــة السرى
قــدست فيــك النار تلتهم الدجى فتحيــل ظلمته لهيبـــا أحمـــرا
قدست فيـك الدمع ، جف بمقلـــة أغفــت لتكتحل الصباح المسفرا
قدست فيك الموت مفتخـــرا بمـــن يعلـــو المقاصل كي يتيه ويفخـــرا
والشيب خضب بالدماء فما احتفى بالعمر صـــوح نبتـــه أم ازهـــرا
والطفل يلفظ بالطـــوى أنفاســـه ثديـــاه خيطـــا بالرصاص وما درى
قدست فيك الشاهقات ثلوجهـــا وصخورها وأقمت منها المشعـــرا

والقصيدة لا زالت طويلة يتعرض فيها عن الثورة التي تجتاح العالم العربي وعن فلسطين ويتحدث عن الصحراء •

واصل الشعب كفاحه حتى النصر سجلـــه القوم بدمهم وسطـــره المجاهدون بارواحهم وخلده الشعراء بقصائدهم التي سنقدم لك نماذج منها فها هو البلبل الصداح ، مفدي زكريا يثير بأشعاره الشعور والمشاعر وهو سجيـــن بربروس

نطـــق الرصاص فما يباح كلام ! وجرى القصاص فما يتاح ملام !
وقضـــى الزمـــان فلا مرد لحكمه وجرى القضاء وتمـــت الاحكـــام
وسعت فرنسا للقيامـــة وانطوى يوم النشـــور وجفت الاقـــلام
والقابضون على البسيطة فافصحوا والكون باح ، وقـــالت الايام !

وتعلم المستعمرون شعـوبهـا أن التحكـم في الشعوب حـرام!
هم حرروا الميثاق هلا حـرروا أمما تسـام حقـارة وتضـام ؟
ما ان تقـام لمـا يسطـر حـرمة أو يعضـد القلم الرفيع حسـام
السيـف اصـدق لهجة من احرف كتبـت فكـان بيانهـا الابهـام
والنـار اصدق حجة فاكتب بهـا ما شئـت تصعق عندها الاحلام
ان الصحائـف للصفائح امرهـا والحبـر حرب والكلام كـلام
عز (المكاتب) في الحياة (كتائب) زحفـت كأن جنودها الاعلام (١)
خيـر المحافل في الزمان جحافل رفعت على وحداتها الاعـلام (٢)
لغـة القنابـل في البيان فصيحة وضعت لمـن في مسمعيه صمـام
و « لوافح » النيران خير (لوائح) رفعت لمن في نـاظريـه ركـام
وروائح البارود مسـك نوافـح سجـرت لمـن في منخريه زكـام
والحق والرشاش ان نطقا معـا عنـت الوجوه وخرت الاصنام !
ما للجزائر ترجف الدنيا لهـا ؟ والكون يعقـد حولهـا ويقـام ؟
ما للقيامـة في الجزائر أرعـدت ؟ فغـدا لها في الخافقين غمـام
لا تعجبـوا .. فالدهر سجل دورة ما للخطوب على الشعوب بدوام
والزرع أخرج في الجزائر شطـأه فمضى وهـب الى الحصاد كـرام
والشعب شق الى الخلود طريقـه فوق الجمـاجـم والخميس لهـام
وأثارها حربـا لاجـل بقـائـه قـربانهـا الارواح والانسـام
لا النـار ، التقتيل يثني عـزمـه لا السجن لا التنكيل لا الاعدام !
لا الذاريـات الماحقات هـواطـلا لا الشامخات تدكهـا (الالغـام)
لا القاصرات الغافلات كواعبـا ديسـت قـداستهـا وفض ختام
لا الحاملات بطـونها مبقـورة ذبحت أجنتهـا وفك حزام ...
لا والمراضع عوضـت أثداؤهـا بفم المسدس والرصاص فطـام
والام يهتـك عرضهـا وفحولهـا (حول الفضيحة) شاخصون قيـام

---

١ ـ الجبال .
٢ ـ الرايات .

يا للفظـاعـة من وحوش جـوع تسمـو على أخلاقها الانعـام !
وضعت فرنسـا في النذالة بدعـة لـم تروهـا الاعصار وهي ظلام
يا لعنـة الاجيال ! أنت شهـادة أن التمـدن للشـرور لثـام
والعدل زور والسلام خـرافـة لغـة تحلـل باسمهـا الآثـام
فلتكتب الاقلام سفر هنـاتكـم للعالميـن وتنطـق (الافـلام)
ولتشهـد الاكـوان أقدس ثورة للحـق حارت دونها الافهام .. !
يـا ثورة التحرير ، أنت رسـالة أزليـة اعجـازهـا الالهـام
لك في الجزائر حـرمة قدسيـة وبكـل قلب في الوجـود هيـام
الشعب انـت ضميره وصـوابه والجيش أنـت دمـاغه العـلام
ليس الجهـاد زعامـة وثنيـة ان الجهـاد شجاعة ونظـام (١)
ضاق الخناق على دعاة هزيمـة زلت بـهم في الثـورة الاقـدام
وتناثرت تلـك الهياكل وانطـوت وتهـاونت الانصاب والا ز لا م
ولقد بهرت العـالمين وطـأطـأت يـا ثورة التحريـر دونك ها م
وتقمصت فيـك الجزائر وانبرى شيخ يحارب في الوغـى وغـلام
يحدوهـم للنصر (مجلس ثورة) أركانـه صهرتهـم الآلام ... !
وحباهم طول الجهاد حصـافـة وزكت بهم في المحنـة (الاعوام)
وأنا لهـم صدق الضمير كرامـة وسمـا بهم في الطامحين مـرام
يا جبهـة التحرير أنت رجاؤنـا وعلى يديـك الى المصير زمام ..
شقـي طريق الخالدين ، وسطري بـدم الشهادة فالدمـاء قـوام
واستنطقي الاحداث عن أجدادنـا تشهد لنا في الخالدين عظـام
واستجوبي الافلاك عـن امجادنا تدحض كذابـا يدعيـه طغـام
زعمت فرنسا في المحافل ضلـة ملـك الجزائر .. والجنون غرام
كاللص يستـرق المتاع ويدعـي ملكا ... أيسمع للصوص كلام ؟
لا تعجبـوا فالقوم ضاع صوابهم يـا ناس ليس على المريض مـلام
من يسرق الاحرار في كبد السمـا يسرق شعوبا ، واللصوص لئـام

---

١ ـ اشارة الى الانهزاميين الذين كانت المكابرة تدفعهم لطعن الثورة من خلف .

يـا معشر المستعمرين تربصـوا ودعـوا المطامع • فالسحاب جهام
ان اتخمتكـم في القديم حبـوبنا وبطرتم •• فعلى الحبوب سـلام
أو اسكرتكـم بالمدام كرومنـا لم يبق في هذي الكروم مـدام
او أبشمتكـم في البطون زيـوتنا لـم يبـق فيها (للدخيل) ادام !
فكمـا نزلتـم راحلون •• وهكذا حق الزوال اذا يقـال (تمـام)!
فلتعلـم (الاقطاب) أنـا للفـدا ثرنـا •• وأن الانعتاق لـــزام
(الرهط) في ارض الجزائر خالص و (النفط) في ارض الجزائر خام !
ان تنكـر الحـق الصراح سياسة فيهـا توزع في الخفاء سهـام !
فلنـا على عبث السياسة ثـورة ولنـا لرد الطامعيـن سهـام !
صحـراؤنـا فـوارة بنضارهـا فيهـا منـازل عندنـا وخيـام
ارزاقنـا وقف علـى أبنـائنـا لم يعطها لسواهم القسـام
وحقوقنا اعترفوا بها ام أنكروا •• فطريقنـا لبلوغهـا الارغـام
وبلادنـا بيد (الكلاص) خلاصها هيهات يجدي (مجلس) وخصام(١)
وجهـادنا ما كـان قط (لندوة) بصوابهـا تتحكـم الارقـام
يـا أمـة العرب الكرام ، كـرامة لك في الجزائر حرمة وذمـام
في كـل أرض للعروبـة عندنـا رحم تشـابـك عندها الارحـام
ان صاح في ارض الجزائر صائـح لبتـه مصـر وادركته شـآم
في المغرب العربي عرق نـابـض يذكيه في (حرب الخـلاص) ضرام
عـز العروبة في حمى استقلالنـا أيطير (مقصوص الجناح) حمام ؟
هذي تحيـة شاعـر يسمـو به في دولـة الادب الرفيع نظـام
ورسالة « صاغ » الشهيد بيانهـا وزكـا بها في الخالديـن (عصام)
أسرى بها من (بربروس) خيـاله وهفـت بـه لحماكـم الاحـلام
غنـى بها في الليـل يعزف لحنهـا وقـع السلاسل •• والرفاق نيـام
والقلب بالانـات يقطـع بحرهـا دقـاتـه : الاوزان والانغـام

---

١ ـ الكلاص : كلمة فرنسية وهي الخزان الذي تنطلق منه القذيفة مـن البندقية .. والمجلس هو ندوة الامم المتحدة .

فعليك ، يا ارض الكرام تحيـــة وعليـك يــا أمــة السلام سلام

وهذا محمد العيد ينشر قصيدة بعنوان : « صوت جيش التحرير » نقدم لك منها مطلعها الذي يوحي الى شيء مهول بشيء تشتاق الى تعرفه فيقــول :

نحــن جيش التحرير جند النضال نحــن أســد الفدا نمور النزال
دمــدم الطبل للنفيــر فثرنـــا وهززنـــا البــلاد كالــزلــزال
واتخذنــا مــن الجبال قــلاعــا نقــرع السمع بالصدى كالجبال
فالاذاعات تنبيء النــاس عنـــا بانتصــاراتنــا بكــل مجـــال
كــم أقمنــا شواهد الحق فيهــا وضربنا شــــوارد الامثـــال
واقتحمنـــا الهيجــاء نــارا تلظى كل حـــال منا بها لا يبالــــي
وادرنــا رحــى الوغى فانتصرنــا وأذقنــا الاعــداء مــر النكــال
وقبــرنــا استعمارهــم وفككنــا شعبنــا من ســلاسل الاغــلال

وقــد تحدث عن المرأة التي أبهرت العالم بشجاعتها وتضحياتها . فقــال :

ساهمي في الجهاد جند الجهـــاد وأعــدي الفــدا لنصر البــلاد
يــا فتاة البلاد شعبــك نــادى فاستجيبـــي بعزمة للمنـــادي
جــد جد النساء وانطلــق الــركب مع الركــب للمــدى باتحـــاد
وامتــدار الزمــان فالسعي للجنسيـــن حتم عليهما والتفـــادي
كيف يرضى الجمود من كان حيــا ليس يرضى الجمود غيـــر الجماد
انمــا الامهــات دولاب مـــرا ن ودوحات عصمــة واستنـــاد
هــن أنس البيــوت والاهــل تدبيــرا وانـــس الازواج والاولاد
نحن عون الرجال في كــل حـــال اي سعد لــم يستفد من سعـــاد
ويميــن لهم تستعــن بشمـــال وســراج لم يستضــيء بوقــاد
فلنثر ثورة على الظلــم كبــرى ولنحطــم ســلاسل الاقيـــاد
ولنقــم من رقــادنــا فهو عــار هل يفيــد الرقــاد غير الكســاد

ولنصح صيحة اللبؤات في الغا ب لنحظى بحرمة الآساد
و (الجميلات) ذكريات اصطبار وانتصار على الخطوب الشداد
قد سبقن الرجال في البأس صبرا وتحملن فتنة الاضداد
وأثرن الابطال للثأر منهم فاستباحوا زروعهم بالحصاد
صهرتنا الخطوب حتى ظهرنا بالبطولات في كفاح الاعادي
كم غدونا الى جريح طريح فأسونا جراحه بالضماد
وحنونا على شهيد مجيد خط تاريخه بأزكى مداد
واتخذنا من الرصاص عقودا وانتطقنا به على الأكباد
واعتقلنا رشاشنا ساهرات شاهرات له على استعداد
وقد حنا زنادنا فقهرنا وبهرنا العدا بقدح الزناد
فاذا جنسنا اللطيف عنيف وشريف في ساحة الامجاد
أنا ثورية سلاما وحربا فكرتي عدتي وعلمي زادي !
وعفا في درعي وصبري دفاعي وصلاحي حصني وديني عمادي !
أنا بنت الجزائر اليوم أقضي حق أمي لخدمتي واجتهادي
قد غذتني بدرها مذ نمتني ورعتني ببرها المزداد
وابتغت نجدتي فما قمت الا بقليل من واجب الانجاد
كيف أنسى قومي وموطن قومي كيف أنسى عروبتي اوضادي
كيف انسى ربي وقرآن ربي ونبيي وملتي واعتقادي
كيف انسى ابي وامي واهلي اهل بري وحرمتي و و د ادي
كيف انسى شعبي وتاريخ شعبي وابن شعبي وماله من ايادي
كيف انسى مجد الجزائر قدما كيف انسى سائر الاجداد
لست انسى مفاخري فاطمئني وثقي بي في ثورتي يا بلادي

وتحدث محمد الهادي السنوسي عن الثائر فقال :

دفعته للاجام نفس عصام تأبى على الاحرار عيش الذام
عاف الحياة على الهوان فثار في عزم عليه يذود بالصمصام
يا ثائرا لبي اذ دعت للذب عن وطن نماه مضام

اعرضت عن دنيا زخارف جمعة ورميت للهدف الرفيع السامي
وشبابك الغض النضير منازع يدعوك نحو الغيد للالمام
ولرب باكية وراءك اسفرت عن وجنة كالورد في الأكمام
تدعوك ، يا املي الي ، فلم تدر جيدا لفاتنة من الآ ر ا م
وتركتها تحسو الاسى في صبية زغت الحواصل صرن كالايتام
وذهبت كالاسد الغضوب موليا وجها لصحب من كفاح دام
وصرخت في وجه الخليلة قائلا : الموت اولى بي من استسلامي
لا الام تثنيني وحسبك أنها أم ولا الاب أو ذوو الارحام
ما صبيتي ؟ ما عزتي ؟ ان لم اذد عنهم بخافق مهجتي وحسامي
والغيد والذهب المنير وكل ما حوت الدنا وهم من الاوهام
أربي الجزائر أفتدي استقلالها فاذا استقلت فالنعيم أمامي
اذ ذاك أذهب في الجزائر مطلقا في مظهر الاعظام والاكرام
لا في الدنية والصغار مسخرا للظالمين بمقود وزمام

ونجتزي بهذا النموذج من هذه القصيدة الطويلة التي يصور فيها الشاعر مواقف الثائر في الجبال والسهول والوديان وفي الليل وفي النهار ليسترجع كيانه ويعيش سعيدا شريفا في حضن وطنه الحر المستقل •

والحفناوي (١) هو الآخر نشر قصيدة عن الثائر وأشاد ببطولته • اليك شيئا منها :

طوف السهل والجبل واعتلى مشرف القلل
وأتى المدن والقرى فابتلاها وما وجل
والعدا تنشر الردى والسما تبعث الاجل
وهو كالنسر فوقها لا يبالي بما حصل
انما الموت خطوة عنده في مدى الامل

---

١ ـ الحفناوي هالي : من مواليد (قمار) بوادي سويف .

هــو جــن مقيــد كســر القيــد وانفتــل
بكل كبيـر مـن الصحـابـة قــد عــاد يقتتــل
بــل مــلاك مقــرب عـرفـت روحـه الرسـل
البطــولات ان بــدا لـم تعـد ذلـك المثـل

وها هو الان الثائر الشبوكي يتحدى الاحـداث صادحا ويلقـى الردى في صمود فقال الشاعر :

راح يستلهـم الحقـائـق في الكـون ويشدو وبكـل لحـن جديد
راح يسمـو الى المعالي بحـزم واصطبار يفـل عـزم الحديـد
فهـو يبغي الحيـاة حرا ويأبى ذلـة العيـش تحت عبء القيود
ثائـر يملأالـوجـود كفـاحـا وينـير الحيـاة بالتجديـد
صـادح يملأ الفضـاء لحونـا ويهـز الحيـاة بالتغـريـد
باسـم للزمـان لا يعرف اليـأ س ولا ينثني أمـام الـوعيـد
قلبـه خافق يؤججه الشعـر فيهفـو الـى جمـال الوجـود
عبقـري الخيال يستبـق الـرا دار في قنصـه لمعنـى وليـد
فيـه يجري دم العـروبة فـوا را وتحدو بـه خصال الجـدود
يتحـدى الاحـداث مهما ادلهمت ويلاقـي الردى بقلب صمـود
كـل شـيء أمـامـه ممكـن هيـن اذا كان وصلـة للخلـود
عزمات الشباب فيض من النـور وموج من الكفـاح الشديـد
انمـا تبتنـي الشعوب علـى أكتـافـه المجـد من زمـان بعيـد
أيهـا المغـرم المتيـم بالمجـد تقبـل تحيتـي ونشيـدي

وأضربت الجزائر اسبوعا كاملا وعم هذا الاضراب جميع مرافق الحياة نهبت اثناءه متاجر الجزائريين ، وتجرع الشعب من جراء ذلـك آلامـا من طرف العدو الغشوم • فقال في ذلك حسن حموتن :

حدث خليلـي عن مدى الاضراب وانقل صـداه الى ذوي الالباب
اضراب اسبوع وهل سمع الورى في العالميـن نظيـر ذا الاضراب

نقلته امواج الاثير الـى المـلا في الخافقيـن بمنتهى الاعجـاب
يـا يوم أصبحت المدائـن والقرى موقوفـة الاعمال والاسبـاب
فيه الجزائر أضربت عن شغلهـا الا علـى الهيجـاء والارهـاب
وبه الجزائر أثبتـت لفرنسـة أن الجهـاد على هـدى وصواب
وبه رأى « لا كوست » أن كفاحها ماض مضـي العـازم الغـلاب
فاتـى قيادتـه كليلا عـاجـزا حتى غـدا كالحائـر المرتـاب
يرغـي ويزبـد غاضبا متحرقـا فـي غيظـه كـالارقط الخباب
أدى يمينـا بالصليب ليجرفـن دور التجـارة منه سيل خـراب
فدعـا « بماسو » فاستجاب لامره ومضى يحرر جحفل الدبـاب
وعلى المتاجـر صب جام زعافـه وعلى ذويهـا صب سوط عذاب
تركـوا المتاجر خلفهم مفتوحـة منزوعـة الاقفـال والابـواب
بقيت مدى الاسبوع تنهب دائمـا بل ملتقـى السراق والنهـاب
وتجـرع الشعب التعيس خلالهـا من كـل مـر أو شديد عقـاب
في كـل وقـت تستباح ديارنـا دون اعتبـار مبـادىء الآ د ا ب
تجتاحهـا ليـلا خباث ذئـابـهم وتزورهـا صبحا شرار كـلاب
يا لو رأيت نسـاءنا وصغـارنـا اذ يوقفـون مشردي الالبـاب
يتجمـدون شواخصا أبصارهـم كـأنهـم قطع من الاخشـاب
فينالـهم شر الطغاة منـوعـا في لـذع سوط او غليظ سبـاب
تبقـى المنـازل للبغاة مراتعـا يقضون ما شاؤوا مـن الآراب
لا يخـرجـون سـوى اذا تـركوا البيوت عديمة الاموال والاحساب
ملأوا المحاشد بالرجال وافعمـوا كـل السجون على اتساع رحاب
تلـك المحاشد والسجون شواهد بجرائـم الجـلاد والقصـاب
كم من شهيد مات تحت سياطهم كـم من أسير مـات في سـرداب

واستمر الشاعر يسرد في قصيدته الطويلة الويلات التي صبهـا الاستعمار على الشعب الجزائري إثر هذا الحادث العظيم •

وقد عالج نفس الموضوع مصطفى بن رحمون في قصيدة يقول في مطلعها :

ان الجزائر أعلنت اضرابها ولسان ثورتها يبين جرابها

وفي شهر ايار ١٩٥٦ م أعلن الطلبة اضرابهم تضامنا وكفاحا مع جيش التحرير الوطني ، فسجل هذا الحادث صالح خباشه في قصيدة طويلة نجتزىء بذكر أبيات منها ، قال :

خض في الجزائر ثورة حمراء ودع المدارس والكتاب وراء
ثر غاضبا في وجه من سلب البلا د حقوقها وأضامها وأساء
ثر للتحرر والاخوة والمسا واة التي رفعوا لهن لواء
وتبجحوا في العالمين بصنعهم ثم انثنوا لشعارهم أعداء
ثر لا تخف شيئا فان الله قد وعد المجاهد رفعة وعلاء
يحيا الذين يجاهدون مكرمين وان فنوا فلقد فنوا شهداء
ثر لا تخف لا لا يخاف الثائرو ن لحقهم سل تكسب الانباء
والحر مثل التبر ليس تزيده النيرا ن الا رونقا وصفاء
والمجد كالبنيان أرسى أسه فوق الذين تمزقوا اشلاء
ماذا عسى تغني الشهادة والجزا ئر تستغيث تعاسة وشقاء
ماذا عسى تغني اذا ذهبت جهود بلادنا لا كان ذاك هباء
ليس الشهادة صفحة نحظى بها ان الشهادة موتنا شهداء
ان الشهادة في سبيل بلادنا بجبالها تتصيد الاعداء
لا صرخة تحت السقوف تشجعا أو عبرتان تأسفا وبكاء
لتكن مدارسك الجبال فدرسها أجدى وأرسخ في الحياة بقاء
ليس البلاغة أن تشقشق هاذرا كلا ولا أن تحسن الالقاء
فالبس لسلمك لبسه والبس لحر بك درعه فتحير البلغاء
ما الطب في الوقت العصيب سوى علاج الشعب مما ضره وأساء
ما الصيدلية بعد هذا بيع أقراص تدر دراهما وغناء
لكنها بيع الرصاص فانه يشفي الصدور ويحسم الادواء

ما للبلاد اذا أضر بها الدخيـــل   سوى دم الشهـداء منى ودواء

وهذا أبو اليقظان ينوه ببطولة وتضحية المجاهدين ، نسل الفاتحين العرب • فيقـول :

أهلا بنسل الفاتحين ومرحبـــا   أنعشتـم عهـدا لنا فاعشوشبـا
بجهادكم أحييتم ذكرى لهـــم   فنزلتـم أعلى المراتب منصبـا
لـولا بطولتكـم لمـا انقذتـم   قطـر الجزائر شرقـه والمغربـا
لولا بطولتكـم لمـا قلمتـــم   للبـوة الكبرى الشروس المخلبا
لولا ضحاياكـم لمـا استخلصتـم   بالعنف منها للجـزائر مطلبـــا
لو لـم يكن صبر على الالام مـا   نلتـم لـه منهـا سريعـا مأربـا
قابلتـم عنفـا بعنـف مثلـه   حتى ارتوت بدمائكم تلك الربى
حسبـوا عراينكم جحورا للضبـا   ب وللـذئـاب وللظبـــا
لكنهموجدوا مغاور للنمور وللاسو   د وليـس تـأوي الارنبـــا
صححتم لهم الحساب وهم دكـا   ترة الحسـاب فكان منكم اصوبا
انتم اساتـذة لهم في فنهـــم   في يومنـا هذا فيا ما أعجبـا !

وقد سنت فرنسا قانونا تبيد به الشعب الجزائري ، هو قـانـون « المشبوه » فعندما تريد أن تلقي القبض على أحد توجه اليه تهمة المشبوه لتلقيه في غياهب السجون او تقتله بعد تعذيبه • وقصيدة **الباتني** تسجل هذا الحادث وتعطينا صورة صادقـة لما كان يتعرض له شعبنا منذ أول الثورة الى اخرها • يقول الباتني :

ومضـوا لما في البيت فانتهبـوه   قالـوا خـذوه فانـه مشبـوه
مـا نـاله بالكدح قـد سلبـوه   واذا تـأبـى للـردى وهبـوه
لـــن يرحمـوه فـانه مشبوه

سألوا « بذل اليتـم » أمـا لمـا   سـاروا به يـا أم مشدود الوثاق
قـالت وعين القلب تبكي دمـــا   ومضـرج الخدين صوحه الفراق
قـالت بنـي ابوكم مشبـــوه

ربـاه لطفك .. ليس فينا مجـرم والقوم شنوها علـى البـراء
حربـا عوانـا ، نارها تتضـرم من وقعهـا انـا لفـي بأسـاء
ربـاه لطفك ... كلنـا مشبوه

جمع الشاعر حشودا كثيرة من الصور والتعابير البسيطـة وكسـا معانيه نغمة جياشة بحيث ان قصيدته تبعث في قلوبنا عطفا على هـذا الشعب التعس المظلوم . ونلاحظ في القصيدة تجديدا في الصياغة .

وفي شعر هذه الآونة نلاحظ جدة في المضمون . فان أبا القاسـم سعد الله يتحدث عن حياة الفلاح وعن كده وحرمانه في وطنه . نحـس في شعره بشقاء الفلاح وانينه وتشاؤمه كما نحـس بذلـك في شعـر « الرومانتيكيين » الا انه في آخر القطعة داخله الامل وكيف لا وهدف الثورة هو تحرير الجزائري فلاحا كان او غيره ، من الفقـر والجهـل والعبودية . فالارض سترجع عاجلا او آجلا الى أصحابها وسيصبح الشعب سعيـدا في ارض آبائه واجداده . ونشاهد جدة كذلك في الصياغة . فسعدالله الذي التزم طويلا بحور الخليل وأوزانه أحس بضيق فيهـا فمال الى الشعر الحر الرمزي ، فأكسب شعره اشعاعا وحسا وحركة . فيقول الفلاح على لسان سعدالله :

حتـام افتـرش الحصيـر ؟
وأسـاكـن الكـوخ الحقيـر ،
وأسـاهـر الحرمان والالم المرير ،
وتلـوك جنبـي الخشـونـة ،
ويحيطنـي قبـو العفونـة ؟
لا غـاية تدنو ... ولا أمل طليق
دنيا من الحرمان والدم والشهيق
فـالامـس لـوح أسـود
واليـوم مـوج يصخـب
وغـدي طـريـق مبهـم

وانهـــا • • • •
أبـدا هنا • • • •
يـــا مالكيـــن • • •
انـــا هنـــا • • •
نحـن العبيد • • •
شبحـا وأعصـــارا مبيـــد
لا شـــي يمنـــع سيلنـــا
ان قعقعـــت في افقكـــم
عـزمـاتنـا وصـراخنا • • •
في ارضنا الملأى بجنات الحصيد
سنعيـش احـرارا وصيـــد
في أرضنـا البكـر الـولـود

ومن هذا الشعر الحر نرى الشيء الكثير في هذا العصر • فالشاعر « عبد السلام حبيب » أخذ بتلابيبه • فقد اهتز لبطولة محمد بن الصادق الذي قتل الخائن « علي شكال » • اغتال هذا الفدائي ذلك الخـائن في قلب باريس وهو بجوار رئيس الجمهورية الفرنسية « كوتي » • لقـد فاض سرور عبد السلام حبيب لهذا الحادث فصاح قائلا :

خذهـا ، ودمدم مـن مسدسـه رصاص
خـذهـا فقـد حـان القصـاص
الويـل لك ، يا خائن الشعـب الجريـح ،
لن أستريـح ••• حتـى تمـوت
سأقتلك باسم الوطن باسم الجراح الراعفة
باسـم الجزائر والنضال خذها رصاصة ثائر

والقصيدة لا زالت طويلة كأنك بها ملحمة تعد من الشعر الثوري الحر .
فانظر كيف أن الثورة داخلت حياة الجزائري في جميع مناحيها • نجد لها

صدى في حركاته وسكناتهوادبه يتأثر بجميع ما يحدث في بلاده وما يلم بمواطنيـــه •

اختارت فرنسا ارض الجزائر لتفجـر قنبلتها الذرية غير مبالية بما قد يحدث من خطر على حياة الجزائريين والافارقة • فقام الشعب وقعـد لهذا الحادث العظيم وقد انفعل الشعراء لذلك وراحوا يندبون حـال الجزائريين ويندون بفرنسا التي تريد ان تبيد الانســان الافريقـي • فيجعلنا صالح الخرفي نتأثر لحديث أم تناجي ولدها الذي يمثل جيـلا سيستقبل الحياة مشوها مريضا ، وتدعوه الى الثورة ضد المعتدي الذي يعبث بالقيم الانسانية • فيقـول :

ولدي ان سطـت عليـك الرزايا واشارت لك السما بالمنايـــا
وسـرى فوقنـا غبـار مبيـــد فترامت صرعـى ألوف الضحايـا
ولدي ، فانتفض معي ومع الآلاف في ثـورة تطيـر شظـايـــا
تنسف العابثيـن بالبشـر الآمن والخانقيـــن روح البـرايـا
ضاع عمري اذ افتقـــدت عزيزي فيـك سفـر المنى وسحر العيون
واذا رمت أن تبـوح بســـر خانك النطق فاحتمي بالسكـــون
فطويت الاحـزان في كفـن الصمت واطرقـت مصغيـا للشجـــون
ثـم أطلقـت للاســى لغــة الدمـع وأسلمـت أمـره للجفـــون
يا عزيزي ، لن يبصروا النـور والاشعـاع يومـا ، ومقلتـاك ظـلام
لن يسيروا خطى وأنت كسيـــح ثكلت خطوة الامـور الجسـام
سهدوا طرفـــك البريء بأشبـــا ح الرزايـا • أنى لهم ان يناموا ؟
ما لهم فـي الحياة راحة قلـــب وبهم في الحياة يشقى الانـــام
غربت شمس عزهم فاستباحـــوا وطنـا شمس عـزه لا تغيـــب
وجـزاء الجهـود قنبلـة التخـريب مـن هـولها تميـد القلـوب
فشلت في الجبـال قنبـلة البطش فرمـــوا تفجيـرها في الصحاري
ذرة الرمـل صخـــرة الجبل ، ســيان في الوفـــاء للدمـــار

ان تكـن قسـوة الجبال جليـدا ان بطش القفـار لفحـة نـار
من يتـه في مجاهل الاطلـس الوعـر ، فصـحراؤه بغيـر قـرار

نلاحظ أن الشاعر لم يلتزم قافية واحدة في قصيدته ، فكل فقرة منها لها قافيتها ، وهذا يعـد تجديدا في الاسلـوب .

أما « زكريا » فيرى ولدا أعمى مقعدا أخرس ولم يفكر طويلا ليجد حقيقة أمره . ففسـر نساجي التي سقته السم قبل ان يخرج الى الوجود وشوهت خلقته بتفجيرها القنبلة الذرية في وطنه . فلا مرية في أن فرنسـا ستطرد من هذا الوطن وستكون عرضة لخزي الانسانية وسخطها . يقول زكـريا :

ما دهاه .. ؟ ويل أمه .. ما دهاه ؟ ويلـتاه مـن جيلـه ويلتـاه !
ما له في الحياة ، يـولد أعمـى لـم تـر الكون باسمـا مقلتاه ؟
مـا له مقعـدا ، يـدحرج رجليـه ؟ ... وماذا جنى فشلت يداه ؟
ما لـه لـم تزل تهدهـــده الأ م ولـم تستمع لهـا أذنـــاه ؟
مـا له أخرسـا تناجيـه في المهـد ولـم تبتسـم لها شفتــاه ؟
ولمـاذا لم يبـك ، بيـن ذراعيهـا دلالا ، ولـم يقـل أمـاه ؟
ألهذا الوجود جـاء وحيـدا ؟ أم لـه في زمـانـه أشبـاه ؟
ويلتـاه مـن جيلـه ويلتـاه !

قذفته الـى الحيـاة يـد المو ت ، فلم يقض في الحيـاة ربيعـا
وسقته السموم في عالـم الغيب فرنسا ... فجـاء شكلا مريعـا
ابـن افريقيا الشهيد ، وقـد خـر على مذبح الطغـاة صريعـا
تخـذت منه (للتجارب) قـربـا نـا ، فرنسـا ، فحطمته رضيعـا
شـوهـت خلقـه جريمتهـا الكبرى وجـرتـه للخـراب سريعا
ليته ظل في الفضـاء بخـارا ! ليتـه دام كالشعـاع رفيعـا !
ليتـه ظـل في السمـاء منيعـا !
شبح كالخيال ، لـم يـك بالحي فيرجى ... ولم يمت فيـوارى

عاش حيران ، في عذاب وبـؤس بين قوم معذبيـن حيـــارى
ظل يسعـى الى الفناء رويــدا يائسـا لا يغـالـب الاقـدارا
طحـــن الـداء جسمه وأحـال السقـم ذراتـه هباء ، فطـــارا
نبتـت مـن فطـامه لعنـــات كالصواريخ نقمـــة وانفجـارا
نـازلات علـى طغـاة فرنســا لم تـزل كالجحيم تقذف نـارا
لقنتهـــا عواقب البغي ســـرا بـث فيها عـدل السماء قـرارا
حملتهـــا العصـور خزيـا وعـــارا

شعـب افـريقيـا أحـاط بـه المكـر فأمسى للمجرمين ضحيـة
ورمتـه عبر القـرون فرنســا طعمـة للقنـابـل الذريـــة
وسرى الموت فيه ، جيـلا فجيـلا يـوم هزت شعوبـه الحيويـة
شعـب افريقيـــا ستنصفك الـدنيـا وتصغي لك الشعوب الابية
وسيحكي هذا الزمـان ويـروي للبرايـا فضائح المـدنيـــة
فخذ الثأر من فرنسـا وخلـــد في الضحايا تلك النفوس الزكيـة
وانفجر صارخا .. وقل يا فرنسـا انت في الارض .. هفوة ازليـة
يـا فرنسـا ... يا لعنـــة البشريــة !

فالقصيدة رائعة ، عرف صاحبها كيف يعبر عن آلام الانسانية في نغمة حزينه متألمة بالفاظ سهلة مختارة شيقة تتخللها موسيقى تتـــلاءم والمعنـــى .

رزح الشعب تحت سيطرة الاجنبي طويلا وذاق ألوانا من الالام . فاصبحت نفس الجزائري متألمة منكمشة ، فلا يلتفت الى عواطفه وصبواته وكيف يتاح له ان يعشق وان يصرح بذلك وأخوه أمامه يتألم . فالمروءة تقضي بأن يبتعد عـن ذكر الحبيبة وعن التشبيب بها ، فما دامت الامـة رازحة تحت الفقر والجهل والعبودية لا يمكن له أن يتذوق الحيـاة . لا يهمه الا ما يؤدي به الى تحطيم السلاسل التي قيده بها الاجنبي . فهـو متيم بالحريـة والمجد ، لا يلوي عنهما البتة ، وهمه الاول هـو الامـور السياسية الوطنية والاجتماعية . ومن ثم قل التحدث عن الحب وخـــلا

الشعر من الغزل أو كاد • الا أن هناك شبانا لم يطيقوا أن يعايشوا هذه الجدية التي عمت حياة الجزائري • فعدوا ذلك حصارا لشاعريتهم التي تريد أن تعيش في الجو الحر الفسيح الرحب • فراحوا يتحدثون عن الحب ولكنهم ربطوا حبهم بالحرب والثورة وربطوا عواطفهم بعواطف الشعب حتى لا يصبحوا من المارقين في عينه وبالتالي عرضة لسخطه فممن مال الى الغزل الشاعر سعدالله • ويبدو في شعره الذي قاله في اول حياته متاثـرا بالقديـم ولكنه ما عتـم أن تطور شعره • فأعرض عن قافية الخليـل واوزانه • فها هو يتحدث على لسان ثائر ترك محبوبته ليلتحق بالجبال يكافـح مـع اخـوانه فيقول :

أوراس والدمـاء والعـرق
وصفحـة السمـاء والغسـق
والافـق المحموم راعـف حنق
كـأنـه وجـودي القلـق
قـد ظمئـت عيونه الى الفلق
وسـال من أطرافه دم الشفـق
ونجمـه مـن الشمـال تحترق
كقلبـي الـذي يـدق
بذكـــرك العبـــق

حبيبتي
والأطلس الانـوف والبطـاح
محمـرة الخـدود بالجـراح
وغـابة البلـوط كالاشبـاح
تـرقصهـا عواصـف الريـاح
ثـائـرة مهتاجـة الكفا ح
والنهـر والغيـوم والسمر
والضفـة الخرساء والصخر

منتشـر ••• وزائـــر القمر
يطـــل فــي حـــذر
مــن كــوة مطمــوسة البصر
وصــوتــك الحــلو النغــم
فــي مسمعــي كرعشة الحلــم
كخفقــة الصبــاح المنتظــر
وحبنـــــا النضـــر

حبيبتي

وهــذي الجمــوع الــزاحفة
بعــزيمـــة كالعــاصفـــة
خفـــاقـــة البنــــود
الـــى الغـــد المنشـــود

فالشعر مليء بالصور الجديدة والخيال يسبح في فضاء شاسع • لا تقليـــد ولا تكلف ولا اعتماد على الاوصاف المادية ولا تذلل للحبيبة • فالجدة تعم الشعر أسلوبا ومضمــونــا •

ونذكر لك قصيدة أخرى تصور حياة حبيبين قد نعما بالحب وفرقت بينهما الحرب • وهذه القصيدة لصالح الخرفي • فها هي الحبيبة تتلهف على حبيبها وتعرب له عن حبها ووفائهــا وأملها باللقاء به مع النصـــر القريــب • فانصت اليهــا :

يــا حبيبي ذكريات الامس لم تبرح خيالــي
كيف تغفو مقلتي عــن حبنا عبــر الليــالي
لا تلمني ان ترامــت بــي امــواج البعــاد
لا تلمني ، لم يــزل يخفق للحــب فؤ ا د ي
غيــر أن القلب هزته نــداءات شجيـــة
صعــدتها في دجــى الليل قلــوب عربيــة

وتـراءت لي وراء الصوت أعلام البشائر
فوهبـت الحب قربانا وبـايعت الجـزائر
يـا حبيبي ربعنـا بالامس ربع الذكريات
انـه مأوى ذئـاب كدرت صفـو الحيـاة
كـان عشـا للتناجـي كان انسا ونعيمـا
ثم أمسي للرؤي الغضـــة نـارا وجحيما
يـا حبيبي كم فرشنا الربع وردا وزهورا
كم بنينا من هوانـــا لأمانينـــا قصورا
فتعـالت صرخة الرعب بأشباح المنـايـا
فاستحـال الورد شوكا ودمـاء وضحايـا
يـا حبيبي لم أخـن عهدي ولا خنت هوايا
غيـر أن الحب امسى ثورة بيـن الحنايـا
لـك حبي في ذرى الاطلس في تلك الروابي
فهنـاك الافـق الرحب لاحلام الشبـاب
لـك حبي يوم تعلـو بسمة النصر ثرانـا
ويذيب الليـل والآلام بحر مـــن دمانـا
سـوف ألقـاك مع النصر وأفراح البشائر
سوف نبني عشنا في ظل تحريـر الجـزائر

فالثورة اهابت بالشعراء الى عالم جديد وحررت أفكارهم وتعابيرهم من قيد الجمود فاصبحنا نلمس في شعرهم مثل هذه الالتفاتات الانسانية، هذه الخفقات الحلوى الجذابـة •

ورجع الشاعر الى نفسه يتفحصها ويبحث عن ماهيتها • فاذا هـو لا شيء بل هو شيء حائر وحياته التي مضت لم تكـن الا قشـورا •

فقـال محمـد الاخضر السائحي :

أنـا لا شـيء ••• وجـود فـارغ كالليـل مظلـم

أنـــا لفـــظ دون معنـــى في نشيـد لـم ينغـــم
أنـــا فكـر لـم يحــــدد وكـــلام لـــم ينظـــم
كـان وهمـا تطلعي وانتظـاري ووقوفي على طريـــق الحيـــاة
كنت في الليل لا أرى غير وهـم جثمتـه في حيرتـي نظراتـــي
كنت كالطـائر الشجـي يغنـي ضائـع اللحـن والصدى والشكاة
أنا شـــيء نســـي الحـــا سـب في التقسيـم نصفـــه
فهـــو في الارض غـــريـــب ضائـع يـرقـــب حتفـــه
أنـــا شـيء حائر كالوهـــم لا أعــــرف وصفـــــه
فحيـاتـي التي مضت لم تكـن الا قشورا رميتهـا في الظـــلام
لـم تكـن لي مدامعي وشجوني وســروري الذي مضى وابتسامي
ضحكاتـي وأدمعي كلهـا خـر سـاء مسلوبة مـن الانغـــام
أنــا أحببـت ولكن لـم أنل في الحـــب « حبـــه »
وعرفـت الصــدق لكـــن قد وجـــدت الصدق كذبـــه
كنـت انســانـا ولكـــن ضـاع مني منـذ حقبـــه

ويقول السائحي في عيد ميلاده مخاطبا نفسه :

أي عيـــد عيـــد ميـــلادك يـــا فخـــر حيـــاتـــي ؟
هـدهـدت قلبـــي ذكـــراه بحــــلو النغمــــــات
وســـرت ومضـــا حبيبـــا ساطعـــا فـــي ظلمـاتـــي
همســـــت في مسمعـــــي أعـــذب أنغـــام الحيـــاة
كيـف يمضـي عمـري لو لـم تهلـــي فـــي وجـــو د ي ؟
كيـف يعشـو شـب دربـي ؟ كيـــف تفتـــر ور و د ي ؟
وفـؤادي كيـــف يصحـــو بعـــد أن طـــال هجـودي ؟
كـــان كالصخـرة تنـداح فتمضـــي فـــي جمـــود
انـه عيـــدي أنــــا ... عيـــد صفـــائـي وســلامـــي
لمحـت عينـاي فيـه النـــو ر مـــن بعـــد الظـــلا م
أنـــا لـــولاه لمـــا رقـت شفـاهـــي بـــابتســــام

أو تغنيـــت بشعـــــر أو تطلعـــت أمــامـــــي

وشعــر هذا الشاعر مرآة صافية تتجلى فيه عواطفه نحو أســرته يحب ابنته لاعبة لاهية غارقة في السرور مبتسمة ، ينسى بقربها همومه وأتعــابــه فيقــول :

أحبـــك لاعبـــة لاهيـــة وغاضبـة كنـت أو راضيـه
فأنــت وسنــك في الثــانيـــة كـأبــراج منشــدة شــاديـه
تبـــدد سحـب الاســـى والضجــر
أحبـــك غارقــة في الســرور وعــابثـــة بجميــع الامـــور
وهــازئــة بحيــاة الغــرور فلســــت تباليــــن اي شرور
ولا أي عـــــاقبـــة تنتظـــــر

أحبـك بـاحثـة باهتمـــــام كـأنـك بيـن أمـور جسـام
وراضيــة قــد علاك ابتســـام وصارخـة لم تطيقـي الكـلام
ولكن عرفت كـلام البصر
احبـــك تبتسميـن الــــي وضارعـة تلثميـــن يـــدي
واذ تجلسيـــن علـى ركبتــي واذ تثبيـــن الـــى كتفـــي
أحبـك فـــي كـــل تلـــك الصـور

أحبـك اذ ترفضين الطلـــب واذ تعلنيـــن ابتداء الغضـب
وهائمــة بين تلــك اللعـــب وعنــد الصياح وعند الصخـب
وحيــــن الصفـــاء وحيــن الكــدر
ويعجبنـــي منــك عــي اللسان وذاك التفنـــن في الهذيــــان
وحيــن ترومـيــن بعث الحنــان فتبتــدئيــن البكـا كـالاغاني
وتمضيـــــن ســابحـــة في الفكـــر
يزول بمــرآك عني اكتئــابــي وأنســى به كـل يـوم مصابي
كأنني في عنفـــوان الشبـــاب وعهــد الهــوى وزمان التصابي
ولــم أتخــط حــدود الصغــر

خلقـت فؤادي خلقا جديـدا لأجلـك أنت سأحيـا سعدا
وحببت لـي العيـش حبا شديدا ولا ترقبـي أبـدا ان ابيـدا

ستبقيـن ، ان مـت ، بعـدي ، الاثر

فانت السميـر وأنـت النديـم وعيشي لولاك كـان الجحيـم
ولسـت ملومـا أنـا اذ أهيـم بمن فتحت لـي طريق النعيـم

ومـن قدمـت لـي صنوف الزهـر

فالقصيدة وادعة في اسلوبها ولكنها رائعة في معانيها .

ويحدثنا عن زوجته العمياء فيجعلنا نشفق عليها ونرثي لحـالهـا فيقول :

وضاحكـة الوجـه كالكوكب ثـوى السحر في طرفها الاهدب
وأبهـى مـن الورد ما قد بـدا لعينيـك في خـدها الملهـب
ويبـدو اذا ابتسمت كالعقيـق وكالـدر في ثغـرها الاشنـب
وتمـلأ بالبسمـات الفضـا وتخطـر في هيـئة المعجـب
كـزهـر الرياض تفيض العطور وتعبـق بالأرج الطيـب
رماهـا القضـاء علـى غـرة وكـم حـادث في القضا مختبي
فشـوه من حسنهـا مـا أراد وخـدش بالنـاب والمخلـب
وأودى بألحاظهـا الفاتنـات فمـالـت كشمس الى المغـرب
تجـوب الدياجـي من غيهـب غليـظ الاهـاب الى غيهـب
وتحيـا مـن الحزن في داجـن بهيـم كلـون الـردى مرعـب
ذوى ذلـك الورد في وجنتيهـا سريعا ... سرابا على السبسب
وفاض من الوجـه ماء الشبـاب فعـادت بـرأس لهـا أشيـب
وأذهب ذاك الفتور العمـى وكـان بمثـواه : لـم يذهب
أطـاح علـى صـدرهـا رأسها ونكـر من صـوتها الاعذب
محاسن قد اجدبـت كالريـاض ولـو أنـصف الدهر لم تجدب
تراجعهـا ذكريـات تشـب بأحشائها كالفضـى الملهـب

فتجثـو على ركبتيهـا تضـــج وتعـول في صرخـات الصبـي
وتسمع مـن حولها القهقهــات تـرن فتطـرق كالمغضـب
تفيـض محاجرهـا بالدمـوع معينـا من الدم لم ينضـب
فيـا كوكبـا غاب في حـالـك بهيـم لـك اللـه من كوكـب
لكم فضت نورا على المدلجيـن بليـل الهمـوم ولم تحجـب
وقد كنت انسا لقلب غريـب يناجيـك في الليـل المرعـب
وعـونا له في الخطوب ، وقـد أتـى الخطب في جنوده الاغلب
ويـا نغمـة حلـوة للحيـا ة تـردد فـي لحنهـا المطـرب
أبـى الدهـر أن تستمر ، وأن يطـول مـداهـا على الملعـب
فشتـت من حـولها السامعيـن وأسكتهـا دون ما موجـب
ويـا زهـرة في ظلال الغصـون كمنظرها الروض لـم ينجـب
ذوت في الصباح وضلت رؤاهـا ولـم تـرث فيـه ولـم تنـدب
فلا الشمس تضحكها ان بـدت ولا هي تبكـي لدى المغـرب
ولا تستفيـق للمـس الصبـا تمـر علـى شعـرها المذهـب
وكانت لدى الروض احدى الزهور ولكنهـا اليـوم لم تحسـب
فصبـرا أيـا زهرتي للقضـا فليـس يفيـدك ان تعتبـي
وكونـي كمـا انـت رفـافـة هنـا ... لا تثوري ولا تغضبي

وعالج شعراؤنا الشعر الرمزي فقال السائحي يرثي الدكتور أحمد **زكـي أبـو شادي :**

رف كـالظـل على دوحتـه مرحـا يرقـص مـن فرحتـه
سكـب الفجـر على الروض السنا فانتشـى البلبـل من بسمتـه
ورأى الزهـرة في أكمـامهـا ضحكـت تهفـو الـى قبلتـه
والنـدى ذاب علـى أوراقهـا واختفـى فيهـا علـى لمستـه
ورأى الطيـر علـى أفنانهـا وقفـت تحكيـه في وقفتـه
كلمـا ردد فيهـا نغمـة قلـدتـه الطيـر في نغمـته
حبـس النغمـة في أعمـاقـه ورنـا ينظـر في حيرتـه

كيـف يطـوي الروض في أرجائه لحنـه الساحر في قـوتـه ؟
ويكـف النهـر في ترجيعـه وهـو كالانسـام في رقتـه
ثـم أصغـى لنسيـم عـابـر هـدهـد الاغصـان في سرحته
همـس اللحـن الذي أنشـده ومضـى يختـال في خطرتـه
أغمـض البلبـل عينيه علـى أمـل ينسـاب في مهجتـه
أمـل طاف بـه في غفـوة حلـوة كالطيـف في خفتـه
فـرأى الدوحـة والظل علـى شاطـىء يسحر من فتنتـه
نثـر الزهـر علـى أرجائـه وارتمـى الحـب علـى ضفته
فمضـى في لوعـة مشبـوبـة جـف منهـا الدمع في مقلتـه
تـرك الجنـة في أوطـانـه كيـف لا يبكـي علـى جنتـه ؟
ملأ الشـاطـىء شدوا رائعـا أغـرق الشـاطىء فـي لوعتـه
وطـوى تحت جناحيه أسـى لـرواء ضـاع في أيكتـه
لم يـزل يبكيه حتـى سكنـت خفقـة الانفـاس في جثتـه
فبكتـه الطير في كـل الربـى انـه قـد مات فـي غربتـه

فالثورة فتحت للادباء والشعراء منهم بالخصوص أبوابا عظيمـة من النشاط الادبي كما رأينا • وها هو الشاعر الآن يعيش في بلـده حـرا طليقـا فطبيعـي الحال أن يلم بمواضيع جديدة تتلاءم والحياة الجديدة • فراح يصدح بالاناشيد الوطنية ويغني مع الطلبة والعمـال ويشيد بالاشتراكية والتشجير • وقـد لقوا تشجيعا كبيـرا من طرف اللجنة الثقافيـة للادارة المركزية بالمكتب السياسي ، وادارة الشـئـون الثقافيـة بوزارة التهذيب الوطني •

وكان مفدي زكريا قد نظم قبل ذلك بسجن بربروس في الخـامس والعشرين من نيسان عام ١٩٥٥ نشيدا أتخذ نشيدا رسميـا للثـورة الجزائريـة • فقـال :

قسمـا بالنازلات الماحقـات والدماء الزاكيات الدافقـا ت
والبنـود اللامعـات الخافقـات في الجبال الشامخات الشاهقـات

نحـــن ثرنـــا فحيـــاة أو ممـــات

وعقـدنــا العــزم ••• أن تحيــا الجزائر

فاشهـــــدوا

نحـــن جند في سبيل الحق ثرنـــا والى استقـلالنـــا بالحرب قمنـــا

لـم يكـــن يصغي لنا لمـــا نطقنـــا فاتخذنـــا رنـــة البارود وزنـــا

وعزفنـــا نغمـــة الرشـــاش لحنـــا

وعقـدنـــا العـــزم أن تحيـــا الجزائـــر

فاشهـــــدوا

نحـــن من أبطالنـــا ندفـــع جنـــدا وعلـــى أشلائنـــا نصنع مجـــدا

وعلـــى أرواحنـــا نصعد خلـــدا وعلـــى هامـــاتنـــا نرفع بنـــدا

جبهـــة التحريـــر أعطيناك عهدا •••

وعقـــدنـــا العـــزم أن تحيـــا الجـــزائـــر

فاشهـــــدوا

صرخة الاوطـــان من ساح الفـــدا اسمعـــوهـــا واستجيبوا للنـــدا

واكتبوهـــا بدمـــاء الشهـــداء واقـــرأوهـــا لبني الجيل غـــدا

قـــد مددنـــا لـــك يـــا مجـــد يـــدا

وعقـــدنـــا العـــزم أن تحيـــا الجزائـــر

فاشهـــــدوا

أما النشيد الرسمي للعلم الجزائري فقد كتبه زكريا بدمه وأهـــداه للحكومة الجزائريـــة فاليكـــه :

هيـــا هيـــا قفـــوا

وارفعـــوا العلـــم •••

وانشـــدوا واهتفـــوا

واعزفـــوا النغم •••

اقصفـــوا المدافع •• تسمـــع الامم :

رسالة العلم

أشرق رفيعا في الحمى ، واخفق عزيزا مكرما ، وارشق على نهر الدما

سلما .. للسمــاء ... يا علم ...
علــم الجزائر ... عشت يــا علم !
انــت وحــي الشهــدا
انــت يــا علــم !
انت للجيــل غــدا
صلــة الرحــم
أحــك للبرايا وارو يا علم !
حكاية العلم !
أبيضه أخلاقنــا ، أخضره أوطاننا ، أحمره دماؤنا
عروقنا ... من نسيج العلم
علــم الجزائــر ... دمــت يا علــم
أمــة سعــارهــا أل
مجــد والكــــرم
ثــورة ، أحرارهــا
طاهــر والذمــم
ثابتــو العزائــم صادقو الهمم
في ثورة العلــم
كفاحنا ، نضالنا ، جهادنا ، استقلالنا ، أرواحنا ، أموالنا
أكبادنــا ... في سبيــل العلــم
علــم الجزائر ... عشت ، يــا علــم ... ! ؟
أمــا نشيده لاتحاد الطلاب الجزائريين فهــو :
نحــن طلاب الجزائــر
نحــن للمجــد بنــاة
نحــن امــال الجــزائر
في الليــالــي الحالكــات
كم غرقنا في دماها .. واحترقنا في حماها .. وعبقنا في سماهــا

بعبـــير المهجـــان

نحـــن طلاب الجزائـــر
نحن للمجـــد بناة
فخذوا الارواح منـــا
واجعلوهـــا لبنـــات
واصنعـــوا منهـــا الجزائر
وخذوا الافكار عنـــا
واعصروا منهـــا الحياة
وابعثـــوا منهـــا الجزائـــر

نحن من لبى نداها .. عندما اشتد بلاها .. واندفعنـــا لفداهـــا
والمنـــايـــا صـــارخـــات

نحن طـــلاب الجزائر
نحـــن للمجـــد بنـــاة
معشـــر الطـــلاب انـــا
قدوة للثائريــــــن
كـــم عصفنـــا بالجبابر ... ؟
ســـل شعـــوب الارض عنـــا
كـــم صرعنـــا الظالمين
واحتـــكمنـــا في المصـــائـــر

نحن بلغنا الرسالة ... نحن سطرنا العدالة .. نحن مزقنا الجهالة
وصـــدعنـــا الظلمـــات

نحـــن طلاب الجزائر
نحـــن للمجـــد بنـــاة
ثورة التحـــرير مـــدي
لبنـــي الجيـــل يـــدا
دمهـــا أحمـــر فائـــر
واشهـــدي كيـــف نفـــدي

ثورة الفكر غدا
يوم تحرير الجزائر
وتسود العبقرية .. في بلاد عربية .. زخرت بالمدنية
في العصور الخالدات
نحن طلاب الجزائر
نحن للمجد بناة

واليك الآن النشيد للاتحاد العام للشغالين الجزائريين نظمه في سجن بربروس في ١٢ تموز سنة ١٩٥٦

اللازمة

نحن جند الاتحاد والعمل ننجز الاشغال لا نرضى الكسل
نعقد العزم لتحقيق الامل نرفع الراية ما بين الدول
نفتل السواعدا ... نحمل الشدائدا ... نبلغ المقاصدا ...
لا نكل ... لا نمل
في الجزائر
نحن عمال نهضنا للبنا ووهبنا روحنا والبدنا
وضعنا من دمانا وطنا واندفعنا فسبقنا الزمنا ...

اللازمة

نحن في الشعب نؤدي فرضنا ننقذ العمال من عيش الضنا
نحن بالاشغال نحيي أرضنا ثورة التحرير تحمي عرضنا

اللازمة

نحمل الجيل على أكتافنا نرفع الشعب على أضلاعنا
نصنع التأريخ من اعصابنا ننسج الراية من اكبادنا

اللازمة

كلنا للشعب ، والشعب لنا نحن في الشعب عرفنا المحنا
وزعوا الارض على فلاحنا وانشروا الصنعة في أوطاننا !

الـلازمـة

وها هو السائحي يشنف أسماعنا بأغنية التشجير :

أرضنـــا أرض الغنـــى أنبتـــت أغلـــى الزهـــر
فـاجعـلوهـــا جنـــة واغـرسـوا فيهـــا الشجـــر
كـــل مـــا فيهـــا لنـــا وحدنـــا نجنـــي الثمـــار
احرســوا فيهـــا الغنـــى وانشـــروا فيهـــا الظـــلال
هـــوذا عهـــد البنـــا هـــو ذا عهـــد النضـــال
أرضنـــا ارض النعيـــم خيـــر أوطـــان البشـــر
فاحفظـــوا الخيـــر العميـم فـــي ثـــراهـــا بالشجـــر

أبت الجزائر الا ان يكون نظامها اشتراكيا فتمحي به الفـروق التي طالما رزح تحتهـا الشعب فها هو السائحي ينوه بالاشتراكية فيقول :

قـــد رجعنـــا لنلتقي من جـديد فـــي ربـانا وفـــي قرانا الابية
نبتنيهـــا ونمسح الظلم عنهـ بـــاشتـــراكيـــة هنـــا عربيـــه
كلنـــا في الحقـــوق فيها سوا ء وعلينـــا فروضهـــا الابديـــه
تنمحـــي عندها المراتب والالقاب مـــا عندهـــا ســـوى العبقريـــة
وسمعنـــا نداءهـــا فهـــرعنـــا وأتينـــا نقـــرهـــا سرمديـــة

ولا تسل عن مدى فرح الشعب عند النصر ، والشاعر هو الاخـر ابتهج فقال عمر شكيري : (١)

اللـــه أكبـــر ، يـــا مـــآذن رددي الله أكبـــر ! واهتفـــي بنـــداء
ان الجـــزائر حطمت أغـــلالهـــا وتحـــررت من ربقـــة الاعـــداء
اليـــوم عيدك يا جزائر غـــردي بحنـــاجر الخطبـــاء والشعـــراء
اليوم عيـــدك يـــا جزائر هللـــي واستمطري الرحمات للشهـــداء

وارتفع العلم الجزائري يرفرف في المدن والبوادي فهلل الشعب حينئذ وكبر وناجاه عمر شكيري قائـــلا :

---

١ ــ عمر شكيري : شاعروكاتب وخطيب. ولد في وادي سوف فيالصحراء .

علـم الجزائـر يا لـواء النصـر ، يـا نبـد الامـل
يـا رايـة خفقـت بخفقتـها المشـاعـر والمقـل
واهتـزت الاعطـاف من هـزاتهـا هـز الجـذل
وتجـاوبـت في النفـس أصـداء المسامع في الجبـل
تلقـي المهابـة في القلـوب فتقشعـر مـن الـوجـل
يـا حلقـة الاحـرار أن هيـا الـى خيـر العمـل
حتـى نـراك مر فرفـا متسنيـا أعلـى القلـل
فـي بـرنـا فـي بحـرنـا حـرا طليقـا مستقـل
انـا عليـك نمـوت أو نحيـا فرفـرف يـا أمـل

وقد نشر الشعراء قصائد كثيرة في هذا المعنى تنبىء بمستقبل زاهر للوطن المفدى في جميع الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ٠

فشعر هذه الفترة عرف تقدما محسوسا من حيث الكم ٠ كثر عـدد الشعراء ، وكثرة أسباب نمو الشعر ٠ ومن أكبر الدواعي لهـذا النمـو الثورة التي عمت الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية ٠ وأمـا مـن جهة الكيف فقد تطور ونفض غبار العصور وقيود الجمود ٠ عالج الشاعر المدح والرثاء ، ولكن لم يمدح ولم يرث الا من قدم خدمات جليلـة للبلاد أو للأمة العربية أو للانسانيـة ، وتغزل الشاعر لكنه ربـط حبه وعواطفه بحب وعواطف الشعب ٠ ولم يبق الشعر مدحا متكلفـا متكسبا ولا الرثاء مدفوعا مرائيا ولا النسيب كاذبا بهتانيا ٠ وأدخـل الفلسفـة في شعره وربط بينه وبين حياته التي يحياها ٠ فجاء شعـره صادقا يكشف عن أعماق نفسه ويترجم نزعاته واحلامه وآلامه وثوراتـه فقد جدد الاوزان ونبذ كل ما أدركه العفاء ٠ فلم يعد الشعر سبكا لفظيـا ولا زينـة بديعية كما ورثناه عن عهود الانحطاط ٠ فهو في الطريق نحـو النضج التام والاكتمال الفني الكامل ٠ ولا غرو ان الشعب الذي قـاوم دولة تعد من اكبر دول العالم وأقواها ، وأرغمها أن تتفاوض معه والذي استطاع أن يحطم القيود ويسترجع كيانه وشرفه جدير به أن يأتي بمـ

يذهل العقول في ميادين الفكر والادب والثقافــة •

قلنـا ان الشعر ، في هذه الفترة ، ساير الواقع الجزائري في جميــع مناحيه • فكان مرآة صافية عكست عواطف الشعب وكفاحه • ونهضتنـا وثورتنا لم يكن قوامهمـا الشعر وحده بل النثر ايضا • فكان لسانـــا صادقا عبر عن آلام الشعب وطموحه واحلامه • كان ثورة على الحيـاة الاجتماعية العفنة وثورة على الجهل والفقر والمرض وثورة على أعـــداء الجزائر من استعماريين ورجعيين ومشعوذين • واليقظة قد هبت منذ أول القرن وقام بها شيــوخ يدعون الى المحافظة على التراث القديم • ولكن الرجل الاول الذي سل سيفه القاطع على فكرة التغريب والفرنسة والادماج هو ابن باديس •

ولد الشيخ ابن باديس عام ١٨٨٩ بمدينة قسنطينة حيث درس العلوم • والتحق بالزيتونة في تونس ، وقصد المشرق والتقى هناك بالعشرات من أعلام الفكر والوطنية والحرية • وقرأ آثار جمال الدين الافغاني ومحمـــد عبده وعبد العزيز جاويش وعبد الرحمان الكواكبي ، ورجع الى بلاده • فأخذ يلقي العلم ويدعو الى النهضة القومية والثقافية عن طريق احيـاء اللغــة العربية ، لغة الآباء والاجداد ، وفهم الدين فهما يتلاءم والعصر • فالتف حوله النشء وتأثر بافكاره وراح يذيعها في الوسط الجزائري •فلم تلبث دعوة الشيخ أن أصبحت عقيدة عامة في الشعب • وقد عزز ابـــن باديس دعوته بالصحافة ، وجمع من حوله الكتاب والشعراء والخطباء • وانضم اليـه عدد من رجال الفكر والاصلاح امثال العقبي والابراهيمي وتوفيق المدني والتبســي والميلي • واليهم يرجع الفضل في تكـويـن جمعية العلماء التـي قامت بالاصلاح ونشر الثقافة العربية وتحرير الفكر العربي الجزائري من شوائب التقليد وقيود الطرقيين الذين اصبحـوا ألعوبـة بين ايدي الاستعمار وأسلحة ضد وطنهم وشوكــة في جنـــب الدعوة الى الحريـة والمقاومة •

عبر ابن باديس عن اهدافه ، التي هي اهداف الجمعية ، بقوله : ان خدمة الانسانية في جميع شعوبها ، والحدب عليها في جميــع أوطانهـا ،

واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها هو ما نقصد اليه ونرمي اليه ونعمل على تربيتنا وتربية من لنا حق عليه •

« ان لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا ، هي دائما منا على بال ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد ان نكون قد قدمناها واوصلنا اليها النفع عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص »

« ان الاسلام عقد اجتماعي عام في جميع ما يحتاج اليه الانسان من جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه • دلت التجارب من علماء الامم المحدثة على ان لا نجاة للعالم مما هو فيه الا باصلاح عام على مبادىء الاسلام • » مبدؤنا في الاصلاح الديني والنيوي أنه لا يصلح آخر هذه الامة الا بما صلح به اولها • »

« اخدموا العلم بتعلمه ، وانشروه وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله وليهن عليكم كل عزيز ولتهن عليكم ارواحكم من أجله •••

ان هذه الامة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا لو ارادت ، بل هي امة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها ، وفي دينها ، لاتريد ان تندمج ، ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائري » •

وقال يوم عيد الحرية الفرنسية في ١٤ تموز ١٩٣٩ :

« أيتها الحرية التي يتغنى بمفاتنك الشعراء ، وتسفك في سبيلك الدماء ، اين انت في هذا الوجود ؟ كم من امم تحتفل بعيدك وقد وضعت نير العبودية على امم وامم • وكم قوم نصبوا لك التماثيل في الارض ، وقد هدموك في القلوب والعقول ! فتشت عنك في الشعوب القوية ، فوجدت العتاة الطغاة قد قيدتهم الاطماع في تراث الضعفاء • فتشت عنك في الشعوب الضعيفة ، فوجدت الانصار المرهقين قد كبلهم استبداد الاقوياء • آه ! أيتها الحرية المحبوبة واشوقاه اليك ، بل واشوقاه ، الى شهدائك المحيا محياهم والموت مماتهم » •

وكيف يصل الى هذه الحرية ؟ فالجواب نجده في قوله : « تريد انقلابا جزائريا يرتكز على اعداد نشء صالح تتمثل فيه عبقرية الجدود وتنهض نهضة اسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضي ويقظة الحاضر ما يعصمها من الزلل والانحراف وهي تسير في طريق المستقبل الباسم » .

ورأيه في الوفود التي ذهبت الى فرنسا لتطالب بتغيير السياسة الاستعمارية يظهر في الفقرة التالية : « ان الوفود لا تستطيع أن تغير شيئا ، ولكن الشعب هو الذي يستطيع ان يغير كل شيء . وان الاستعمار يقوى اليوم بجنوده واشياعه واعوانه من رجال الطرق الصوفية وأحزابهم المخدوعين ، ومتى نفض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة ، أدرك وجوب تسيير شئون نفسه وأخذ يضع كل كل شيء موضعه وقال في وجه الرجعيين والدعاة لثقافة فرنسا ولغتها : من رام ان يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها فقد حاول عبثا قلب الحقائق . فنحن لا نتزحزح عن الفكرة قيد شعرة مهما طغى سيل الكوارث على امة لها ما للشعب الجزائري من الصفات المرغوب فيها ، الكامنة كمون النور في الكهرباء » . وظل طول حياته مجاهدا مصلحا مثقفا .

وقد اسست الجمعية صحفا كانت مدرسة كبرى للوطنية ومصلحا عظيما للمجتمع ومثقفا كفوءا للشعب ومنبرا للادباء والخطباء ، لعبت دورا كبيرا في احياء اللغة واعطائها المرونة والحيوية والتخلص من المحسنات البديعية التي تشبث بها كتابنا من قبل . فقد تطور الاسلوب ، فصار مطبوعا يتناول اللفظ السهل المعبر عن المعنى الصحيح في وضوح وجلاء . وكان للشيخ عبد الحميد طريقة خاصة في تناول الحياة تشهد له بالحذق والبراعة اذ كان يدعو تلاميذه الى القديم والجديد معا ، القديم في محاسنه ورزانته والجديد في طلاقته وتطوره . فأصبح الكتاب الجزائريون يكتبون باللغة العربية على نحو لا يقل عن زملائهم في العالم

العربي (١) • وتحت ظل الجمعية اسست الاندية كنادي التقدم لصاحبه الطيب العقبي • ولا ننكر ما لهذه المؤسسات من فوائد على الادب • وأنشئت فرق للتمثيل فأخذ الكتاب والشعراء يزودونها قصصا يضعونها حينا ويترجمونها أحيانا • ومن المسرحيات التي قدمها المسرح العربي الجزائري رواية « بلال » الشعرية لمحمد العيد ومسرحية حنبعل لاحمد توفيق المدني وغيرهما من المسرحيات الاجتماعية الوطنية • والحكاية أخذت تتطور ، ولكن الكتاب لم يرقوا بها الى مستوى يرضينا ، فلا زال اوبنا ، ويا للاسف ، فقيرا من حيث القصة الحديثة بعناصرها الفنية المعقدة • نريد من كتابنا ان يسدوا هذه الثلمة وان يقبلوا عليها اقبال مواطنيهم الناطقين بالفرنسية • فقد أتحفنا هؤلاء بقصص لا بأس بها • فلماذا يا ترى ، لا يأتون بما يضاهيها بالعربية ؟

وكان للابراهيمي دوره في تطوير الادب العربي • فكانت ثقافته الادبية اوضح وربما اكثر من ثقافة الشيخ عبد الحميد • فهذا اعتمد على الدرس المشافه وذاك على القلم والتحرير • فأعطته هذه الميزة مجالا خاصا للنقد والتوجيه • فاتخذ من الصحافة ولا سيما جريدة البصائر ميدانا لقيادة الجيل الجديد في الادب سواء بما كان ينشره من نماذج تثير الاعجاب وتدعو الى الاحتذاء ، أو فيما كانت تنشر الجريدة من شروط للادباء والكتاب الذين يرغبون في المساهمة والتحرير (٢) • فالادب الجزائري كان دائما عربيا « يجب ان يظل ادبنا عربيا يستمد شخصيته واهدافه من حاجتنا الواقعية لا المفتعلة ولا المزيفة » أما قضية قوميتنا « فليست ميدان سلاح او حرب وانما هي ميدان عقل وفكر » •

ولد البشير الابراهيمي بسطيف عام ١٨٨٩ ، واخذ عن علماء بلده وجاور المدينة المنورة حيث أخذ يدرس العلم والنحو والبلاغة ، وتأثر هو ايضا بافكار جمال الدين الافغاني ومحمد عبده • وعاد الى الجزائر فراح يعمل في مجال الخطابة والتدريس والصحافة مع ابن باديس

---

١ ـ ٢ : ابو القاسم سعدالله ـ ٣ ـ ٤ الابراهيمي .

ثم تولى العمل بعده سنة ١٩٤٠ ولما انتهت الحرب العالمية الثانية عاود اصدار البصائر التي عطلت من ١٩٣٩ الى ١٩٤٤ • ومن هذا العهد دخل الابراهيمي في المقاومة • فدافع عن اللغة العربية قائلا :

« اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة ، بل هي في دارها ، وبين حماتها وانصارها ، وهي ممتدة الجذور مع الماضي ، مشتدة الاواصر مع الحاضر ، طويلة الافنان في المستقبل ، ممتدة مع الماضي لانها دخلت هذ االوطن مع الاسلام على السنة الفاتحين ، ترحل برحيلهم وتقيم باقامتهم • فلما اقام الاسلام في هذا الشمال الافريقي اقامة الابد ، وضرب بجرانه فيه ، اقامت معه العربية لا تريم ولا تبرح ما دام الاسلام مقيما لا يتزحزح ومن ذلك الحين بدأت تتغلغل في النفوس وتنساغ في الالسنة واللهوات وتنساب بين الشفاه والافواه ، يزيدها طيبا وعذوبة أن القرآن بها يتلى ، وان الصلوات بها تبدأ وتختم • فما مضى عليها جيل او جيلان حتى اتسعت دائرتها ، وخالطت الحواس والشواعر ، وجاوزت الابانة عن الدين الى الابانة عن الدنيا ، فأصبحت لغة دين ودنيا معا ، وجاء دور القلم والتدوين فدونت بها علوم الاسلام وآدابه وفلسفته وروحانياته ، وعرف البربر عن طريقها ما لم يكونوا يعرفون وسعت اليها حكمة يونان تستجديها البيان وتستعديها على الزمان • فاجدت واعدت • وطار الى البربر منها قبس لم تكن لتطيره لغة الرومان ، وزاحمت البربرية على ألسنة البربر فغلبت وبزت ، وسلطت سحرها على النفوس البربرية فاحالتها عربية • كل ذلك باختيار لا اثر فيه للجبر ، واقتناع لا يد فيه للقهر ، وديمقراطية لا شبح فيها للاستعمار • وكذب وفجر كل من يسمي الفتح الاسلامي استعمارا وانما هو راحة من الهم الناصب ، ورحمة من العذاب الواصب ، وانصاف للبربر من الجور الرومانـي البغيض •

من قال: ان البربر دخلوا في الاسلام طوعا فقد لزمه القول بانهم قبلوا العربية عفوا لانهما شيئان متلازمان حقيقة وواقعا لا يمكن الفصل

بينهما ، ومحاول الفصل بينهما كمحاول الفصل بين الفرقدين . ومن شهد أن البربرية ما زالت قائمة الذات في بعض الجهات ، فقد شهد للعربيـــة بحسن الجوار وشهد للاسلام بالعدل والاحسان ، اذ لو كان الاسلام دين جبرية وتسلط لمحا البربرية في بعض قرن ، فان تسامح ففي قرن . اذا رضي البربري لنفسه الاسلام طوعا بلا اكراه ورضي للسانه العربية عفوا بلا استكراه ، فاضيع شيء ما تقول العواذل ، واللغة البربرية اذا تنازلت عن موضعها من السنة ذويها للعربية لانها لسان العلم والة المصلحة ، فـان كل ما يزعمه المبطلون بعد ذلك فضول . ان العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالاسلام ومعه العدل وجاء بالعربية ومعها العلم . فالعدل هو الـذي أخضع البربر للعرب ، ولكنه خضوع الاخوة لا خضوع القوة ، وتسليم الاحترام لا تسليم الاجترام . والعلم هو الذي طوع البربرية للعربية ، ولكنه تطويع البهرج للجيدة لا طاعة الامة للسيدة ، لتلك الروحانية فـي الاسلام ولذلك الجمال في اللغة العربية .

اصبح الاسلام في عهد قريب صبغة الوطن التي لا تنصل ولا تحول واصبحت العربية عقيلة حرة ليس لها بهذا الوطن ضرة .

ما هذه النغمة الناشزة التي تصك الاسماع حينا بعد حين ؟ والتـي لا تظهر الا في نوبات من جنود الاستعمار ؟ ما هذه النغمة السمجة التـي ارتفعت قبل سنين في راديو الجزائر باذاعة الاغاني القبائلية ؟ واذاعـة الاخبار باللسان القبائلي ؟ ثم ارتفعت بلزوم مترجم للقبائلية في مقابلـة مترجم للعربية ؟ أكل هذا انصاف للقبائلية واكرام لاهلها ؟ كلا انـه تدجيل سياسي على طائفة من هذه الامة . ان هاتين النغمتين مغزاهمـا واحد هو اسكات نغمة اخرى تنطق بالحق وتقول : ان هذا الوطن عربـي فيجب ان تكون لغتـه العربية رسمية . أما الحقيقة فهي ان الوطـن عربي وأن القبائل مسلمون عرب كتابهم القرآن يقرأونه بالعربية ولا يرضون عن دينهم ولغتهم بديلا .. »

وقد كتب كثيرا في مختلف الذكريات التاريخية للجزائر فقال في ٨

ماي : « يوم مظلم الجوانب بالظلم مطرز الحواشي بالدماء المطولـة ، مقشعر الارض من بطش الاقوياء مبتهج السماء بارواح الشهداء ، خلعت شمسه طبيعتها فلا حياة ولا نور ، وخرج شهره عن طاعة الربيـع فلا ثمر ولا نور ، وغبنت حقيقته عند الاقلام فلا تصوير ولا تدوين • يوم ليس بالغريب عن روزنامة الاستعمار الافرنسي بهذا الوطن فكم له من أيـام مثله ، ولكن الغريب فيه ان يجعل عن قصد ختاما لكتاب الحرب ، ممـن أنهكتهم الحرب على من قاسمهم لأواها وأعانهم على احراز النصر فيها •

ولو كان هذا اليوم في اوائل الحرب لوجدنا من يقول : انه تجربـة كما يجرب الجبان القوي سيفه في الضعيف الاعزل •

اثنان قد خلقا لمشأمة : الاستعمار والحـرب ، ولحكمة ما كانـا سليلي أبوة ، لا يتم اولهما الا بثانيهما ، ولا يكون ثانيهما الا وسيلـه لاولهما ، وقد تلاقت يداهما الآثمتان في هذا اليوم في هذا الوطن ، هـذا مودع الى ميعاد ، فقعقعة السلاح تحيته ، وذلك مزمع ان يقيم الى غيـر ميعاد ، فجثث القتلى من هذه الامة ضحيته •

تستحسن العقول قتل القاتل وتؤيدها الشرائع فتحكم بقتل القاتل ولكن الاستعمار العاتي يتحدى العقول لانه عدوها ، والشرائع لانهـا عدوة ، فلا يقوم الا على قتل غير القاتل ويغلو في التأله الطاغي ، فيتحدى خالق العقول ، ومنزل الشرائع ، وينسخ حكم الله بحكمه ، ورحمـة الله بقسوته ، فيقتل الشيوخ والنساء والاطفال •

أين النعمان بن المنذر ويوماه من الاستعمار وأيامه ؟ كان للمنـذر يومان : يوم بؤس ويوم نعمى ، وبينهما مجال واسع للبخت ، وملعـب فسيح للحظ ، فاذا طار طائر النحس في أحد يوميه وقع على خائن أتـت به رجلاه ، او محدود لم يلتق مع السعد في طريق • أما الاستعمار فأيامه كلها نحسات ، بل دهره كله يوم نحس مستمر ، محيت الفواصل بيـن ايامه ولياليه فكلها سود حوالك يطير طائر النحس منها فلا يقع الا علـى

أمم آمنة مطمئنة ، واين قتلى ضمخت دماؤها الغريين (١) من قتلى ضمخت دماؤها أديم الارض ، وخالطت البحار حتى ان ماء البحار اشكل •

امة كالامم حلت بها ويلات الحرب كما حلت بغيرها ، وذاقـت لباس الجوع والعري والخوف ، وتحيفت الحرب أقواتها واموالها ، وجرعت الثكل امهاتها • واليتم اطفالها ، وأكلـت شبابها ، وقطعـت اسبابها ، وصليت نار الحرب ولم تكن من جناتها وقدمت من ثمن النصر مئـات الالوف من ابنائها قاتلوا لغير غاية وقتلوا من غير شرف في حين كانـت الامم تقتتل على الملك ، والملك مجد وسيادة ، او على الحرية ، والحريـة حياة وعزة • أما هذه الامة فكانت تقاتـل لخيال من أمل ، ودماء مـن حياة ، وصبابة من رجاء ، وخلب من وعد ، علا نداؤه ، وتجاوبت فـي الخافقين اصداؤه ، من ديمقراطية زائفة كذب نبيها مرتين في جيـل واحد • فلما سكن الاعصار وتنفست الامم في جو من السلم ، وتهيـأت كل امة ان تستقبل بقايا النار من شبابها ، وكل ام ان تعانـق وحيدها ، عاودت الاستعمار الوهيته وحيوانيته في لحظة واحدة ، يجادل الله تلـك ويغتال عباده بهذه ، وعاد بالتقتيل على من كانوا بالامس يفدون حيـاتـه بحياتهم ليريهم مبلغ الصدق في تلك الوعود ، ويحدثهم بلغة الدم ومنطق الاشلاء انه انما اقام سوق الحرب ليشتري حيـاتـه بموتـهم ، وليرمم جداره بهدم ديارهم ، فاذا بقي منهم كلب بالوصيد او من ديارهم قائـم غير حصيد ، قضى ذلك المنطق فيه بالابادة والمحو ، وجعل ايامه خاتمـه لايام الدم والحديد ، وعطفه على عدو الامس المشترك عطفا بالفاء لابثم ، وكذلك كان ، فقد فتح الناس اعينهم في يوم واحد على بشـائر تـدق بالنصر ، وعلى عشائر من (المنتصرين) تساق للنحر ، وفتحوا آذانهـم على مدافـع للتبشير واخرى للتدمير ، وعلى اخبار تؤذن بان الدماء رقأت في العالم كله واخرى تقول : ان الدماء اريقـت في جزء صغيـر من العالم ، هو تلك القرى المنكوبة من مقاطعة قسنطينة • وفي لحظـة

---

١ ــ الغريان : بناءان بالكوفة كان النعمان يلطخهما بدماء قتلاه .

واحدة تسامع العالم بان الحرب انتهت مساء امس ببرلين ، وابتدأت صباح اليوم بالجزائر ، وفيما بين خطرة البرق ، بين الغرب والشرق ، اعلنت حرب من طرف واحد ، وانجلت في بضعة ايام عن الوف من القتلى العزل الضعفاء ، واحراق قرى وتدمير مساكن واستباحة حرمات ونهب اموال وما تبع ذلك من تغريم وسجن واعتقال ، ذلكم هو يوم ٨ ماي ومن يكون البادي ، يا ترى ؟ الضعيف الاعزل ، أم القوي المسلح ؟

لك الويل ، ايها الاستعمار ، أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسر فانجدك ، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فاوجدك ؟ أهذا جزاء من كان يسهر وابناؤك نيام ، ويجوع أهله واهلك بطان ، ويثبت في العواصف التي تطير فيها نفوس ابنائك شعاعا ؟ ايشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال الى اهله بعد ان شاركك في النصر لا في الغنيمة ولعل فرحه بانتصارك مساو لفرحه بالسلامة ، فيجد الاب قتيلا والام مجنونة من الفزع والدار مهدومة ، او محرقة والغلة متلفة ، والعرض منتهكا ، والمال نهبا مقسما ، والصغار هائمين في العراء ؟

يا يوم ! ... لله دماء بريئة اريقت فيك ، ولله أعراض طاهرة انتهكت فيك ، ولله أموال محترمة استبيحت فيك ، ولله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك ، ولله ايامى فقدن بعولتهن فيك ، ثم كان من لئيم المكهربهن أن منعن من الارث والتزوج ، ولله صبابة اموال أبقتها يد العائثين ، وحبست فلم تقسم على الوارثين .

يا يوم ! ... لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى والذكرى التي لا تنسى . فكن من اية سنة شئت فانت يوم ٨ ماي وكفى . وكل ما لك علينا من دين ان نحيي ذكراك ، وكل ما علينا لك من واجب ان ندون تأريخك في الطروس لئلا يمسحه النسيان من النفوس » .

وكتب الشيخ في عروبة الشمال الافريقي فقال :

عروبة الشمال الافريقي بجميع أجزائه طبيعية ، كيفما كانت الاصول

التي انحدرت منها الدماء والينابيع التي انفجرت منها الاخلاق والخصائص والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد ، وهي أثبت اساسا وأقدم عهدا واصفى عنصرا من انكليزية الانكليز والمانية الالمان • قضت العروبة بقوتها وروحانيتها وادبها ، وسمو خصائصها ، وامتداد عروقها ، في الاكرمين الاول من نبات الصحارى وبناة الحضارات فيها ، على بربرية كانت منتشرة في هذا الشمال ، وبقايا آرية كانت منتشرة فيه ، وفعل الزمن الطويل فعله حتى نسي الناس ونسي التاريخ الحديث ان هنا جنسا غير عربي ، وضرب الاسلام بيسره ولطف مدخله وملاءمة عقائده للفطر وعباداته للارواح ، وآدابه للنفوس واحكامه للمصالح على كل صوت يهتف بذكرى الى ماض بعيد ، وزاد العروبة تشبيثا وتمكينا في هذا الشمال هذه الابجدية العربية الشائعة التي حفظت أصول الدين ، وحافظت على متون اللغة ودونت الآداب والشرائع ، وكتبت التاريخ وسجلت الاحكام والحقوق ، وفتحت الباب الى العلم ، وكانت السبيل الى الحضارة •

كل هذه العوامل صيرت هذا الشمال عربيا قار العروبة على الاسس الثابتة من دين عربي ، ولغة عربية وكتابة عربية وآداب عربية ومنازع عربية وتشريع عربي ، وجاء التاريخ ، وهو الحكم في مثل هذا فشهد وادى ، وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب ، وجاء الزمن بثلاثة عشر قرنا تشهد سنوها وايامها بانها فرغت من علمها وتم التمام ووقع الختم ، وان عروبة هذا الوطن جرت في مجاريها طبيعية منسابة لم يشبها اكراه ولم يشنها عنف ، ولم يؤثر فيها عامل دخيل ولم تقم على تحيل واستغفال ، وانما هي الروح عرفت الروح والفطرة سايرت الفطرة ، والعقل اعدى العقل ، وكأن الامم التي كانت تغطي هذه الارض قبل الاتصال بالعرب ، كانت مهيأة للاتصال بالعرب • أو كأن وشائج من القربى كانت مخبؤة في الزمن ، فظهرت لوقتها ، وكانت نائمة في التأريخ فتنبهت لحينها • وان

الامم لتتقارب بعد أن كانت متباعدة مثل ما تتباعد بعد أن كانت متقاربة ولا يتوقف التقارب الا على دعوة مصحوبة بحجة ، أو حادثة مقرونة برجة وكلتاهما وجدت في الاسلام .

ان كل ما يحتج به القادحون في عروبة هذا الشمال هو حجة عليهم، فالدول التي قامت فيه كاللمتونية والرستمية والموحدية والصنهاجية والمرينية والزيانية ليس لها من البربرية الا النسبة العرفية وهي فيما عدا ذلك عربية صميمة : عربية في الضروريات المقومة للدولة كوظائف القلم من ادارية ومالية ، ووظائف القضاء من عقود وتسجيلات ، وعربية في الكماليات التي تقضيها الحضارة والترف كالغناء والموسيقى والشعر .فما علمنا ان شعراء البلاطات في تلك الدول تقربوا الى الملوك بالشعرالبربري الا ان يكون في النادر القليل ، وفي حال الاصطباغ بالبداوة الاولى هذه العروبة الاصيلة العريقة في هذا الوطن هي التي صيرته وطنا واحدا لم تفرقه الا سياسة الخلاف في عصوره الوسطى وسياسة الاستعمار في عهده الاخير . وهذه العروبة هي مساكه على كثرة المفرقات ، وهي ملاكه على وفرة العوامل الهادمة ، وهي رباطه الذي لا ينفصم مع بقية اجزاء العروبة في الشرق ...

وتحتوي عيون البصائر تسع مقالات حول قضية فلسطين اليك نموذجا من احداها :

يا فلسطين ان في قلب كل مسلم جزائري من قضيتك جروحا دامية ، وفي جفن كل مسلم جزائري من محنتك عبرات هامية وعلى لسان كل مسلم جزائري في حقك كلمة مترددة هي فلسطين قطعة من وطني الاسلامي الكبير قبل ان تكون قطعة من وطني العربي الصغير وفي عنق كل مسلم جزائري لك ، يا فلسطين ، حق واجب الاداء وذمام متاكد الرعاية ، فان فرط في جنبك او اضاع بعض حقك فما الذنب ذنبه وانما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه والمرء وداره والمسلم وقبلته ...

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد بل تعداه ، فكشف عن مشاعر

الجزائري ازاء المشرق والاسلام ومصر واثر الازهر في النهضة الاسلامية وتناول مشاكلنا الاجتماعية والسياسية ، وتحدث عن عشرات الاعـــلام منهم ابن باديس والملك محمد بن يوسف ، فقال في الاول : باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر ، وواضع اسسها على صخرة الحق وقائد زحوفها المغيرة الى الغايات العليا ، وامام الحركة السلفية ، ومنشىء مجلة الشهاب ــ مرآة الاصلاح وسيف المصلحين ، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح ، ومحيي دوارس العلم بدروسه الحية ، ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن ، وغارس بذور الوطنية الصحيحة وملقن مباديها ، علم البيـــان وفارس المنابر الاستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس ، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين واول مؤسس لنوادي العلم والادب وجمعيات التربية والتعليم ، رحمه الله ورضي عنه •• وحسبه من المجد التأريخي أنه أحيا امة تعاقبت عليها الاحـــداث والغير ودينا لابستـــه المحدثات والبدع ولسانا أكلته الرطانات الاجنبية ، وتأريخا غطى عليـــه النسيان ومجدا أضاعه ورثة السوء وفضائل قتلتها رذائل الغرب •

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية وهم السنتها الخاطبة واقلامها الكاتبة ، وهم حاملو الويتها ، وان آراءه في الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي هي الدستور القائم بيــن العلماء والمفكرين والسياسيين ، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون ،وان بناءه في الوطنية الاسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار •• »

وقال في الثاني بعد قصيدة شعرية ما نصه :

« نعرف عن جلالة السلطان محمد الخامس بن يوسف كل ما يجب أن يعرفه عالم مسلم حر الفكر ، مستنيرا البصيرة ، موقوف المـــواهـــب على خدمة الاسلام واصلاح المسلمين فهو ملك مسلم ممتاز بيــن ملــوك المسلمين •• نعرف عنه دراسة ونعتقد فيه وجدانا ، ونشهد منه عيانا ، مـــا يرفعنا عن الاخذ فيه بالتقليد ، ويربأ بنا ان ننتقل في الحكم عليه مـــن

رأي قديــم الى رأي جديد ، كما تربأ بنا عادتنا في الحكم علــى الرجال أن نحابيه او نتعصب له جريا مع هوى غالب او انتصارا لمذهب جامع • فالنتيجة هي التي انتهت اليها الدراسة واطمأن لها الوجدان والعيان في هذا الملك العظيم • حقا هي أنه ملك مسلم صحيح الاســلام ، مؤمن متيــن الايمان سلفي العقيدة والتعبد ، قديم في دينه جديد في دنياه مجدد مصلح في الدين والدنيا ، واسع الاطلاع على أحوال زمنه ، يقظان العقل في اسرار السياسة المحيطة به ، شجاع الرأي في الجدل المحتدم فيها ، يمارس مــن لاجانب هولا واحدا ، ومن الاقارب أهوالا ، يعمل لشعبه دائما ، ويعمل لنفسه قليلا ولمعنــى يرجع الى شعبه ، وهو أن يرسم لهم خطوط الاقتداء والتأسي ومن رأينا فيه أنه لو تأتت له الوسائل ولاينته الظروف ، لطوى مراحل التقدم بالمغرب في مرحلة •

هذه الخلال هي سر عظمته عندنا وهي سر حبنا اياه واعجابنا بــه وانتصارنا له ، ولو أني حكمت هذا الحكم قبل ان اجتمع به في الرحلــة الاخيرة الى باريز ، لكان فيه شوب من التقليد والاتكاء على السمــاع الذي شان العقائد ، وافسد التاريخ ، وغطى الحقائق ، ولكني طابقت بين السماع والعيان ، وصححت الاستدلال في تلك الساعة التي تحــدثــت فيها اليه وتحدث الي ، مجردا من الكلف والرسميات في بلد غربة وموطن حرية ، وقد زويت في تلك الساعة القصيرة أطراف تلك النفس الكبيرة ، وكانت ساعة من تلك الساعات المعدودة في التاريخ التي يلتقي فيها عالــم مسلم بملك مسلم ، فلا يجري على لسانيهما الا ما يرضي الله وينفــع الناس الناس • لمحت في هذا الملك الديمقراطي ملاءمة الفضائل الفطرية فيه للفضائل المكتسبة بالدرس والتجربة والاحتكاك فالذكاء الفطــري يمازج الالمام الواسع بما يجري في الكون ، والايمان بالعاقبة بــزواج الاحتفاظ الشديد بحقوق المسلمين ، والايثار يساند الاقدام والصبــر على المكاره يقارن الصراحة في قوله الحق ، طراز من الاخلاق متــلائــم النسب ، متلاحم النسج متناسب العرض في شخصية واحدة ، يزين ذلك

كله يبساطة متناهية ، هي بساطة المسلم الصادق المتشبع بالفضيلة الذي تزدهيه المظاهر ، ولقد وقع نظري وذهني ، وانا احادثه على صغيرة من اثار تلك البساطة ولكنها مبعث الروعة والجلال ، وهي تجرد هذا الملك من تلك العهون والذلال (ولا أقول الحلي) التي يزين بها بعض ملوكنا وامرائنا صدورهم واعناقهم وتراقيهم ، على ضرب مما كان يزين به العرب جمالهم .. فلا يكون معناها عند العقلاء الا ان اصحابها فرغت بواطنهم من معاني السلطان ، فعمروا ظواهرهم بهذه الشرطان وعلى أن الزمان انتهى من السخرية بهؤلاء الى هذه الدرجة فعوضهم من الاعمال التي بتجمل بها الرجال بهذه الحلية التي يتجمل بها غيرهم .. »

يظهر من هذه النماذج كلها ان الشيخ البشير الابراهيمي رجل مفكر زعيم في مجال الاصلاح والسلفية والتعليم والصحافة، وأنه يمثل أرقى أساليب اللغة العربية في المغرب العربي • وتشهد بمكانته في الميدان الادبي أشعار محمد العيد :

قل (للبشير) (١) رفعت هامة أمة ذلت وشعب كان قبلك خاملا
ما زلت تكشف عن خفي نبوغة حتى تبين للنواظر ماثلا
أخجلت اقطاب البيان فمن يكن سحبان أو قسا يلاقك باقلا
أدركت في الفصحى مدارك لم يكن في العصر ذو أدب اليها واصلا
ناهيك بالخطب الفصاح شواهدا ادهشت أشهادا بها ومحافلا
مهما خطبت أطبت لفظك لهجة وأصبت في المعنى كلى ومفاصلا
تالله لا أوفيك حقك كله مهما نسجت لك المديح غلائلا

وكانت الصحافة العربية تقاوم في جنوب الجزائر وتسعى في ايقاظ الوعي وتدعو الى الاصلاح والعلم •يقول ابو اليقظان :

« اجتازت النور مرحلة السنة الاولى وهي محفوفة بالاخطار ، محاطة بالمعاطب والاهوال من شدة الازمة المالية الآخذة بالخناق ، ومن تسمم الجو السياسي ،وضيق مجال الكاتب فيه ،وانقطاع منابع الثروة

١ ــ بعد انتخاب الشيخ عضوا مراسلا لمجمع اللغة العربية بالقاهرة

الشرقية الادبية عنه ، وخطورة مركز الصحافة العربية واعراض جل الامة عن الصحافة ، وصدودها عن كل ما يتصرف فيها ؛ اجتازت هذه الازمات كلها وهي ثابتة الجأش ، راسخة القدم ، مستقيمة المنهج ، متحدة الخطة ، جاعلة الصدق شعارها ، والحكمة والاعتدال مسلكها ، والنهوض بالامة الى الحياة الحقة رائدها ؛ قاومت سموم التفرقة ، وجراثيم الاباحة، والشيوعية الهدامة ، ولكنها مرت عن لغو أخصامها مر الكرام .. » (١)

ويمثل النهضة الصحفية في الجنوب ابو اليقظان ابراهيم . ولد هذا الكاتب الشاعر يوم الاثنين ٢٩ من صفر ١٣٠٦ هـ (تشرين الثاني ١٨٨٨ م) في بلاد القرارة من قرى ميزاب . حفظ القرآن في الكتاب ، ثم دخل الى دار التلاميذ وتعلم النحو والصرف والفقه والتوحيد عن الشيخ عمر بن يحي . وفي سنة ١٣٢٥ انتقل الى بني يزقن لاستزادة تعلمه من الحاج محمد بن يوسف اطفيش . وفي سنة ١٣٢٨ قصد مكة وبقي فيها مجاورا ، ثم رجع الى القرارة ؛ ولكنه لم يبق فيها طويلا ، فشخص الى تونس ليستزيد التعلم هناك في طائفة من التلاميذ القدماء . وفي عام ١٩١٧ م أخذت حركة الدستور تدب بتونس . فاشترك فيها بزعامة الاستاذ عبد العزيز الثعالبي الجزائري وبمشاركة صالح بن يحي والشيخ ابي اسحق ابراهيم أطفيش . وفي سنة ١٩٢٣ م أبعد الاستاذ أبو اسحاق ابراهيم الى القاهرة . وقامت معارضة في وجه أبي اليقظان واصحابه ترمي الى هدم البعثة بتونس من أساسها . ففتحوا ضدها حربا وكتبوا المقالات الطويلة في جرائد تونسية وألفوا رسائل ، ولكن لم تزدد بذلك الا عنادا واتخذوا الجزائرقاعدة لعملهم للقضاء عليها . فانتقل أبو اليقظان من تونس الى الجزائر في غضون ١٩٢٦ لانشاء صحافة عربية وطنية لهذا الغرض . فخرجت جريدة « وادي ميزاب » .برز منها أول عدد في فاتح تشرين الاول ١٩٢٦ م . وكان طبع الجرائد بتونس وتحريرها وادارتها بالجزائر ولكنها تعطلت ثم اسسوا المطبعة العربية سنة ١٩٣١ في الجزائر ، وكان التعطيل للجرائد تباعا ،

١ ــ جريدة النور ٢٧ ايلول ١٩٣٢

وابو اليقظان مدين في عقيدته واخلاقه وسلوكه الديني الى الشيخ الحاج عمر بن يحي في القرارة والى أطفيش في يزقن ، وفي تفكيره السياسي الى الاستاذ عبد العزيز الثعالبي ، وفي تثقيف علمه بالكتابة الى صحف القاهرة وفي التفسير والبلاغة الى الشيخ الطاهر ابن عاشور والشيخ محمد النخلي والشيخ محمد بن يوسف ، وفي الاصول والنحو الى الشيخ ابي الحسن النجار ، وفي التاريخ الى حسن حسني عبد الوهاب ، وفي الجغرافيا الى محمد الاصرم ، وفي الرياضيات الى محمد العبيدي ، وفي الانشاء الى محمد مناشو (١) .

تخلى عن ميدان الصحافة واشتغل بالتأليف فكتب :

سلم الاستقامة في ٣ أجزاء للاقسام الابتدائية في فقه العبادات . وسليمان باشا الباروني في أطوار حياته في جزأين ، والديوان في جزء أول يحتوي على ما قاله من الشعر منذ صباه الى حوالي ١٩٥٠ م . وقد قدمه بمقدمة في فن الادب العربي على غرار كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني . ويضاف الى هذا الجزء الاول المطبوع بالجزائر ١٩٥٠ ما قاله من شعر بعد طبعه ، ولا زال هذا مخطوطا ، وخلاصة تأريخ الاباضية واهدافي العليا بالعمل في هذه الحياة وتأريخ صحف الجزائر العربية في الشمال والجنوب ضمنها كل ما مر في الجهاد الصحافي بالجزائر وهي مخطوطة ، وبيان حقيقة في الدفاع عن التجنيد الاجباري في ميزاب وبيانات واضحة عن اباضية وادي مزاب ، وملحق لسير البدر الشماخي الذي توفي في عام ٩٢٨ هـ ، وارشاد الحائرين وهي رسالة في الرد على معارضيها في انشاء بعثة بتونس وقد طبعت فيها . ومن صحفه وادي ميزاب ومزاب والمغرب والنور والبستان والنبراس والامة والفرقان .

محمد بن ابي شنب

ومن اعلام الادب في النصف الاول من هذا القرن محمد بن ابي

---

١ ـ الفكر والثقافة المعاصرة .

شنب ، ولد في ٢٦ من تشرين الاول ١٨٦٩ بقريــة المدية • قرأ اللغــة والعلوم الفرنسية ودرس بــدار المعلمين الفرنسية بأبي زريعــة ، واحرز اجازة تعليم اللغة والعلوم في المدارس الوطنية • وتعاطى اللغة والآداب العربية • فاجيز باجازة مدرسة الاداب العليا • فتولى الدراسة بمدرسـة قسنطينة ١٨٩٨ م فمدرسة الجزائر في ابريل ١٩٠١ •

وفي سنة ١٩٢٢ م حصل على اجازة الدكتوراه في القسم الادبي من كلية الادب بالجزائر بعد ان قدم لها تأليفا في حياة ابي دلامة شاعر بني العباس • وتأليفا آخر في الالفاظ التركية والفارسية الباقية في اللغة الجزائرية • وفي يناير ١٩٢٤ عين استاذا بكلية الآداب بالعاصمة •

انصرف الى الدراسات اللغوية والادبية والتأريخية • فأصبح لغويا حافظا ثقة ، واعتنى بجمع الكلمات والتراكيب التي تجري على ألسنة الادباء في القديم والحديث ولم تدون في المعاجم • يبحث عنها بحثـا دقيقا ويردها الى اصول عربية ردا صحيحا •

وقد ألف محمد بن أبي شنب الكتب العديدة وحرر جملة مـن المباحث في اللغة والادب • وكان يحسن اللغات الفرنسية والايطاليـة والفارسية والتركية والعبرية • ومن مؤلفاته رموز الاختصار العربيـة أصدره عام ١٩٢٢ وتحفة الادب في ميزان أشعار العرب (الجزائر ١٩٠٦ بالعربيـــة) •

وله باللغة الفرنسية مجموع امثال العوام بأرض الجزائر والمغــرب (٣ أجزاء) طبع ١٩٠٥ ـــ ١٩٠٧

ونشر مؤلفات ومخطوطات قيمة اهمها : البستان في علماء تلمســان لابن مريــم (الجزائر ١٩٠٨) والممتع في شرح المقنع لابــي سعيــد السوسي (الجزائر ١٩٠٨) ، وتحبير الموشين في التعبير بالسين والشين للفيروزا بادي (الجزائر ١٩٠٩) ، وفهرست كتب الجامع الازهر (الجزائر ١٩٠٩) وتدميث التذكير في التأنيث والتذكير للجعبري مــن علمــاء بغداد في ا لقرن الثامن (استراسبورغ ١٩١١) ، وتكملة ابن الابــار

(الجزائر ١٩٢١) ، والذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (الجزائر ١٩٢١) وفهرس مطبوعات فاس (الجزائر ١٩٢٢) ، وابو دلامة : حياته وشعره بالفرنسية (الجزائر ١٩٢٢) وعنوان الدراية في علماء بجاية للغبريني (الجزائر ١٩١٠) ، وديوان علقمة الفحل مع تقريرات (الجزائر ١٩٢٥) ، وديوان عروة بن الورد (الجزائر ١٩٢٦) والجمل للزجاجي (الجزائر ١٩٢٧) وكانت اخر محاضراته في مؤتمر المستشرقين « باكسفورد » عن « ابن خاتمة » احد شعراء الاندلس في القرن الثامن الهجري .

وتوفي في سنة ١٣٤٧ هـ ، ورثاه الأساتذة الفرنسيون مقدرين فضله . وحسبنا شهادة قول (مارسيه) فيه : كنا نرجع اليه ونستضيء بضيائه وكنا نناديه شيخنا .

ومن انشائه ما نصه :

الجزائر (١) مدينة عظيمة على ضفة البحر المتوسط في الجانب الغربي من الجون المسمى باسمها وهي .. مبنية في سفح جبيل ابي زريعة ممتدة على ساحل البحر محفوفة من جهة البر ببساتين يانعة ورياض سانعة .

في وسطها قصور انيقة وصروح عتيقة . واذا اتيتها من البحر كأنها جناح برنس أبيض قد نشر على بساط أخضر . ثم تشاهد بناء متراكما في منحدر يقابل المشرق وفي أسفله (برج الفنار) وفي أعلاه قاعة منيعة تسمى (القصبة) . واذا قربت من المرسى تعاين موازيا للبحر شارعا واسعا فوق الرصيف واسطوانات عديدة ، طبقة فوق طبقة ، عليها طلعات الى (فسحة الدولة) كأن ذلك اساس او تبليطة للبلد . وهذا المنظر العجيب لا ثاني له على وجه التأكد . للمدينة اهمية سياسية . فانها عاصمة البلاد المنسوبة اليها ، ومقر واليها العام ، ومجلس الدولة ،

---

١ ـ العاصمة .

والمجلس الاعلى ، ومجتمع النيابات المالية ، ومقام قائد الجيش التاسع عشر ورؤساء الادارات الشرعية وغيرها من الادارات الدولية المختلفة الاصول والفروع ما بين عسكرية وبحرية ومدنية •

واما ما يخص المسلمين ففيها اربعة مساجد خطبة : المسجد الاعظم وفيه يخطب مفتي السادات المالكية ، والمسجد الجديد وفيه يخطب مفتي السادات الحنفية ، وهذان المسجدان في حارة الفرنج بقرب (فسحة الفرس) من جهة الشمال ، وجامع سفير للسادات الحنفية وسط الجبل ومسجد سيدي رمضان كذلك في الجبل وهو اقدم الاربعة ، ثم ضريح سيدي عبد الرحمان الثعالبي وهو في شمال البلد بينه وبين الشارع الذي يقسم حارة الفرنج طولا بستان (مرارنقو) وهو من أبهى وأبهج المناظر في الجزائر » ••

احمد توفيق المدني

من الشخصيات البارزة في هذه الفترة شخصية أحمد توفيق المدني نشأ في تونس وأقبل على العلوم بالزيتونة ، فاتقنها واستطاع أن يجمع بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية • عمل في مجال النهضة • فألقي القبض عليه واودع السجن شابا فأتقن فيه اللغة الفرنسية • وطالع كتب الفلسفة والاجتماع والسياسة ، وقرأ الصحف والمجلات ، فاصبح ذا علم واسع وفكرة اجتماعية ناضجة وثقافة سياسية عظيمة • لما غادر السجن تعاطى السياسة يخطب ويحاضر ويكتب • ومقالاته في الصحف تدل على ثقافة فكرية واسعة واسلوب علمي متين • نفاه الفرنسيون عن تونس سنة ١٩٢٧ الى الجزائر • فشارك في حركة النهضة الاسلامية العربية التي كان يقودها عبد الحميد بن باديس ، وانخرط في جمعية العلماء • فدافع عن حق العروبة خير دفاع لا يبالي بأذى الاستعمار •

للشيخ احمد توفيق المدني تآليف قيمة • كتابه عن قرطاجنة يحدثنا عن تاريخ شمال افريقية قبل الاسلام ، وكتابه في جزيرة صقلية يكشف عن بطولة المغرب العربي في مجال الفتح ، وكتابه عن جغرافية القطر

الجزائري يعطي ردا على اتهامات الاعداء ، وتاريخ الجزائر تبدو فيه حقائق هامة . وأما حياة محمد عثمان باشاداي الجزائر فهو خلاصة وافية عن تأريخ الحكم التركي في بلادنا يفصل فيه المدني الحوادث الكبرى في التاريخ العالمي . وله رواية حنبعل البطل الافريقي ١٩٥١ .

أسس ابن باديس مدارس عديدة ، وبعده واصلت الجمعية عمله ، فمضت في فتح المدارس وانشاء المعاهد . وتوفيق المدني في مقدمة زملائه ، وعند اندلاع الثورة المباركة كان في القاهرة يكتب ويخطب ويؤلف كتابه « هذه هي الجزائر » (١٩٥٦) فيقول : « أنا لم اكتبه للدعاية ، انما كتبته تسجيلا للواقع وتعريفا علميا بهذا القطر وبهذا الشعب . هذه الامة التي ادهشت العالم بجهادها وبهرت الدنيا بشبابها امام أعظم قوة استعمارية جردت في قطر من الاقطار ، في أي عصر من العصور ، واشرأبت اليها انظار سائر الشعوب ، تشهد على يدها مصرع الظالمين وتمزيق اخر صفحة من صفحات الاستعمار .

البلاد التي يسجل التاريخ فوق جبالها ونجودها ، وبين شعابها وكثبانها صفحة من أروع صفحات البطولة والمجد ..

تلقت هذه الامة من أجدادها فوق اديم هذا الوطن علما وسيفا وضميرا وتوارثت ذلك كابرا عن كابر منذ أقدم العصور . فما سقط ذلك العلم ، علم الحرية ، من يد شهيد ، حتى تلقته ايدي الذين يفتقون في ميدان الشرف خطاه . وما استقر ذلك السيف ، سيف الكفاح والنضال في غمده يوما ، فهو دولة بين الاجداد والاباء والاحفاد ، لا يزال مشهرا منذ الاف السنين يمجد الماضي وينشىء الحاضر ويهيىء المستقبل . وما خبت نار ذلك الضمير المتقدة . ولا خفت نوره الوضاء . فهو ضمير الايمان العقيدة والشعور ، هو روح قدسية جماعية ألفت بين قلوب عشرة ملايين من البشر ، فصيرتهم جسما واحدا عملاقا ، يقف موقف الجبار العنيد يحمي الحمى ويصون المقدسات ويقاوم الغاصبين ولا يضعف ولا يلين . »

وها هو يفتح عيـون العرب على بعض ما يـدور في فلسطيـن ويستنهض الناس لانقاذها • وفي مقال مجلة الشهـاب (سنة ١٩٣٦) • فيقول :

« من ضفاف الفرات الى ضفاف النيل ستعود أعلام الحضارة العربية ويمدها الاستقلال بانفس ما يدفع النفوس الى المغامره والاقدام • رانهـ لصفحة جديدة من صفحات التمدن العالمي قد ابتدأت في التاريخ ،وستكون هذه الصفحة واصلة لما انفصل أثناء القرون الاخيرة من عقد المدنيـة العربية •

لكن فلسطين في وسط هذه الانغام الاستقلالية الشجية نغمـة مكدرة مؤلمة تملأ النفوس كمدا واسى ألا وهي نغمات الانين المتصاعدة من نفوس الابطال الباسلين الذين وقفوا على جنبات المسجد الاقصـى وحوالي ربوع فلسطين التي كانت غناء زاهية ، فأصبحت بفضـل أعمال العنف والقسوة والارهاب خرابا بلقعـا ويبابا فسيحا •

هنالك تمتهن العروبة وتهان ، وهنالك يموت الاعراب ويمثـل بهـم ، وهنالك تخرب ديار المسلمين ، وتمحى معالمهم وتهدم مدنهم وقراهم •
وهنالك ترى قوات الجور والاستبداد والظلم والاستعباد ، قـد أجمعت أمرها على محق أمة مسلمة مسالمة •• لاحلال جماعات من الافاقين اليهود محلها ، ولتكوين وطن قومي لبني اسرائيل على أنقـاض ديـار العرب المسلمين ، وفوق جماجم شهدائهم وأشلاء قتلاهم •

فهل يقع هذا ، ولا تزال في المسلمين بقية باقية من كرامة الاسلام ، وشهامة العروبة ، وما تزال لهم أنفس ، وما تزال لهم أموال ؟ وهل يسكت العالم الاسلامي والعالم العربي عن مأساة اخوانه في فلسطين حتى يحيـق بهم الدمـار ؟

ومقالاته عديدة كلها حمـاس يتطاير منها شرر المنـاضل الجـريء اليقظ ، ويسودها التعبيـر المتين السهل الصافي ، تعبير الكاتب المؤثـر

المقنع . ففي الصحف يذود عن الحوض العربي الاسلامي وفي كتبه يحيي ذكرى الاجداد وينصف حقهم ويقيم في قلبه وقلوبنا لهم تمثالا خالدا .

مبـــارك الميلي

وهذه شخصية أخرى هي مبارك الميلي مؤرخ الجزائر ومن اعضـــاء جمعية العلماء ذات الفضل الكبير على اللغـة العربية والاسلام والتاريخ. ولد الشيخ سنة ١٨٩٨م في قرية الميلة من أحواز قسنطينة . انخرط في تلاميذ ابن باديس ، وتلقى دروسه في الجامع الاخضر ، وقصد تونـس حيث زاول دروس علماء الزيتونة ثلاث سنوات الى عام ١٩٢٤ .

عاد الى الجزائر وأحدث تغيرا في التعليم . فقد أسس في قسنطينـــه قسمين للتعليم على النمط العصري واسس للبنين مدرستين . وشارك في تأسيس جمعية العلماء باذار ١٩٣١ . وهو صاحب فكرة انشاء مطبعـــة عربية تطبع المخطوطات وتنشر الصحف والمجلات . وعمل مع ابـــن باديس في صحف المنتقـد والشهاب والبصائر ، وكان يكتب بامضـــاء البيضاوي . وكان يشرف على اصدار البصائر في المطبعة الجزائريـة ، وكان يصدرها بانتظام الى ان قررت الجمعية ايقافها عام ١٩٣٩ بمناسبـة اندلاع الحرب العالمية الثانية .

وكتابه « تاريخ الجزائر في القديم والحديث » من أبرز الدراسات التاريخية في الجزائر . وهدفهمن هذا الكتاب ما ذكره في مقدمته . فقال : ان المتعلمين اليوم من ابناء الجزائر قطعوا الصلة بينهم وبين ماضيهـم ، فجهلوا آفاقه . نرى المتعلم في المدارس يعرف منتأريخ بعض الاممالاجنبية ما يجدر به ان يعلم مثله عن تأريخ شعبـــه ، ولا يحسن منه تقديمـــه عليه ، فكيف بالاقتصار عليه والاكتفاء به ، ان النسبة بين التاريخيـن الشعبي الاجنبي مثل النسبة بين الضروري والكمالي ، وقد بلغت الحال ببعض هؤلاء المتعلمين أن صار ينظر الى جنسه نظرة المؤرخ الى ما قبـل التاريخ وقد سلك في كتابه مسلك التحليل العصري فذهب الى البحـث

عن البواعث والنتائج ، ويرى ان التاريخ يقوم على اربع دعامات هي نقل الاثبات والابتعاد عن تدليس المغرضين والخلو من خرافات المتقدمين والخلو من عمايات المتعصبين من المتأخرين • فبهذا الشرط يكون بعيد الاثر في بناء الامم • فطريقته مخالفة لطريقة المتقدمين من مؤرخينا الذين كانوا يكتبون كل ما يسمعون وينقلون كل ما يجدون من غير تصحيح للرواية ولا تمحيص بالفكر ويأتون الحكايات الغريبة المدهشة •

قال فيه توفيق المدني : « لقد رأيت فيه خلالا جعلته في نظري انموذج المؤرخ الصادق ، صبره على البحث خلوص التحقيق والتدقيق ، مهارة منقطعة النظير في المقابلة بين النصوص ، نظرة صائبة في استجلاء الغوامض وحكم صادق على أسباب الحوادث ونتائجها ، مهارة في الترتيب والتبويب ، وحسن سبك يجعل التاريخ كله كالسلسلة المفرغة ••• » فقد هدم بتاريخه كل ما عرض له خصوم تاريخ العرب والاسلام وافريقية الشمالية من نظريات مضللة كقول « برتران » : أن الرومان كانوا في الجزائر كل شيء وأهم أصل الحياة فيها وأنهم طبعوا وطن المغرب العربي بطابعهم الخاص ، وأن هذا الطابع لن يحول الى الابد ، وأن العرب سرقوا المغرب ، الى غير ذلك من النظريات التي تهدف الى تخليص المغرب لفرنسا وعزله عن الامة العربية والاسلامية •

فقال ابن باديس عن هذا التاريخ : « اما تاريخ الجزائر فوالله ما كنت أظن ان في الجزائر من يفري هذا الفري • وجاء في الفكر والثقافة المعاصرة ان كتاب الميلي مصدر اعتزاز كامل كقوة للمقاومة ورد الفعل بعيدة المدى ازاء اخطاء المستشرقين ودعاة التغريب ويقول احمد سحنون:

وجلوت تأريخ الجزائر بعدما عفى معالمه غبار سنين
أحكمت من لغة البيان أصولها وجمال أسلوب أغر مبين

الادب الجزائري الفرنسي اللغة

انتشرت اللغة الفرنسية في الجزائر ونشأ جيل من الكتاب الجزائريين لا يعرفون اللغة العربية ولا يمكنهم التعبير عن مشاعرهم الا باللغة

المستعارة لغـة الحاكمين . وهذا الادب الجديد قد اثار معركة أدبية . واهتم بهذه المعركة المجلات والراديو الجزائري . وتدور هذه المعركة حول جنسية هذا الادب : هل يكون أدبا جزائريا ام يكون أدبا فرنسيا ؟ أم يكون ادبا مهجنا ؟ وتدور أيضا حول مصير هذا الادب . فالادباءالناطقون بالفرنسية يعتبرون بان المقياس للجنسية الادبية هو التعبير عن الـذات الحقيقية بصرف النظر عن جنسية الاديب . فقال « ابراهيم غافر » عن ادلاب الفرنسي اللغة : « ان المهم ان يؤدي الكاتب شهادته وأن يكتب باللغة التي سمحت له الظروف بان يتعلمها وأن يعبر عن الواقع الحي في بلاده ويلتقط الصور الناطقة في أصول بيئته ومجتمعه ، وأن تبقى شهـادة الكاتب وثيقة ثمينة يخلفها لمن بعده حتى يستمر الاديب في تأديـة واجبه المقدس ، وأنه ليس من العار أن يكتب الكاتب باللغة الفرنسية او غيرها ما دام يحسنها ويسخـرها طيعة أمينة » .

ويقول الادباء الناطقون بالفرنسية بأنهم عرب وبأن أدبهم عربـي فيقول مالك بن حداد : « نحن نكتب بلغة فرنسية لا بجنسية فرنسية » ويقول مراد بربون : « ان اللغة الفرنسية ليست ملكا خاصة للفرنسيين وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة ، بل ان ايـة لغة انما تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوعها للخلق الادبي ويعبر بها عن حقيقة ذاته القوميـة . وأما الناطقون بالعربية فيعدون الادب الناطق بالفرنسية دخيلا وقد نبـت في ظروف تاريخية غير شرعية . ويذهب فريق اخر الى أن هذا الادب لا بد من ان ينقطع أصله والى أن مصيره الزوال بزوال الاسباب التـي أنتجته . فما هو الا صورة لمرحلة من مراحل التاريخ ذات محن وذكريات أليمة . فالادب الجزائري قبل هذه المرحلة كان أدبا عربيا فلا بد ان يبقى عربيا وهم يريدون وصل الحاضر بالماضي وآمالهم هي آمال ابن باديس وجمعية العلماء في خلق ادب كامل لا يقتصر على التعبير عن الـذات القومية بل يتجاوز هذا النطاق الفني الخالص الى اتخـاذ اطار عربـي

تتجلى فيه الذات وتمارس قدراتها الفنية والجمالية (١) أضف الى ذلك أهمية اللغة في بناء كيان المجتمع ودورها في تفتح شخصية الانسان وتميزه وربطه باصالة ماضيه الحضاري وفي تفجير طاقاته ومواهبه . قال الاستاذ عبدالله كنون : « ان دور الأدب في قضية الوحدة العربية دور عظيم . فهو الذي يوحد مشاعر العرب ويربط بين قلوبهم برباط التعاطف ويوجههم الى الوجهة الكفيلة بتحقيق مطامعهم وبلوغ آمالهم في السيادة والحياة الكريمة . وقد كان للادباء العرب منذ فجر النهضة الاثر المحمود في اذكاء روح الحمية والحفاظ لدى شعوبهم والتنديد بالاستعمار والتدخل الاجنبي حتىانتهى الامر بتحرير البلاد العربية من السيطرة الاجنبية وما يزال الادب العربي يواصل عمله في معركة البناء ... »

اذا كان تاريخ الامة وحياتها المشتركة وحضارتها يمثل جسمها فان اللغة هي روحها . فالباحث الاجتماعي يستطيع من خلال اللغة فقط أن يستخلص عادات أمة من الامم وتقاليدها وجوانب الضعف وجوانب القوة فيها وبالتالي يستطيع ان يكتشف عبقريتها وحقيقتها . وفرنسا عندما ارادت أن تدمج الشخصية الجزائرية عمدت الى مقاومة اللغة العربية حتى تقضي عليها فتقضي بذلك على القومية . وهدف الشعب الجزائري من الثورة هو ألا يكون فرنسيا ، وأن يسترجع قوميته وسيادته وجميع مقومات شخصيته ، واللغة من تلك المقومات . فالتعريب اذا امر ضروري ولا نريد بذلكاقلاع الجذور الثابتة للغة الفرنسية و لااقصاءها . فمعرفة اللغات الاجنبية أمر ضروري ايضا في وقتنا الحاضر .

وعلى كل حال فان الادب الجزائري الفرنسي اللغة قد اهتم بتصوير ظلم الفرنسيين وارهابهم للوطنيين وقاوم التغريب والادماج وصور الفقر والبؤس والالم الذي عاش فيه الجزائري في ظل الاستعمار .

ظهر هذا الادب بعد الحرب العالمية الثانية وأبرز كتابه محمد الذئب ومولود معمري ومولود فرعون وكاتب ياسين ومالك حداد واسيا جبار .

---

١ ـ الرسالة عدد : ٩٢ السنة ٢٢ ـ ٢٢ نيسان ١٩٦٥ .

وقد تأثر اغلب هؤلاء الكتاب باحداث الاستعمار ومنهم كاتب ياسين الذي عاصر معركة سطيف (ايار ١٩٤٥ م) وشاهد ما وقع في اثنائها • وقصته (نجمة) تعد من ابرز نماذج الادب الجزائري الفرنسي اللغة • وحوادث هذه القصة تجري بجبل الناضور بعمالة قسنطينة حيث تسكن قبيلة عربية اندلسية تسمى (كمبلوت) فقد نشرت الحضارة الاندلسية الاسلامية حولها • فاحتلها الفرنسيون عام ١٨٧٠م • بعد مقاومة عنيفة استشهد فيها سبعة من مشايخ جبل الناضور من بينهم جدا كاتب ياسين• وهناك تبدأ المأساة التي تصور كيف صار الكاتب صعلوكا ، وكيف أصبح يتقن الفرنسية ويعبر شواريع باريس بعيدا عن أهله ولغة آبائه • وقد صور الكاتب قسنطينة في موقعها الرهيب على شواهق وادي الرمل ، وتحدث عن المرأة ومستواها الثقافي ، والعمال الجزائريين ، وحياة الفلاحين ، والمهاجرين ، الى فرنسا ، والطلبة ، وتأثير فرنسا في تلوينهم العقلي •

وبالجملة ، فان قصة (نجمة) تمثل لنا الشباب الجزائري الذي يعيش في بلاده عيشة المحروم المتشرد ازاء المستعمر الناعم السعيد •

الا ان هناك انفصالا بين اللغة الفرنسية والواقع وان اللغة الفرنسية لم تكن تعطي الكتاب الجزائريين العامل الذي يمكنهم من تسجيل الاحداث والتغلغل الى أعماق مشاعرهم النفسية (١) • ويقول البغدادي في هذا المعنى : يلاحظ كل من قرأ للكتاب الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي أن هناك غرابة وسوء جوار بين الاسلوب وبين حوادث القصة أو عاطفة القصيدة لان هذه العواطف وهذه الاخيلة خلقت لكي يعبر عنها باللغة العربية ، وابرازها بمنطق فرنسي يجعل اللفظ متضاربا مع صميم القصة ، خاصة اذا كانت مرتبطة بالمجتمع العربي الجزائري •

أجل ان الأدب الجزائري الصميم لا يؤدى الا بالعربية ، واذا أدي بغير العربية وقع الاديب في ازدواجية شخصية وفقدت القصة او القصيدة حياتها • » فالبغدادي يحط من قدر القصة الموضوعة بالفرنسية •

---

١ ــ الفكر والثقافة المعاصرة .

فماذا نقول ، يا ترى في القصة نفسها اذا ترجمت الى العربية ؟ فسامي الدروبي الكاتب السوري مترجم قصة محمد الذئب : « الدار الكبيرة » الى لغة الضاد يجيبنا فيقول « انني لا أرد الى الاثر شيئا مما كان يمكن ان يكون له من صدى ، لو كتب بالعربية وانما هو يفقد مزيته من ذلك الرواء ، فالاثر قد ضاع منه شيء مرتين مرة حين يكتب بالفرنسية ، ومرة حين ترجم عن الفرنسية » •

وقصارى القول ان الادب الفرنسي اللغة أدب وطني صادق ، صور كفاح الانسان المستعمر لكنه عجز عن الاداء الكامل للمشاعر العربية الانسانية ، وذلك للانفصال بين اللغة المعبرة والواقع • فان للغة علاقة كبيرة بالعقلية وبالجانب الوجداني والانفعالي من الانسان • فالاديب لا يفكر تفكيرا يتصل بالمشكلات الواقعية والاجتماعية الا اذا تكون في اطار قومي ، ولا يؤدي افكاره واحاسيسه تأدية خالصة صادقة الا باللغة القومية •

ولغتنا والحمد لله ، لغة حية تعادل اللغات الاخرى من حيث الامكانيات • فمن الضروري اذا أن يعطي الاديب الجزائري للغة القومية العربية المقام الاول وان يؤثرها على غيرها • فهكذا تكمل شخصيته وتصح وطنيته •

مالك بن نبي

ومن الشخصيات التي عرفتها الجزائر في هذا العصر شخصية مالك بن نبي •ولد بقسنطينة سنة ١٩٠٥ • ودرس القضاء في المعهد الاسلامي ثم التحق بالمعهد العالي للهندسة بباريس حيث تخرج مهندسا في الميكانيك الكهربائية • وقد اتصل بالمفكرين والباحثين والمستشرقين ، وعاش في صراع مع الاستعمار • ويبدو من خلال مؤلفاته أنه مفكر وكاتب وفيلسوف ، له طابع العالم الاجتماعي • أتاحت له ثقافته المزدوجة أن يجمع بين علم العرب وفكرهم المستمد من القرآن والسنة والفلسفة وبين علم الغرب وفكرهم المستمد من تراث اليونان والرومان والمسيحية •

وأصبح له من اطلاعه على أصول علم الاجتماع عند العرب من جهة وعند الغربيين من جهة اخرى آراء تتلخص في ان الانسانية مرت بأكبر تجربتين حضاريتين في التاريخ : التجربة الرومانية والتجربة الاسلامية . فالحضارة الاسلامية ألم بها ركود ، فتخطتها الحضارة الغربية التي اتصلت بالحضارة الرومانية وأخذت منها روحها الاستعمارية وتشربت مبادئها . فيرى مالك بن نبي ان العالم الاسلامي ليس مريضا بالتفرقة والجهل والاستعمار . فمرضه الحقيقي كامن في الذات الاسلامية ، وهذا المرض ليس الا القابلية الاستعمارية ، وهذه القابلية اسبابها الجوهرية اقتصادية واجتماعية . فما دام المسلم متخلفا اقتصاديا واجتماعيا فالقابليةالاستعمارية لا تفارقه .

زار مالك بن نبي مكة وأقام بالقاهرة وبدأ فيها عمله خلال سبع سنوات حيث أصدر عددا كبيرا من مؤلفاته واهمها :

شروط النهضة وفكرة الافريقية الاسيوية ، والظاهرة القرآنية ، ووجهة العالم الاسلامي ومشكلة الثقافة ، والصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، وتأملات في المجتمع العربي وفي مهب المعركة ، وميلاد مجتمع ...

وعاد مالك بن نبي الى بلاده ، وشارك في النهضة الجزائرية ، واسهم في تطبيق فلسفته في مجال اليقظة الفكرية الجديدة في البلاد .

الفصل العاشر

الخاتمـــــة

يثبت لنا التاريخ انه كان للجزائر البربرية مكانة لا بأس بها في الفكر والاجتماع والسياسة والعلوم والاداب والفنون ، ولكن آثارها الفكرية والادبية قد اندثرت .

وشاءت الاقدار ان دخل العرب هذه البلاد ، وكان لاتصالهم بأهلها الاثر المحمود . فاستطاع البربر ان يتعلموا العربية ، فظهر منهم بعد حين المفكرون والادباء . وهذا الادب الجديد قطع طرقا طويلة عسيرة متنوعة ملتوية ، متثاقلا مرة مستأنيا مرة اخرى مسرعا مرة ثالثة مسايرا كل عصر وطابعه ، حتى انتهى الينا مثقلا بهذا التراث العظيم المختلف .

طرق الشعراء جميع أغراض الشعر المعروفة عند اخوانهم العرب في المشرق والمغرب . فمدحوا وحفلت مدائح الملوك والامراء بذكر المعارك . وخصوا الوصف بعنايتهم ، فرسموا ما رأوا وصوروا ما شهدوا وبينوا ما احسوا ، وتغزلوا ولكنهم لم يتغزلوا بالغلمان كالاندلسيين . واشتهر شعراء فرسان يخوضون معامع القتال ويذكرون بلاءهم في مواقف الاهوال . ورثى الشاعر الجزائري الناس والاماكن . أما الهجاء فلم يكن له سوق رائجة كغيره . وظهر التصوف وطرقه الشعراء ، منهم من نظمه بدافع التقوى ومنهم من نظمه تقليدا لغيره . ومن العبث ان نبحث عن الشعر الخمري عند الجزائريين . فلم يتناولوا هذا الفن رغم اتصالهم الوثيق بالمشرق والاندلس . الا اننا نجد شيئا منه عند ابن رشيق الذي قضى معظم حياته خارج الجزائر في بيئة باذخة ، ونعثر عليه في شعر المتصوفين فهؤلاء قد رمزوا الى الخمر في أمداحهم . فالشعر الجزائري ، على العموم لا نلمس فيه مجونا ولا استهتارا .

وجددوا وحاولوا ان يحطموا الاطار القديم الذي كان يحيط بالقصيدة . فتعاطوا التشطير والتخميس ، ولكن لم يقدروا أن يأتوا على القصيدة . فبقيت هي هي .

وقد راجت سوق النثر ولا سيما في وقت الملوك . فقد ساعد على ازدهاره كتابة الرسائل والتأليف وعناية الحكام والامراء بالادب والادباء

وبالعلم والعلماء ، اذ كان كل منهم يفاخر الآخرين ، وكانوا يستوزرون أعاظم الكتاب والادباء .

الا ان الادب الجزائري كان في أعصر الملوك أرستقراطيا في معظمه ، نريد ان الادباء كانوا يؤثرون السادة والعظماء بما ينتجون . فكانوا لا يعيشون لادبهم وانما يعيشون بأدبهم ، كانوا يتخذون الادب ، وسيلة الى الحياة ، الى حياة لا تمتاز بالاستقلال . وهذه هي حالة جل ادباء العرب وقتئذ . فكان كل واحد منهم في حاجة الى حماية تكفل له ما يحب من العيش والمكانة ، ولا بد من (محسن) يغدق عليه ويحوطه بالرعاية والعناية . ومنذ تقوض العرش الزياني صار الادباء ثائرين على هذا النوع من الحياة ، مبغضين لهذا النوع من الادب ولهذه الطبقة الارستقراطية ، يؤثرون أنفسهم ويؤثرون الفن ويؤثرون الشعب .

ثم استولى الاستعمار على البلاد، وتسلط على حياة الشعب واستأثر لنفسه بالسلطان والثقافة ولم يشرك الشعب في قليل او كثير من هذا السلطان وهذه الثقافة ، بل كان هذا الشعب يكد ويشقى لتنعم تلك الطبقة الممتازة بالحكم والادب والفن والعلم . فسكت حينئذ الادباء ، بل عكفوا على انفسهم وفرغوا لها وجعلوا يبدأون ويعيدون فيما ورثوا من معاني القدماء ، لا يجددون شيئا لانهم لم يكونوا يصنعون شيئا . فرغوا لادب لا حياة فيه لانهم انفسهم لم يكونوا يحيون وانما كانوا مضطرين الى لون من الحياة يشبه الموت . فكانوا يعيشون مع الناس ويشاركون في الحياة الواقعة من حولهم . وهذه الحياة الواقعة كانت ابتعادا عن السياسة ولم تعتمد على الديمقراطية التي تعترف بحق الناس في الحرية والعدل والمساواة ، وانما كانت تحتفظ بهذا الحق للطبقة الممتازة من اوربيين وبرجوازيين ، اليها وحدها السلطان واليها وحدها الثقافة واليها وحدها كل ما يكون الرجل الحر بالمعنى الدقيق . فاضطر وقتئذ الادب الجزائري الى شيء من الوقوف والركود ، واستولى على الشعب الجهل حتى صار يعظم القبور ويتخذ بعض الموتى وبعض الاحياء

شفعاء عند الله • وما لبث ان النهضة التي قامت في الشرق العربي قد وصل صداها الى الجزائر • فطورت عقل الشعب ونبهته الى حقه • فلم يستطع الادباء والعلماء ان يبقوا ساكتين وان يمتنعوا عن المشاركة في الحياة الواقعة والتضامن مع الناس فيما كانوا يجدون من امل وشقاء • فبدأوا يدعون الى الاسلام الخالص النقي ويدعون الى الاسلام كما جاء به محمد (صلعم) خالصا لله وحده ملغيا لكل واسطة بين الله والناس فقام اصحاب الزوايا بحملة ضدهم • وهذه الخصومات بين اهل الحق وبين اهل البطل والضلال يسرت اللغة تيسيرا كبيرا ومنحت العقول حدة واستطاعت أن تشغل الجماهير وتعلمهم العناية بالامور العامة ، أحيت في النثر فن الهجاء والسياسة • والخطابة هي الاخرى تطورت بما يلائم العصر وطابعهوتنوعت لذلك أشكالها • فقد دعت الشعب للتشبث بالدين الصحيح البعيد عن الخرافات والى التأمل في الحياة والاخذ بتلابيب العلم وأسباب الرقي والتكتل للمقاومة وتحرير البلاد •

واندلعت الثورة واكرهت الادباء ان يشاركوا في السياسة مشاركة فعلية عنيفة • لم يتخلف شاعر او كاتب او خاطب ومفهوم الادب قد تطور ودفعه الى هذا التطور في شكله وفي موضوعه تلك المقاومة العنيفة • فأصبح الادباء ألسنة لهذا الشعب يعبرون عن نفسه اكثر مما يعبرون عن أنفسهم ويصورون حياته اكثر مما يصورون حياتهم أنفسهم • فأصبحوا مرآة للشعب ينطقون بلسانه ويصورون آلامه وآماله • فنلاحظ أن أدبنا اليوم واقعي ، وأن حياتنا الواقعة شعبية لا يستأثر بها فريق من الناس دون فريق • فأدبنا الحديث شعبي لا ينشئه قوم ممتازون لقوم ممتازين • والحياة الواقعة القيمة في وقت الملوك والاغاوات والقواد كانت ارستقراطية قد استتبعت أدبا يشبهها • فالأدب متصل دائما بالحياة الواقعة • فاذا أصبحت هذه الحياة الواقعة شعبية فليس للأدب بد من أن يكون شعبيا أيضا •

فالأدباء الآن أحرار يأتون بشعر ونثر كما يريدون وكما يريد الفن•

نلمس في أدبهم الصدق والدقة والانسانية • ولا شك أن أدباءنا لن يكتفوا بما أخذوا من الحرية والاستقلال فسيمعنون فيهما حتى يرتفعوا عن كل رقابة ، فهم قوام الحياة الادبية وهم هداة الناس وقادتهم الى الحق والخير والجمال • وكل ما نطلب منهم هو أن يحتفظ أدبنا بشخصيته ويحرص على مقوماته ويحسن الموازنة بين الثبات والاستقرار وعناصر التحول والتطور • نريد أن يكون أدبنا واقعيا حيا هدفه الدائم الوصول الى المستوى العالي في الحقل الادبي العربي الحديث • فان الادب لمن افضل ما قد تعتمد عليه بلادنا الثائرة في بناء المستقبل وتحقيق ما تصبـــو اليه من عز ورخـاء وازدهار •

المراجع

ابن رشيق	عبد الرؤوف مخلوف
اخبار الأئمة الرستميين	ابن الصغير
المهدي بن تومرت	البيـــذق
اخبار ملوك بني عبيد	ابن حماد الصنهاجي
الآثار الباقية عن القرون الخالية	احمد البيروني
الاحاطة في أخبار غرناطة	لسان الدين بن الخطيب
الأدب المغربي	محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي
البستان في ذكر الأولياء والعلمــاء بتلمسان	ابن مريم
البيان المغرب	ابن عذاري المراكشي
التاريخ العام	عبد الرحمن الجلالي
التأريخ السياسي	حسن ابراهيم حسن
الثورة في الأدب الجزائري	صالح مؤيد
الجزائر الثائرة	الفضيل الورتلاني
الجزائر في مرآة التاريخ	عبدالله شريط ومحمد الميلي
الحصري	احمد المرزوقـــي والجيلانـــي بن الحاج يحيى
الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة	ابن بسام الشنتريني
الرحلة المغربية	محمد العبدري
الضوء اللامع	السخاوي
الظاهرة القرآنية	مالك بن النبي
العقود	المقريزي
العمدة	ابن رشيق
الفكر والثقافة المعاصرة	انور الجندي
الفن ومذاهبه في الشعر العربي	شوقي ضيف
الكامــل	ابن الأثير (ابو الحسن)
اللهب المقدس	مفدي زكريا
المسلمون في جزيرة صقلية	احمد توفيق المدني
المسند الصحيح الحسن في محاسن مولانا ابي الحسن	ابن مرزوق الخطيب
المعجب في تلخيص اخبار المغرب	عبد الواحد المراكشي
المعيــار	احمد الونشريسي
المقدمــة	عبد الرحمن بن خلدون
الموشحات الأندلسية	مناهل الأدب العربي رقم ١٨
الموطــأ	الامام مالك

بساط العقيق في تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق	حسن حسني عبد الوهاب
بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبدالواد	ابو زكريا يحيى بن خلدون
بغية الوعاة	السيوطي ص : ٢٢٠
تأريخ الجزائر	مبارك الميلي
تأريخ الجزائر	احمد توفيق المدني
تحفة الزائر	الامير محمد
دراسات في الشعر الجزائري الحديث	عبدالله الركيبي
دواوين ابي نواس وابي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي وابن المعتز	
ديوان عبد القادر الجزائري	ممدوح حقي
ديوان	محمد العيد
ذكر العاقل وتنبيه الغافل	الامير عبد القادر
روايات ديب ومعمري ومولود فرعون وكاتب ياسين	
زاد المسافر	ابن ادريس التجيبي
زهر الرياض	المقري
شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلي ج ٣ ص ٢٩٧
شعراء الجزائر في العصر الحاضر	الزاهري
ظهر الاسلام	احمد امين
عصر المنصور الموحدي	محمد رشيد مولين
عيون البصائر	محمد البشير الابراهيمي
عيون الدراية في تراجم علماء بجاية	الغبريني
قصة الاندلس	محمد عبد المنعم خفاجة
كتاب العبر	عبد الرحمن بن خلدون
كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم	احمد المقدسي
محمد العيد آل خليفة	ابو القاسم سعدالله
معجم الأباء	ياقوت
معجم البلدان	ياقوت
مفتاح الاصول الى بناء الفروع على الاصول	الشريف التلمساني
نبذ تأريخية	لفي بروفنصال
نفح الطيب	المقري
هذه هي الجزائر	احمد توفيق المدني
همسات وصرخات	محمد الاخضر السائحي
وجه العالم الاسلامي	مالك بن نبي
ورقات	حسن حسني عبد الوهاب
وفيات الاعيان	ابن خلكان ج ١ ص ٣١١

المجلات والصحف :

الآداب

البصائر

الرسالة
السلام
الشهاب
المعرفة
المقتطف

مراجع اجنبية

ابن خلدون : فلسفته الاجتماعية	G. Bouthoul
الاسلام والغرب	Cahiers du Sud
الجزائر وحضارتها	L. Didier
المغرب الاوسط في عهد الزيريين	L. Golvin
بلاد البربر	L. Guernier
تأريخ افريقية الشمالية	Ch. A. Julien
تأريخ الجزائر وآثارات الجزائر القديمة	S. Gsell
تلمسان	L'Abbé Barges
حضارات افريقية الشمالية وآثارات المغرب الاسلامية : الجزائر	Victor Piquet
ضريح الحفرة البونيقية بقسنطينة	André Berthier et L'Abbé Rene Charlier
ماضي افريقية الشمالية	E. F. Gautier
مشكل البربر	Ely Le Blanc

رقم النشر

170 / 69

Histoire de la littérature algérienne

Mohamed Benamar ETTAMAR